

الشعر في قبيلتي الأوس والخزرج في الجاهلية وصدر الإسلام  
(دراسة موضوعية وفنية)

إعداد  
غالب إبراهيم شريم

المشرف  
الدكتور ياسين عايش

المشرف المشارك  
الدكتور حمدي منصور

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في  
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا  
الجامعة الأردنية

نيسان ، ٢٠٠٧

## قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الأطروحة (الشعر في قبيلتي الأوس والخزرج في الجاهلية وصدر الإسلام : دراسة موضوعية وفنية) وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٧/٤/٣ م .

### أعضاء لجنة المناقشة

### التوقيعات

الدكتور ياسين عايش ، مشرفا  
أستاذ الأدب العباسي - اللغة العربية

الدكتور حمدي منصور ، مشرفا مشاركا  
أستاذ الأدب الجاهلي والإسلامي - اللغة العربية

الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبد المهدي ، عضوا  
أستاذ الأدب العباسي والفاطمي  
والأيوبي والمملوكي - اللغة العربية

الأستاذ الدكتور صلاح جرار ، عضوا  
أستاذ الأدب الأندلسي - اللغة العربية

الأستاذ الدكتور عبدالحميد المعيني ، عضوا  
أستاذ الأدب الجاهلي - اللغة العربية (جامعة اليرموك)

## إهداء

إلى وجه الله خالصاً عسى أن يتقبل منّي  
 وإلى والدتي التي ببركة دعائها وقّفتني الله لهذا  
 وإلى روح والدي الذي تمنى أن يشهد هذه اللحظة  
 وإلى زوجتي بما صبرت وتحملت  
 وإلى بني إبراهيم ورهام ولمي وماريّة وشيماء وصبا  
 وإلى إخوتي وأخواتي المنتظرين دوماً

أهدي هذا العمل

## شكر وتقدير

أتقدم بعظيم الشكر أزوجيه وافرا لأستاذي الدكتور ياسين عايش المشرف على هذه الرسالة ، وأستاذي الدكتور حمدي منصور المشرف المشارك في هذه الرسالة ، على ما قدماء لي من عون وإرشاد دائبين كان لهما الأثر البين في إخراج هذه الدراسة ، وعلى حلمهما وأناتهما ، وعلى كل ما أولياني من عناية واهتمام .

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى أساتذتي الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة : الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي ، والأستاذ الدكتور صلاح جرار ، والأستاذ الدكتور عبد الحميد المعيني ، على ما تفضلوا به عليّ في مناقشة هذه الأطروحة وإغنائها بملاحظاتهم القيمة .

وأوجّه شكري خالصا إلى أساتذتي جميعا في قسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة الأردنية ، لما كان لهم من فضل في كل ما قدموه لنا من علم ، ولأياديهم البيضاء عليّ وعلى زملائي .

## فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ب	قرار لجنة المناقشة
ج	إهداء
د	شكر وتقدير
هـ	فهرس المحتويات
ز	قائمة الجداول
ح	قائمة الأشكال
ط	الملخص باللغة العربية
١	المقدمة
	الفصل الأول
٨	تعريف بالأوس والخزرج
٩	- نسب الأوس والخزرج
٢٠	- أماكن الأوس والخزرج
٣٠	- أيام الأوس والخزرج
٤٤	الشعر في الأوس والخزرج
٤٤	- صورة عامة للشعر والشعراء في قبيلتي الأوس والخزرج
٤٩	- مصادر شعر الأوس والخزرج
٦٣	- مقارنة بين الأوس والخزرج في مقدار الشعر
٦٤	- القيمة التاريخية والأدبية واللغوية لشعر الأوس والخزرج
	الفصل الثاني
٦٨	الدراسة الموضوعية
٦٨	موضوعات شعر الأوس والخزرج
٦٨	أولاً : موضوعات شعر الأوس والخزرج في العصر الجاهلي
٦٩	١ - العصبية القبيلة
٧٠	مظاهر العصبية القبيلة في شعر الأوس والخزرج
٧٠	أ. أيام الأوس والخزرج
٨٠	ب. الثأر

- ٨٤ ج. الفخر القبلي
- ٩٨ د. لوم الشاعر وهجاؤه من يفسد أمر القبيلة
- ١٠٢ ٢ - علاقة الأوس والخزرج باليهود في يثرب
- ١١٤ ٣ - موضوعات أخرى في شعر الأوس والخزرج
- ١١٤ أ. الخمر
- ١٢٦ ب. الميسر
- ١٢٨ ج. المرأة
- ١٣٧ د. الموت
- ١٤٤ ثانيا : موضوعات شعر الأوس والخزرج في صدر الإسلام
- ١٤٦ ١ - موضوعات شعر الأوس والخزرج في عصر الرسول ﷺ
- ١٤٦ أ. الدفاع عن الإسلام ونصرة النبي ﷺ ووصف غزواته
- ١٦٦ ب. الرثاء
- ١٧٥ ج. موقفهم الجديد من العصبية القبلية
- ١٧٩ ٢ - موضوعات شعر الأوس والخزرج في عصر الخلفاء الراشدين
- ١٨٠ أ. موقفهم من الخلافة
- ١٨٨ ب. موقفهم من فتنة عثمان بن عفان ومقتله
- ١٩٥ ج. موقفهم من حرب علي ومعاوية

### الفصل الثالث

#### الدراسة الفنية

- ١٩٩ ١ - بناء القصيدة
- ٢٠٠ ٢ - الوزن والقافية
- ٢١٣ ٣ - الألفاظ والتراكيب
- ٢٣٤ ٤ - المعاني
- ٢٤٥ أ. معانيهم الجاهلية
- ٢٤٥ ب. معانيهم الإسلامية
- ٢٦٧

### الخاتمة

- ٢٨٥ المصادر والمراجع
- ٢٩٤ الملخص باللغة الإنجليزية

## قائمة الجداول

رقم الجدول	عنوان الجدول	الصفحة
١	نسب الأزد	١٧
٢	نسب الأوس	١٨
٣	نسب الخزرج	١٩
٤	شعراء قبيلة الأوس الجاهليون الذين جمع داود غطاشة شعرهم	٥١
٥	شعراء قبيلة الخزرج الجاهليون الذين جمع داود غطاشة شعرهم	٥٢
٦	شعراء جاهليون من قبيلة الخزرج لم يجد لهم داود غطاشة شعرا وأخران خارج نطاق دراسته	٥٣
٧	شعراء مخضرمون في قبيلة الخزرج لم يجمع داود غطاشة شعرهم	٥٥
٨	شعراء مخضرمون في قبيلة الأوس لم يجمع داود غطاشة شعرهم	٥٥
٩	دواوين شعراء الأوس والخزرج	٦٢
١٠	عدد القصائد في شعر الأوس والخزرج ومعدل عدد الأبيات فيها	٢٠١
١١	قصائد شعراء الأوس والخزرج ذوات المقدمات الطللية	٢٠٤
١٢	بحور الشعر التي نظم عليها شعراء الأوس والخزرج	٢١٤
١٣	حروف الروي التي نظم عليها شعراء الأوس والخزرج	٢١٥
١٤	البحور التي نظم عليها شعراء الأوس والخزرج مرتبة تنازليا	٢١٦
١٥	حروف الروي التي نظم عليها شعراء الأوس والخزرج مرتبة تنازليا	٢٢٥
١٦	القطع الشعرية المتأثرة في معانيها بآيات من القرآن الكريم (في ديوان كعب بن مالك ، تحقيق : مجيد طراد)	٢٧٤
١٧	المعاني المقذعة في شعر حسان بن ثابت بعد إسلامه .	٢٧٨

## قائمة الأشكال

رقم الشكل	عنوان الشكل	الصفحة
١	خريطة الجزيرة العربية قبل الإسلام .	٢٥
٢	خريطة الجزيرة العربية في العصر النبوي (المدن والقبائل) .	٢٦
٣	خريطة تبين موقع قبيلتي الأوس والخزرج من القبائل العربية .	٢٧
٤	خريطة المدينة المنورة عند هجرة الرسول ﷺ (مواقع وقبائل) .	٢٨
٥	خريطة تبين منازل بطون الأوس والخزرج في المدينة المنورة .	٢٩



## الشعر في قبيلتي الأوس والخزرج في الجاهلية وصدر الإسلام (دراسة موضوعية وفنية)

إعداد

غالب إبراهيم علي شريم

المشرف

الدكتور ياسين يوسف عايش

المشرف المشارك

الدكتور حمدي محمود منصور

### ملخص

تناولت هذه الدراسة موضوع " الشعر في قبيلتي الأوس والخزرج في الجاهلية وصدر الإسلام (دراسة موضوعية وفنية) . والأوس والخزرج قبيلتان ترجعان في نسبهما إلى قبيلة الأزد العربية التي سكنت اليمن ، ثم رحلت بعض بطونها من اليمن ، ونزل الأوس والخزرج "يثرب" . وقد غلب على هاتين القبيلتين في الإسلام اسم " الأنصار " ، لنصرتهم النبي ﷺ عند هجرته من مكة إلى المدينة .

وقد كان لهاتين القبيلتين دور كبير في الأحداث والحروب - وخاصة الحروب الداخلية بينهما - في الجاهلية ، أما في الإسلام فقد لعبت كلتاها دورا هاما في إيواء المسلمين المهاجرين من مكة إلى المدينة ، وخوض الحروب نصرة للرسول ﷺ ودينه ، وتسخير الشعر للدفاع عن الدعوة وصاحبها عليه السلام .

كل ذلك أفرز شعرا متميزا شكلا ومضمونا قد خلد الأحداث بزمانيها : الجاهلي والإسلامي ، وأفرز موضوعات شعرية مختلفة نجمت عن تلك الأحداث ، وألبسها بناء فنيا شكلا ملحظا بارزا ومعلما لشعر تلك القبيلتين .

وقد تناولت الدراسة في جانبها الموضوعي عناصر شتى تتعلق بهاتين القبيلتين وبشعرهما مثل : نسبهما ، ومواطنيهما ، وأهم أيامهما ، ودورهما في الإسلام ، والشعر فيهما

من حيث مقداره ، وموضوعاته . أما في جانبها الفني فقد وقفت على تبين بناء القصيدة عند شعراء هاتين القبيلتين ، والخصائص الفنية لشعرهما من حيث اللغة والأسلوب والوزن والروي ، ومظاهر التقليد والتجديد في المعاني لديهما .

وقد جعلت هذه الدراسة في ثلاثة فصول ، تناولت في **الفصل الأول** نسب الأوس والخزرج وبينت أشهر بطونهما ، وجعلت خلاصة ذلك ثلاثة جداول أوجزت فيها نسبهما من لدن جذمهما قحطان ، مروراً بقبيلة الأزد ، القبيلة الأم للأوس والخزرج ، وانتهاءً بأشهر فروعهما . كما تناول الحديث في هذا الفصل الموطن الرئيس لهذه القبيلة ، وهو يثرب أو المدينة المنورة ، فبينت أشهر معالمها ، وأشهر مواقع الأوس والخزرج فيها ، وأثبت لهما خمس خرائط حديثة تبين أماكن سكناهما من العصر الجاهلي حتى صدر الإسلام . وتحدثت في هذا الفصل عن أشهر الحروب (الأيام) التي جرت بين هاتين القبيلتين في الجاهلية .

وتناولت في **الفصل الثاني** " الشعر في الأوس والخزرج " ، فتحدثت عن هذا الشعر من حيث مصادره ، ومقاديره ، وقيمه التاريخية .

وخصصت **الفصل الثالث** للدراسة الموضوعية التي تناولت أشهر موضوعات العصر الجاهلي كالعصبية القبلية ، وعلاقة الأوس والخزرج باليهود ، كما تناولت موضوعات أخرى في شعرهم مثل الخمر والميسر والموت والمرأة . كما تناولت الدراسة الموضوعية أشهر موضوعات عصر صدر الإسلام كالدفاع عن الإسلام والرياء بأنواعه ، وموقف شعراء الأوس والخزرج من الخلافة ، وغير ذلك .

أما **الفصل الرابع** فجعلته للدراسة الفنية التي تناولت بناء القصيدة في شعر الأوس والخزرج في الجاهلية والإسلام ، وأوزان الشعر وحروف الروي ، وألفاظ هذا الشعر ومعانيه ، ومظاهر التقليد والتجديد في هذه المعاني . وقد تفاوتت هذه الفصول طولاً وقصراً بحسب ما اقتضته طبيعة كل فصل من الموضوعات التي تضمنها .

وقد حاولت هذه الدراسة أن تجمع بين أكثر من منهج في تناولها شعر الأوس والخزرج ، فاستخدمت المنهج التاريخي لتتبع بعض الظواهر عن طريق الأحداث التي أثبتتها المؤرخون لتفسيرها والكشف عن العوامل التي أدت إليها ، كما فعلت عند تناول مقتل عثمان ، وحرب علي ومعاوية . واستخدمت المنهج الاجتماعي لتبيين انعكاسات المجتمع في النصوص الشعرية لهاتين القبيلتين في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام ، والكشف عن مواقف شعرائهما من قضاياهما ، وتجليه جوانب من الصراعات المختلفة ، سواء تلك التي كانت مع القبائل ، أم

الصراعات الداخلية التي كانت في ما بينهما ، أم تلك التي كانت بينهما وبين يهود ، أم التي كانت في الإسلام نصره للدعوة ولصاحبها ﷺ.

كما استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي والمنهج الإحصائي في وصف بعض الظواهر للوصول إلى تحديد الأسباب والعوامل التي تتحكم فيها واستخلاص النتائج منها ، من خلال تجميع البيانات الإحصائية وتنظيمها وتحليلها كما فعلت في الدراسة الفنية لشعر هاتين القبيلتين .

## مقدمة

بدأتُ تعرّف فكرة دراسة شعر القبائل إبّانَ دراستي في الجامعة الأردنية في مرحلة الشهادة الجامعية الثانية ( الماجستير ) . وكنت أدركت فكرة مثل هذه الدراسات حين كتبت رسالتي في الماجستير في " حركة الشعر في بني كلاب في العصر الجاهلي " التي أشرف عليها الدكتور هاشم ياغي. وقد أفرزت هذه الفكرة دراسات كثيرة في الجامعة الأردنية أشرف عليها جميعها الدكتور هاشم ياغي ، وكان في أحيان كثيرة هو الذي يقترح عناوين مثل تلك الدراسات على طلبته .

وما أن انتهيتُ من تلك الرسالة حتى اكتملت صورة درُس شعر القبائل في ذهني . وقد دأبتُ منذ سنوات - وأنا خارج الأردن - أبحثُ في الدراسات التي تناولت شعر القبائل خارج الجامعة الأردنية ، لعلّي أعرّ على ما يصلح أن يكون عنوانا لدراستي في مرحلة الدكتوراه قبل أن ألتحق بها ، فعثرت على عنوانات عدد يسير منها ، غير أنني لم أجد من بين تلك الدراسات ما تناولت هاتين القبيلتين على نحو ما جاء في هذه الدراسة ، فعقدت النية على دراسة شعرهما من أجل مجموعة من الأسباب منها : أهمية هاتين القبيلتين وأثرهما العظيم في الإسلام ونصرة نبيه ﷺ ، وما لهما من خصوصية في الإسلام لم تتوافر لغيرهما من القبائل ، ومن الدوافع كذلك أنني عشت في موطن هاتين القبيلتين - أعني في المدينة المنورة - مدة أربع سنوات حين درست في الجامعة الإسلامية في المرحلة الجامعية الأولى ، وتعرفت كثيرا من المعالم والآثار القديمة لهذه المدينة التي مازالت ماثلة حتى الآن تشهد على ما كان لقبيلتي الأوس والخزرج فيها من حياة في الجاهلية والإسلام .

وقد عرضت الموضوع على أستاذيّ الفاضلين الدكتور ياسين عايش والدكتور حمدي منصور فأقرّاني عليه . وكانت النية أن أجمع شعر هاتين القبيلتين في العصر الجاهلي ، ثم أقوم بدراسته ، غير أن أستاذيّ الدكتور حمدي منصور ذكر لي أن شعرهما ربما يكون مجموعا ، وكان الأمر كما قال ، فقد قام داود غطاشة بجمع شعر الأوس والخزرج الجاهلي في ما جمع من أشعار القبائل ، وكان جمع شعر ست وأربعين قبيلة في أطروحة جامعية (دكتوراه) في الجامعة الأردنية، أشرف عليها هاشم ياغي سنة (١٩٨٦) بعنوان : "حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة" . أما شعر الأوس والخزرج في الإسلام فقد حُفظ جلّه لنا بما وصل إلينا من دواوينهم كديوان حسان بن ثابت ، وبما جمع الباحثون من هذه الدواوين كديوان عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك . ونجد شعرهم الإسلامي - فضلا عن ذلك - ماثلا لنا في عدد من

الاختيارات الشعرية كالمفضليات والأصمعيات والحماسة ومنتهى الطلب ، وفي كتب السير والتاريخ والأدب وغيرها .

وعلى ذلك فقد اقتصرنا خطة هذه الأطروحة على دراسة شعر هاتين القبيلتين في الجاهلية والإسلام دراسة موضوعية وفنية ، فاستوى عنوان الأطروحة : " الشعر في قبيلتي الأوس والخزرج في الجاهلية وصدر الإسلام : دراسة موضوعية وفنية " .

والأوس والخزرج قبيلتان ترجعان في نسبهما إلى قبيلة الأزد العربية التي سكنت اليمن ثم رحلت بعض بطونها من اليمن ، فنزلت الأوس والخزرج "يثرب" . وقد غلب عليهما في الإسلام اسم " الأنصار " مع أن بعضهما سكن عُمانَ ولم يكن من "الأنصار" . وقد كان لهاتين القبيلتين دور كبير في الأحداث والحروب - وخاصة الحروب الداخلية بينهما - في الجاهلية ، أما في الإسلام فقد لعبت كلتا دورا هاما في إيواء المسلمين المهاجرين من مكة إلى المدينة ، وخوض الحروب نصره للرسول ﷺ ودينه ، وفي تسخير الشعر للدفاع عن الدعوة وصاحبها ﷺ . كل ذلك أفرز شعرا متميزا شكلا ومضمونا قد خلد الأحداث بزمنيتها : الجاهلي والإسلامي ، وأفرز موضوعات شعرية مختلفة نجمت عن تلك الأحداث ، وألبسها بناء فنيا شكلا ملحظا بارزا ومعلما لشعر تلك القبيلتين .

وإن يكن شعر الحرب في الجاهلية هو المميز الأظهر لهاتين القبيلتين ، إلا أن الشعر فيهما قد اتخذ مسارب أخرى تمثلت في التعبير عن الهموم الخاصة للفرد وقبيلته ، أما في الإسلام فقد عبر الشعر فيهما عن موضوعات تختلف عما كان في العصر الجاهلي ، وبهذا يكون شعرهما قد جاء منتظما لجل موضوعات العصر الجاهلي وموضوعات عصر صدر الإسلام .

ولقبيلتي الأوس والخزرج ديوان شعر أشار إليه الأمازي في كتابه "المؤتلف والمختلف" ضمن دواوين القبائل التي ذكرها ، وكذا أشار إلى ديوان أشعارهما ابن النديم في الفهرست . وقد ضاعت تلك الدواوين كلها ولم يصل إلينا منها سوى ديوان هذيل ، وتلك القصائد والمقطعات والأبيات المفردة التي حفلت بها مصادر التراث العربي على اختلاف أنواعها ، لذا ، فقد اتجه عدد من الباحثين إلى بعض تلك القبائل فجمع شعرها من مظائنه ، وهو شعر لا يشكل إلا القليل مما فُقد وأُتت عليه الأيام ، لكن تلك الفكرة ، والنهج الذي سلك في سبيل تحقيقها حرّيان كلاهما أن يُتبع .

وقد أصحبت الدراسات التي تناولت شعر القبائل في تزايد ، وما هذه الدراسة - وما يجيء على شاكلتها - إلا تنمة لتلك الفكرة ، علّا ذلك التناول أن يعوض - ولو يسيرا - عما خفي أو ضاع من تراث العرب الشعري عبر الأزمان المتتالية .

وبالنظر في مصادر التراث العربي نرى قدراً هائلاً من الأشعار لشعراء مقلين أو مغمورين أو شعراء ضاع معظم شعرهم ، وظل هذا الشعر حبيس مصادر التراث المختلفة لا سبيل للاطلاع عليه ، ولا يمكن لدراسة أن تستقل بأحدهم نظراً لقلة ما وصل إلينا من شعره ، مع ملاحظة أن شعرهم - على قلته - يشكل لبنة مهمة في الشعر العربي لها حقُّ التناول والدرس كغيرها .

إن في دراسة قبيلة بشعرائها كاملة من جوانبها المختلفة إضاءةً لجوانب في هذه القبيلة وفضل معرفة وشمولية لم يكن ليجليها التناول الجزئي لغرض شعري أو لشاعر في هذه القبيلة أو تلك ، فشعراء القبيلة الواحدة تصدر رؤيتهم عن الرؤية المشتركة للقبيلة ، وتتنظم أغراضهم في صعيد واحد لخدمة القبيلة ونظرتها و الفكرة التي تتبناها ، وعليه فإن الدرس العام لشعرهم مجتمعاً هو الذي يعطي المفهوم الدقيق لشريحة كبيرة من مجتمعهم ذلك ، ويرسم صورة أوضح وأشمل لنشاط ذلك المجتمع الشعري من خلال القراءة المتأنية للشعر موضوعياً وفنياً ، وهو ما سنقوم به هذه الدراسة .

وإذا نظرنا في دراسة داود غطاشة وجدنا أن الباحث قد جمع شعر الأوس والخزرج في **العصر الجاهلي** ضمن أشعار القبائل اليمنية التي بلغت ستاً وأربعين قبيلة ، وعليه فدراسته ليست خاصة بالأوس والخزرج من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد اتصفت بالعمومية في تناولها لهاتين القبيلتين من خلال تناول هذا الكم الكبير من القبائل ، فقد تحدث الباحث عن نسب الأوس والخزرج ببضعة أسطر ، وعن موطنهما بسطرين ، واكتفى بتعداد أيامهما في صفحة أو يزيد دون توضيح لهذا الأيام أو مجريات الأحداث فيها وما أفرزته من شعر . أما صلب دراسة الباحث للقبائل اليمنية فنجد تناولاً لبعض شعر الأوس والخزرج في العصر الجاهلي شاهداً على ما يريد الباحث في معرض حديثه عن القبائل اليمنية.

مما سبق من عرض لدراسة داود غطاشة نخلص إلى أن تلك الدراسة قد مرت مروراً سريعاً بشعر الأوس والخزرج في العصر الجاهلي ، ولم تنفرد به ، مما جعل جوانب كبيرة من شعرهم خارج نطاق الدرس . وإن تكن هذه الدراسة ستتقاطع مع دراسة شعراليمنيين السابقة في جوانب عامة من العصر الجاهلي ، فإنها تفتقر عنها في ما ستقوم به من توفّر على شعر الأوس والخزرج في **العصر الجاهلي وعصر الإسلام** معاً ، بحيث تجعله وكّدها لا تجاوزه ، فتعرض للقبيلتين وشعرهما موضوعياً وفنياً ، وتقف على ذلك كله وقفة متأنية ، وتكشف عن جوانب كانت غفلاً أو غير موقّية الدرس .

وفضلاً عن دراسة داود غطاشة الآنفه ، فإن هناك دراسة أخرى خاصة بالأوس والخزرج بعنوان : "شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج" للدكتور محمد العيد الخطراوي نشرتها مؤسسة علوم القرآن ودار القلم بدمشق سنة ١٩٨١.

وقد اقتصرنا تلك الدراسة على غرض واحد لم تجاوزه هو شعر الحرب في العصر الجاهلي ، وقدمت لذلك بتعريف للقبيلتين وخُتِمت ببيان خصائص شعر الحرب عندهما.

وقد عمد بعض الباحثين إلى ديوان هذيل فدرسه ، مما شجع الباحثين في الجامعات العربية على جمع أشعار أخرى للقبائل ودراستها . ومن هذه الجهود في الجامعة الأردنية محاولات جاءت جادة في رسائل جامعية أشرف عليها هاشم ياغي منها :

- داود إبراهيم غطاشة ، حركة الشعر في قبيلة غني حتى نهاية العصر الأموي ١٩٧٨ م (ماجستير).

- ختام سعيد سليمان ، حركة الشعر في قبيلة ذبيان في العصر الجاهلي ، ١٩٧٩ م (ماجستير).

- محمود أحمد إسماعيل ، حركة الشعر في بني يشكر حتى نهاية العصر الأموي ، ١٩٨٠ م (ماجستير).

- داود إبراهيم غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ١٩٨٦ م (دكتوراه).

- د.حمدي منصور ناجي ، حركة الشعر في قبيلة ضبة في الجاهلية والإسلام ، ١٩٩٠ (دكتوراه).

- معاوية فوزي جرادات ، حركة الشعر في قبيلة عُقَيْل من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ، ١٩٩٣ م (ماجستير) .

وقد انصب معظم هذه الدراسات على تبين شخصية تلك القبائل ، وتبين الاتجاهات الشعرية والهموم العامة والخاصة التي يعانيتها شعراء هذه القبائل ، ومدى تفاعلهم مع البيئة المحيطة بهم ، وتوضيح مواقف تلك القبائل من أشهر الأحداث في الجاهلية والإسلام ، ومشاركتها في الأيام ، ودور الشعر والشعراء في تلك الأحداث . كما بحثت تلك الدراسات في شكل القصيدة ، وأهم سمات بنائها الفني ، ودرست جوانب من لهجات القبائل ، وبعض ملامح هذه اللهجات في الشعر . وتساعد الدراسات السابقة هذه الدراسة في تبين المنهجية المتبعة في تناول وإضاءة جوانب البحث وتعرف عناصره ، كما تستفيد هذه الدراسة من مصادر تلك الدراسات ومراجعتها ، وهي مصادر ومراجع مشتركة بين شعر القبائل في الغالب .

وقد حاولت هذه الدراسة أن تجمع بين أكثر من منهج في تناولها شعر الأوس والخزرج ، فاستخدمت المنهج التاريخي لتتبع بعض الظواهر عن طريق الأحداث التي أثبتتها المؤرخون لتفسيرها والكشف عن العوامل التي أدت إليها ، كما فعلت عند تناول مقتل عثمان ، وحرب علي ومعاوية. واستخدمت المنهج الاجتماعي لتبيين انعكاسات المجتمع في النصوص الشعرية لهاتين القبيلتين في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام ، والكشف عن مواقف شعرائهما من قضاياهما ، وتجليه جوانب من الصراعات المختلفة خارج نطاق القبيلتين ، سواء أكانت مع القبائل ، أم الصراعات الداخلية التي كانت في ما بينهما ، أم تلك التي كانت بينهما وبين يهود ، أم التي كانت في الإسلام نصرة للدعوة ولصاحبها ﷺ .

كما استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي والمنهج الإحصائي في وصف بعض الظواهر للوصول إلى تحديد الأسباب والعوامل التي تتحكم فيها واستخلاص النتائج منها ، من خلال تجميع البيانات الإحصائية وتنظيمها وتحليلها كما فعلت في الدراسة الفنية لشعر هاتين القبيلتين .

وتناولت الدراسة في جانبها الموضوعي عناصر شتى تتعلق بهاتين القبيلتين وبشعرهما مثل : نسبهما ، ومواطنهما ، وأهم أيامهما ، ودورهما في الإسلام ، والشعر فيهما من حيث كمّه ، وموضوعاته . أما في جانبها الفني فوفقت على تبين بناء القصيدة عند شعراء هاتين القبيلتين ، والخصائص الفنية لشعرهما من حيث اللغة والأسلوب والوزن والروي ، ومظاهر التقليد والتجديد في المعاني لديهما.

من كل ما سبق من معطيات رأيت من المناسب أن أجعل هذه الدراسة في أربعة فصول ، تناولت في **الفصل الأول** نسب الأوس والخزرج وبيئت أشهر بطونهما ، وجعلت خلاصة ذلك ثلاثة جداول أوجزت فيها نسبهما من لدن جذمهما قحطان ، مروراً بقبيلة الأزد ، القبيلة الأم للأوس والخزرج ، وانتهاءً بأشهر فروعهما . كما تناول الحديث في هذا الفصل الموطن الرئيس لهذه القبيلة ، وهو يثرب أو المدينة المنورة ، فبينت أشهر معالمها ، وأشهر مواقع الأوس والخزرج فيها ، وأثبت لهما خمس خرائط حديثة تبين أماكن سكناهما من العصر الجاهلي حتى صدر الإسلام . وتحدثت أيضاً عن أشهر الحروب (الأيام) التي جرت بين هاتين القبيلتين في الجاهلية . كما تناول الحديث في هذا الفصل " الشعر في الأوس والخزرج " ، من حيث مصادره ، ومقاديره ، وقيمه التاريخية واللغوية والأدبية .

وخصصت **الفصل الثاني** للدراسة الموضوعية التي تناولت أشهر موضوعات العصر الجاهلي كالعصبية القبلية ، وعلاقة الأوس والخزرج باليهود ، وموضوعات أخرى في شعرهما



مثل الخمر والميسر والموت والمرأة. كما تناولت الدراسة الموضوعية أشهر موضوعات عصر صدر الإسلام كالدفاع عن الإسلام ورتاء الشهداء ، وموقف شعراء الأوس والخزرج من الخلافة ، وغير ذلك .

أما الفصل الثالث فكان للدراسة الفنية التي تناولت بناء القصيدة في شعر الأوس والخزرج في الجاهلية والإسلام ، وأوزان الشعر وحروف الروي ، وألفاظ هذا الشعر ومعانيه ، ومظاهر التقليد والتجديد في هذه المعاني . وقد تفاوتت هذه الفصول طولاً وقصراً بحسب ما اقتضته طبيعة كل فصل من الموضوعات التي تضمنها .

أما مصادر هذه الدراسة فكانت كثيرة ، لكن أشهرها في موضوع النسب كان كتاب جمهرة النسب لابن السائب الكلبي ، و جمهرة أنساب العرب لابن حزم . وأما مصادر موضوع المكان فكان معجم ما استعجم للبكري، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، وكانت أشهر مصادر موضوع الأيام ومراجعته كتب الأيام المتخصصة ، ومعجم البلدان ، وكتاب الأغاني للأصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والكامل لابن الأثير وغيرها .

وأما مصادر موضوع " الشعر في الأوس والخزرج " ومراجعته فكانت دواوين شعراء هاتين القبيلتين ، وما جمع داود غطاشة من شعرهما ، وأما الدراسة الموضوعية لشعر هاتين القبيلتين فقد كان من مراجعها كتاب العصبية القبيلة لإحسان النص ، ومقدمات دواوين شعراء الأوس والخزرج ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ، وغيرها من المراجع . وأما الدراسة الفنية فكان من مصادرها العمدة لابن رشيق ، والأشباه والنظائر للخالديين ، وديوان المعاني لأبي هلال العسكري وغيرها .

وقد كنت في إيرادى للشواهد الشعرية أشير دائماً إلى معاني المفردات الغريبة فيها ، كما كنت في بعض الأحيان أشير إلى المعنى الإجمالي للبيت الشعري ، مستعينا في كل ذلك بشروح الدواوين ، أو بمعاجم اللغة ، وأشهرها لسان العرب .

وأما الرسائل الجامعية التي تناولت حركات الشعر فكان مصدري الرئيس منها هو دراسة داود غطاشة الأنفة الذكر التي جمعت شعر الأوس والخزرج ، وفضلاً عن هذه الدراسة التي أفدت من منهجيتها في الدرس فقد أفدت من منهجية الدراسات الأخرى التي تناولت قبائل : غنيّ وذبيان وعُقيل وضَبّة، ويشكر.

وقد جعلت لهذه الدراسة خاتمة وضحت فيها ما كشفت عنه هذه الدراسة والجديد فيها ، ووضعت ثَبَتاً بالمصادر والمراجع التي أفدت منه مرتبة هجائياً حسب اسم المؤلف .

وأخيراً، فهذا ما وفقني الله إليه ، فإن أصبت فبتوفيقه ، وإن أخطأت فمن نفسي ، والله  
در القائل:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْجَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا      كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِيهُ

وإنني بعد ذلك كله لأتوجه بوافر الشكر وجزيل العرفان لأستاذيَّ المشرفين الدكتور  
ياسين عايش ، والدكتور حمدي منصور لسعة صدرهما وأناتها ، ولكل ما أولياني به من  
عناية، وشملاني من رعاية ، ولحسن اهتمامهما بهذه الدراسة ، وما أشارا به من آراء ، وقدموا  
من إرشادات كان لها الفضل الكبير في استواء هذه الدراسة على هذا النحو . ولا أنسى أن أشكر  
من بعدُ أساتذتي الكرام الذين أنعموا عليَّ بقبول مناقشة هذه الأطروحة ، وإبداء ملاحظاتهم  
القيمة التي تغنيها . كما أشكر لكل من أسهم في إنجاز هذه الدراسة أو أعان عليها ولو بكلمة .

والله الموفق

## الفصل الأول

### تعريف بالأوس والخزرج

- نسب الأوس والخزرج

- أماكن الأوس والخزرج

- أيام الأوس والخزرج

### الشعر في الأوس والخزرج

- صورة عامة للشعر والشعراء في الأوس والخزرج

- مصادر شعر الأوس والخزرج

- مقارنة بين الأوس والخزرج في مقدار الشعر

- القيمة التاريخية واللغوية والأدبية لشعر الأوس والخزرج

## نسب الأوس والخزرج

ترجع الأوس والخزرج إلى قبيلة من كبريات القبائل العربية في الجزيرة العربية، تلك هي قبيلة الأزد اليمانية التي برق وميضها ، وذاع صيتها في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور ، فهي قبيلة ضخمة تضم بطونا كثيرة كان لها دورها الهام في صناعة التاريخ العربي الإسلامي وأحداثه عبر العصور المتتالية .

ويتصل نسب قبيلتي الأوس والخزرج بقحطان جدّ العرب الجنوبية ، وترتبطان معا بلحمة النسب والدم ، فهما أخوان من أب واحد وأم واحدة ، فأبوهما : حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ (عامر) بن يشجب بن يعرب بن قحطان<sup>(١)</sup>، وأما أمهما فهي : قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء<sup>(٢)</sup>. وقد عرفت هاتان القبيلتان في الجاهلية باسم الأوس والخزرج ، أما في الإسلام فقد غلب عليهما اسم الأنصار .

### اشتقاق اسم الأوس والخزرج

ذكر صاحب اللسان أن سبب تسمية قبيلة الأوس هذا الاسم هو أحد أمرين<sup>(٣)</sup>:

- أن يكون مصدر أسئته، أي أعطيته، كما سموا عطاءً، وعطيّة .

- أن يكون أوس بمعنى ذئب ، سُمي به الرجل .

أما الخزرج فيحدد ابن الأعرابي سبب تسمية القبيلة هذا الاسم بقوله: الخزرج ریح الجنوب، وبه سميت القبيلة الخزرج، وهي أنفع من الشمال<sup>(٤)</sup>، ونقل نحوه عن الفراء<sup>(٥)</sup>، وعن الأصمعي<sup>(٦)</sup>. وقيل إن الأوس والخزرج اسمان لطائرين من سباع الجو شَبَّهت هاتان القبيلتان بهما لبأسهما ونجدتهما<sup>(٧)</sup>. ولكل من لفظتي "الأوس" و"الخزرج" معان أخرى في المعاجم العربية ، لا نميل إلى إيرادها هنا خشية الإطالة<sup>(٨)</sup>.

(١) انظر النسب السابق عند ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣ ، ص ٣٢٩-٣٣٢.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٢ .

(٣) انظر : لسان العرب ، وتاج العروس مادة "أوس" .

(٤) لسان العرب ، مادة "خزرج" .

(٥) الصحاح ، مادة "خزرج" .

(٦) تهذيب اللغة ، مادة "خزرج" .

(٧) سلمة الصُّحَّارِي ، الأنساب ، وزارة التراث القومي والثقافة ، مسقط ، ١٩٩٠ ، ج ٢ ، ٦١ .

(٨) انظر لسان العرب ، وتاج العروس ، مادة "أوس" ، ومادة "خزرج" .

والناظر في تعليقات العلماء للتسميات عامة لا يكاد يظفر بسبب إلا وجد ما يردده ، أو يحيله إلى غيره حتى لا يستطيع أن يرجح واحدا على الآخر ، ثم يخلص إلى أن السبب قد يكون هذه الأمور كلها مجتمعة .

#### أولا : نسب الأوس

أطلق اسم الأوس على قبائل أخرى غير قبيلة الأوس الأنصارية ، ومن هذه القبائل : قبيلة الأوس بن تغلب بن وائل في ربيعة ، و قبيلة الأوس بن حارثة في خُزاعة<sup>(١)</sup> ، وقبيلة أوس بن عمرو بن أد بن طابخة العدنانية ، وقبيلة أوس بن حارثة بن لأم في طييء<sup>(٢)</sup>.

لكن هذا الاسم عند إطلاقه دون قيد يراد به قبيلة الأوس الأنصارية ، فإذا قلنا : رجل من الأوس ، أو امرأة من الأوس ، أو رجل أوسي ، أو امرأة أوسية ، أو فلان الأوسي أو فلانة الأوسية ، فإن ذلك كله يراد به - في الأعم الغالب - النسبة إلى قبيلة الأوس التي هي أخت الخزرج ، إذ لا تجد في مصادر التراث على اختلافها شعرا ونثرا نسبة إلى الأوس يراد بها غير هذه القبيلة . وكثيرا ما يقترن اسم الأوس باسم الخزرج في الشعر والنثر حتى كأنهما قبيلة واحدة .

فلا عجب إذن أن نجد من يطلق عليهما معا من باب التغليب اسم الخزرج ، فقد ذكر ابن الكلبي أن العرب جميعا في الجاهلية يسمون الأوس والخزرج جميعا : الخزرج ، وقد استشهد لذلك بقول عبد العزى بن وداعة المزني (أو غيره من العرب) :

إِنِّي حَلَفْتُ يَمِينَ صِدْقَ بَرَّةٍ      بمناءَ عندَ محلِّ آلِ الخزرج<sup>(٣)</sup>

(١) الوزير المغربي، الإيناس في علم الأنساب ، تحقيق :حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ط١ ، ١٩٨٠م ، ص ٣ .

(٢) الفلستندي ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩١ ، ص ٨٧-٨٨ .

(٣) انظر :ابن السائب الكلبي ، الأصنام ، تحقيق : أحمد زكي (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية )، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ص ١٢ ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "مناء".

## بطون الأوس<sup>(١)</sup>

أبو الأوس والخزرج هو: ثعلبة بن عمرو مزيقياء<sup>(٢)</sup> بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازد بن الأزد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ولم تورد أي من كتب النسب أولاداً لثعلبة بن عمرو غير الأوس والخزرج ، وقد أنجب الأوس ولداً واحداً هو : مالك بن الأوس بن حارثة ، ومنه تفرعت الأوس بطونا ، إذ كان لمالك خمسة من الولد<sup>(٣)</sup> شكلوا تلك البطون الضخمة التي تعد في قبيلة الأوس ، وهذه البطون هي :

١- بنو عوف بن مالك بن الأوس (أهل قباء).

٢- بنو عمرو بن مالك بن الأوس (النبيت).

٣- بنو مرة بن مالك بن الأوس (الجعدرة) .

٤- بنو جشم بن مالك بن الأوس .

٥- بنو امرئ القيس بن مالك بن الأوس .

وفي ما يأتي بيان لتلك البطون وفروعها :

**البطن الأول : بنو عوف بن مالك بن الأوس (أهل قباء)**

(١) نظمت نسبهم من مصادر متعددة تشابهت إلى حد كبير في ما أورده . انظر : ابن السائب الكلبي في كتابيه : جمهرة النسب ، تحقيق : ناجي حسن ، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٦ ، ص ٦٢١-٦٤٦ ، ونسب معد واليمن الكبير ، تحقيق : ناجي حسن ، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٣ ، ص ٩٣ ، وابن قتيبة ، المعارف ص ١٠٩-١١٠ ، والمبرد ، نسب عدنان وقحطان ، ص ٢١-٢٢ ، وابن دريد ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٤٣٧ . وابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق : محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ ، والوزير المغربي ، الإيناس في علم الأنساب ، ص ٧-٨ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٦٣ ، وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٣٢-٣٤٦ ، و ٤٧٠-٤٧١ ، والمغربي ، المنتخب في ذكر قبائل العرب ، تحقيق : إبراهيم محمد الأصيل ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ص ٦٠-٦٣ ، وابن عبد البر ، الإنباه على قبائل الرواة ، ص ١٠٤ ، والقلقشندي في كتابيه : قلند الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الحديثة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ج ١ ، ص ٣٦٤-٣٨٧ ، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص ٨٧-٨٨ ، وسلمة الصّحاري ، الأنساب ، ج ٢ ، ص ٦١-٧٦ .

(٢) سمي بذلك لأنه كان يمزق كل يوم حلة لئلا يلبسها أحد من بعده ( انظر : ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٤٣٥-٤٤٤ ، والأصفهاني ، الأغاني ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، وابن منظور لسان العرب ، مادة " مزق " ) ، وقيل : سمي مزيقياء لأن الله مزقه ، وهو قوله تعالى : " وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ " ، سورة سبأ ، الآية ١٩ ( انظر : ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، تحقيق : إحسان عباس ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣ ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ ، وسلمة الصحاري ، الأنساب ، ج ٢ ، ص ٥٣ ) .

(٣) ذكرت معظم مصادر النسب - وعلى رأسها جمهرة أنساب العرب لابن حزم - لقبيلة الأوس خمسة أبطن ، وهي التي أثبتناها ، غير أن بعض تلك المصادر - ومنها الاشتقاق لابن دريد والإيناس في علم الأنساب للوزير المغربي والعقد الفريد - لم تذكر البطن الخامس ، وهم بنو امرئ القيس بن مالك بن الأوس .

سُمُوا أَهْلَ قُبَاءَ ، لأنهم سكنوا منطقة قُبَاءَ المعروفة في المدينة المنورة . ولبني عوف بن مالك بن الأوس فخذ ضخم هم بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، ويضم عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس عدة عشائر منها :

- بنو السميعة (أو بنو لؤذان) بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس: كانوا يسمون بني الصَّمَاءَ ، فسماهم الرسول ﷺ بني السَّمِيعَةِ .
- بنو ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .
- بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .
- بنو ضُبَيْعَةَ بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.
- بنو أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.
- بنو عُبَيْد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.
- بنو جَحْجَبَى (جحجبا) بن كِلْفَةَ (بضم الكاف وبكسرها) بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .

- بنو حَنَش بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.
- بنو عزيز بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .
- معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .
- بنو كِلْفَةَ بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .
- بنو ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .
- بنو حبيب بن عمرو بن عوف بن عوف بن مالك بن الأوس .

#### البطن الثاني: بنو عمرو بن مالك بن الأوس

وهم النَّبِيت ، والنَّبِيت لقب لعمرو بن مالك بن الأوس ، لقب به لكثرة عدد ولده<sup>(١)</sup>.

ويضم هذا البطن مجموعة أفخاذ هي :

- بنو ظَفَر (كعب) بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس .
- بنو حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس .

<sup>(١)</sup> انظر النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : مفيد قميحة وحسن نور الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٠ ، ج ١٥ ، ص ٣٢٨ .

- بنو عبد الأشهل بن جُشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس. ومن عشائر بني عبد الأشهل بنو وقش بن زُعْبَة بن زَعُوراء بن عبد الأشهل.
- بنو زَعُوراء بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس.

#### البطن الثالث : بنو جشم بن مالك بن الأوس

ويضم فخذًا واحدًا ليس غير ، هم: بنو خَطْمَة (عبدالله)<sup>(١)</sup> بن جُشم بن مالك بن الأوس. ومن ولد عبدالله خَطْمَة : عامر بن خَطْمَة ، ولؤذان بن خَطْمَة ، والحارث بن خَطْمَة .

#### البطن الرابع : بنو امرئ القيس بن مالك بن الأوس ، وفيهم فخذان :

- بنو واقف بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس.
  - بنو السَلَم بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس .
- وقد انقرض جميع بني السَلَم بن امرئ القيس، وبني واقف بن امرئ القيس<sup>(٢)</sup>.

#### البطن الخامس : مرة بن مالك بن الأوس

- وهم الجَعَادِرَة<sup>(٣)</sup> ، ويقال لهم : أوس الله<sup>(٤)</sup> ، ومن أشهر أفخاذهم :
- بنو سعد بن مرة بن مالك بن الأوس ، وهم أهل راتج<sup>(٥)</sup> .
  - بنو أمية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس .
  - بنو وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس .
  - بنو عطية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس.

#### ثانيا : نسب الخزرج

<sup>(١)</sup> الخَطْم هو الأنف (لسان العرب "خطم") ، وقد عرف عبدالله بن جُشم بن مالك بن الأوس بهذا الاسم ، لأنه ضرب رجلا بالسيف على خطمه ، أي على أنفه (انظر النويري ، نهاية الأرب ، ٢٥ ، ص ٣٢٩) .

<sup>(٢)</sup> ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٧١ .

<sup>(٣)</sup> سموا الجعادرة لأنهم كانوا يقولون للرجل إذا جاورهم : جَعْدَرٍ حيث شئت ، فأنت آمن ، أي اذهب حيث شئت (انظر ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٤٧٣) .

<sup>(٤)</sup> ابن قتيبة ، المعارف ، تحقيق: ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ص ١١٠ .

<sup>(٥)</sup> راتج اسم مكان ، انظر تفصيله عند الحديث عن "الأوس والخزرج في المكان" .



ما قيل في قبيلة الأوس من حيث إطلاق اسمها على غير الأنصار يقال في قبيلة الخزرج ، فقد أطلق هذا الاسم على مجموعة من أعلام الرجال والقبائل . فمن أعلام الرجال ممن لا يشكلون قبائل أطلق هذا الاسم على : الخزرج بن جذّة بن جرّم بن رِيّان "ابن حُلوان" من قضاة<sup>(١)</sup> ، وعلى الخزرج بن الصريح من يهود<sup>(٢)</sup> ، وعلى الخزرج بن أبي حبيب بن النضير<sup>(٣)</sup> .

أما القبائل التي سُمّيت هذا الاسم ، فقد ذكر الوزير المغربي أن هناك - غير الخزرج الأنصارية - قبيلتين أخريين هما : الخزرج : في يَشْكُر ، والخزرج في تَغْلِب<sup>(٤)</sup> . وذكر ابن عبد ربه أن الخزرج أيضا في الثمر بن قاسط من ربيعة ، وهي الخزرج بن تيم الله بن الثمر بن قاسط<sup>(٥)</sup> ، وذكر القلقشندي أن الخزرج في قبيلة كلب القضاعية ، وهم : بنو الخزرج بن زيد اللات بن رُقيدة بن ثور بن كلب<sup>(٦)</sup> ، غير أن النسبة إلى تلك القبائل كلها ليست مُستَهرة ، وأية نسبة إلى الخزرج إنما تتصرف إلى قبيلة الخزرج الأنصارية ليس غير .

### بطون الخزرج<sup>(٧)</sup>

للخزرج كما للأوس بطون خمسة ، ومنها تفرعت ، وهي : عوف بن الخزرج ، وعمرو بن الخزرج ، وجُشَم بن الخزرج ، والحارث بن الخزرج ، وكعب بن الخزرج . وفي ما يأتي توضيح لهذه البطون وأشهر أفعالها :

#### البطن الأول : بنو عوف بن الخزرج

ولعوف بن الخزرج ثلاثة ولد : عمرو ، وغنم ، وقطن . ولقطن ولد واحد هو السائب ، وكان أولاده بعُمان ، ولم يكن منهم أحد بالمدينة ، فليسوا من الأنصار<sup>(٨)</sup> . ومن أشهر أفعال بني عوف بن الخزرج :

- بنو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج . ومن بطون بني سالم هؤلاء : بنو العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج .

(١) الوزير المغربي ، الإيناس في علم الأنساب ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٣) أبو الحسن اليمني القرطبي ، التعريف بالأنساب والتتويه بنوي الأحساب ، ص ٤٠ .

(٤) الوزير المغربي ، الإيناس في علم الأنساب ، ص ٢٦ .

(٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(٦) القلقشندي ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص ٥٣ .

(٧) نظمت نسبهم من مصادر نسب الأوس الأنفة الذكر (انظر ص ١٠ ، هامش (١) من هذه الدراسة) .

(٨) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٣٥ .

- بنو غَنَم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج. ومن أشهر أفخاذ بني غَنَم بن عوف :  
بنو الحُبْلَى سالم<sup>(١)</sup> بن غَنَم بن عوف بن الخزرج.
- بنو عنز أو غَنَم (قَوَقِل)<sup>(٢)</sup> بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج .
- بنو ثعلبة، وبنو مَرَضَخَة، ابنا عنز بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

### البطن الثاني : بنو عمرو بن الخزرج

- ولهم بطن واحد لا يُعَلِّم غيره ، هو تَيْم الله النَّجَّار<sup>(٣)</sup> بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج ،  
وهو بطن ضخم يضم أفخادا شتى هي :
- بنو مالك بن النَّجَّار ، ولبني مالك بطون هي :بنو عامر (مَبْدُول) بن مالك بن النَّجَّار ،  
وبنو معاوية (حُدَيْلَة) بن عمرو بن مالك بن النَّجَّار ، وبنو عدي (مَغَالَة) بن عمرو بن مالك  
ابن النَّجَّار ، وبنو غنم بن مالك بن النَّجَّار .
- بنو عدي بن النَّجَّار ، وهم أخوال الرسول ﷺ .
- بنو مازن بن النَّجَّار .
- بنو دينار بن النَّجَّار .

### البطن الثالث : بنو جشم بن الخزرج

- وتتدرج تحته أفخاذ كثيرة أشهرها :
- بنو زُرَيْق وبنو بَيَاضَة ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غَضَب بن جُشَم  
ابن الخزرج .
- بنو سلمة وبنو أَدِي ابنا سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج .
- بنو حبيب وبنو زريق ابنا عبد حارثة بن مالك بن غَضَب بن جُشَم بن الخزرج .
- تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج .

<sup>(١)</sup> سمي بذلك لعظم بطنه (انظر ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٤٥٨ ، وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٥٤).

<sup>(٢)</sup> ذكر ابن حزم أنهم بنو عنز ، ويقال لهم بنو قوقل (ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٣٥) ، وذكر ابن السائب الكلبي أنهم بنو غَنَم ، ويقال لهم بنو قوقل (أو القوقل) ، وسموا بذلك لأن الرجل إذا نزل بهم قالوا له قوقل حيث شئت ، أي انزل حيث شئت . (انظر : ابن السائب الكلبي ، نسب معد واليمن الكبير ، ص ٤١٥) . ومن نظري في عدد من مصادر التاريخ والسير والتراجم وجدت أن اسم قوقل هو الشائع فيها .

<sup>(٣)</sup> سمي تَيْم الله النَّجَّار لأنه ضرب رجلا اسمه العِشْرُ بِقُدُوم فَجَرَه ، أي قطعه ( انظر ابن السائب ، نسب معد واليمن الكبير ، ص ٣٩٠ ، وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٤٦ ) ، وقيل : لأنه اخْتِثَنَ بِقُدُوم (ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١١٠).

- بنو عَدِي بن غَنَم بن كعب بن سَلَمَة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تَزِيد بن جُشَم  
ابن الخزرج .

#### البطن الرابع : بنو الحارث بن الخزرج

وأشهر أفضأهم :

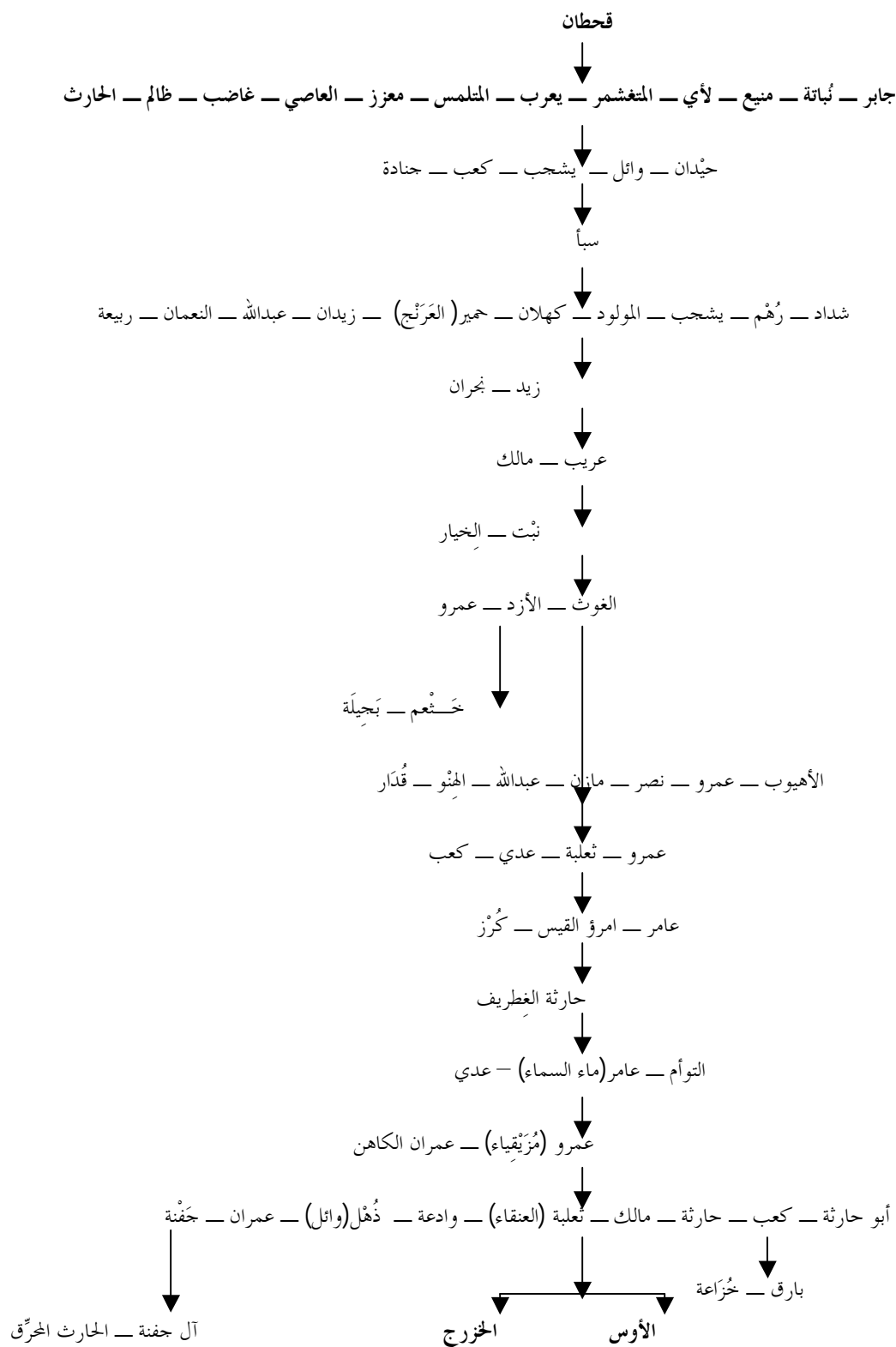
- بنو جُشَم بن الحارث بن الخزرج
- بنو زيد(زيد مَنَة) بن الحارث بن الخزرج
- بنو عوف بن الحرث بن الخزرج ، و منهم بنو خُدَّارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج ، وبنو خُذرة(الأبجر) بن عوف بن الحارث بن الخزرج الذين منهم أبو سعيد الخُدري صاحب رسول الله ﷺ .
- بنو الخزرج بن الحارث بن الخزرج.
- بنو مالك الأغَرُّ بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحرث بن الخزرج .

#### البطن الخامس :بنو كعب بن الخزرج

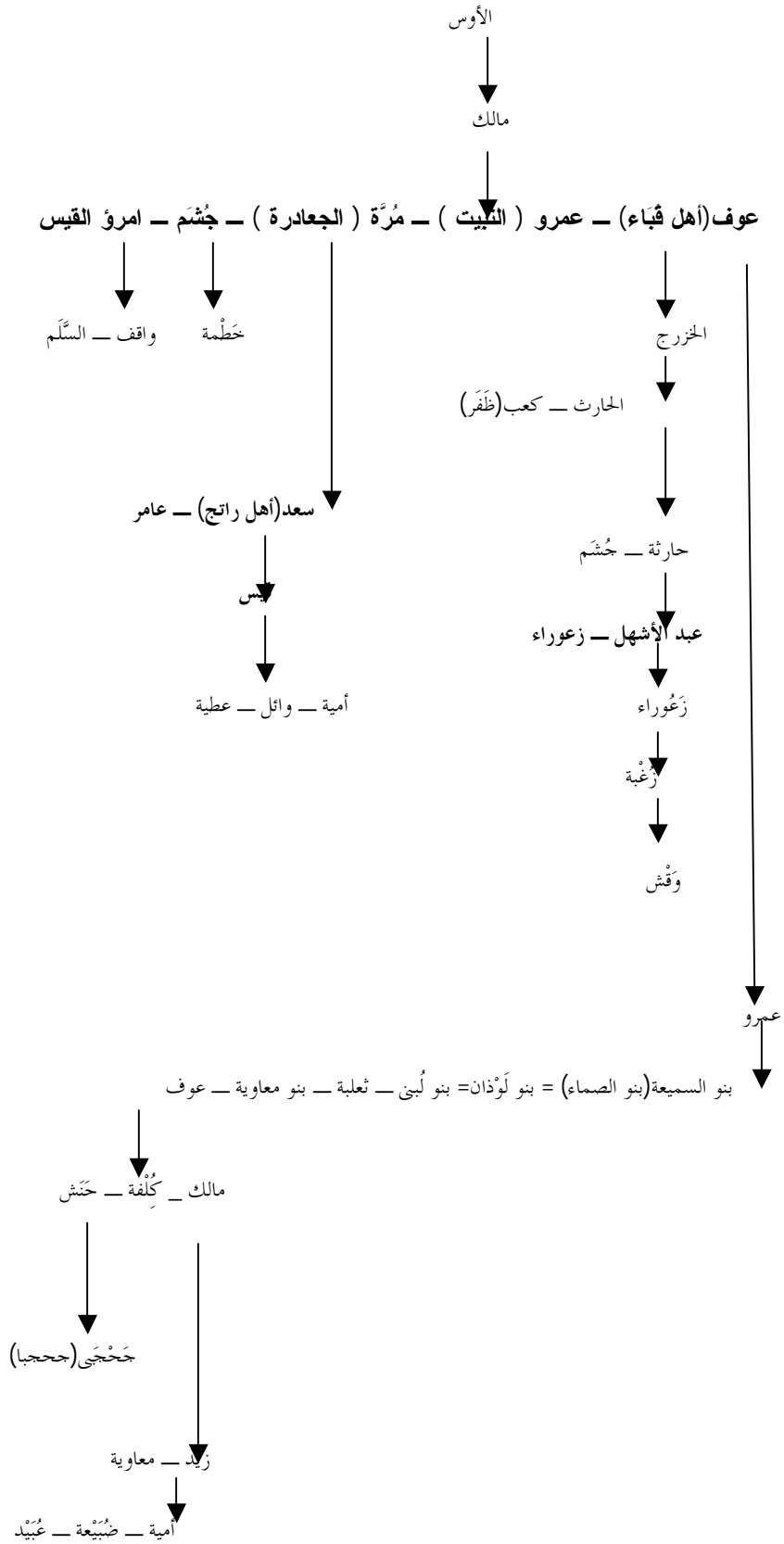
لهم فخذ واحد مشهور هم : بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج. ولساعدة ولد واحد هو الخزرج ، تفرع منه ثلاثة أبناء هم : عمرو ، و ثعلبة ، و طريف ، أبناء الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر .

وفي ما يأتي ثلاثة جداول توضح نسب هاتين القبيلتين من لدن قحطان ، مروراً بالأزد ، وانتهاءً ببطن هاتين القبيلتين أوأفضأهما .

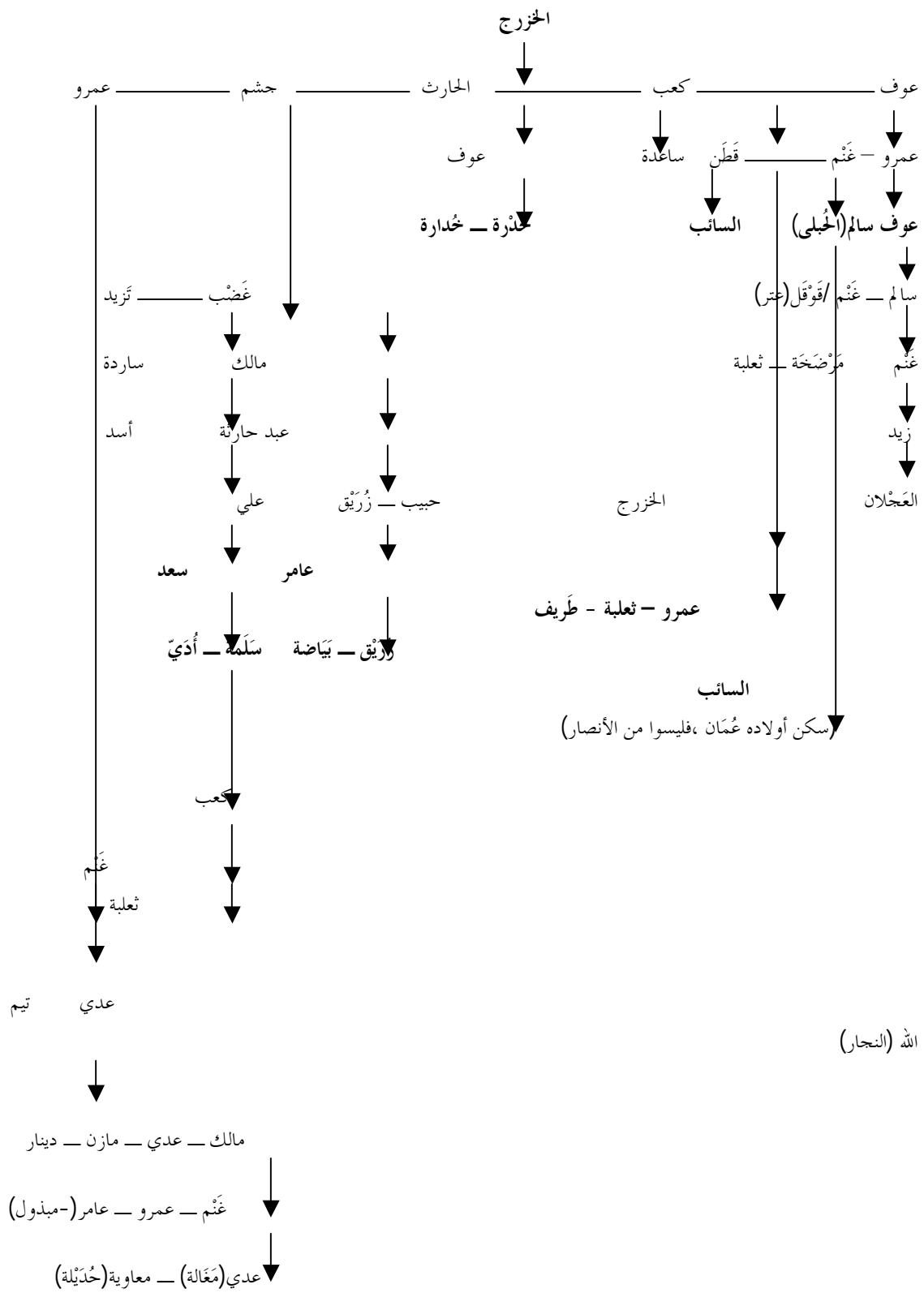
## جدول (١): نسب الأزد



## جدول (٢) : نسب الأوس



جدول (٣) : نسب الخرج



## أماكن الأوس والخزرج

مضى القول أن قبيلتي الأوس والخزرج هما قبيلتان يمانيتان قحطانيتان ، والمعروف أن موطن هذه القبائل هو جنوب الجزيرة العربية ، أي اليمن ، لكننا نرى أن فروعا من قبيلة الأزد قد استوطنت خارج اليمن كالأوس والخزرج وأزد عُمان وأزد السَّرَّاء ، وآخر استوطن الشام كآل جَفْنَة ، فكيف كان ذلك ؟ لقد راح عدد من العرب والمستشرقين يعللون هجرة القبائل القحطانية من جنوب الجزيرة فردوا ذلك إلى أسباب منها : الفقر ، والجهل ، وتناقص العلوم ، وانهيار السدود التي بناها أسلافهم و عجزوا عن صيانتها ، وإلى الصراعات الداخلية وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أسباب تفرق تلك القبائل ، فقال تعالى يذكر قصة سبأ وهي أم القبائل اليمانية : "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ" **ā** فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ **ā** ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ **ā** وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ **ā** فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ"<sup>(٢)</sup>.

والم تأمل في الآيات السابقة يجد أنها قد أشارت ضمنا إلى الأسباب التي ذكرها الباحثون فيما بعد ، فقوله تعالى : "فأعرضوا" إشارة إلى جهلهم ، بل إن الإعراض عن دين الله هو الغاية في الجهل ، وقوله : "فأرسلنا عليهم سيل العرم" إشارة إلى انهيار السدود ، وهو نتيجة طبيعة للجهل بأشكاله كافة ، وقوله : "وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمطٍ وأثلٍ وشيءٍ من سدرٍ قليلٍ" إشارة إلى حالة الفقر التي لزمتهم بسبب كفرهم وإعراضهم ، وقوله تعالى : "وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ" إشارة إلى صراعاتهم الداخلية وحروبهم . وقد ضرب المثل بهذه القبائل في التفرق والتشردم ، فقالت العرب : ذَهَبُوا أَيَدِي سَبَا ، وَتَفَرَّقُوا أَيَدِي سَبَا<sup>(٣)</sup> .

ويوضح ابن هشام قصة تفرق سبأ بعد سيل العرم ، وبعد حروبهم حتى استقر بهم الأمر ، ثم يبين مواضع نزول عدد منهم فيقول : فتفرقوا في البلدان ، فنزل آل جفنة بن عمرو بن

(١)المزيد من التفصيل انظر: محمد العيد الخطراوي ،شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج ، مؤسسة علوم القرآن ودار القلم ، دمشق بيروت ، ١٤٠٠هـ ، ص ١٦-١٧ .

(٢)سورة سبأ ، الآيات ١٦-١٩ .

(٣)الميداني ، مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خُزاعة مراً<sup>(١)</sup> ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمان عُمان<sup>(٢)</sup> .

### يثرب هي الموطن الرئيس للأوس والخزرج

نزل الأوس والخزرج يثرب وقد غلب عليها أقوام من اليهود ، وشاركهم في سكنها بعض بطون العرب<sup>(٣)</sup> . و"يثرب" هو الاسم القديم للمدينة المنورة ، وقد ذكر في سبب تسميتها يثرب قولان مشهوران :

- أنها سميت بذلك لأن أول من سكنها هو يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، فلما نزلها الرسول ﷺ سماها طيبة وطابة كراهية التثريب<sup>(٤)</sup> ، والتثريب هو اللوم والتعير والعيب والتأنيب .

- أن اسم يثرب مشتق من التثريب الذي هو بمعنى التعير والعيب ، ومنه قوله تعالى : "قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"<sup>(٥)</sup> ، أي لا تعير ولا عيب<sup>(٦)</sup> . ومن ذلك قول الرسول ﷺ : إذا زنت أمة أحدكم فليضربها ولا يثرب ، قال ابن الأثير : أي لا يوبخها ولا يقرعها بالزنا بعد الضرب<sup>(٧)</sup> .

ويؤيد عربية هذه اللفظة وجود المادة الاشتقاقية لها في العربية ، فضلا عن هذه اللفظة قد وردت في القرآن الكريم ، وليس في القرآن كلام أعجمي . ولم ينص أحد من اللغويين على أنها معربة ، بمن فيهم الجواليقي في مُعَرَّبِهِ .

(١) يعني مَرَّ الظَّهْران ، قال الحموي : ويقال مر ظهران ، موضع على مرحلة من مكة . قال الواقدي : بين مر و مكة خمسة أميال (انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "مر") .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، دار الفكر ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٢٥ ، وابن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٤ ، مادة "مر الظهران" ، ومادة "يثرب" .

(٣) فصل صاحب الأغاني في ذكر الأقوام اليهودية العربية التي نزلت يثرب قبل الأوس والخزرج ، انظر الأصفهاني ، الأغاني ( نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ) ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "يثرب" ، وابن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار ، مادة "يثرب" .

(٥) سورة يوسف ، الآية ٩٢ .

(٦) لسان العرب ، مادة "ثرب" .

(٧) المصدر السابق ، مادة "ثرب" .



## أهم معالم يثرب (المدينة المنورة)

ضمت يثرب معالم كثيرة في الجاهلية والإسلام ترددت في شعر الأوس والخزرج وشعر غيرهم ، وفي ما يأتي إيجاز لأشهر هذه المعالم :

### - حرارُ المدينة

تعرف الحرة بأنها :أرض ذات حجارة سود نخرات كأنها أحرقت بالنار ، وجمعها : حرار ، وحرّات ، وحرّون<sup>(١)</sup> ، ويطلق على الحرة أيضا "لابّة" ، وقد ورد هذا في الحديث الشريف في قول الرسول ﷺ : "...مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا حَرَامٌ"<sup>(٢)</sup>.

وفي المدينة المنورة حرتان مشتهرتان ، إحداها شرق المدينة المنورة ، وتسمى حرة واقم أو الحرة الشرقية<sup>(٣)</sup> ، والأخرى غرب المدينة المنورة ، وتسمى حرة الوبرة " ، أو الحرة الغربية<sup>(٤)</sup>. وفي المدينة حرار أخرى دون تلكما الحرتين منها : حرة قُبَاء<sup>(٥)</sup> ، وحرة مَيْطَان<sup>(٦)</sup>.

### - جبال المدينة

في المدينة المنورة جبالان كبيران يكتنفانها هما :جبل أحد<sup>(٧)</sup> ، وجبل عَيْر<sup>(٨)</sup> ، كما أن فيها جبالا أخرى منها جبل الرُّمّة (عَيْنَيْن)<sup>(٩)</sup> ، وجبل ثَوْر<sup>(١٠)</sup> ، وجبل سَلْع<sup>(١١)</sup> ، وجبل سُلَيْع<sup>(١٢)</sup> ، وجبل ذِباب أو ذُبَاب<sup>(١٣)</sup> .

(١) انظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة " حرر " .

(٢) البخاري ، صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ١ ، ص ٣٢١ .

(٣) البكري ، معجم ما استعجم ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "حرة" واقم" .

(٤) انظر المصدرين السابقين ، مادة "حرة الوبرة" .

(٥) انظر المصدرين السابقين ، مادة "حرة قُبَاء" .

(٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "حرة ميطن" .

(٧) المصدر السابق ، مادة "أحد" .

(٨) المصدر السابق ، مادة "عير" .

(٩) المصدر السابق ، مادة "عينين" ومادة "عينان" .

(١٠) انظر الخلاف في موضعه عند البكري ، معجم ما استعجم ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "ثور" .

(١١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "سلع" ..

(١٢) ويقال له "جبل عَعَثْ" ، انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "سُلَيْع" .

(١٣) المصدر السابق ، مادة "ذباب" .

## - أودية المدينة وسيولها

في المدينة أودية وسيول كثيرة جاء ذكرها في الشعر ، أشهرها وادي بَطْحَان (أو بَطْحَان) <sup>(١)</sup> ، ووادي العقيق <sup>(٢)</sup> ، ووادي قناة <sup>(٣)</sup> ، ووادي مُذْيَب <sup>(٤)</sup> ، ووادي مَهْزُور <sup>(٥)</sup> ، ووادي راثوناء <sup>(٦)</sup> .

## - آبار المدينة

من آبار المدينة المشهورة : بئر أريس <sup>(٧)</sup> ، وبئر بضاعة <sup>(٨)</sup> ، وبئر جُشَم <sup>(٩)</sup> ، وبئر حاء <sup>(١٠)</sup> ، وبئر الدُرَيْك <sup>(١١)</sup> ، وبئر رومة <sup>(١٢)</sup> ، وبئر غَدَق <sup>(١٣)</sup> .

## - أطام المدينة

الأطَم والأطَم : القصر ، وكل حصن مبني بحجارة ، وكل بيت مربع مسطح ، والجمع أطام وأطوم <sup>(١٤)</sup> ، والأطَم والأطَم بمعنى واحد ، قال صاحب اللسان : والأطَم بضم أوله وثانيه ، وهو بمعنى الأطَم ، وأجام المدينة أطامها : حصونها وقصورها <sup>(١٥)</sup> . والمدينة المنورة من أكثر بلاد العرب أطاما حتى قال ياقوت الحموي : وأكثر ما يسمى بهذا الاسم أطام المدينة ، وقد يقال لغيرها <sup>(١٦)</sup> .

إن نظرة في كتب البلدان وغيرها تطالعنا بأسماء كثيرة لأطام المدينة المنورة ، وقد نظرت في عدد منها فاستخرجت زهاء خمسين أطما للأوس والخزرج ولغيرهما من القبائل ،

<sup>(١)</sup> ويقال "بَطْحَان ، وبَطْحَان" ، انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "بطحان" .

<sup>(٢)</sup> المصدر السابق، مادة "عقيق" .

<sup>(٣)</sup> المصدر السابق، مادة "قناة" .

<sup>(٤)</sup> المصدر السابق ، مادة "مذيذب" .

<sup>(٥)</sup> المصدر السابق ، مادة "مهزور" ، والفيروز أبادي ، المغانم المطابة في معالم طابة ، تحقيق: حمد لجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ط١ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٨٦ .

<sup>(٦)</sup> المصدر السابق ، مادة "راثوناء" ، وانظر حديثا مفصلا عن أودية المدينة: السمهودي ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق : قاسم السامرائي ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ط١ ، ٢٠٠١ ، ج١ ، ص ٥٤-٦٧ .

<sup>(٧)</sup> المصدر السابق ، مادة "بئر أريس" .

<sup>(٨)</sup> المصدر السابق ، مادة "بئر بضاعة" .

<sup>(٩)</sup> المصدر السابق ، مادة "بئر جشم" .

<sup>(١٠)</sup> ويقال بَيْرِحَا ، وبَيْرِحَاء ، وبَيْرِحَا ، وبَيْرِحَا ، انظر المصدر السابق ، مادة "بئر حاء" .

<sup>(١١)</sup> المصدر السابق ، مادة "بئر الدريك" .

<sup>(١٢)</sup> المصدر السابق ، مادة "بئر رومة" .

<sup>(١٣)</sup> المصدر السابق، مادة "بئر غدق" ، وانظر آبار المدينة مفصلة عند السمهودي ، وفاء الوفا ، ج١ ، ص ٣٣٩-٤٠٢ .

<sup>(١٤)</sup> الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، مادة "أطم" .

<sup>(١٥)</sup> ابن منظور ، لسان العرب ، مادة "أطم" .

<sup>(١٦)</sup> ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "أطم الأصبط" .

وهو أمر يضيق به هذا المقام ، لذا سنقتصر في ذلك على ذكر أطام الأوس والخزرج خاصة . وقد توزعت تلك الأطام على قبائل المدينة ، فكان لليهود منها قسم ، وللقبائل العربية الأخرى قسم ، وللأوس والخزرج وبطونها قسم آخر ، وجاءت بعض الأطام دون نسبة إلى أحد سوى أنها من أطام المدينة . ومن أشهر أطام الأوس والخزرج : القنابة <sup>(١)</sup> ، ومرغم <sup>(٢)</sup> ، وفارع <sup>(٣)</sup> ، وریدان (أو زيدان) <sup>(٤)</sup> ، ومُعْرَض <sup>(٥)</sup> ، والأجرد <sup>(٦)</sup> ، والسُنْح <sup>(٧)</sup> ، والمزْدَلَف <sup>(٨)</sup> ، والمُسَيَّر <sup>(٩)</sup> ، وصِرَار <sup>(١٠)</sup> ، ومخلوط <sup>(١١)</sup> ، والضَّحِيان <sup>(١٢)</sup> ، والمستظِل <sup>(١٣)</sup> ، والعِتَق <sup>(١٤)</sup> ، والمَذَاد <sup>(١٥)</sup> ، وغُرَّة <sup>(١٦)</sup> ، ومربَع <sup>(١٧)</sup> ، وواقم <sup>(١٨)</sup> .

وفي ما يأتي خمس خرائط تبين أهم معالم الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده ، ومنازل الأوس والخزرج في المدينة المنورة ، وموقع هاتين القبيلتين من باقي القبائل العربية <sup>(١٩)</sup> .

(١) انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "قنابة".

(٢) انظر البكري ، معجم ما استعجم ، مادة "مرغم".

(٣) انظر مادة "فارع" عند : البكري ، معجم ما استعجم ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، وابن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار .

(٤) انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "ريدان" ، والزبيدي ، تاج العروس ، مادة "ريد" .

(٥) انظر : البكري ، معجم ما استعجم ، مادة "بضاعة" ، ومادة "معرض" .

(٦) الفيروز أبادي ، المغام المطابة ، ص ٨ .

(٧) انظر : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٦١ ، وابن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار ، مادة "السنح" .

(٨) الفيروز أبادي ، المغام المطابة ، ص ٢٠٢ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٣٨٢ .

(١٠) انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "صرار" ، وابن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار ، ص ٣٥٦ .

(١١) البكري ، معجم ما استعجم ، مادة "خلط".

(١٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "الضحيان".

(١٣) البغدادي ، خزانة الأدب ، تحقيق: عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٨٩ ، ج ٣ ، ص ٣٥٨ .

(١٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "عتق".

(١٥) البغدادي ، خزانة الأدب ، ج ٦ ، ص ٢٢٠ .

(١٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "غرة".

(١٧) المصدر السابق ، مادة "مربع".

(١٨) البكري ، معجم ما استعجم ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "واقم" .

(١٩) أخذت هذه الخرائط من موقع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية ، انظر الموقع على الرابط الآتي : <http://sirah.alislam.com/map-pic.asp?f=mapa21>

شكل (١): خريطة الجزيرة العربية قبل الإسلام

شكل (٢): الجزيرة العربية في العصر النبوي: المدن والقبائل

شكل (٣): موقع قبيلتي الأوس والخزرج من القبائل العربية

شكل (٤) :خريطة المدينة المنورة عند هجرة الرسول : مواقع  
وقبائل

شكل (٥): منازل بطون الأوس والخزرج في المدينة المنورة



## أيام الأوس والخزرج

حين نتحدث عن أيام العرب في العصر الجاهلي فإنما نتحدث عن أحداث كان لها الأثر الكبير في توجيه حياة القبيلة وحياة المنطقة التي تسكنها من جهة ، ثم توجيه حركة الشعر والتحكم بنشاطه من جهة أخرى ، فضلا عن أن مثل هذه الوقائع والأيام كان لها الأثر البالغ في تحديد علاقة القبيلة بغيرها من القبائل الأخرى سواء أكانت هذه القبائل قريبة أم بعيدة ، مجاورة أم غير مجاورة .

ولم يصطلح بنييران هذه الحروب عرب الجزيرة العربية فحسب ، بل لقد طالت هذه الحروب والأيام من كان خارجها من عرب الشام وغيرهم . ولقد كان لبعض القبائل — بحكم منزلتها أو كثرتها — الحظ الأوفر من هذه الأيام ، فرأينا مساهمتها في الأيام أظهر من غيرها . وقد عبر الشعراء عن هذه الأيام تعبيراً نابغاً مما يحسونه إزاء ذلك ، فامتلات دواوينهم بذكر الأيام حتى كادت تكون مصدراً لها ، ومؤرخة لأحداثها ، يحتكم إليها المؤرخون في ما يوردون من حوادث أو مواضع ، ويستشهدون بشعرهم على ذلك ، كما كانت هذه الأيام مصدراً للأدب كبيراً ، ومرآة لأحوال العرب وعاداتهم وصفاتهم .

وإذا أردنا أن نتبين الأسباب التي أدت إلى وقوع تلك الحروب فإننا نجد أن بعض كتب الأيام في العصر الحديث قد حصرت أسباب تلك الحروب في خلاف على ماء أو أرض ، أو اعتداء على جار أو انتهاك لحرمة أو غارة قبيلة على أخرى لأجل الغنيمة<sup>(١)</sup>.

ويجعل ابن خلدون الغيرة والمنافسة أسباباً رئيسة للحروب التي تتشب بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة ، كما يجعل العدوان سبباً لتلك الحروب في الأمم الوحشية التي تسكن القفر كالعرب والترك والتركان والأكراد وغيرهم . ويعلل ابن خلدون ذلك بقوله : لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ، ومعاشهم في ما بأيدي غيرهم ، ومن دافعهم عن متاعه آذنه بالحرب ، ولا بغية لهم في ما وراء ذلك من رتبة ولا ملك ، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم<sup>(٢)</sup>.

وقد ترجع أسباب تلك الحروب في بعض جوانبها إلى رغبة بعض القبائل في السيطرة على غيرها من القبائل ، وتوسيع رقعة هذه السيطرة ما أمكن ، وكثيراً ما كانت بعض القبائل

(١) محمد جاد المولى وآخرون ، أيام العرب في الجاهلية ، المكتبة الإسلامية ، القاهرة ، ص (ط) ، وانظر أسباب هذه الأيام بالتفصيل عند عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ط ١ ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٧١ - ٧٧ .

(٢) ابن خلدون ، مقدمته ، ص ١٤٥ .

تدخل في غيرها من القبائل القوية أو تتعزز بها ، وتتصوي تحت لوائها ، رغبة في حماية نفسها من طمع الطامعين .

### الحروب الخارجية للأوس والخزرج

لقد كان للقبائل جلّها أيام داخلية بين بطونها كحرب عبس وذبيان وحرب بكر وتغلب ، وكانت هناك حروب أخرى خارجية كحروب قيس وربيعة ، وحروب عدنان وقحطان ، أما قبيلتا الأوس والخزرج فقد كانت حروبهما الخارجية باهتة لا تكاد تذكر أو تفرد بحديث مفصل . ويحسن بنا قبل الانتقال إلى الحديث عن حروبهم في ما بينهم أن نشير إلى تلك النزاعات بينهم وبين غيرهم ، وهي نزاعات لا يسعف تتبعها في المصادر بغير إشارات قليلة عابرة .

ومن ذلك قصتهم مع ثُبَّانَ أَسَدَ أَبِي كَرَبٍ<sup>(١)</sup> أحد ملوك التباينة<sup>(٢)</sup> ، فقد ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق أن هذا الملك مر بالمدينة حين ذهب إلى غزو المشرق ، وخلف عليها ابنا له فقتل غيلة ، ثم قام رجل اسمه أحمر من بني عدي بن النَجَّار بقتل رجل آخر من رجال تبع وجده في بستان له ، فزاد ذلك ثُبَّانًا حَنَقًا عليهم ، فأجمع على خراب المدينة واستئصال أهلها وقطع نخلها ، فتجهز له هذا الحي من الخزرج ، ورئيسهم يومها عمرو بن طَلَّة<sup>(٣)</sup> ، واقتتلوا . وقيل إن هذا الحي من الخزرج كانوا يقاتلونه بالنهار ويقدمون له طعام الضيف بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا لكرام .

وبينما كان ثُبَّان يقاتلهم جاءه حَبْرَان من أحبار اليهود من بني قريظة عالمان راسخان في العلم حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له : أيها الملك لا تفعل ، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ، فقال لهما : ولم ذلك ؟ فقالا : هي مُهَاجِرُ نَبِيٍّ يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره ، فأعجبه ما سمع منهما ، وترك قتال المدينة<sup>(٤)</sup> .

<sup>(١)</sup> هو ثُبَّانُ الآخر بن كَلْبٍ كَرَبَ بن زيد (تبع الأول) بن عمرو ... بن حَمِير بن سبأ بن يعرُب بن يشجب بن قحطان . انظر تنمة نسبه عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣٠ .

<sup>(٢)</sup> قال ابن خلدون في تاريخه : قال السهيلي : معنى تبع : الملك المتبع ، وقال صاحب المحكم : التباينة ملوك اليمن ، واحداهم تبع ، لأنهم يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام آخر تابعا له في سيرته . قال الزمخشري : قيل لملوك اليمن التباينة لأنهم يتبعون ، كما قيل الأقبائل لأنهم يتقبلون . قال المسعودي : و لم يكونوا يسمون الملك منهم ثُبَّانًا حتى يملك اليمن و الشَّحْر و حضرموت ، وقيل حتى يتبعه بنو جُشَم بن عبد شمس ، و من لم يكن له شيء من الأمرين فيسمى ملكا ، و لا يقال له تبع . و أول ملوك التباينة باتفاق من المؤرخين الحارث الرائي (انظر : ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ج ٣ ، ص ٩٣ ، وابن منظور ، لسان العرب ، مادة "تبع") .

<sup>(٣)</sup> طَلَّة هي أمه ، وهو عمرو و بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النَجَّار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج (انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣١) .

<sup>(٤)</sup> انظر تفصيل ذلك عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣٠-٣٤ ، و ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

وقد يميل بعضهم إلى إنكار مثل هذه القصة ، نظرا لما كان بين اليهود وهاتين القبيلتين من عداوات ، فكيف يردون أحدا عن قتالهما ؟ غير أننا نميل إلى تصديق مثل هذا الخبر ، إذ في رد هذا الملك عن قتال المدينة وتخريبها مصلحة لليهود أنفسهم ، فقد كانوا يعيشون فيها ، وفي خرابها ومقتل سكانها خسارة كبيرة لهم ولتجارتهن ومصالحه الأخرى ، والمعروف أن اليهودي يقدم مصلحته على كل اعتبار .

وبعد ، فذاك مجمل ما قيل عن هذا الاقتتال ، حتى إن المصادر لم تذكر اسما لهذا الاقتتال ، ولم تعده يوما ، ولا ذكرته كتب الأيام قط. أمانزاعات الأوس والخزرج مع اليهود فلم تكن أياما حقيقة ، بل كانت جولة وانتهت ، ولم تكن لهم فيها مشاركة ظاهرة على ما سيأتي عند الحديث عن علاقة الأوس والخزرج باليهود في الفصول اللاحقة. وقد حالف الأوس في حروبهما ضد الخزرج بعض القبائل العربية مثل قبيلة مُزَيَّة ، وقبائل من يهود كبنى قريظة وبنى النضير ، وحالف الخزرج ضد الأوس كذلك قبائل عربية مثل أشجع وجُهَيْنَة ، وقبيلة بني قَيْنُقَاع<sup>(١)</sup> من يهود . ولا يمكن أن نعد حروبهم ضد الأحلاف من يهود في الأيام الخارجية لهما ، بل هي أيام داخلية ضمن علاقة الحلف. ولعل مرد قلة حروبهم الخارجية يعود إلى أن حروبهم الداخلية التي اشتهروا بها قد شغلتهم عما سواها.

### أيام الأوس والخزرج في ما بينهم

لم يكن الأوس والخزرج يدُعا من القبائل ، فقد اتفقوا واختلفوا ، وتحاربوا وتصالحوا ، مثلهم في ذلك مثل بقية القبائل الأخرى التي دارت بين الإخوة منهم حروب طاحنة كحرب بكر وتغلب ، وحرب عبس وذبيان ، وغيرها .

ويرى جواد علي أن الأوس والخزرج لم يكونوا كأهل مكة من حيث الميل إلى الهدوء والاستقرار ، بل كانوا أميل إلى حياة البداوة القائمة على القتال والنزاع ، ومع أنهم قد تحضروا واستقروا إلا أنهم لم يتمكنوا من التخلص تخلصاً تاماً من الروح الأعرابية التي تنزع إلى التخاصم والتقاتل...<sup>(٢)</sup>.

وهذا كلام عام تتقصه الدقة ، فبنظرة عامة إلى أيام العرب نجد أن مجتمعات الجزيرة العربية على اختلافها حضارة وبداوة لم تتج من ويلات تلك الحروب ، فأهل مكة - مثلا -

<sup>(١)</sup>نظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٥٧١ ، وابن الأثير ، الكامل ، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢٠٠٢ ، ج ١ ، ص ٦٧٨.

<sup>(٢)</sup>انظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٤ ، ص ١٤٠-١٤١ .

الذين اشتهروا بالتجارة خاضوا أيضا حروبا ضارية مع غيرهم من القبائل في حرب الفجار وغيرها . وفي ما يأتي أشهر أيام الأوس والخزرج في ما بينهم:

### حرب سُمَيْر<sup>(١)</sup>

بعد استعانة الأوس والخزرج بأبناء عموماتهم من غساسنة الشام أصبحوا أصحاب النفوذ على اليهود . وقد أشار ابن الأثير إلى أن الأوس والخزرج ظلوا على حال اتفاق واجتماع وسلام، وكانت حرب سُمَيْر هي أول اختلاف وقع بينهم.

وكان من حديث هذه الحرب أن رجلا من قبيلة ذبيان اسمه كعب الثعلبي نزل على مالك بن العجلان ، وأراد أن يقيم في يثرب حليفا لمالك بن العجلان . ومرة خرج كعب الثعلبي هذا إلى سوق بني قَيْثُفَاع المعروف بسوق الجسر فرأى رجلا في يده فرس ينادي قائلا : ليأخذ هذه الفرس أعز أهل يثرب . فقال رجل : أعز يثرب فلان ، وقال آخر : بل أَحِيحَةَ بن الجُلَاح الأوسي ، وقال يهودي : بل فلان بن فلان اليهودي أفضل أهلها ، فقال كعب الثعلبي حليف مالك : مالك بن العجلان الخزرجي أعز يثرب ، وكثر القول بين الناس حتى قبل صاحب الفرس بما قال كعب الثعلبي من أن مالك بن العجلان هو أعز يثرب ، فأعطاه الفرس ، فقال كعب : ألم أقل لكم إن مالكا حليفي أعز يثرب وأفضلكم ؟ فغضب من قوله رجل من الأوس اسمه سُمَيْر بن زيد من بني عمرو بن عوف وشتمه وافترقا، وظل كعب الثعلبي حليفا لمالك ، ثم قصد كعب سوقا لهم بقباء فتعقبه سُمَيْر حتى خلا السوق فقتله .

أخبر مالك بن العجلان بقتل الثعلبي فأرسل إلى بني عمرو بن عوف يطلب قاتله ، فقالوا له: إننا لا ندري من قتله ، وترددت الرسل بينهم ، هو يطلب سُمَيْرًا وهم ينكرون قتله ، ثم عرضوا عليه الدية فقبلها وكانت دية الحليف فيهم نصف دية النسب منهم ، فأبى مالك إلا أخذ دية كاملة ، وامتنعوا من ذلك وقالوا نعطي دية الحليف وهي النصف .

اتفق الطرفان على أن يحكموا بينهم عمرو بن امرئ القيس جد عبد الله بن رَوَاحَةَ وأحد بني الحارث بن الخزرج الأكبر ، فحكم لمالك بنصف الدية كما هو العرف في يثرب ، فأبى مالك ذلك وأعلن الحرب ، واستتصر قبائل الخزرج ومنهم بنو الحارث بن الخزرج الأكبر ، فرفضوا أن يناصروه لخروجه عن العرف المعمول به ، وأرسل مالك إلى بني عمرو بن

<sup>(١)</sup> انظر خبر هذا اليوم عند : الأصفهاني ، الأغاني ، ج٣ ، ص٢١ ، ٤١ ، وابن الجوزي ، زاد المسير في علم التفسير ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٤ هـ ، ج١ ، ص ١١٠ ، وابن الأثير ، الكامل ، ج١ ، ص ٥٣٩ ، ، وابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ ، ج٢ ، ص ٤٤١ ، ، واليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ج٢ ، ص ٣٧ ، ، ومحمد أحمد جاد المولى وآخرين ، أيام العرب في الجاهلية ، ص ٦٢ ، ود.ناصر الدين الأسد ، ديوان قيس بن الخطيم (تعليقاته) ، ص ٢٨٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، وجواد علي ، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٤ ، ص ١٣٨ ، ود. غيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في الجاهلية ، ص ١٤٦ .

عوف يؤذنهـم بالحرب ،وتواعد الحـيان قـي فضاء واسع في منطقة قُبَاء واقتتلوا قتالا شديدا ، وكانت حرب سُمير عدة أيام أطلق على هذا اللقاء بينهم "يوم القضاء" ، وهو مكان بين بني سالم قوم مالك بن العجلان وبئر قُبَاء قرب الصُقَيْيَّة ، ثم تفرقوا وهم متعادلون .

أما اليوم الثاني من أيام حرب سُمير فقد أطلق عليه "يوم أطم بني قَيْنُقَاع" ، وهو مكان بعيد عن منازلهم التقوا فيه ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وكان رئيس الأوس فيه أُحِيحَةَ بن الجُلَّاح الأوسي، وفيه أصيب نَصْلَةُ بن مالك بن العجلان.

واستمرت على ذلك حرب سُمير ،ثم حكموا بينهم ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي والد حسان بن ثابت ، لكن ثابت بن المنذر بن حرام رفض قبول التحكيم خوفا من أن يرفضوا حكمه كما رفضوا حكم عمرو بن امرئ القيس ، فوعده أن يقبلوا حكمه فحكم لمالك في حليفه بدية كاملة أي دية الصريح ، ثم تعود السنة بعدها على ما كانت عليه ، الصريح على ديته والحليف على ديته ، وحكم بأن تعد القتلى وتدفع دية من زاد من الفريقين ،فرضي الجميع بذلك وافترقوا ، ولم تكن هذه الحرب هي نهاية المطاف عندهم، فقد استحكمت بغضاء خفية قد شبت في نفوسهم ، وتمكنت العداوة بينهم .

وكعادة العرب عند نشوب الحرب بين الأخوين اعتزلت بطون من الأوس والخزرج الحرب ولسان حالها يقول : "فإذا رميتُ يصيبُني سهمي".

### حرب كعب بن عمرو أو يوم الرُّحَابَةِ<sup>(١)</sup>

لم تكد تهدأ النفوس بين الأوس والخزرج بعد حرب سُمير ، ولم تكد تتدمل الجراح حتى عادت واندلعت حرب أخرى لا إخال أن لها مبررا سوى إطفاء غلة الثأر المستحكمة في النفوس جراء حرب سُمير الأنفة ، فقد كانت تلك الحرب هي الشرارة التي أضرمت النار بين القبيلتين .

وكان سبب هذه الحرب أن رجلا اسمه كعب بن عمرو من بني مازن بن النَجَّار الخزرجيين كان قد تزوج امرأة من بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج ، وكان يتردد على زوجته في ديار بني سالم التي تقع قريبا من ديار بني جَحْجَبَى الأوسيين ، فترصد له رهط من بني جَحْجَبَى وضربوه حتى الموت ،فخرج أخوه عاصم بن عمرو ومعه بنو النَجَّار

<sup>(١)</sup>الأصـفـهـاني ، الأغاني ، ج١٥ ، ص٤٧ ، وابن الأثير ، الكامل ، ج١ ، ص٥٤٠ ، ومحمد أحمد جاد المولى وآخـران ، أيام العرب في الجاهلية ، ص٦٥ ، وجواد علي ، المـفـصـل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٤ ، ص١٣٩ ، وعفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في الجاهلية ، ص١٥٠ .

جميعاً لحرب بني جَحْجَبَى ، فتلاقوا في منطقة يقال لها الرُّحَابِيَّة<sup>(١)</sup>، واقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه بنو جَحْجَبَى بقيادة أُحِيحَةَ بن الجُلَّاح الأوسي وتحصنوا بأطامهم .

وقد قرر عاصم بن عمرو أن يقتل أُحِيحَةَ بن الجُلَّاح غيلة، فأتاه وهو على باب أطمه ، فانتبه إليه أُحِيحَةُ ودخل أطمه الضَّحْيَانِ ، فرماه عاصم بسهم فأخطأه ، ثم اجتمع بنو جَحْجَبَى على عاصم ، لكنه استطاع الهرب .

وكما باغت عاصمُ أُحِيحَةَ في أطمه قرر أُحِيحَةُ أن يباغت بني النَّجَّار بالطريقة نفسها . وقد كانت زوجة أُحِيحَةَ سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خدَّاش بن عامر بن غنم بن عدي بن النَّجَّار<sup>(٢)</sup> ، فلجأت إلى حيلة تلهي بها زوجها عن مباغته قومها بني النَّجَّار ، وكان لأُحِيحَةَ منها ولد فطيم هو عمرو بن أُحِيحَةَ ، فربطت سلمى الطفل بخيط ظل يحز بجسمه طوال الليل ، فلم يستطع أُحِيحَةَ النوم من بكائه ، ثم ادعت المرض ، فبات معها يمرضها حتى أنهكه السهر فنام . قامت سلمى بعدها فتدلت بحبل من الأطم (وقد سُمِّيَتْ بسبب فعلها ذلك المتدلّية) ، وذهبت إلى قومها محذرة فاستعدوا له ، وحين هاجمهم وجد السهام تتساقط عليه من حذب وصوب ، وهزم أُحِيحَةَ وقومه الأوس في هذا اليوم. علم أُحِيحَةُ أن زوجته سلمى خدعته ، فضربها وكسر يدها ، ثم طلقها ، فتزوجها هاشم بن عبد مناف فولدت عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ ، فسلمى بنت عمرو على ذلك هي الجدة الثانية للرسول ﷺ.

### يوم السَّرَّارَة<sup>(٣)</sup>

وهو بين بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس وبني الحرث بن الخزرج ، ويأتي في ترتيبه الزمني بعد حرب كعب بن عمرو الأنفة . وفي هذا اليوم حدثت حرب شديدة كان من سببها أن رجلاً من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس قتله رجل من بني الحارث بن الخزرج .

(١) هو أحد أطام المدينة المنورة لم تُحدد القبيلة التي تسكنه ( انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "الرحابة" ، ولسان العرب وتاج العروس ، مادة "رحب" ، ود.ناصر الدين الأسد ، ديوان قيس بن الخطيم (تعليقاته) ، ص ٢٧٢ . وذكر السمهودي أنه اسم مزرعة بالحرّة الغربيّة من ديار بني بَيَاضَة ، وقد ضبطه بفتح الراء على وزن سحابة خلافاً للبقية) انظر السمهودي ، وفاء الوفا ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ، وج ٣ ، ص ٢٤١ ، وج ٤ ، ص ٢٨٧).

(٢) انظر نسبها وشيئاً عنها عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٨٣ .

(٣) السَّرَّارَة : موضع في المدينة قرب سوقها ، وقعت فيه هذه الحرب ( انظر اسم المكان وخبر هذا اليوم عند : البكري ، معجم ما استعجم ، مادة "السَّرَّارَة" ، وابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٤١ ، واليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٧ ، وابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ج ٢ ، ص ٤٤١ ، والسمهودي ، وفاء الوفا ، ج ١ ، ص ٣٦٩ ، ود.ناصر الدين الأسد ، ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ، ود.عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص ١٥٠ ).

قام بنو عمرو بن عوف بعد ذلك بالترصد للقاتل ، وقاموا بقتله غيلة ، فلما علم بنو الحارث بن الخزرج بالهيئة التي قتل بها صاحبهم استعدوا للقتال ، وأرسلوا إلى بني عمرو بن عوف يؤذنونهم بالحرب فالتقوا بالسَّرَّارة ، وكان على الأوس الحُضَيْرُ بن سِمَاك والد أسيد بن الحُضَيْر ، وعلى الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان رأس المنافقين في الإسلام ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فصبرت الخزرج فيه أربعة أيام حتى انصرفت الأوس إلى دورها ، فَعَدَّ ذلك نصرا للخزرج وفرارا للأوس ، وعُيِّر عبدُالله بن أبي بن سلول هذا الفرار .

### حرب الحُصَيْن بن الأُسَلْت<sup>(١)</sup>

كان السبب فيها أن رجلا من بني مازن بن النَّجَّار الخزرجيين اختصم مع الحُصَيْن بن الأُسَلْت أخي أبي قيس بن الأُسَلْت الأوسي الشاعر ، وهما من بني وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس ، فقام الحُصَيْن بن الأُسَلْت بقتل الخزرجي .

ترصد بعدها للحُصَيْن جماعة من الخزرج فقتلوه ، فعلم أبو قيس بن الأُسَلْت بالخبر فأقسم أن يثأر لأخيه ، ثم جمع حوله قومه بني وائل بن زيد ، ولم يكتف بذلك فجمع الأوس حتى لم يتخلف منهم أحد ، وفعل بنو مازن بن النَّجَّار الأمر نفسه . دارت بين الأوس والخزرج معركة كبيرة تمكن فيه أبو قيس بن الأُسَلْت من أن يثأر ممن قتلوا أخاه ، ثم ما لبثت أن دارت الدائرة على الأوس فانهمزوا ، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، حتى حمل وَحَوْحُ بن الأُسَلْت أخاه أبا قيس هزيمتهم في هذا اليوم .

### يوم الرُّبَيْع (أو حرب ربيع الظفري)<sup>(٢)</sup>

سمى ابن الأثير هذا اليوم "حرب ربيع الظفري" ، أما بقية المصادر فسمته "يوم الربيع" . وقد اختلف في ضبط لفظ (الربيع) ، فذكر البكري في ضبطه وجهين<sup>(٣)</sup> :

الأول : الرُّبَيْع بضم أوله تصغير رُبْع ، وأورد قول قيس بن الخُطيم :

ونحنُ الفوارس يومَ الرُّبَيْعِ ———— قد علموا كيفَ فرسانها

الثاني : الرُّبَيْع : بفتح أوله وكسر ثانيه ، بلفظ ربيع الأزمنة .

<sup>(١)</sup> انظر خبر هذا اليوم عند : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٤٤ ، ود. ناصر الدين الأسد ، ديوان قيس بن الخطيم (تعليقاته) ، ص ٢٧٢ ، ود. عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص ١٥١ .

<sup>(٢)</sup> انظر هذا اليوم عند : الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٣ ، ص ١١-١٢ ، والبكري ، معجم ما استعجم ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "ربيع" ، وابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٤٥ ، ولسان العرب ، والقاموس المحيط ، مادة "ربيع" ، ، والسمهودي ، وفاء الوفا ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ ، وتاج العروس ، مادة "ربيع" ، ، وديوان قيس بن الخطيم (تعليقات كلام الدكتور ناصر الدين الأسد) ، ص ٢٦٤ .

<sup>(٣)</sup> انظر البكري ، معجم ما استعجم ، مادة "ربيع" .

ولعل الوجه في ذلك هو الأول ، فله ما يقويه ، إذ لم يذكر الوجه الثاني غير البكري ، أما بقية المصادر فلم تلتفت إليه<sup>(١)</sup> . وإلى ذلك ذهب ناصر الدين الأسد فضبط الاسم بلفظ التكبير حين أورد بيت قيس بن الخطيم في تحقيقه ديوان قيس بن الخطيم<sup>(٢)</sup> . وكما اختلف في ضبط اسم هذا اليوم اختلف أيضا في سبب هذه التسمية على أقوال ثلاثة :

**الأول :** ذهب بعضهم إلى أنه موضع قرب المدينة<sup>(٣)</sup> ، ومعنى الربيع على ذلك : الجدول الصغير ، كما روي عن ابن السكيت<sup>(٤)</sup> .

**الثاني :** جعله ابن الأثير يوما مستقلا عن حرب ربيع الظفري على ما أسلفنا فيها ، وذكر أن الربيع اسم حائط (بستان) في ناحية السفح جرت فيه الحرب<sup>(٥)</sup> ، في حين أن معظم المصادر جعلتهما يوما واحدا ، وأوردت شاهدا عليه قول قيس بن الخطيم السابق . ويرى الخطراوي - وهو من أهل المدينة المنورة - أن المقصود بالسفح في قول ابن الأثير هو سفح جبل سلع بالمدينة المنورة<sup>(٦)</sup> .

**الثالث :** أن الربيع اسم رجل من بني ظفر (كعب) بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس كان سببا في هذه الحرب<sup>(٧)</sup> .

وأرى أن الوجه الثالث هذا هو الأظهر ، فهو يتفق تماما مع رواية ابن الأثير من أن حرب الربيع قد جرت بين بني ظفر الأوسيين ، وبني النّجّار الخزرجيين ، خاصة أن ابن الأثير هو المصدر الأساس عن هذا اليوم ومجرياته ، أما بقية المصادر فقد اكتفت بالإشارة إلى اسم هذا اليوم وبحديث عابر حوله . ويذكر ابن الأثير في سبب هذا اليوم أن رجلا اسمه ربيع الظفري مر في أرض رجل من بني مالك بن النّجّار الخزرجيين ، فحاول النّجّاري منعه فتقاتلا ، فقتله ربيع الظفري ، فنشبت بينهما الحرب .

(١) ممن ضبطه بلفظ ربيع الأزمنة : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة " ربيع " ، ولسان العرب والقاموس المحيط ، مادة ، " ربيع " ، والسمهودي ، وفاء الوفا ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٦٩ .

(٣) السمهودي ، وفاء الوفا ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة " ربيع " .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥٠ .

(٦) محمد العيد الخطراوي ، شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج ، ص ١٣٣ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٤٥ .



## حرب فارع<sup>(١)</sup>

ذكر ابن الأثير من خبر هذا اليوم أن رجلا من قبيلة بليّ أتاه ابن أخ له يزوره ، وكان هذا البلويُّ جارا لمعاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي والد الصحابي سعد بن معاذ ، فقام رجل من بني النَّجَّار بالتحرش بهذا البلوي وإهانته حتى أدى به ذلك إلى قتل البلوي ، فسمع معاذ بالأمر فغضب غضبا شديدا ، وطلب من بني النَّجَّار أن يرسلوا دية جاره ، أو يرسلوا قاتله ليقبض منه ، فرفض بنو النَّجَّار الخزرجيون الأمرين ، فتوعد رجل من بني الأشهل الأوسيين أن يقتلوا بجارهم البلوي عمرو بن الإطنابة الخزرجي ، وكان قد ملك الحجاز . أدى تعنت بني النَّجَّار وإصرارهم على موقفهم إلى تصميم معاذ بن النعمان على الحرب ، وتجهز الفريقان والتقوا عند فارع حتى تدخل عمرو بن الإطنابة وتحمل دية البلويِّ القتل وأصلح بني الحيين .

## حرب حاطب<sup>(٢)</sup>

نسبة إلى رجل اسمه حاطب ، وهو حاطب بن الحارث بن قيس بن هَيْشَةَ بن الحارث بن أمية بن معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .  
ويذكر ابن الأثير من سبب هذه الحرب أن حاطبا كان رجلا شريفا سيدا ، فأتاه رجل من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ونزل عليه . ويوما غدا الذبياني إلى سوق بني قَيْنُقَاع ، فراه يزيد بن الحارث المعروف باسم ابن فُسْحَم (وهي أمه) ، وهو من بني الحارث بن الخزرج ، فأراد أن يهزأ بالذبياني ، فطلب من رجل يهودي اسمه يزيد بن الحارث اليهودي أن يصفع الذبياني على أن يعطيه رداءه ، فقام اليهودي فصفعه صفقة سمعها أهل السوق ، فلما أخبر حاطب بالأمر جاء وقتل اليهودي ، وتبعه ابن فُسْحَم ليقبضه فلم يدركه ، فقتل رجلا من بني معاوية من الأوس .

(١) فارع : أطم بالمدينة لحسان بن ثابت سبق بيانه في "أطام المدينة". وانظر خبر هذا اليوم عند : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٤٦ ، والسمهودي ، وفاء الوفا ، ج ١ ، ص ٣٧٧ ، ٣٨٤ ، وديوان قيس بن الخطيم (تعليقات د. ناصر الدين الأسد) ، ص ٢٨٨ .

(٢) انظر خبر هذه الحرب عند : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، والقاللي ، الأمالي ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ، وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٣٥ ، والبكري ، معجم ما استعجم ، مادة "السراة" ، وابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٤٩ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨٤ ج ٣ ، ص ١٥٥ ، وابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ ، ، وتاج العروس ، مادة "حطب" ، ومحمد جاد المولى وآخرين ، أيام العرب في الجاهلية ، ص ٧٢ ، ود. ناصر الدين الأسد ، ديوان قيس بن الخطيم (تعليقاته) ، ص ٢٧٢-٢٧٣ ، ود. عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص ١٥١ .

ثارت بينهما الحرب بعدما حدث ، والتقوا على جسر ردم بني الحارث بن الخزرج ، وقد كان قائد الخزرج في هذه الحرب عمرو بن النعمان البياضي ، وقائد الأوس حُضَيْر بن سماك الأشهلي (حُضَيْر الكتائب).

لما علم بنو ذبيان بتجهز الحيين للحرب خرج إليهما عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، وخيار بن مالك بن حماد الفزاري ، فقدموا المدينة وتحدثا مع الأوس والخزرج في الصلح ، وضمنوا أن يتحملا كل ما يدعي بعضهم على بعض ، فأبوا ، ووقعت الحرب عند الجسر ، فكان الظفر يومئذ للخزرج ، وهذا اليوم من أشهر أيامهم ، ويطلق عليه أحيانا يوم الجسر .

### يوم البقيع<sup>(١)</sup>

بعد حرب حاطب التقي الأوس والخزرج ببقيع الغرقد فاقتتلوا قتالا شديدا وكان النصر للأوس ، وقد كان هذا اليوم وما يليه - عدا يوم بُعَاث - من أسباب حرب حاطب الأنفة.

### يوم الغرس<sup>(٢)</sup>

كان أبو قيس بن الأسلت رئيس الأوس في حرب حاطب التي قادها حُضَيْر بن سماك الأشهلي ، وقد شعر أنه لم يكن جديرا بهذه الرئاسة لانهازم الأوس في حاطب إبان رئاسته ، فقال للأوس: ما كنت رئيس قوم قط إلا هزموا ، فرئسوا عليكم من أحببتهم ، فرأسوا عليهم حُضَيْر الكتائب بن سماك الأشهلي ، فالتقى الأوس والخزرج بمكان يقال له الغرس ، فكان الظفر للأوس ، ثم اصطلحوا على أن يحسبوا القتلى فمن زاد قتلاه عن الآخر أخذ ديته ، فكانت قتلى الأوس تزيد عن الخزرج بثلاثة ، فرهنت الخزرج ثلاثة غلمان عند الأوس حتى دفع الدية ، لكن الأوس غدرت بالخزرج وقتلت الغلمان .

### يوم الفجار الأول

وحرب الفجار هذه هي التي كانت بين الأوس والخزرج ، وهي تختلف عن حرب الفجار بين كنانة وقيس ، يلي يوم الفجار يوم الغرس السابق ، وهو مسبب عنه ، فقد اشتعلت بعد أن قتلت الأوس الغلمان الثلاثة ، والتقى الفريقان بالحديقة ، وعلى الخزرج عبد الله بن أبي بن

<sup>(١)</sup> ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥٠ ، ود. عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص ١٥٢ .

<sup>(٢)</sup> الغرس : بفتح الغين وسكون الراء ، بئر بالمدينة . قال الواقدي : كانت منازل بني النضير بناحية الغرس (انظر: لسان العرب ، مادة "غرس" ) ، وانظر خبر هذه الحرب عند : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥١ .

سَلُول ، وعلى الأوس أبو قيس بن الأسَلْت فاقْتَتَلُوا قتالا شديدا حتى كاد بعضهم يفني بعضا . وقد سمي ذلك اليوم يوم الفِجار لغيرهم بالغلمان ، وهو الفِجار الأول، ويسمى أيضا يوم الحديقة<sup>(١)</sup> .

### يوم معبَس ومُضَرَّس<sup>(٢)</sup>

بعد يوم الحديقة التقى الحيان في معبَس ومُضَرَّس ، فكانت الخزرج وراء مُضَرَّس والأوس وراء معبَس . ظل الفريقان يقتتلان قتالا شديدا أياما حتى انهزمت الأوس هزيمة نكراء لم تنهزم مثَلها ، ودخلت البيوت والآطام . قام إثر ذلك بنو عمرو بن عوف وبنو أوس مائة من الأوس بموادة الخزرج ، لكن بني عبد الأشهل وبني ظفر وغيرهم من الأوس امتنعوا من الموادة حتى يأخذوا ثأرهم من الخزرج .

اشتدت وطأة الخزرج على الأوس حتى اضطر بنو عمرو بن عوف وبنو أوس بن مائة إلى الرضوخ للموادة . قرر بنو عبد الأشهل -بعد رفض الموادة -وغيرهم ممن رفضها من الأوس الانتقال من المدينة ، ثم قامت بنو سلمة بالإغارة على مال لبني الأشهل يقال له الرِّعْل ، فقاتلوه عليه فجرح سعد بن معاذ الأشهلي جراحة شديدة ، واحتمله بنو سلمة إلى عمرو بن الجموح الخزرجي فأجاره وأجار الرعل من الحريق وقطع الأشجار سارت الأوس إلى مكة لتحالف قريشا على الخزرج وأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكانت عادتهم أنه إذا أراد أحدهم العمرة أو الحج لم يتعرض له خصمه ، ويعلق المعتمر على بيته سعف النخل ، ففعلوا ذلك وساروا إلى مكة فقدموها وحالفوا قريشا وأبو جهل عمرو بن هشام المخزومي غائب ، وحين قدم أبو جهل أنكر ذلك الحلف ، وحذر قريشا من الأوس بأنهم أهل عدد وقوة ، وأنهم سيغلبونهم على بلادهم ، ويخرجوهم منها فوافقوه على قوله ، ودبر حيلة للتخلص من هذا الحلف ، فجاء الأوس وقال لهم: "إنكم حالفتُم قومي وأنا غائب فجنّت لأحالفكم ، وأذكر لكم من أمرنا ما تكونون بعده على رأس أمركم . إنا قوم تخرج إماؤنا إلى أسواقنا ولا يزال الرجل منا يدرك الأمة فيضرب عجيزتها، فإن طابت أنفسكم أن تفعل نساؤكم مثل ما تفعل نساؤنا حالفناكم ، وإن كرهتم ذلك فردوا إلينا حلفنا، فرفض الأنصار هذا الفعل وكانت فيهم غيرة ، فردوا إلى قريش حلفها ، وعادوا إلى بلادهم .

<sup>(١)</sup> الحديقة : قرية من أغراض المدينة . انظر اسم هذا اليوم وخبره عند : الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٣ ، ص ٩ ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "الحديقة" ، وابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥٢ ، وتاج العروس ، مادة "حنق" .

<sup>(٢)</sup> ذكره الأصفهاني باسم "يوم مغلس ومُضَرَّس" (الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٧ ، ص ١٢٩) ، ومُضَرَّس ومُعَبَس أو مُغَلَس ومُضَرَّس حائطان (بستانان) من النخيل ، ويسمى أيضا يوم الرِّعْل ، والرِّعْل مال لبني عبد الأشهل (ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥٣) ، وانظر حديثا عن هذا اليوم في متن ديوان قيس بن الخطيم (عن ابن السكيت وغيره) ، ص ١٧٩ ، وتعليق ناصر الدين الأسد ص ١٧٩ ، حاشية (١) ، وتعليقه ص ٢٩٠ من الديوان .

## يوم الفجار الثاني<sup>(١)</sup>

حين عادت الأوس من مكة إلى المدينة طلبت من يهود بني قريظة والنضير أن يحالفوهم على الخزرج ، فلما علمت الخزرج أرسلوا إلى اليهود يؤذنونهم بالحرب ، فقالت اليهود : لا نريد محالفة الأوس ، فأخذت الخزرج رُهناً على ذلك أربعين غلاماً من قريظة والنضير . وقد شرب يزيد بن فسحُم الخزرجي يوماً ، فسكر فتغنى بشعر يذكر فيه ما فعل قومه الخزرج مع يهود بني قريظة والنضير ، وذلك إذ يقول :

هَلُمَّ إِلَى الْأَحْلَافِ إِذْ رَقَّ عَظْمُهُمْ      وَإِذْ أَصْلَحُوا مَا لَا بِجُدْمَانَ<sup>(٢)</sup> ضَائِعَا  
وَذَاكَ بَأْتًا حِينَ نَلْقَى عَدَوْتَنَا      نَصُولُ بِضَرْبِ يَتْرَكَ الْعِزَّ خَاشِعَا

فبلغ قوله قريظة والنضير ، فغضبوا ، وقال كعب بن أسد : نحن كما قال إن لم نقاتل ، فحالف الأوس على الخزرج ، فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كل من عندهم من أولاد بني قريظة والنضير الأربعين ، وأطلقوا نفراً منهم سُلَيْمَ بن أسد القرظي ، واجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج فاقتتلوا قتالاً شديداً وسمي ذلك اليوم يوم الفجار الثاني لقتل الغلمان من اليهود . ويذكر ابن الأثير رواية أخرى في قتل الغلمان ، وهي أن عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي قال لقومه بني بياضة : إن أباكم أنزلكم منزلة سوء ، والله لا يمس رأسي ماءً حتى أنزلكم منازل قريظة والنضير ، أو أقتل رُهْنَهُمْ ، وكانت منازل قريظة والنضير خير البقاع ، ثم أرسل عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي إلى قريظة والنضير يخبرهم أن يتركوا لهم ديارهم أو يقتلوا الرهائن<sup>(٣)</sup> .

عزم بنو قريظة والنضير على أن يخرجوا من ديارهم ، لكن كعب بن أسيد القرظي حرضهم على الدفاع عن ديارهم والتضحية بالغلمان فوافقوا ، فقام عمرو بن النعمان بقتل الغلمان . لم يكن فعل عمرو بن النعمان موضع اتفاق بين الخزرج ، فقد خالفه في ذلك جماعة من قومه ، منهم عبد الله بن أبي سلول (زعيم المنافقين في عهد الرسول ﷺ) وغيره ، فقال : هذا بغى وإثم ، ونهاه عن قتلهم وقتال قومهم من الأوس ، وأطلق هو وجماعته سُلَيْمَ بن أسد القرظي .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥٢ .

(٢) جذمان على وزن عثمان : موضع فيه أطم من أطام المدينة ، سمي بذلك لأن الملك بُعِثَ لما غزا يثرب كان قد قطع فيها نخلاً لبني الحارث ابن الخزرج من أنصافها ، فسمي الموضع جذمان (انظر : البكري ، معجم ما استعجم ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "جذمان" ، والسمهودي ، وفاء الوفا ، ج ٤ ، ص ٢٠٦) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥٣ .

بعد قتل الخزرج لغلان اليهود ،حالفت قريظة والنضير الأوس على الخزرج وجرى بينهم قتال ، وقد سمي ذلك اليوم يوم الفجار الثاني . وبعد أن يورد ابن الأثير الروايتين السابقتين رجَّح أن الرواية الثانية هي الأنسب لتسمية هذا اليوم بيوم الفجار ، وأما الرواية الأولى فلا تتناسب هذه التسمية ، لأن الخزرج قتل الغلمان جزاء غدر اليهود ومحالفتهم الأوس ، ثم عاد ورأى أنه من الممكن أن يكون قد سمي فجَّاراً بسبب غدر اليهود ، لا بسبب الجزاء على غدرهم <sup>(١)</sup> .

### يوم بُعَاث<sup>(٢)</sup>

جدد بنو قريظة والنضير العهد مع الأوس على المؤازرة والتناصر واستحكم أمرهم ، ودخلت معهم قبائل أخرى من اليهود . سمعت بذلك الخزرج فجمعت وحشدت وراست حلفاءها من قبيلتي أشجع وجُهينة ، وراست الأوس حلفاءها قبيلة مُزينة ، ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب والنقوا ببُعَاث<sup>(٣)</sup> ، وعلى الأوس حُضَيْر الكتائب بن سِمَاك ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، وتخلف عبد الله بن أبي سُلُول مع من تبعه عن الخزرج ، وتخلف بنو حارثه بن الحارث عن الأوس .

ولما التقى الفريقان اقتتلوا قتالاً شديداً ، وانهزمت الأوس ، لكن حُضَيْر الكتائب برك على الأرض وطعن قدمه بسنان رمحه ، وصمم ألا يعود حتى يقتل ولو تركه قومه، فعاد قومه إليه لما رأوا ذلك وقاتلوا معه ، حتى أصيب عمرو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج بسهم لا يدرى راميه ، وحمله قومه مقتولاً في عباءة ، فمر بهم عبد الله بن أبي سُلُول الخزرجي الذي اعتزل الحرب ، فلما رآه قال له : ذق وبال البغي ، وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الأوس

<sup>(١)</sup> المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥٤ .

<sup>(٢)</sup> انظر خبر هذا اليوم عند : الخليل بن أحمد ، كتاب العين ، مادة "بعث" (بالغين) ، وابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٥٨٩ ، وابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٤٤٤ ، والأصفهاني ، الأغاني ، ج ٣ ، ص ١٠ ، وج ١٧ ، ص ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، وج ٢٢ ، ص ١٣٣ ، والوزير المغربي ، الإنباس في علم الأنساب ، ص ٣٣ ، ٣٤ ، وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٦ ، والبكري ، معجم ما استعجم ، مادة "بُعَاث" ، والميداني ، مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ص ٤٤١ ، وابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥٥ ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "بُعَاث" ، وابن منظور ، لسان العرب ، مادة "بعث" ، وابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ج ٣ ، ص ٦٠١ ، والقاموس المحيط ، مادة "بعث" ، وابن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٠٩ ، مادة ، والسمهودي ، وفاء الوفا ، ج ١ ، ص ٣٨٤ ، بو البغدادي ، خزنة الأدب ، ج ٣ ، ص ٤١٠ ، وج ٧ ، ص ٢٧ ، ٣٥ ، والسيوطي ، المزهري ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، وتاج العروس ، مادة : "بعث" ، ومحمد أحمد جاد المولى وآخرين ، أيام العرب في الجاهلية ، ص ٧٣ ، و د . ناصر الدين الأسد ، ديوان قيس بن الخطيم (تعليقاته وحواشيه على الديوان) ، ص ٢٥٣ ، و د . عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص ١٥ .

<sup>(٣)</sup> بُعَاث بضم أوله ، وآخره ثاء مثلثة ، وهو موضع على ليلتين من المدينة ، وقال بعضهم : هو من أموال بني قريظة فيها مزرعة يقال لها : قَوْزَا أو قَوْزَى ( انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "بُعَاث" ) ، وذكر صاحب اللسان أنه حصن للأوس ( لسان العرب ، مادة "بعث" ) ، ومنهم من ذكره بالغين والمعجمة وبالعين معا كالخليل بن أحمد الفراهيدي ( كتاب العين ، مادة "بعث" ) ، ولم يورده بالغين غير الخليل . قال أبو أحمد السكري : هو تصحيف . وقال صاحب كتاب المطالع والمشارك : بُعَاث بضم أوله وعين مهملة ، وهو المشهور فيه ( انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "بُعَاث" ) .

السلاح ، فصاح صائح يا معشر الأوس : أحسنوا ولا تهلكوا أخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب (يعني اليهود) ، فانتَهَوْا عنهم ولم يسلبوهم ، وإنما سلبهم قريظة والنضير .

حملت الأوس حُضَيْرَ الكتائب مجروحا فمات ، وقامت الأوس فأحرقت دور الخزرج ونخيلهم فأجار سعد بن معاذ الأشهلي أموال بني سلمة ونخليهم ودورهم جزاء بما فعلوا له في الرِّعْل ، وَنَجَّى يومئذ الزبيرُ بن إياس الأوسي ثابتَ بن قيس بن شَمَّاس الخزرجي ، أخذه فجز ناصيته وأطلقه ، وهي اليد التي جازاه بها ثابت في الإسلام يوم بني قريظة . وقد كان يوم بُعَاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ، وهو من أعظم حروب العرب المتصلة بالإسلام فضلا عن حرب البسوس وداحس والغبراء على ما ذكر الراغب الأصفهاني<sup>(١)</sup> ، وكان يوم بُعَاث قبل الهجرة بخمس سنين على الأصح<sup>(٢)</sup> .

هذا ، وقد كانت حروب الأوس والخزرج أطول حروب العرب قاطبة ، فقد استغرقت ما يزيد على مئة سنة<sup>(٣)</sup> ، ثم اتفقت بعد حرب بُعَاث كلمة الأوس والخزرج بمجيء الإسلام ، واجتمعوا على نصرته الإسلام وأهله ، وبدأت مرحلة جديدة .

<sup>(١)</sup> الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، تحقيق : عمر الطباع ، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩ ، ج ٢ ، ٢٨٦ .

<sup>(٢)</sup> البغدادي ، خزنة الأدب ، ج ٣ ، ص ٤١١ .

<sup>(٣)</sup> ذكر ابن الأثير أن بين حرب سُمَيْر (وهي أول حرب ) وحرب حاطب (وهي قبل بُعَاث) نحو مئة سنة (انظر ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥٧) .

### الشعر في الأوس والخزرج

- صورة عامة للشعر والشعراء في قبيلتي الأوس والخزرج
- مصادر شعر الأوس والخزرج
- مقارنة بين الأوس والخزرج في مقدار الشعر
- القيمة التاريخية والأدبية واللغوية لشعر الأوس والخزرج

## الشعر في الأوس والخزرج

### صورة عامة للشعر والشعراء في قبيلتي الأوس والخزرج

نص العلماء على وجود دواوين للقبائل ، وأنها ضاعت كلها ، ولم يصل إلينا منها سوى أشعار هُذَيْل . ويعبر العلماء الرواة عن ديوان القبيلة بصيغ مختلفة ، فيقولون : أشعار بني فلان<sup>(١)</sup> ، أو شعر بني فلان<sup>(٢)</sup> ، أو كتاب بني فلان<sup>(٣)</sup> ، وكل تلك الصيغ يراد بها ديوان القبيلة ، فماذا يضم هذا الديوان ؟

يفصل القول في ذلك ناصر الدين الأسد<sup>(٤)</sup> ، و يخلص إلى القول بأن كتب القبائل - في جوهرها - مجموعات شعرية تضم بين دفتيها قصائد كاملة ، ومقطعات قصيرة ، وأبياتا متفرقة لشعراء تلك القبيلة أو لبعض شعرائها ، وربما ضمت أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، بل ربما ضمت جميع شعر شاعر منهم وديوانه كاملا ، ثم تضيف على ذلك من الأخبار والنسب والقصص والأحاديث ما يتصل بالشاعر نفسه ، أو ببعض أفراد قبيلته ، وما يوضح مناسبات القصائد ، ويفسر أبياتها ، ويبين ما فيها من حوادث تاريخية ، فيجيء بذلك كتاب القبيلة سجلا لحوادثها ووقائعها ، وديوانا لمفاخرها ومناقبها ، ومعرضا لشعر شعرائها<sup>(٥)</sup> .

وقد استقصى ناصر الدين الأسد دواوين تلك القبائل من كتاب المؤلف والمختلف للآمدي ، وكتاب الفهرست لابن النديم ، ، فوجد أن الآمدي قد ذكر ستين ديوانا لستين قبيلة ، وأن ابن النديم ذكر تسعة وعشرين ديوانا ، ثم قام بإثبات أسماء هذه الدواوين كلها<sup>(٦)</sup> . ومع شهرة الأوس والخزرج إلا أن الناظر في تلك الدواوين التي أثبتها الأسد لا يجد فيها ديوانا للأوس والخزرج ، أو للأنصار .

وقد رجعتُ البحث في كتاب المؤلف والمختلف للآمدي الذي استقى منه الأسد تلك الدواوين الستين مستعينا بالنسخة الإلكترونية منه فوجدت لهم ديوانا - لم يثبتته الأسد - أورده

(١) انظر أمثلة لذلك عند الآمدي ، المؤلف والمختلف ، تحقيق : عبد الستار فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٩ ، ١٢ ، ٢٣ ، وابن النديم ، الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٢٢٦ .

(٢) انظر الآمدي ، المؤلف والمختلف ، ص ٢٣ ، ٢٨ ، ٥٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٨ ، ٥٧ ، ٧٠ ، وابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٢٦ .

(٤) انظر بيان ذلك عند د. ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٢ ، ص ٥٥١-٥٥٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٥٤ .

(٦) انظر هذه الدواوين في المصدر السابق ، ص ٥٤٣ ، ٥٤٥ .



الأمدي باسم "أشعار الأوس والخزرج" مرة واحدة ، ولم ينسبه إلى أحد ، فقال وهو يترجم لشاعر أموي من الأوس هو الأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت الأنصاري : "وقد ذكرت أشياء من أخباره ، وثبتاً من شعره مختارةً في كتاب المشهورين ، وفي "أشعار الأوس والخزرج"<sup>(١)</sup>. ولأن الكتب الإلكترونية كثيراً ما يعتريها الزلل فقد عدت إلى النسخة المطبوعة منه فوجدتهما متطابقتين .

ليس هذا فحسب ، بل لم يثبت الأسد - فضلاً عن ديوان الأوس والخزرج - أربعة دواوين أخرَ من دواوين القبائل التي ذكرها الأمدي ، وهي : أشعار بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان<sup>(٢)</sup> ، و أشعار تنوخ<sup>(٣)</sup> ، وكتاب بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن<sup>(٤)</sup> ، وكتاب بني يربوع<sup>(٥)</sup> ، وبذلك يصبح عدد الدواوين التي ذكرها الأمدي خمسة وستين ديواناً خلافاً لما ذكر ناصر الدين الأسد من أنها ستون ديواناً . وكما لم يذكر ناصر الدين الأسد ديوان الأوس والخزرج من كتاب المؤلف والمختلف للأمدي لم يذكره أيضاً في الدواوين التي ذكرها ابن النديم في الفهرست ، فقد أشار ابن النديم إلى وجود ديوان للأوس والخزرج في موضعين :  
الأول : "كتاب الأوس والخزرج" ، ونسبه إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى<sup>(٦)</sup>. وأشار إلى هذا الديوان أيضاً صاحب معجم الأدباء<sup>(٧)</sup>، وصاحب كشف الظنون<sup>(٨)</sup> ، وصاحب هدية العارفين<sup>(٩)</sup> .

الثاني : "كتاب الأوس والخزرج" ، ونسبه إلى الزبير بن بكار<sup>(١٠)</sup>. وأشار إلى هذا الكتاب أيضاً صاحب معجم الأدباء<sup>(١١)</sup> وصاحب هدية العارفين<sup>(١٢)</sup> .

(١) الأمدي ، المؤلف والمختلف ، تحقيق : عبدالستار فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٦١ .

(٦) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٨٠ .

(٧) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، تحقيق : عمر فاروق الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩ ، ج ٧ ، ص ١٢٠ .

(٨) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ .

(٩) البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٦٩٥ .

(١٠) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٦٠ . والزبير بن بكار هو أبو عبدالله الزبير بن بكر بن بكار بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي ، كان من أعيان العلماء ، وتولى القضاء بمكة وصنف الكتب النافعة ، منها كتاب "أنساب قریش" ، وغيره من المصنفات . روى عن سفيان بن عيينة ، وروى عنه ابن ماجه . توفي بمكة وهو قاض عليها سنة ٢٥٦هـ (انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ج ٢ ، ص ٣١٣) .

(١١) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ .

(١٢) البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

ومن الإشارات إلى وجود ديوان للأوس والخزرج أيضا ، ما ورد في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، فقد أشار إلى وجود ديوان للأنصار تحت اسم " أشعار الأنصار " ، ولم ينسبه إلى أحد ، فقال وهو يتحدث عن أحد شعراء الأنصار :  
 "وكان نَهيكُ بن إسافٍ يهاجي أبا الخَضِرِ الأشْهَلِيَّ في الجاهلية، وأشعارهما موجودة في "أشعار الأنصار"<sup>(١)</sup>.

مما سبق كله يتبين لنا بوضوح وجود ديوان للأوس والخزرج يضم أشعارهم وأخبارهم ، إلا أن هذا الديوان قد أتت عليه الأيام كغيره من الدواوين ، فلم يصل إلينا .  
 أما قبيلة الأزدي وهي القبيلة الأم لقبيلتي الأوس والخزرج وغيرهما فقد أورد الأُمَدي أيضا ديواناً لها<sup>(٢)</sup> ، وكذا ابن النديم<sup>(٣)</sup> . والمعلوم أن الأوس والخزرج فرعان من قبيلة الأزدي أفردهما الأُمَدي وغيره بديوان خاص بهما ، ومن قبائل الأزدي التي أفردت بديوان - غير الأوس والخزرج - قبيلة خُزاعة<sup>(٤)</sup> ، فما معنى أن يكون للأزدي ديوان خاص بهم ، ثم يكون لبعض بطون الأزدي ديوان مستقل عن القبيلة الأم؟ ولنا أن نسأل أيضا والأمر كذلك : ما القبائل التي يضمها ديوان الأزدي؟ هل يضم أشعاراً لقبائل الأوس والخزرج وخُزاعة التي أشير إلى وجود دواوين مستقلة لها؟

إن الإجابة عن السؤال الثاني بنعم تقتضي - على الأغلب - أن يكون هناك تكرار بين ما ورد في دواوين القبائل الفرعية وديوان القبيلة الأم ، وذلك يقتضي أن يكون للقبيلة الواحدة ديوانان: ديوان خاص بها، وديوان آخر ضمن القبيلة الأم التي تعود إليها، وهذا غير ممكن، لأن الذين ذكروا الدواوين لم يشيروا من قريب أو بعيد إلى وجود مثل هذا الأمر . وإذا رجَعنا النظر في إشارة الأُمَدي إلى وجود ديوان لقبيلة الأزدي ، فإننا نجد أنها قد تكررت عنده ثلاث مرات :  
**الأولى** : وهو يترجم للأغلب بن ثبَّانة الأزدي من قبيلة دَوْس ، حيث قال : "ولم أر له ذكراً في أشعار الأزدي وأظنه إسلامياً متأخراً"<sup>(٥)</sup>.

(١) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٤ ، ص ١١ .

(٢) الأُمَدي ، المؤلف والمختلف ، ص : ٢٤ ، ٣٩ ، ١٩٧ .

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٢٦ .

(٤) نسبة إلى خُزاعة (كعب) بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مُزَيَّقاء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغُطَريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزدي ، سميت بذلك الاسم لأنها اتخذت عن غيرها من قبائل اليمن بعد سيل العرم ، ونزلت ببطن مَرِّ قَرَب مكة . انظر : ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٢٧٦ ، وانظر نسب هذه القبيلة والخلاف فيه عند : ابن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ، والقلشندي ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٥) الأُمَدي ، المؤلف والمختلف ، ص ٢٤ .

**الثانية:** وهو يترجم لسُرَاقَة بن مِرْدَاس البارقي ، وهناك أشار إلى خلاف قريش مع الأزد ، ثم قال : "وخبر قريش مع الأوس في هذه القصة في كتاب الأزد في الزيادات مشروح"<sup>(١)</sup>.

**الثالثة :** وهو يترجم لجُذَيْمَة الأَبْرَش (الوَضَّاح) بن مالك ، فقد قال : "ولجُذَيْمَة في كتاب الأزد أشعار"<sup>(٢)</sup>.

وقد ورد ديوان الأزد في الإشارات الثلاث السابقة غير منسوب إلى صانع بعينه ، وكذا أورده صاحب الأغاني<sup>(٣)</sup>، وصاحب الخزانة نقلا عن الأَمْدِي<sup>(٤)</sup> دون نسبة ، غير أن آخرين أوردوه منسوباً إلى السُّكَّرِي<sup>(٥)</sup>.

وإذا عدنا إلى ما أورده الأَمْدِي وابن النديم من دواوين القبائل ، لم نجد ديوانا لقبيلة دوس ولا لقبيلة بارق -الواردتين في الإشارات الثلاث السابقة - ضمن تلك الدواوين التي ذكرها ابن النديم ، وبارق ودوس قبيلتان قليلتا الشعر والشعراء مقارنة مع الأوس والخزرج أو مع خُرَاعَة .

ونجد مثل هذا الأمر يتكرر مع قبائل أخرى من تلك التي أشير إلى وجود دواوين لها ، فقد أشار الأَمْدِي إلى وجود ديوان لقبيلة عامر بن صَعَصَعَة<sup>(٦)</sup> ، ثم أورد دواوين آخر مستقلة لبعض بطونها المشهورة كبني كِلَاب<sup>(٧)</sup>، وبني قُشَيْر<sup>(٨)</sup> ، وبني عَقِيل<sup>(٩)</sup>، وأشار أيضا إلى وجود ديوان لبني أَعَصْر<sup>(١٠)</sup> ثم أورد ديوانا مستقلا لقبيلة غَنِيَّ بن أَعَصْر<sup>(١١)</sup> ، وهو من أشهر بطون بني أَعَصْر ، ومثل ذلك عنده كثير .

وبذلك قد يمكننا القول إنه إذا كانت للقبيلة الأم بطون مُشْتَهَرَة فإننا قد نجد العلماء الرواة يصنعون لكل بطن من هذه البطون ديوانا مستقلا ، وإن الديوان الذي يعود إلى القبيلة الأم قد

(١) الأَمْدِي ، المؤلف والمختلف ، ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣) الأَصْفَهَانِي ، الأغاني ، ج ١٠ ، ص ١٦٤ .

(٤) الكِنْدَادِي ، خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ، وج ١١ ، ص ٤٠٤ .

(٥) انظر إشارات أخرى إلى ديوان الأزد منسوباً إلى السكري عند : ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٨٠ ، وياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج ٣ ، ص ٢١٢ ، والصفدي ، الوافي بالوفيات ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركلي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٠ ، ج ١١ ، ص ٣٢٥ .

(٦) الأَمْدِي ، المؤلف والمختلف ، ص ٢٤ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٩١ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

يضم شعراً لبطون مغمورة منها لا ينهض شعرها أن يكون ديواناً منفرداً لها، فيُجمع شعر مثل هذه القبائل ضمن ديوان واحد .

وإذا انتقلنا إلى مقدار ما وصل إلينا من شعر قبيلتي الأوس والخزرج ، فسنجد الأمر كما هو في باقي القبائل غير بني هذيل، فشعر الأوس والخزرج الذي وصل إلينا - عدا دواوين شعراء هاتين القبيلتين - ما هو في معظمه إلا مقطعات صغيرة، وأبيات مفردة مبتورة من قصائد مبنوثة هنا وهناك. ومع أن الأنصار (الأوس والخزرج) قد فاقوا القبائل العربية منزلة ومكانة ، إذ كانوا أنصار الله ورسوله ﷺ، وحملة الرسالة وحصنها المكين إلا أن شعرهم لم يحظ بعناية خاصة تميزهم عن غيرهم ، أما إذا عددنا من الاعتناء بشعرهم ذلك الديوان المفقود وتلك الدواوين المفردة التي جمعت لعدد من شعرائهم ، فإن ذلك أمر عام اشتركوا فيه مع عدد كبير من القبائل. ولما كانت العناية بالشعر وتوثيقه وروايته مرحلة لاحقة لظهور الإسلام ، فإننا كنا نتوقع عناية أكبر بشعر هاتين القبيلتين العظيمتين كأن يجمع مثلاً شعرهم الحربي في ديوان خاص ، لا سيما أن حروبهم قد دامت ما ينيف على قرن من الزمان ، أو يجمع شعرهما الخاص بالدعوة الإسلامية ، لكن ذلك كله لم يحدث ، فشعرهما الحربي كسائر أشعار القبائل إن لم يكن أقل ، وشعر الدعوة الإسلامية باستثناء شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رَوَاحَةَ لا يكاد يذكر .

ولا يقال إن سبب ذلك قلة الشعر في الأوس والخزرج ، فقد أفرزت حروبهم في الجاهلية شعراً كثيراً غذاه طول أمدّها ، فالشعر يكثر بالحروب ويتجدد بالأحداث ، وعلى ذلك فشعر الأوس والخزرج الجاهلي كثير، أو ينبغي أن يكون كثيراً ، لكنه فقد وبقي أقله ، ولنقف مع ابن سلام وهو الناقد البصير ليحدثنا عن ذلك فيقول : وبالطائف شعر وليس بالكثير، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم. والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة<sup>(١)</sup>، ولم يحاربوا، وذلك الذي قلل شعر عُمان<sup>(٢)</sup>. فكلّام ابن سلام فيه إشارة صريحة إلى كثرة شعر الأوس والخزرج الجاهلي خاصة ، لكننا إذا نظرنا إلى ما وصل إلينا من شعر هاتين القبيلتين الجاهلي - عدا شعر أصحاب الدواوين المفردة - وجدناه لا يتجاوز خمسمائة بيت للقبيلتين معا على ما سيأتي. ومن الممكن أن يكون

(١) نائرة : نائرة أي عداوة وشحناء. وفي الحديث: كانت بينهم نائرة أي فتنة حادثة وعداوة. ونار الحرب ونائرتها: شرّها وهيّجها(انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة "نور") .

(٢) ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ج ١ ، ص ٢٥٩

الرواة قد عمدوا إلى إغفال أكثر شعر هاتين القبيلتين قبل الإسلام لما فيه من عصبية وعداوات ، حفاظا على هاتين القبيلتين اللتين كان لهما دور عظيم في انتشار الإسلام ودعوته .

أما في الإسلام فقد نجم في الأوس والخزرج بضعة شعراء وصل إلينا معظم شعرهم في دواوين حفظها لنا الرواة ، أما شعراء هاتين القبيلتين الآخرون فقد تظفر لبعضهم ببضعة أبيات ، وقد لا تظفر بشيء بعد أن طغى شعراء الرسول ﷺ كحسان وغيره على البقية الباقية منهم ، وبعد أن صار هم القوم وسدّمهم هو الجهاد لا الشعر ، وبعد أن سقّه القرآن الشعراء - غير الملتزمين بهديه - فذم الله تعالى الشعراء عامة في سورة الشعراء ، واستثنى تلك الفئة المؤمنة .

### مصادر شعر الأوس والخزرج

يشمل الإطار الزمني لهذه الدراسة تناول شعر الأوس والخزرج على النحو الآتي :

**أولا : الشعر الجاهلي :** ويضم ذلك دراسة شعرهم الجاهلي في دواوين شعرائهم الجاهليين والمخضرمين ، وشعرهم الجاهلي الذي جمعه داود غطاشة ، مع إشارة دراستنا هذه إلى ما فاتته من ذلك الشعر وأولئك الشعراء .

**ثانيا : الشعر الإسلامي :** ويضم دراسة شعرهم الإسلامي في دواوين شعرائهم المخضرمين ، وشعرهم الإسلامي في غير الدواوين ، وهو شعر لم يُجمع ، غير أن داود غطاشة قد أشار إلى شعراء الأوس والخزرج المخضرمين ، وذكر مصادر شعرهم ، ، وغفل عن بعضهم ، وستشير هذه الدراسة إلى من لم يشر إليهم من هؤلاء ، وإلى مظان شعرهم ، كما ستقوم بدراسة هذا الشعر الذي لم يجمع بالرجوع إلى مظانه .

وفي ما يأتي بيان لمصادر شعر الأوس والخزرج في الدواوين الشعرية وخارجها :

### مصادر شعر الأوس والخزرج خارج الدواوين

#### أولا : الشعراء الجاهليون :

قام داود غطاشة بجمع شعر الأوس والخزرج في العصر الجاهلي مع ما جمع من شعر القبائل اليمانية في رسالة جامعية (دكتوراه) في الجامعة الأردنية سنة (١٩٨٦) بعنوان : "حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة" ، وكان جمَع شعر ست وأربعين قبيلة جاهلية ، لكنه استثنى من الأوس والخزرج جمع شعر شاعرين خزرجيين قديمين يقعان خارج الإطار الزمني لدراسته ، وأشار إلى خمسة شعراء من الخزرج لم يجد لهم شعرا ، وفي الجداول الثلاثة الآتية بيان لذلك :

جدول (٤) : شعراء قبيلة الأوس الجاهليون الذين جمع داود غطاشة شعرهم

م	الشاعر	عدد القطع	عدد أبياتها	مجموع الأبيات
١	إِسَافُ بْنُ عَدِيٍّ	واحدة	٢	٢
٢	بَرْدَعُ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ عَمْرٍو	اثنان	٤ ، ١٣	١٧
٣	يَشْرُ بْنُ أَبِي رِقٍّ	واحدة	٢	٢
٤	ثَعْلَبَةُ بْنُ كَعْبٍ	اثنان	١١ ، ٤	١٥
٥	حُضَيْرُ الْكَتَائِبِ الْأَشْهَلِي	واحدة	٣	٣
٦	أَبُو الْخَضِرِ الْأَشْهَلِي	واحدة	٣	٣
٧	خَوَاتُ بْنُ جُبَيْرٍ	اثنان	٢ ، ٥	٧
٨	دِرْهَمُ بْنُ زَيْدٍ	أربع	٢ ، ٨ ، ١٣ ، ٦	٢٩
٩	سُوَيْدُ بْنُ الصَّامِتِ	عشر	١ ، ٢ ، ٥ ، ٢ ، ٥ ، ٣ ، ٣ ، ٣ ، ١ ، ٢ ، ١ ، ٨ ، ٢	٣٢
١٠	عَبِيدُ بْنُ نَافِذِ بْنِ صُهَيْبَةَ	ثلاث	٦ ، ٩ ، ٤	١٩
١١	عَتِيكَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ قَيْسِ الْأَوْسِيِّ	واحدة	٩	٩
١٢	عَدِيُّ بْنُ خَرِشَةَ الْخَطْمِيِّ	اثنان	٢ ، ٢	٤
١٣	أَبُو قَيْسِ بْنِ رِفَاعَةَ الْوَاقِفِيِّ	ثمان	١ ، ١ ، ٤ ، ١٥ ، ٢ ، ١ ، ٤ ، ٧	٣٥
١٤	مُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ	اثنان	٣ ، ١	٤
١٥	نَهْيَاكُ بْنُ إِسَافٍ	خمس	١ ، ٣ ، ١ ، ١ ، ٥	١١
١٦	الْهَدْمُ بْنُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ	واحدة	٦	٦
١٧	يَزِيدُ بْنُ طُعْمَةَ	واحدة	٥	٥
مجموع شعر قبيلة الأوس في العصر الجاهلي				٢٠٣

جدول (٥) : شعراء قبيلة الخزرج الجاهليون الذين جمع داود غطاشة شعرهم

م	الشاعر	عدد القطع	عدد أبياتها	مجموع الأبيات
١	أبو أسيد السَّاعِدِي	واحدة	٢	٢
٢	أوس بن الصامت	واحدة	١	١
٣	بشير بن سعد	واحدة	٩	٩
٤	ثابت بن المنذر بن حَرَام	اثنان	١ ، ٢	٣
٥	الحسين بن سعد	واحدة	٢	٢
٦	خولة بنت ثابت	اثنان	٤ ، ٦	١٠
٧	رجل من الخزرج	واحدة	٥	٥
٨	الرَّمَق الخزرجي	اثنان	١١ ، ٢	١٣
٩	سعد بن ثعلبة بن جُلَّاس	واحدة	٣	٣
١٠	صخر بن سلمان بن الصَّمَّة	واحدة	٤	٤
١١	أبو صِرْمَة الخزرجي	اثنان	١ ، ٤	٥
١٢	صِرْمَة بن أبي أنس	ثلاث	٢٧ ، ١٥ ، ٦	٤٨
١٣	عاصم بن عمرو الخزرجي	واحدة	٣	٣
١٤	عمرو بن الإطَّابَة	اثنان عشرة	١٢ ، ١ ، ٢ ، ٢٠ ، ٢ ، ١ ، ١ ، ١ ، ١ ، ٢ ، ١١ ، ١	٥٥
١٥	عمرو بن امرئ القيس	اثنان	٢ ، ١٧	١٩
١٦	عمرو بن النعمان البَيَّاضِي	واحدة	٦	٦
١٧	الْفَرِيعَة بنت خالد	واحدة	٢	٢
١٨	ليلى بنت حسان بن ثابت	واحدة	٢	٢
١٩	مالك بن أبي كعب	خمس	٦ ، ١ ، ١٦ ، ١٦ ، ٥	٤٤
٢٠	مالك بن العَجَلَان	ست	١ ، ٢ ، ١ ، ٢١ ، ١ ، ١	٢٧
٢١	المنذر بن حَرَام	واحدة	٢	٢
٢٢	يزيد بن فُسْحَم	اثنان	٦ ، ٩	١٥
٢٨٠	مجموع شعر قبيلة الخزرج في العصر الجاهلي			
٤٨٣	المجموع العام لشعر قبيلتي الأوس والخزرج معا			

جدول (٦): شعراء جاهليون من قبيلة الخزرج لم يجد لهم داود غطاشة شعرا، وآخران خارج نطاق دراسته

اسم الشاعر	ملاحظات
أبو أنس قيس بن صيرمة الخزرجي	جاهلي لم يجد له شعرا .
أنس بن صيرمة بن مالك بن عدي بن النجار الخزرجي	جاهلي لم يجد له شعرا .
حرّام بن عمرو بن زيد مناة الخزرجي	جاهلي لم يجد له شعرا .
خالد بن عبد العزّي النجاري الخزرجي	جاهلي قديم (خارج نطاق دراسته) .
عمرو بن طلّة الخزرجي	جاهلي قديم (خارج نطاق دراسته) .



من الجداول الثلاثة السابقة نرى أن داود غطاشة قد جمع من الأوس شعر سبعة عشر شاعرا ، جاء في مئتين وثلاثة أبيات ، وجمع من الخزرج شعر اثنين وعشرين شاعرا ، جاء في مئتين وثمانين بيتا ، وبذلك يصبح مجموع ما جمعه داود غطاشة من شعر الأوس والخزرج معا أربعمئة وثلاثة وثمانين بيتا .

وكما هي العادة في جمع شعر القبائل فقد استثنى من هذا الجمع الشعراء الذين لهم دواوين مفردة ، وعليه فقد ترك داود غطاشة شعر : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رَوَاحَة من الخزرج ، وقيس بن الخطيم ، وأبي قيس بن الأسلت ، وأحيحة بن الجلاح من الأوس ، لأن هؤلاء دواوين مفردة ، أو لأن شعرهم قد جمعه وحققه باحثون محدثون ، غير أنه لم يشر إلى هذه الدواوين ولا إلى صانعيها من الرواة ولا إلى محققها وجامعيها من المحدثين.

#### ثانيا : الشعراء المخضرمون

وضع داود غطاشة قائمة بأسماء الشعراء المخضرمين من الأوس والخزرج ، وأشار إلى ميطان شعرهم دون أن يجمعه لخروجهم عن الإطار الزمني لدراسته<sup>(١)</sup> ، والجدولان الآتيان يوضحان هؤلاء الشعراء :

<sup>(١)</sup> انظر الإشارة إلى هؤلاء الشعراء عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق ١ ، ص ٢١١ .

جدول (٧): شعراء مخضرمون في قبيلة الخزرج لم يجمع داود غطاشة شعرهم

م	اسم الشاعر	ملاحظات
١	ثابت بن قيس بن شماس	شاعر مخضرم
٢	الحباب بن المنذر	شاعر مخضرم
٣	أبو دُجَانة سيمَاك بن خَرَشَة	شاعر مخضرم
٤	أبو زُغْبَة عامر بن كعب بن عامر بن خديج	شاعر مخضرم
٥	عمرة بنت رَوَاحَة	شاعرة مخضرمة
٦	عمرو بن الجَمُوح	شاعر مخضرم
٧	عُمَيْر بن حَرَام بن عمرو بن الجَمُوح	شاعر مخضرم
٨	فَرُوة بن عمرو بن وَدَقَة	شاعر مخضرم
٩	كُبَيْشَة بنت رافع	شاعرة مخضرمة
١٠	مالك بن الدُّخْشَم	شاعر مخضرم
١١	النعمان بن العَجَلان	شاعر مخضرم
١٢	وَبَرَة بن قيس الخزرجي	شاعر مخضرم

جدول (٨): شعراء مخضرمون في قبيلة الأوس لم يجمع داود غطاشة شعرهم

م	الشاعر	ملاحظات
١	خُبَيْب بن عَدِي بن مالك	شاعر مخضرم
٢	خُزَيْمَة بن ثابت بن الفاكه	شاعر مخضرم
٣	سعد بن معاذ بن النعمان	شاعر مخضرم
٤	عاصم بن ثابت بن الأقلح	شاعر مخضرم
٥	عُوَيْمِر بن ساعدة بن عائش	شاعر مخضرم

ومن النظر في الجداول الخمسة السابقة ، وفي ما جمعه دواود غطاشه ، ومنهجه في ذلك ، يمكن تسجيل الملاحظات الآتية :

١ - قام داود غطاشه بإثبات شعر عمرو بن الإطنابة الخزرجي<sup>(١)</sup> مع أن شعره قد جمعه حميد آدم ثويني<sup>(٢)</sup> قبل دراسة داود غطاشه بعلم ، غير أن داود غطاشه لم يشر إلى هذا الجمع ، ولا أثبتته في مراجعه ، مما يدل على أنه لم يقف عليه .

٢ - مع فصل داود غطاشه الجاهلية الأولى عن الثانية إلا أنه قد ترك الإشارة أيضا إلى شعراء من الجاهلية الأولى مثل جُشَم بن الخزرج ، والحارث بن عبد العزى الخزرجي ، والأوس بن حارثة ، كما ترك شعراء من الجاهلية الأخيرة - وهم في نطاق دراسته - مثل الصامت بن أصرم والد عبادة بن الصامت الصحابي المعروف ، وعمرو بن بياضة التَّجَارِي الخزرجي ، وعمرو بن رفاعه الواقفي الأوسي ، وغيرهم .

٣ - إذا تأملنا الجدولين الرابع والخامس تبين لنا أن داود غطاشه قد وقع في ما يخالف منهجه ، فقد ترك جمع شعر أولئك الشعراء الواردين في الجدولين لأنهم مخضرمون ، ودراسته تتعلق بالجاهليين فحسب ، لكننا نجده قد خالف منهجه هذا حين قام بجمع شعر شعراء مخضرمين من الصحابة مثل : أبي أسيد الساعدي الخزرجي<sup>(٣)</sup> ، وبشير بن سعد الخزرجي<sup>(٤)</sup> ، وخَوَات بن جُبَيْر الأوسي<sup>(٥)</sup> ، وسويد بن الصامت الأوسي<sup>(٦)</sup> ، وغيرهم ممن وردت أسماؤهم في الجدولين الثاني والثالث .

٤ - ترك داود غطاشه الإشارة إلى شعراء مخضرمين آخرين مثل: عمرو بن أُحِيحة ، وبرَدَع بن زيد ، ورفاعة بن خالد ، وغيرهم .

وإذ لم يكن من منهجي في هذه الدراسة أن أجمع الشعر ، فإنني سأشير إلى هؤلاء الشعراء وأضرابهم ممن غادرهم داود غطاشه مع توظيف جانب من شعرهم في الدراسة الموضوعية والفنية ، وفي ما يأتي بيان ذلك :

(١) انظر دراسته ، ملحق ١ ، ص ١٥٣ .

(٢) حميد آدم ثويني ، عمرو بن الإطنابة الخزرجي: حياته وما تبقى من شعره ، مجلة المورد ، بغداد ، المجلد ١٤ ، عدد ١٩٨٥ ، ص ٨١-١٠٤ .

(٣) انظر شعره عند داود غطاشه ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق ١ ، ص ١٢٠ . وقد نص على صحبته : ابن حجر العسقلاني ، الإصابة ، ج ٧ ، ص ١٧ .

(٤) انظر شعره في الدراسة السابقة ، ملحق ١ ، ص ١٢٣ ، والنص على صحبته في الإصابة ، ج ١ ، ص ٣١١ .

(٥) انظر شعره في الدراسة السابقة ، ملحق ١ ، ص ٢٣٠ ، والنص على صحبته في الإصابة ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٦) انظر شعره في الدراسة السابقة ، ملحق ١ ، ص ٢٤٣ ، والنص على صحبته في الإصابة ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

### — شعراء جاهليون قدماء (من الجاهلية الأولى) لم يشر إليهم داود غطاشة

- ١- الأوس بن حارثة : أبو القبيلة ، وأخو الخزرج ، أورد له الخرائطي كلاما يوصي به ابنه مالك بن الأوس ، ثم ساق له تسعة أبيات<sup>(١)</sup> .
- ٢- جُشَم بن الخزرج الأكبر : ذكره ابن سلام في معرض حديثٍ ، وأورد له أرجوزة من واحد وثلاثين شطرا ، نسبها إليه وإلى الأغلب العجلي<sup>(٢)</sup> .
- ٣- الحارث بن عبد العُزَّى الخزرجي : ذكره المَرزُباني ، وأورد له بيتين<sup>(٣)</sup> .

### — شعراء من الجاهلية الأخيرة لم يجمع داود غطاشة شعرهم ولم يشر إليهم

- ١- سُوَيْد بن شبيب الأوسي : قيل إنه جاهلي قتل يوم بُعَاث الذي وقع بين الأوس والخزرج قبيل البعثة النبوية ، وذكرت بعض المراجع أنه مخضرم ، أسلم وشهد أحدا مع النبي ﷺ<sup>(٤)</sup> ، ولم أعثر له على شعر قط .
- ٢- الصامت بن أصرم القوقلي الخزرجي ، والد عبادة بن الصامت الصحابي ، ذكره صاحب الأغاني وأورد له ثلاثة أبيات<sup>(٥)</sup> .
- ٣- عمرو بن بَيَاضة النَّجَّاري الخزرجي : ذكره المَرزُباني ، وأورد له بيتين يخاطب فيهما عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ<sup>(٦)</sup> .
- ٤- عمرو بن رفاعة الواقفي الأوسي : ذكره المَرزُباني ، وقال إنه جاهلي ، وأورد له ثلاثة أبيات<sup>(٧)</sup> .
- ٥- عمرو بن ثعلبة الواقفي الأوسي : جاهلي ، نسب المَرزُباني أبيات عمرو بن رفاعة الأنف الذكر إليه<sup>(٨)</sup> .
- ٦- فاطمة بنت الأحجم الخزرجية : روى ابن سعيد الأندلسي أنها جاهلية من بني النَّجَّار<sup>(٩)</sup> ، وذكر لها ستة أبيات ، وذكر غيره أنها أزدية من خَزاعة<sup>(١٠)</sup> .

(١) انظر : الخرائطي ، هواتف الجَدَّان ، ص ٦٧ .

(٢) انظر هذه الأرجوزة عند : ابن سلام الجُمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ج ٢ ، ص ٧٤٢ ، ولسان العرب ، مادة " حنزب " .

(٣) انظر : المَرزُباني ، معجم الشعراء ، تحقيق : ف. كركو ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١ ، ص ٥٢ .

(٤) انظر مصادره عند : د. عفيف عبد الرحمن ، معجم الشعراء ، ص ١٢١ .

(٥) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ١١٣ .

(٦) المَرزُباني ، معجم الشعراء ، ص ٢٤ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(٩) ابن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق : د. نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ١٩٨٢ ، ج ١ ، ص ١٩٧-١٩٨ .

(١٠) المَرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، تحقيق : أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١ ، ج ٢ ، ص ٩٠٩ .

## — شعراء مخضرمون لم يشر داود غطاشة إليهم

- ١ - بَرْدَع بن زيد (أو بَرْدَع بن النعمان) بن زيد بن عامر بن سواد بن ظَفَر الأنصاري الأوسي ، ذكر ابن حَجَر عن ابن مأكولا أنه شهد أحدا وما بعدها <sup>(١)</sup> ، وذكره المَرزُباني في معجم الشعراء وأورد له بيتين <sup>(٢)</sup> ، وذكره ابن حزم وأورد له بيتا واحدا <sup>(٣)</sup> .
- ٢ - رَفَاعَة بن خالد الواقفي الأوسي : ذكره الخالديان ، وأوردا له أربعة أبيات <sup>(٤)</sup> .
- ٣ - عثمان بن حَنيف الأوسي : صحابي ، شهد أحدا وما بعدها ، وكان عاملا لعمر وعلي <sup>(٥)</sup> رضي الله عنهما ، وذكره المَرزُباني في معجم الشعراء ، وأورد له بيتا واحدا من رواية الأصمعي <sup>(٦)</sup> .
- ٤ - عمرو بن فَرُوة بن عوف الأنصاري : نقل ابن حجر عن المَرزُباني أنه شهد وقعة الجمل مع علي ، وذكر أن المَرزُباني أورد له شعرا ، غير أن ابن حَجَر لم يورد هذا الشعر <sup>(٧)</sup> .
- ٥ - عبادة بن الصامت الخزرجي : صحابي معروف ، أورد له الزَّجَاجي بيتين يخاطب فيهما معاوية بن أبي سفيان حين خطب إليه ابنته لابنه يزيد <sup>(٨)</sup> .

(١) ابن حَجَر ، الإصابة ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٢) أوردهما ابن حجر عن المَرزُباني من الجزء الضائع من معجم الشعراء . ( انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ) ، وانظر : إبراهيم السامرائي ، من الضائع من معجم الشعراء للمرزباني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٣٣ .

(٣) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٤٢ .

(٤) الخالديان ، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين ،

(٥) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ١ ، ص ٧٤٦ .

(٦) المَرزُباني ، معجم الشعراء ، ص ٨١ .

(٧) ابن حَجَر ، الإصابة ، ج ٤ ، ص ٦٧٠ . وما نقله ابن حجر هو من القسم الأول الضائع من معجم الشعراء للمرزباني ( انظر إبراهيم السامرائي ، الضائع من معجم الشعراء للمرزباني ، ص ١٠٥ ) .

(٨) الزجاجي ، أخبار أبي القاسم الزجاجي ، تحقيق عبدالحسين المبارك ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠ ، ص ١٧ .

## مصادر شعر الأوس والخزرج من الدواوين المفردة

إذا انتقلنا إلى ما وردنا من دواوين مفردة للجاهليين والمخضرمين وجدنا تلك الدواوين تحوي قدرا لا يستهان به من الشعر . وقد كانت تلك الدواوين على ضربين : ضرب حُفَظَ لنا من خلال ما صنعه العلماء الرواة ، وقام بتحقيقه باحثون مُحدثون ، ومن هذا الضرب : ديوان حسان بن ثابت برواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السُّكَّري عن محمد بن حبيب ، وديوان قيس بن الخطيم عن ابن السَّكِّيت وغيره ، وضرب آخر قام بجمعه وتحقيقه باحثون من هذا العصر ، ومن هذا الضرب شعر أُحِيَّحَ بن الجُلَّاح الأوسي ، وديوان أبي قيس بن الأسَلْت الأوسي ، وديوان عبدالله بن رواحة الخزرجي ، وديوان كعب بن مالك الخزرجي . وفي ما يأتي إضاءة لكل ما بين أيدينا من دواوين الأوس والخزرج المفردة :

### أولا : دواوين الأوس

١- ديوان قيس بن الخطيم الأوسي: كان أول تحقيق وأدقه لهذا الديوان عن رواية ابن السَّكِّيت وغيره هو ما قام به ناصر الدين الأسد ، ونشرته دار العروبة في القاهرة سنة ١٩٦٢ ، وهو ما سنعتمده في هذه الدراسة . وتزامن مع هذا التحقيق تحقيق آخر قام به إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ، ونشرته مطبعة العاني في بغداد سنة ١٩٦٢ .

وقد علق الدكتور ناصر الدين الأسد على الديوان تعليقات مفيدة ، وأضاف إضافاتٍ شتى وشروحاتٍ جَلَّتْ كثيرا مما غمض منه ، فجاء الديوان كما ينبغي أن يكون عليه العمل العلمي الرصين. ويحوي هذا الديوان ثلاثا وعشرين قطعة شعرية ، مجموع أبياتها معا مائتين وأربعة وتسعين بيتا ، وأضيفت إليه زيادات عددها إحدى وعشرون قطعة تضم ثلاثين بيتا، فصار عدد أبيات الديوان مع الزيادات ثلاثمائة وأربعة وعشرين بيتا.

٢- ديوان أبي قيس صَيْفِي بن الأسَلْت الأوسي ، جمعه حسن محمد باجودة ، ونشرته مكتبة دار التراث في القاهرة سنة ١٩٧٣ . ويضم ديوانه ستا وعشرين قطعة تحوي مئة وخمسة وثمانين بيتا .

٣- ديوان أُحِيَّحَ بن الجُلَّاح الأوسي: أول من جمع شعره هو عبد القادر المغربي بعنوان "أُحِيَّحَ بن الجُلَّاح" <sup>(١)</sup> ، ثم قام بجمع شعره صالح البُكَاري والطَّيِّب العشَّاش تحت عنوان "أُحِيَّحَ بن الجُلَّاح : أخباره وأشعاره" <sup>(٢)</sup> ، وأشارا إلى جمع عبد القادر المغربي الأنف الذكر ، ثم قام أخيرا

<sup>(١)</sup> عبد القادر المغربي ، أُحِيَّحَ بن الجُلَّاح ، مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، الجزء الأول ، عدد ٢ ، ١٩٢٢ ، ص ٨-١٧ .

<sup>(٢)</sup> صالح البُكَاري والطَّيِّب العشَّاش ، أُحِيَّحَ بن الجُلَّاح : أخباره وأشعاره ، حوليات الجامعة التونسية ، عدد ٢٦ ، ١٩٨٧ ، ص ١٣-٤٢ .

بجمع أشعاره وتحقيقها حسن محمد باجودة تحت عنوان " ديوان أُحِيحة بن الجُّلاح" <sup>(١)</sup> ، غير أنه عزّ العثور على نسخة من هذا التحقيق في الأردن ، سواء في مكتبات الجامعات أو في المكتبات التجارية ودور النشر على اختلافها <sup>(٢)</sup> . ولا يمكن أن نعد ما أورده عبد القادر المغربي من شعر أُحِيحة جمعا وتوثيقا ، إذ كان المقال المذكور محاضرة ألقاها في قاعة المجمع العلمي العربي بدمشق ، تحدث فيها عن حياة أُحِيحة بن الجُّلاح وجوانبها بالتفصيل مستشهدا بمجموعة من أشعاره لم تتجاوز بضعة وعشرين بيتا . أما ما جمعه صالح البَّغاري والطَّيِّب العشَّاش فبلغ ثماني عشرة قطعة حوت ثلاثة وسبعين بيتا .

### ثانيا : دواوين الخزرج

#### ١ - ديوان حسان بن ثابت الخزرجي

عُنِيَ غيرُ واحد من الدارسين بشعر حسان بن ثابت ، فصدر ديوانه بتحقيقات كثيرة ، وطبعات مختلفة يضيق هذا المقام عن استقصائها والحديث عن محتوياتها ، لكن المتداولة في الدرس من هذه الطبعات المتوافرة بكثرة هي الطبعة التي حققها وليد عرفات ، وصدرت عن دار صادر ببيروت سنة ١٩٧٤م في جزأين مع فهرسة شاملة ، وهي أتم الطبعات وأوفاهها ، وأحسنها ضبطا ، وهي التي سوف نعتمدها في هذه الدراسة . وقد شرح عبد الرحمن البرقوقي ديوان حسان بن ثابت ، ونشرت أول طبعة من هذا الشرح المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة سنة ١٩٢٩م ، ثم تلت هذه الطبعة طبعات. ويحوي ديوان حسان بن ثابت بتحقيق وليد عرفات ثلاثمائة واثنين وسبعين قطعة ، مجموعها ألفان وخمسمائة وأربعون بيتا .

#### ٢ - ديوان كعب بن مالك الخزرجي الأنصاري : لديوان كعب بن مالك تحقيقان هما :

الأول : تحقيق سامي مكّي العاني ، نشرته مكتبة النهضة في بغداد سنة ١٩٦٦ ، ونشرته أيضا دار القلم في دمشق سنة ١٩٧٩م.

الثاني : تحقيق عبد المجيد طراد ، نشرته دار صادر في بيروت سنة ١٩٩٧.

وسنعمد في هذه الدراسة تحقيق مجيد طراد نظرا لعنايته الشديدة بضبط الألفاظ وبيان معانيها وتحقيق مناسبات القصائد . وقد ضم تحقيق سامي مكّي العاني ثلاثا وسبعين قطعة ،

(١) حسن محمد باجودة ، ديوان أُحِيحة بن الجُّلاح، نادي الطائف الأدبي ، الطائف ، د.ت.

(٢) وقد بحث أخي أيضا في كبرى مكتبات السعودية مثل مكتبة جرير ولم يعثر لي على نسخة ، حتى إنه بحث في مدينة الطائف نفسها ولم يجد هذا الديوان . ومصدر معلوماتي عن هذا الديوان هو : عزيزة فوال بابتي ، معجم الشعراء الجاهليين ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٨ ، ص ١١ ، وانظر حديثا مفصلا عن هذا الديوان - من غير إيراد للشعر - في الموقع الآتي على شبكة الإنترنت : <http://www.middle-east-online.com> ، تاريخ دخول الموقع ١٣-٢-٢٠٠٦ م .

مجموع أبياتها ستمائة وأربعة وثلاثون بيتاً. أما تحقيق مجيد طراد فقد ضم تسعا وسبعين قطعة ، عدّة أبياتها ستمائة وسبعة أبيات .

٣- ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ الخزرجي: جمعه وحققه ،حسن محمد باجودة ،ونشرته مكتبة دار التراث في القاهرة سنة ١٩٧٢ . وحققه أيضا وليد قصاب<sup>(١)</sup> ، ونشرت الطبعة الأولى منه دار العلوم في الرياض سنة ١٩٨٢ ، أما الطبعة الثانية ، وهي التي وقفت عليها ، فنشرتها دار الضياء في عمان سنة ١٩٨٨ . وقد استدرك سامي مكي العاني على حسن محمد باجودة في ما جمعه وحققه من شعر عبدالله بن رَوَاحَةَ ، غير أنني لم أستطع الوقوف على مستدركه ذاك ، ولا رأيت إحالة إليه في تحقيق وليد قصاب على الرغم من أنه أشار إلى تحقيق حسن محمد باجودة ، مما يشي بأنه هو الآخر لم يقف على هذا المستدرك<sup>(٢)</sup> . وسنعمد تحقيق وليد قصاب في دراستنا لجودة هذا التحقيق وحسن تنظيمه .

ويحوي ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ الذي جمعه حسن محمد باجودة اثنتين وثلاثين قطعة تضم مائة وخمسة وستين بيتاً . أما تحقيق وليد قصاب فضم أربعين قطعة شعرية ، مجموع أبياتها مئتان وأربعة عشر بيتاً .

٤- شعر عمرو بن الإطنابة الخزرجي : جمعه وحققه ، آدم حميد ثويني<sup>(٣)</sup> . ويضم ما جمعه ثويني تسع قطع شعرية تحوي خمسين بيتاً ، أما ما جمعه داود غطاشة الذي سبقت الإشارة إليه<sup>(٤)</sup> فضم اثنتي عشرة قطعة شعرية ، تحوي خمسة وخمسين بيتاً . وسنعمد بالدرجة الأولى تحقيق آدم ثويني لعنايته الفائقة في جمع هذا الشعر وتخرجه ، وترجمته للشاعر ، غير أننا سنحيل أحياناً إلى جمع داود غطاشة لاختلافهما في ما أوردا من الشعر .

كل ما سبق كان تطوفاً في شعر الأوس والخزرج في الدواوين المفردة ، والجدول الآتي يعطي معلومات إحصائية واضحة عن تلك الدواوين ، ويلخص ما سبق من قول فيها :

(١) لم أقف على هذه الطبعة ، ووقفت على إشارات إليها في معاجم الشعراء . انظر : د. عفيف عبد الرحمن ، معجم الشعراء ، ص ١٥٠ ، وعزيزة فوال بابتي ، معجم الشعراء الجاهلين والمخضرمين ، ص ٢٤٦ .

(٢) نشر سامي مكي العاني ذلك المستدرك في : مجلة الإمام الأعظم ، بغداد ، عدد ٢ ، ١٩٧٤ . انظر الإشارة إلى ذلك عند عزيزة فوال بابتي ، معجم الشعراء الجاهلين والمخضرمين ، ص ٢٤٦ .

(٣) حميد آدم ثويني ، عمرو بن الإطنابة الخزرجي: حياته وما تبقى من شعره ، مجلة المورد ، بغداد ، مجلد ١٤ ، عدد ٢ ، ١٩٨٥ ، ص ٨١-١٠٤ .

(٤) ص ٥٢ و ٥٦ من هذه الدراسة ، وانظر ما جمعه داود غطاشة من شعر عمرو بن الإطنابة في دراسته ، ملحق ١ ، ص ١٥٣ .



## جدول (٩) : دواوين الأوس والخزرج

الديوان	المحقق	عدد القطع	مجموع أبياتها	ملاحظات
دواوين الأوس				
١ - ديوان قيس بن الخطيم الأوسي	د.ناصر الدين الأسد	٤٤	٣٢٤	جاهلي
٢ - شعر أحيحة بن الجلاح الأوسي	صالح البغاري والطيب العشّاش	١٨	٧٣	جاهلي
٣ - ديوان أبي قيس بن الأسلت الأوسي	حسن محمد باجودة	٢٦	١٨٥	جاهلي
مجموع شعر الأوس في الدواوين			٥٨٢	
دواوين الخزرج				
١ - ديوان حسان بن ثابت الخزرجي	وليد عرفات	٣٧٢	٢٥٤٠	مخضرم
٢ - ديوان كعب بن مالك الخزرجي	سامي مكي العاني	٧٣	٦٣٤	مخضرم
	عبد المجيد طراد	٧٩	٦٠٧	
٣ - ديوان عبدالله بن رَوَاحَة الخزرجي	حسن محمد باجودة	٣٢	١٦٥	مخضرم
	وليد قصاب	٤٠	٢١٤	
٤ - شعر عمرو بن الإطنابة الخزرجي	آدم حميد ثويني	٩	٥٠	جاهلي
	داود غطاشة	١٢	٥٥	
مجموع شعر الخزرج في الدواوين			٣٤١٦	
المجموع العام لشعر القبيلتين في الدواوين				
			٣٩٩٨	

### مقارنة بين الأوس والخزرج في مقدار الشعر

من كل ما تقدم من معلومات إحصائية بشأن شعر الأوس والخزرج في الجاهلية والإسلام ، سنقوم بعمل مقارنة بينهم من حيث الشعر والشعراء ، فمن حيث الشعر الجاهلي بلغت عدة شعراء الأوس - ليس أصحاب الدواوين - ممن جمع داود غطاشة شعرهم ، وممن أشار إليهم دون جمع لقدمهم ، وممن أشارت إليهم هذه الدراسة ، واحدا وعشرين شاعرا ، أما شعراء الخزرج الجاهليون جميعا فقد بلغ عددهم سبعة وعشرين شاعرا وشاعرة .

وإذا نظرنا في الشعر الجاهلي في الدواوين المفردة وجدنا أن للأوس ثلاثة دواوين، كلها جاهلية هي : ديوان قيس بن الخطيم الأوسي ، وديوان أبي قيس بن الأسلت الأوسي ، وديوان أحيحة بن الجلاح الأوسي ، وهذه الدواوين كاملة حوت ما يقارب خمسمائة واثنين وثمانين بيتا . أما الخزرج فلا نجد لهم شاعرا جاهليا ذا ديوان أو شعر مجموع إلا عمرو بن الإطنابة الخزرجي الذي ضم شعره خمسين بيتا تقريبا .

أما دواوين المخضرمين منهم فقد اختلط فيها شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك الجاهلي بالمخضرم ، لأن المحققين رتبوا الشعر هجائيا ، غير أنهما أشارا إشارة واضحة غالبا إلى مناسبة الشعر وقصته عند إيرادها مما يجعل تمييز عصره أمرا يسيرا . أما وليد قصاب فقد ماز في تحقيقه ديوان عبدالله بن رواحة شعره الجاهلي من الإسلامي .

وبالعودة إلى الشعراء المخضرمين من الخزرج الذين ضم ديوان كل واحد منهم الشعر الجاهلي والإسلامي ، وهم : حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، نجد شعر كعب أقله جاهلي ، فقد استطعت أن أميز من مجموع ديوانه الذي ضم ما يزيد على ستمائة بيت، ثلاثة عشر بيتا جاهليا فقط أما ديوان عبد الله بن رواحة فضم نحو خمسين بيتا جاهليا من أصل ديوانه الذي ضم مئة وخمسة وستين بيتا أي أن شعره الجاهلي شكل نحو ثلث ديوانه ، تتسب معظمها إليه وإلى غيره . أما ديوان حسان بن ثابت فقد اشتمل على زهاء سبعمائة وسبعين بيتا جاهليا من أصل ديوانه الذي حوى ألفين وخمسمائة وأربعين بيتا ، أي أن نسبة شعر حسان الجاهلي هي ٣٠,٣% من مجموع شعره تقريبا .

وعلى ذلك فقد بلغ شعر الخزرج الجاهلي في الدواوين المفردة نحو ثمانمائة وثمانية وثلاثين بيتا من المجموع العام لشعرهم في الدواوين الذي وصل إلى ثلاثة آلاف وأربعمائة وأحد عشر بيتا تقريبا<sup>(١)</sup>، أي أن نسبة شعرهم الجاهلي تعادل ٢٤,٣٨% من مجموع شعرهم في الدواوين .

أما المخضرمون من الأوس فهم ثمانية شعراء : خمسة أشار إليهم داود غطاشة في دراسته ، وثلاثة أشارت إليهم هذه الدراسة . ويقع شعر هؤلاء المخضرمين الثمانية جميعه في نحو مئة بيت أو يزيد .

وللخزرج عدا أصحاب الدواوين ثلاثة عشر شاعرا مخضرمًا : اثنا عشر شاعرا أشار إليهم داود غطاشة ، وشاعر واحد أشارت إليه هذه الدراسة . والحال في الخزرج كما هو في الأوس ، فمجموع شعر هؤلاء المخضرمين جميعا لا يتجاوز في الأكثر تسعين بيتا . وعلى ذلك فمجموع الشعر الإسلامي لهاتين القبيلتين معا في غير الدواوين لا يتجاوز مئتي بيت تقريبا .

وبعد ، فإذا قارنا كل وصل إلينا من شعر الأوس بمثيله من شعر الخزرج وجدنا تقريبا كبيرا في مقدار الشعر الجاهلي في غير الدواوين لهاتين القبيلتين وفي عدد الشعراء أيضا . أما في الدواوين المفردة ، فمع أن للأوس ثلاثة دواوين كلها جاهلية ، إلا أن مقدار الشعر الجاهلي عند الخزرج وخاصة عند مخضرميهم يزيد بأكثر من مئتي بيت عما عند الأوس ، حتى إذا كان عصر صدر الإسلام وجدنا غلبة الشعر والشعراء عند الخزرج ظاهرة ظهورا لافتا ، إذ لا نجد للأوس في هذا العصر أكثر من مئة بيت ، في حين أننا نجد للخزرج - في الدواوين وغيرها ما يقارب ألفين وخمسمائة وخمسة وستين بيتا ، وهو قدر كبير لا يدانيه البتة ما للأوس من الشعر الإسلامي .

<sup>(١)</sup> إذا اعتمدنا تحقيق عبدالمجيد طراد لديوان كعب بن مالك، وتحقيق وليد قصاب لديوان عبدالله بن رواحة ، وجمع حميد آدم ثويني لشعر عمرو بن الإطنابة .

## القيمة التاريخية والأدبية واللغوية لشعر الأوس والخزرج

يقول العسكري : "لا تُعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبت آدابها ومستودع علومها"<sup>(١)</sup>.

والشعر ديوان تسجيل من لا تسجيل له ، لجأت اليه الشعوب القديمة حين لم تعرف الكتابة، ليقوم مقام الكتابة في تخليد المآثر والأحداث ، وما يستجد لها من أمور عظام ، بما فيه من أثر في القلب، ومن نغم يساعد على الحفظ، فقام الشعر عند العرب مقام الكتابة، قبل أن تنفشي الكتابة بينهم. والواقع أن هذا الشعر قد أفاد المؤرخ الباحث في تأريخ الجاهلية وعصر صدر الإسلام فائدة لا تقدر بثمن، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التاريخية على فائدته من الوجهة الأدبية، لأنه حوى أموراً مهمة من أحداث العرب الجاهليين، لم يكن في وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر<sup>(٢)</sup>.

وفي مطالعتنا شعر الأوس والخزرج نجد فيه مظاهر تاريخية شتى يشترك فيها مع الشعر عامة ، فقد أرخ شعرهم للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الجاهلية ، ورسم لها مظاهر متنوعة .

لكن للأوس والخزرج وشعرهم خصوصية لا نجدها في سواهم ، فقد واكبت هاتان القبيلتان فجر الدعوة الجديدة ، فكانوا حماة الذائدين عن حياضها ، وكانت مدينتهم هي حاضنة الدين الجديد ، ومحط رحال أتباعه وموئلهم بعد أن تنكرت لرسوله ﷺ الأقارب والأباعد إلا من هدى الله منهم .

وإذا كان الأوس والخزرج عامة هم سدنة الإسلام إبان ظهوره فإن شعراءهم خاصة قد كانوا لسان الإسلام ورسوله ﷺ في السلم والحرب ، وفي المغنم والمغرم ، وفي الحل والترحال. وقد تحول شعراؤهم الذين مجدوا مآثر الجاهلية الجهلاء وبعض قيمها إلى تمجيد قيم الإسلام الخالدة وملاسنة أعدائه الذين تربصوا به فجاهدوا لإعلاء كلمته بالقول والفعل ، وزامنوا أيامه ، وشاركوا فيها ، فجاء شعرهم ثراً صادقاً معاًينا لكل حدث ، ومسجلاً لمجرياته .

لقد كانت أحداث الإسلام قد حفظت لنا ووثقت في الكتب من خلال سيرة الرسول ﷺ ومغازيه ، ومن خلال مصادر التاريخ والأدب الأخرى ، غير أن لونا آخر من التوثيق كان قد صاحب ذلك كله ، ألا وهو توثيق الحدث شعراً ، وهو مالا تبليه الأيام ، ويظل يتردد صداه عبر الأجيال

(١) أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص ١٤٣.

(٢) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٩ ، ص ٧١ .

المتعاقبة . فمنذ اليوم الأول الذي حل فيه الرسول ﷺ بالمدينة المنورة استقبل بنشيد الأنصار :  
 طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ .

وقد شجع الرسول ﷺ شعراء الدعوة على قول الشعر رداً على شعراء قريش ممن نالوا منه ومن دعوته ومن أصحابه . وإذا استقرأنا ما قالت الأنصار من شعر إبان عصر صدر الإسلام وجدنا تلك الأشعار تحفل بأحداث جسام غيرت وجه التاريخ كغزوة بدر الكبرى وغزوة أحد وغزوة الأحزاب (الخنق) وغزوة تبوك وغزوة مؤتة وغيرها . وبالنظر في مجمل الشعر الذي قيل في تلك الأحداث نستيقن أن أشعار الأنصار في تلك الغزوات والأحداث تشكل نسبة كبيرة من ذلك الشعر مما يجعل اعتماد المؤرخين عليها كبيراً بالمقارنة مع أشعار القبائل الأخرى .  
 وقد كانت تلك الأشعار مصدراً مهماً من مصادر التاريخ التي عجت بها ، وأوردت كما كبيراً منها شواهد على الأحداث ، وخاصة كتب السير والمغازي . ومما زاد من مصداقية تلك الأشعار معاينة شعرائها من تينك القبيلتين لمجريات الحدث وتتبعه ، والمشاركة الكبيرة فيه ، فوصفوها بدقة لا تتأتى لمن سمعها أو رواها .

أما كتب البلدان ومعاجمها فقد أفادت كثيراً من ذلك الشعر حين استشهدت به على المواضع التي أوردتها شعراء الأوس والخزرج داخل المدينة وخارجها ، إذ قل أن يخلو ذكر لحدث من إيراد اسم موضع ، خاصة أن معظم الأحداث قد سميت باسم الموضع الذي حدث فيه .  
 وتتجلى قيمة شعر الأوس والخزرج أيضاً فضلاً عما سبق في بيان صلتهم بالقبائل عامة ، وبأبناء عمومتهم من الغساسنة ملوك الشام خاصة ، فقد فخرُوا على القبائل بأولئك الملوك ، واستنصروهم ضد القبائل المناوئة لهم ، كما سيأتي بيانه عند الحديث عن علاقة الأوس والخزرج بيهود المدينة .

ومن الجوانب التاريخية التي نتبينها في شعر الأوس والخزرج علاقة هاتين القبيلتين ببعضهما : علاقتهما في الجاهلية التي قامت على العداوات والإحن ، ثم ذلك التحول الكبير الذي طرأ على هذه العلاقة في الإسلام ، حين أصبح عدو الأمس أخ اليوم .

ولا تقتصر قيمة شعر الأوس والخزرج على الناحية التاريخية التي سبق بيانها ، فلهذا الشعر أيضاً قيمة أدبية ولغوية ، يظهر ذلك جلياً في أشعار كثيرة لشعراء الأوس والخزرج ، أوردتها معاجم اللغة على اختلافها ، أشرنا إلى جانب منها في الدراسة الفنية ، وأوردت أكثر منها المصادر الأدبية والنقدية القديمة ، وكنا استعرضنا طائفة كبيرة منها عند حديثنا عن المعاني في شعر الأوس والخزرج . وقد انصب حديثنا عن قيمة هذا الشعر في الجانب التاريخي ، لما كان لهذا الشعر خاصة من أهمية يعول عليها في وصف الأحداث والأماكن التي جرت فيها .

## الفصل الثاني

### الدراسة الموضوعية

موضوعات شعر الأوس والخزرج

أولا : موضوعات شعر الأوس والخزرج في العصر الجاهلي

١ - العصبية القبيلة

٢ - علاقة الأوس والخزرج باليهود في يثرب

٣ - موضوعات أخرى في شعرهم

ثانيا : موضوعات شعر الأوس والخزرج في صدر الإسلام

١ - موضوعات شعر الأوس والخزرج في عصر الرسول ﷺ

٢ - موضوعات شعر الأوس والخزرج في عصر الخلفاء الراشدين

## موضوعات شعر الأوس والخزرج

### أولاً : موضوعات شعر الأوس والخزرج في العصر الجاهلي

يمكن تقسيم موضوعات الشعر في العصر الجاهلي إلى نوعين :

٠١ موضوعات جماعية : ومثل هذه القضايا تدور عادة حول قبيلة الشاعر التي هو جزء منها ، وتزداد حدة التعبير ومصادقته في هذه القضايا بازدياد القربى ، ولرھط الشاعر وقضاياهم الأولوية ، ثم يليهم الأبعد فالأبعد وصولاً إلى جذم قحطان أو عدنان .

وهنا تبرز قضايا عدة محورها العصبية القبلية التي تجلت على نحو أظهر في العصر الجاهلي خاصة ، حتى عدت من أبرز أغراض الشعر في تلك المرحلة .

٠٢ موضوعات فردية أو ذاتية : غلب التعبير عن النزعة الجماعية عند الشاعر الجاهلي ، ومع ذلك فإننا نجده قد عبر عن بعض همومه الذاتية وقضاياها الخاصة التي برزت لنا واضحة في شعره .

ونرى الشاعر يبين موقفه من هذه القضايا الفردية من خلال ما يتمثله وما يشعر به تجاهها ، وما يعتل في نفسه من مشاعر ، إلا أن تعبيره ذاك جاء على استحياء ، يدل عليه قلّة قضاياها الفردية تلك واختفاؤها داخل هذا الزخم الكبير من القضايا الجماعية ، وفي هذا الجانب تبرز موضوعات أهمها المرأة والخمر والميسر والموت وغيرها .

وسنقف وقفة متأنية على هذه الموضوعات نتلمسها لدى شعراء الأوس والخزرج ونبين صداها في شعرهم .

## ١ - العصبية القبلية

كانت العصبية القبلية وليدة النظم القبلي السائد في العصر الجاهلي . يقصد بالنظام القبلي ذلك النمط من الحياة الذي نجد فيه الأمة الواحدة موزعة إلى جماعات بشرية مستقلة يجمع بين أفراد كل منها صلة النسب المشترك. وقد كانت القبيلة في العصور القديمة تمثل المرحلة الأولى من مراحل التنظيم الاجتماعي والسياسي. وقد عرف العرب هذا النظام منذ أقدم عصورهم، فقد كان المجتمع العربي القديم مجتمعاً قبلياً صرفاً. ومن المحقق أن النظام القبلي كان ملائماً لطبيعة بلاد العرب التي يغلب عليها طابع الجفاف وتنتشر فيها الصحاري والبادي<sup>(١)</sup>.

وقد استلزم هذا النظام تعصب العربي لقبيلته ، والنصرة لها ، والتألب مع عصبته على من يناوهم ظالمين كانوا أو مظلومين، وهذا ما يسمى بالعصبية<sup>(٢)</sup>. وفي المجتمع القبلي لا تكون العصبية لقربا الرجل وذوي رحمه الأدين حسب، وإنما للقبيلة بأسرها على تفاوت في شدة هذه العصبية تحده درجات القربا في إطار القبيلة الواحدة، فالعصبية لذوي الرحم الماسة أقوى منها للبعاء<sup>(٣)</sup>.

والعصبية للقبيلة من أخطر الظواهر الاجتماعية التي عرفتھا المجتمعات البشرية القديمة فهي قوام المجتمع القبلي، وعماد نظامه السياسي والاجتماعي، ولها أثرها في جميع مرافق حياته<sup>(٤)</sup> ، فقد كان الفرد متعصباً لقبيلته في البادية والحاضرة، وكانت القبيلة شديدة التعصب لأفرادها، ، حتى كان التعصب القبلي الأعمى يسيطر على الحياة الاجتماعية، وكان العرب في الجاهلية يعدون القبيلة هي المرجع الأساس الذي يرجعون إليه في الدفاع عن حقوقهم ، والاستتصار على عدوهم في الحق والباطل.

لقد كانت العصبية أمراً ضرورياً في المجتمع الجاهلي، فهي تصون بقاء القبيلة وتحفظ أمنها في وسط معيشي يصارع أهله من أجل البقاء. وهذا الصراع كان له أثره الواضح في تشكيل الحياة الاجتماعية ومظاهرها ضمن قوانين قبلية تُعروف عليها . والحياة التي يعيشها العربي الجاهلي بقسوتها وخطرها جعلته قلقاً مضطرباً نظراً لما يلقاه من تهديد من بيئته، وهذا جعله يتمسك بقبيلته ويعشقها لأنها حماه وملجأه الأمين. ولما كانت هبة القبيلة بشدة بأس

(١) إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣م ، ص ٥٥.

(٢) انظر : لسان العرب ، مادة "عصب".

(٣) إحسان النص ، العصبية القبلية ، ص ١٠٧.

(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٧ ، ١٠٨.



أفرادها ومنعتها تعلقت هي الأخرى بهم، وبهذا أصبح الفرد والقبيلة لا يفترقان ولا غنى لأحدهما عن الآخر<sup>(١)</sup>.

وقد تأثر الشعراء بهذا النوع من الحياة القبلية وما فيها من صراع فرضته عليهم ظروف بيئتهم مما أدى إلى أن يكون الشاعر لسان قومه الذي به يعبرون ، وهذا جعل صوت القبيلة في الشعر يعلو على صوت الشاعر، فبرزت شخصية القبيلة من خلال شاعرها الذي ذابت شخصيته والتحمت بقبيلته وهمومها، فأنسى ذلك الشاعر همومه في أحيان كثيرة، وكان نصب عينيه هم قبيلته فجاء شعره معبراً عن ضمير القبيلة وسجلاً صادقاً لها.

لقد كادت العصبية القبلية تنتظم معظم الأغراض والقضايا التي يتناولها الشاعر، فالشاعر حين يمدح أو يهجو أو يفخر أو يصف الحرب.... إنما يصدر في كل ذلك عن شعور قبلي لم يفارقه يوماً، وظل يلزمه حتى بعد أن جاء الإسلام ، وهذب النفوس ، وأوهن القبلية التي سادت العصر الجاهلي بمظاهرها كافة .

ولما كان الأوس والخزرج قد جاؤوا مهاجرين من بلاد اليمن بعد سيل العرم فإن عصبيتهم تلك قد اتخذت منحى مختلفاً نزع بهم إلى أن يكونوا يدا قوية على من سواهم ، فقد نزلوا يثرب وسط قبائل من يهود كادت تستعبدهم وتسخرهم لخدمتها لولا تلك اللحمة التي ربطتهم في ذلك المجتمع الذي يضم قبائل من أطيايف متغايرة ، لكنهم بفضل لحمتهم تلك استطاعوا في زمن قليل أن يغلبوا قاطني المدينة من يهود وغير يهود . وقد تبذت العصبية القبلية في شعر الأوس والخزرج في عدد من المظاهر البارزة التي سنتناول جانباً منها في الصفحات الآتية لنتبين أصداءه في شعرهم .

## مظاهر العصبية القبلية في شعر الأوس والخزرج

### أ - أيام الأوس والخزرج

الأيام العرب مظهر آخر من مظاهر العصبية القبلية كان لها صدى واسع في الشعر الجاهلي، وكان الشاعر الجاهلي في هذه الأيام لسان قومه فضلاً عن مشاركته في الحرب. وقد عبر شعراء القبيلتين عن الأيام التي دارت بينهما تعبيراً كان له حيز واسع في أشعار تلك القبيلتين حتى رأينا ضموراً ظاهراً في أغراض الشعر الأخرى مقارنة بشعر الحرب وما تعلق به من فخر قبلي أو مدح قبلي أو وصف للحرب.

(١) حافظ وهبة ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، ط٤، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٨ .

وقد كان يوم سُمَيْر<sup>(١)</sup> من أشهر الأيام التي نظم فيها شعراء من كلتا القبيلتين ، وفي هذا اليوم خرج مالك بن العجلان عن عرف القبيلة ، ورفض قبول نصف الدية لجاره ، فقعد عنه قومه الخزرج ، ورفضوا الوقوف إلى جانبه ، فقال يحرضهم على الحرب ، ويشكو إليهم الاعتداء على جاره ، ويعيب تخاذل بعض قومه عن نصرته ، رافضا أي حل عدا ما أراد هو :

إِنْ يَكُنْ الظَّنُّ صَادِقًا بَيْنِي النَّجَّارُ لَا يَطْعَمُوا الَّذِي عَلَفُوا  
لَنْ يُسَلِّمُونَا لِمَعَشَرٍ أَبَدًا مَا كَانَ مِنْهُمْ يَبْطِنُهَا شَرَفُ  
لَكِنْ مَوَالِيٍّ قَدْ بَدَأَ لَهُمْ رَأْيٍ سِوَى مَا لَدَيَّ، أَوْ ضَعُفُوا  
لَا نَقْبَلُ الدَّهْرَ دُونَ سُنَّتِنَا فِينَا، وَلَا دُونَ ذَاكَ مُنْصَرَفُ<sup>(٢)</sup>

ويصر مالك على رأيه ، ولا يقبل من الأوس نصف الدية لجاره ، ويهدد الأوس بحرب طاحنة مفتخرا بقومه وتمرسهم في الحرب وأنفتهم، ورفضهم الدِّيَّة :

إِنْ لَا يُؤَدُّوا الَّذِي يُقَالُ لَهُمْ فِي جَارِنَا يُقْتَلُوا وَيُخْتَطَفُوا  
نَحْنُ بَنُو الْحَرْبِ حِينَ تَشْتَجِرُ الْحَرْبُ إِذَا مَا يَهَابُهَا الْكُشْفُ  
نَمْنَعُ مَا عِنْدَنَا يَهْزَتُنَا وَالضَّيْمَ نَأْبَى وَكُلُّنَا أَثْفُ<sup>(٣)</sup>

ويمضي شعراء هاتين القبيلتين على سنن هذه القصيدة ، فيرد درهم بن زيد الأوسي أخو سُمَيْر على مالك بن العجلان بنقيضة محرضا هو الآخر قومه الأوس على عدم الرضوخ لمالك بن العجلان ، ومحذرا إياهم في الوقت نفسه من أن يسلموا أخاه سُميرا للقتل :

يَا قَوْمُ لَا تَقْتُلُوا سُمَيْرًا فَإِنَّ الْقَتْلَ فِيهِ الْبَوَارُ وَالْثَلْفُ  
إِنْ تَقْتُلُوهُ تُرْنُ نِسْوَتِكُمْ عَلَى كَرِيمٍ وَيَقْرَعُ السَّلْفُ<sup>(٤)</sup>

ويستمر درهم بن زيد في خطابه مالك بن العجلان غير عابئ بتهديده ، ويرد عليه بتهديد ووعيد عائبا عليه تنكره وتغيير هيئته في الحرب :

إِنِّي لَعَمْرُ الَّذِي يَحْجُّ لَهُ النَّاسُ وَمَنْ دُونَ بَيْتِهِ سَرَفُ  
لَا نَرْفَعُ الْعَبْدَ فَوْقَ سُنَّتِهِ مَادَامَ مِنَّا يَبْطِنُهَا شَرَفُ  
إِنَّكَ لَأَقْ غَدًا غَوَاةً بَنِي عَمِّي فَاَنْظُرْ مَا أَنْتَ مُزْدَهَفُ

(١) انظر الحديث مفصلا عن هذا اليوم ، ص ٣٢ من هذه الدراسة .

(٢) انظر الشعر عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٩٨ . وقوله : "لَا يَطْعَمُوا الَّذِي عَلَفُوا" ، أي ظني أنهم لا يقبلون الضيم ، وقوله : "مَا كَانَ مِنْهُمْ يَبْطِنُهَا شَرَفُ" ، أي ما دام فيهم شريف ، والدَّهْرُ : منصوب على الظرفية .

(٣) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ١٩٨ ، وتشترج الحرب : تشتت ، والكُشْفُ : جمع أكشف ، وهو الذي لا ترس معه في الحرب ، والهزة : النشاط والحركة ، ولعله يريد هنا هزة السيف .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ . وترْنُ : تنوح وتصيح ، والسلف : لعله يريد هنا أن آباءهم وأجدادهم الموتى لا يستريحون في قبورهم .

فَأَبْدِ سِيْمَاكَ يَعْرِفُوكَ كَمَا يُبْدُونَ سِيْمَاهُمْ فَتَعْتَرِفُ<sup>(١)</sup>

ومن الغريب أن نجد من الخزرج أنفسهم من يقف ضد مالك بن العجلان الخزرجي في هذا الأمر ، لخروجه عن العرف المتبع ، ونعني بذلك الشاعر عمرو بن امرئ القيس الخزرجي الذي حكم بين الحيين ، فهو يعيب على مالك تعنته وخروجه على رأي الجماعة وما حكم به ، مع أنه من قبيلته ، فيقول :

يَا مَالِ وَالسَّيِّدُ الْمُعَمَّمُ قَدْ خَالَفَتْ فِي الرَّأْيِ كُلَّ ذِي فَخَرٍ  
يُبْطِرُهُ بَعْضُ رَأْيِهِ السَّرَفُ وَالْحَقُّ، يَا مَالُ، غَيْرُ مَا تَصِفُ  
لَا يُرْفَعُ الْعَبْدُ فَوْقَ سُنَّتِهِ وَالْحَقُّ يُوقَى بِهِ وَيَعْتَرَفُ<sup>(٢)</sup>

ويكرر عمرو بن امرئ القيس حكمه الذي نطق به ، وهو أن دية الجار نصف دية الفرد من القبيلة ، ويدعو مالكا إلى أن يلزم الحق :

إِنَّ بُجَيْرًا عَبْدٌ لِيَغْيِرْكُمْ أَوْ تَبَتْ فِيهِ الْوَقَاءَ مُعْتَرِفًا  
يَا مَالِ وَالْحَقُّ عِنْدَهُ فَقِفُوا بِالْحَقِّ فِيهِ لَكُمْ فَلَا تَكْفُوا  
نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلَفُ<sup>(٣)</sup>

ويبين عمرو رفض الأوس رأي مالك، ويحذره من مغبة حرب يجرها على قومه تقني الجانبين :

إِنَّ سُمَيْرًا أَبَتْ عَشِيرَتُهُ أَوْ تَصْنُرُ الْخَيْلُ وَهِيَ حَامِلَةٌ  
أَنْ يَعْرِفُوا فَوْقَ مَا بِهِ نُطْفُوا تَحْتَ صَوَاهَا جَمَاجِمٌ جُفُفٌ  
أَوْ تَجْرَعُوا الْغَيْظَ مَا بَدَا لَكُمْ فَهَارِشُوا الْحَرْبَ حَيْثُ تَنْصَرِفُ<sup>(٤)</sup>

والذي جرت عليه العادة أن يقف الفرد مع قبيلته ، فلم كسر عمرو بن امرئ القيس الخزرجي القاعدة هنا ؟ والإجابة عن ذلك تحتل أمرين :

<sup>(١)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ٢٣٩. وسَرَفُ : اسم موضع على ستة أميال من مكة . انظر البكري ، معجم ما استعجم ، مادة "سرف" ، والغواة هنا جمع غاو وهو من يغوى الحرب ويحبها ، والمزدهف : المستقحم في الشر ، وسيماك : هيبتك ، وتعترف : تعرفهم . وقوله : فَأَبْدِ سِيْمَاكَ يَعْرِفُوكَ ..... البيت ، ذكر صاحب الأغاني أن مالك بن العجلان كان إذا شهد الحرب يغير لباسه ويتكرر لئلا يعرف فيقصد ( انظر الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٣ ، ص ٢١ ) .

<sup>(٢)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٧٦. ويأمالُ : بالبناء على الضم أو الكسر : يا مالك ( ترخيم ) ، والمعمم : كثير الأعمام ، وأبطره : حمله ما لا يطيق ، والسرف مجاوزة القصد والحد ، وبعض : بدل من الضمير في يبطره .

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق ، ص ١٧٦-١٧٧. وبجير : مولى مالك بن العجلان الذي قتله سُمَيْرُ ، ولا تكفوا : من والوكف ، بالتحريك : الإثم ، وقيل : العيب والنقص ( انظر لسان العرب ، مادة "وكف" ) .

<sup>(٤)</sup> المرجع السابق ، ص ١٧٧. والنُطْفُ : التلطخ بالعيب ( انظر لسان العرب ، مادة "نطف" ) ، والصُّوى : الأعلام ، وجمامج جفف : يعني أبطالا يغطون رؤوسهم بالحديد ، من التَّجفاف ، وأصل التَّجفاف أن يغطي الفرس بالحديد حتى لا يصاب في الحرب ( انظر لسان العرب ، مادة "جفف" ) .

**الأول :** أن هذه الحرب هي بين قبيلتين قريبتين ، وكثيرا ما نجد من يحاول - والأمر كذلك - أن يرأب الصدع ويصلح ذات البين، أو يعتزل الحرب إن لم يفلح في ذلك .

**الثاني :** أن عمرو بن امرئ القيس هذا كان ممن حكم بين الأوس والخزرج في حرب سُمَيْر ، وقد كان كان في حكمه يصدر عن معايير جاهلية راسخة ، فمعايير القبيلة أقوى من نزوات الأفراد ، لكن مالك بن العجلان لم ينزل على حكم هذه المعايير ، فأتار ذلك غضبه ، وقال تلك القصيدة . ولا يُظنُّ أن غضبته كانت لنفسه ، بل كانت في المقام الأول غضبة لأجل القبيلة والخروج على قوانينها .

ومع أن قيس بن الخطيم الأوسي وحسان بن ثابت الخزرجي لم يشهدا حرب سُمَيْر لتأخر عصرهما<sup>(١)</sup>، فإن أصداء تلك الحرب تستمر في شعرهما إلى ما قبل الإسلام على نمط القصيدة السابقة . ومن ذلك مثلاً قصيدة قيس بن الخطيم مطلعها :

رَدَّ الْخَلِيطُ الْجِمَالَ فَانصَرَفُوا      ماذا عليهم لو أنهم وقفوا ؟

وبعدها قيس بن الخطيم جَدَّعة حين يعاود ذكر حرب سُمَيْر وهو يحامي عن قومه من الأوس بني جَحْجَبَى وبني خَطْمَة :

أَبْلَغُ بَنِي جَحْجَبَى وَقَوْمَهُمْ      خَطْمَة أَنَا وَرَاءَهُمْ أَنْفُ  
وَأَنَا دُونَ مَا يَسُومُهُمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ ضَايِمِ خُطَّةٍ تُكْفُ<sup>(٢)</sup>

ويغني ذلك حسانا ، فيهجو الأوس هجاء مرا ، ينال فيه منهم ، ويهددهم ، ويصفهم بالعبيد ، مقارنا بين أجداده وأجدادهم ، ومهونا من شأن سُمَيْر الذي تسبب في الحرب فيقول :

بِإِلَهِ جَهْدًا لِنَقْتُلَنَّكُمْ      قَتَلًا عَنيفًا وَالْخَيْلُ تَتَكَشِفُ  
شَانَكُمْ جَدُّكُمْ وَأَكْرَمَانَا      جَدُّ لَنَا فِي الْفَعَالِ يَنْتَصِفُ  
تَجْعَلُ مَنْ كَانَ الْمَجْدُ مَحْدَهُ      كَأَعْبَدِ الْأَوْسِ كُلَّمَا وُصِفُوا  
إِنَّ سُمَيْرًا عَبْدٌ طَغَى سَقَاهَا      أَجْدَادُهُ أَعْبَدُ لَنَا تَلَفُ<sup>(٣)</sup>

ومن الأيام التي صورها الشعراء وخاضها الأوس والخزرج حرب كعب بن عمرو (أو يوم الرُّحَابَة) الذي انهزمت فيه الأوس بقيادة أُحِيحَة بن الجُلَّاح ، وهو يوم لم يكن حظه من الشعر بأزید من سالفه يوم سُمَيْر . ولا نرى في ما أورد ابن الأثير من أشعار بشأن هذا اليوم إلا

<sup>(١)</sup> انظر الأغاني ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

<sup>(٢)</sup> انظر القصيدة كاملة والبيتين في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٠١-١١٩ . وبنو جَحْجَبَى وبنو خَطْمَة بطنان من الأوس ، وأنف جمع أنوف ، وهو الذي تأخذه النخوة والحمية ، وما يسومهم : ما يكلفهم ، والخطبة : الشأن الأمر العظيم ، وتُكْف : جمع ناكف ، من : نكفت من كذا ، أي استكفته وأنفت منه . انظر تفسير البيتين في متن الديوان وحواشيه ، ص ١١٣-١١٤ .

<sup>(٣)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٨٧-٣٨٨ . وتتكشف : تنهزم ، والمحتد : الأصل ، والتلف : الهلاك والعطب .

شعرا لأَحِيحَةَ بن الجُلّاح وعاصم بن عمرو المازني أخي كعب بن عمرو كانت عقب هذا اليوم ، إذ أورد قول أَحِيحَةَ وقد أخفق عاصم بن عمرو المازني في قتله ثارا لأخيه كعب ، فقال أَحِيحَةَ :

نُبِّئْتُ أَنَّكَ جِئْتَ تَسْـُـرِّي بَيْنَ دَارِي وَالْقِيَابَةِ  
فَلَقَدْ وَجَدْتَ بِجَانِبِ الضَّحْيَانِ شُـُـبَّانًا مَهَابَةَ  
فَتَيَانَ حَرْبٍ فِي الْحَدِيدِ وَشَامِرِينَ كَأَسَدٍ غَابَةَ  
هُمْ نَكْبُوكَ عَنِ الطَّرِيقِ قَبْتَ تَرْكَبُ كُلَّ لَابَةِ  
أَعْصَيْمٍ لَا تَجْزَعُ فَإِنَّ الـحَرْبَ لَيْسَتْ بِالْذُّعَابَةِ  
فَأَنَا الَّذِي صَبَحْتُكُمْ بِالْقَوْمِ إِذْ دَخَلُوا الرُّحَابَةَ (١)

نلاحظ في الأبيات السابقة تجاهل أَحِيحَةَ مجيء عاصم بن عمرو لقتله ، وكأنه لا يشعر به ، مع أنه هرب وأغلق باب الحصن دونه كما سنرى في أبيات عاصم ، ومع أنه مهزوم هو وقومه في المعركة من قبل . وهذا استخفاف بالخصم كبير ، وخط من شأنه ، كذا هي الحرب في كل زمان ، يحتل منها الجانب النفسي قدرا كبيرا ، فيصير أشدَّ أدواتها تحطيما للمعنوية . فهل يصدق أحد أن شعر أَحِيحَةَ ذاك الذي يمجّد به نفسه وقومه هو شعر قائد مهزوم فارّ ؟ لقد علم هؤلاء أن الحرب سجال ، وإن تكن الدائرة اليوم عليهم ، فإنها غدا لا بد أن تكون لهم ، وقد تمرسوا في الحرب حتى ماتت منهم القلوب ، فلا تضيرهم هزيمة ما دامت رحي الحرب دائرة ، ويوما ما سيقنصون من عدوهم ، لذلك نرى في خطاب أَحِيحَةَ خصمه نبيرة المتمرس في الحرب الخبير بها :

أَعْصَيْمٍ لَا تَجْزَعُ فَإِنَّ الـحَرْبَ لَيْسَتْ بِالْذُّعَابَةِ

أما عاصم بن عمرو فجاء رده على أَحِيحَةَ باهتا بعد فشله في اغتياله ، وكان منتهى همته في هذا الأمر أن قطع على أَحِيحَةَ ملاعبته كلابه أمام أطمه ، وخاب سهمه في إصابة غريمه ، فعاد يجر أذياله :

أَبْلَغُ أَحِيحَةَ إِنْ عَرَضْتُ بَدَارِهِ عَنِّي جَوَابَةَ  
وَأَنَا الَّذِي أَعْجَلْتُهُ عَنْ مَقْعَدِ إِلَهَى كِلَابَةِ  
وَرَمِيئُهُ سَهْمًا فَأَخْطَاهُ وَأَغْلَقَ ثُمَّ بَابَهُ (٢)

(١) نظر القصيدة عند ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٥٤٦ . وهذه القصيدة سها عن إثباتها صالح البكري والطيب العشاش مما جمعا من شعر أَحِيحَةَ . والضَّحْيَانِ : أطم لأَحِيحَةَ ، ونكبو : نكب عن الطريق : عدل ، ولابة : هي الحرة ، والرُّحَابَةُ : أحد أطم المدينة ، وعصيم : تصغيرُ ترخيم لعاصم يراد به التحقير ، وهو عاصم بن عمرو المازني الخزرجي . وتصغير الترخيم أن تعمد إلى ذى الزيادة الصالحة للبقاء فتحدفها ثم توقع التصغير على أصوله (انظر ابن هشام ، أوضح المسالك على ألفية ابن مالك ، دار الفكر ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٧٤ ، ج ٤ ، ص ٣٢٩) .

(٢) انظر أبيات عاصم بن عمرو المازني الخزرجي عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٥٢ .

لا تعدو أبيات عاصم الثلاثة أن تكون قصة يائسة تصف قاصدا لم ينجح في تحقيق هدفه الذي تجشم المخاطر في سبيل تحقيقه. وهنا يقال أيضا : كذا هي الحرب ، نُجِحَ في القصد مرة ، وفشل فيه مرات ، تماما كالسهم يصيب ويخيب . وأبيات أُحِيحَةَ السابقة ، ومن بعدها أبيات عاصم بن عمرو تصف كلاهما محاولة اغتيال فاشلة قام بها عاصم بن عمرو ، ومع أنها قيلت عقب انتهاء الحرب فإنها كانت مسببة عنها ، لذا رأينا المصادر والمراجع تجعلها في شعر الأيام<sup>(١)</sup> .

والمرأة الجاهلية ليست بأقل عصبية من الرجل لقومها ، فهي التي ربت الرجل حين كان صغيرا ، وغرست في نفسه قيم الجاهلية وعصبيتها ، لذلك ظلت لقومها في نفسها مكانة وعصبية تتنازعها حتى ولو زُوِّجت في غيرهم وعاشت في غير ديارهم .

وفي هذا اليوم - أعني حرب كعب بن عمرو (يوم الرُّحَابَةِ) - أظهرت سلمى بنت عمرو التَّجَارِيَةَ الخزرجية<sup>(٢)</sup> مواقف تشي بتلك العصبية للقبيلة وحَدَّبَهَا عليها حين عرضت حياتها للخطر ، وضَحَّت ببيتها ولدها في سبيل نصره قومها ، وحمایتهم من أن تصيبهم هلكة حتى على يد زوجها أبي ولدها وأقرب الناس إليها . فقصتها مع زوجها أُحِيحَةَ عشية الحرب سطرها أُحِيحَةَ شعرا بعد أن عاقبها بالضرب والطرْد والطلاق ، فقد تظاهرت بالمرض عشية اليوم المذكور ، فسهر زوجها يمرضها حتى أنهكه السهر فنام ، ثم احتالت للخروج وهو نائم ، وأخبرت قومها الخزرج بوقت الإغارة عليهم ، وما يعده لهم زوجها من العدة ، وفي ذلك يقول أُحِيحَةَ :

إِذَا مَا بَتُّ أَعْصُبُهَا فَبَاتَتْ      عَلَيَّ مَكَانَهَا الْحُمَى النَّسُولُ  
لَعَلَّ عَصَابَهَا يَأْتِيكَ حَرْبًا      وَيَأْتِيهِمْ بِعَوْرَتِكَ الدَّلِيلُ<sup>(٣)</sup>

وهكذا ، فإننا نرى العصبية للقبيلة يستوي فيها أي فرد من أفرادها ، رجلا كان أم امرأة ، وتألف قلوبهم حتى تكون على قلب فرد واحد ، نصب عينيه دوما مصلحة قومهم ، لا يتغير ولاؤه لهم وإن شطت بهم المقاصد والمنازل .

وفي شعر الأيام عبر الشعراء عن الفرار من الحرب تعبيراً يزرى بالفار حتى يحقره القريب فضلا عن البعيد ، فقد رأوا خشية الموت عارا كبيرا لما في خشيته من نكوص عن

(١) انظر ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٥٤٦ ، ود . عفيف عبدالرحمن ، ديوان شعر الأيام ، ص ١٢١ - ١٢١ .

(٢) سبقت قصتها مفصلة عند الحديث عن هذا اليوم . انظر ص ٣٤ من هذه الدراسة .

(٣) انظر القصيدة كاملة عند صالح البكاري والطيب العشاش ، أُحِيحَةَ بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، حويليات الجامعة التونسية ، كلية الآداب ، تونس ، العدد ٢٦ ، ١٩٨٧ ، ص ٣٧ . وقوله : أعصبها : يريد امرأته التي سهر يمرضها من الحمى ، والنسول : التي تنسل الجسم ، وقوله : "لعل عصابها ... البيت " أراد بذلك وشايتها به ، وبأخبار استعداده للحرب ، وإيلاؤها قومها بأمره .

تحصيل الحقوق والدفاع عن شرف القبيلة وذمارها ، فقال عُبَيْدُ بن نَافذ الأوسي يعير الخزرج فرارَ عبدالله بن أبي بن سَلُول الخزرجي (زعيم المنافقين في الإسلام) يوم السَّرارة:

لكنْ فرارُ أبي الحُبَاب بنفسه      يوم السَّرارة سيءٌ منه الأقربُ  
ولَّى وألقى يوم ذلك دِرْعَه      إذ قيلَ جاءَ الموتُ خَلْفَكَ يطلبُ  
نَجَاكَ مِنَّا بعدما قد أشرعتْ      فيكَ الرماحُ هناك شدَّ المذهبُ<sup>(١)</sup>

ثم عاد عبدالله بن أبي بن سَلُول الخزرجي ففرَّ ثانية يوم بُعَاث ، فعيره بذلك قيس بن الخطيم مفتخرا بانتصار الأوس على الخزرج في هذا اليوم :

سل المرءَ عبدَ الله إذ فرَّ هل رأى      كتائبنا في الحرب كيف مصاعها  
ولو قامَ لم يلقَ الأحبةَ بعدها      ولاقى أسوداً هصرها ودفاعها  
وتحنُّ هزَمنا جمعكم بكتيبةٍ      تضاعلَ منها حزنُ قورَى وقاعها  
تركنا بُعَاثاً يومَ ذلكَ منهمُ      وقورَى على رَغَمِ شياعاً ضياعها<sup>(٢)</sup>

وإذا كان ابن الخطيم قد عير عبدالله بن أبي بن سَلُول<sup>(٣)</sup> فراره فإنه نفى هذا الفرار عن قومه وهم ينظرون إلى قلوب الهاربين ، فهم ليسوا من هؤلاء ولا يعنيهم فرار من فر ، ويرسم لقومه صورة رائعة من الثبات في الحرب تليق بهم وبعلو همتهم :

إذا همَّ جمعٌ يانصرافٍ تعطَّفوا      تعطَّفَ ورَدَ الخمس أظَّت رباعها<sup>(٤)</sup>

وإذا كان قيس بن الخطيم قد نفى عن قومه الفرار في الحرب فإنه قد أثبت لهم ضرباً طريفاً من هذا الفرار على طريقته هو ، لا كما يوحيه لك لفظ الفرار ، ففراره وفرار قومه إذا

(١) انظر الأبيات عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٦٠ . والمذهب من الخيل ما علت حمرة صقره . انظر لسان العرب ، مادة " ذهب " ، ويريد هنا فرس ابن سَلُول .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٤٢-١٤٤ . والمصاع : القتال والمجادة ، والهصر : الغمز والجذب ، والحزن : ما غلظ من الأرض في ارتفاع ، والقاع : المكان المستوي الواسع في وطاء من الأرض ، وقورَى : موضع بظاهر المدينة ، ذكرها ياقوت الحموي ، واستشهد بهذا الشعر . انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة " قورَى " .

(٣) ذكر عفيف عبد الرحمن أن المقصود بعبدالله في شعر قيس بن الخطيم الأنف هو عبدالله بن رَوَاحَة ( انظر : د. عفيف عبد الرحمن ، ديوان شعر أيام العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٨ ، ص ١٥٣ ، هامش ٢ ) ، غير أن ناصر الدين الأسد قال : "أظنه يريد عبدالله بن أبي بن سَلُول ، وقد فر ذلك اليوم ، وعيره فراره شعراء آخرون ، منهم عبيد بن نافع " . انظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٤٢ ، حاشية (٢) . وقد ذهبت في هذا مذهب الأسد ، لما سبق من شعر في فرار ابن سَلُول يوم السَّرارة ، ولأن سيرته في الإسلام وتخلفه عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد ونكوصه مع ثلث الجيش تؤكد أن هذه الصفة كانت مستحكمة فيه من لدن الجاهلية ، أما عبدالله بن رَوَاحَة فقد قتل يوم مؤته شهيدا مقبلا غير مدبر .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٤٣ . وتعطَّفوا : يريد قومه ، أي تجمعوا ومال بعضهم إلى بعض وثبتوا ولم يفروا كما فعل غيرهم ، والسورد : الإبل الواردة ، والخمس : أن ترد الإبل يوما وتدعه ثلاثة أيام ، ثم ترد الماء اليوم الرابع ، وأظت : حثت ، وأطيط : زفيرها من البطنة ، والرَباع : جمع رُبْع (يفتح وضم ) : وهو الفصيل الذي يولد في الربيع ، وهو أول إنتاج . انظر تفسير بعض مفردات هذا البيت في متن ديوان قيس بن الخطيم وحواشيه ، ص ١٤٣ . ولم يُذكر في متن الديوان ولا ذكر ناصر الدين الأسد في الحواشي المقصود من تلك المعاني كلها على النحو الذي بيناه . ولعله يريد هنا أن قومه ثبتوا في الحرب ثبات إبل وردت الماء فتقلت عن الحركة وثبتت ، وحنث صغارها منادية فزاد ذلك من ثباتها .

جاء منتهاه كان فرارا بالوجه والمنكب بإماتهما انقاء القنا حين يشتبك بعضها ببعض ، لكن الأقدام لا تزل أبدأ :

إذا ما قررنا كان أسوأ فرارنا      صدود الخدود وأزوار المناكب  
صدود الخدود والقنا متشاجر      ولا تبرح الأقدام عند التصارب<sup>(١)</sup>

وأصعب الفرار على الجاهلي ذلك الفرار الذي تعيره به المرأة ، وخاصة الزوجة التي من طبعها أن تفخر بزوجها بين القوم ، لذا فإنه لا يمكنها من أن تعيره فراره ، من أجل ذلك نراه يستमित في القتال:

لعمري أبيها لا تقول حليلتي      ألا فر عني مالك بن أبي كعب<sup>(٢)</sup>

وهم مع ذلك كله لهم مذاهبهم في الاعتذار عن الفرار الحقيقي إن حدث منهم ، إذ يسوِّغونه لك ويخرجون له معنى حتى تلتمس لهم عذرا ، ويجعلونه حيلة من حيل الحرب تحيزا لفئة أو تحرفا لقتال ، أو إبقاء على النفس بغية الثأر والانتقام من بعد . ومن الشعراء من يجعل الفرار أسلوبا قتاليا لا يتقنه إلا المتمرس في الحرب ، كما قال مالك بن أبي كعب الخزرجي:

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلا      وأنجو إذا غم الجبان من الكرب<sup>(٣)</sup>

فهو يقول إنه يقاتل حتى لا يبقى من يقاتله ، وإذا حمي وطيس المعركة وشمرت عن ساقها وأحاطت به المقاتلة ، فإنه يحتال للنجاء منهم حتى يخرج من بينهم سالما ، وهذا في نظره فن لا يتقنه الجبان الذي تضيق به السبل فلا يجد للنجاء سبيلا فيحاط به فيقتل . وفي ذلك يقول الجاحظ وساق البيت الأنف : "وَأتم الفرار في الحرب آلة من عرف المفر كما يعرف المكر"<sup>(٤)</sup> . كل تلك مذاهب يلجأ إليها الشاعر في تبرير الفرار وتزيينه ، بسبب رؤيتهم أن الفرار غير المبرر عار لا ينبغي أن يحدث من فارس . وأما عدم المشاركة في الحرب أصلا فأشد عارا من الفرار ، لذا رأينا حسان بن ثابت يصف قيس بن الخطيم بأقبح الأوصاف في هذا الموقف ، فقيس - في نظر حسان - يرى مصرع قومه ، ولا يهب لنجدتهم فعل النساء العاجزات ، بل يبيت يتنقل عند كئآتة يحتفين به تقربا إليه لكان أزواجهن منه ، ويبيت أيضا يلاعب نساءه ، ويزين نفسه والحرب مستعرة تعرك قومه عرك الرحي :

<sup>(١)</sup> ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٧ .

<sup>(٢)</sup> الشعر لمالك بن أبي كعب الخزرجي . انظره عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٨٨ .

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق ، ص ١٨٨ . وانظر تفسير هذا البيت عند الجاحظ ، البرصان والعرجان والغميان والحولان ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٠-١١ .

<sup>(٤)</sup> المصدر السابق ، ص ٢٥ .



فَقَدْ ذَاقَتِ الْأَوْسُ الْقِتَالَ وَطَرَّدَتْ      وَأَنْتَ لَدَى الْكَتَائِبِ كُلِّ مُطَرَّدٍ  
تُتَاغِي لَدَى الْأَبْوَابِ حُورًا تَوَاعِمًا      وَكَلَّلَ مَاقِيكَ الْحِسَانَ بِإِيْمِدٍ<sup>(١)</sup>

ومن أبرز الحروب التي عبر عنها الشعراء وصوروها يوم بُعَاثَ ، وكان للأوس على الخزرج ، وقد أفرز هذا اليوم شعرا ليس بالقليل بالنظر إلى الأيام الآخر ، خاصة أنه كان قبيل الإسلام ، وهو زمن نجم فيه أعظم شعراء القبيلتين على الإطلاق وأغزرهم شعرا ، فاستطاعوا أن يعبروا خير تعبير عن هذا اليوم ، فقد عاينوه ورأوه رأي العين ، ولم يخبروا به ، وما راء كمن سمعا . وثمة ملاحظة جديرة بالوقوف عندها في شعر يوم بُعَاثَ ، وهي وجود شعر في هذا اليوم لغير شعراء الأوس والخزرج مع أن يوم بُعَاثَ كان بين هاتين القبيلتين ، ومن ذلك شعر لـخُفَافِ بْنِ نَدْبَةَ<sup>(٢)</sup> يرثي حُضَيْرَ الكَتَائِبِ الأشْهلي الخزرجي ، وشعر لكعب بن زهير المُرْزِي<sup>(٣)</sup> يفخر ببلائه في يوم بُعَاثَ .

ومن السهل تعليل مثل هذا الأمر ، فقد كانت مُرَيْتَةُ قبيلة كعب بن زهير بن أبي سلمى المُرْزِي حليفة الأوس ، فخاضت الحرب مع الأوس ضد الخزرج ، أما خُفَافِ بْنِ نَدْبَةَ فكان نديم حُضَيْرَ الكَتَائِبِ وصديقه ، ومن الطبيعي أن يرثيه بعد مقتله في هذا اليوم . وممن أكثر من ذكر يوم بُعَاثَ في شعره قيس بن الخطيم من الأوس ، وحسان بن ثابت من الخزرج ، وذكره أيضا على قلة أبو قيس بن الأسلت الأوسي .

لقد كان صوت قيس بن الخطيم في هذا اليوم يعلو كل صوت ، ونشوة النصر تغمر نفسه ونجده في هذا اليوم قد عبر الخزرج بأن حصونهم هي نساؤهم ، وأن حصون قومه الأوس هي سيوفهم التي يمتنعون بها و يفزعون إليها :

<sup>(١)</sup>ديوان حسان بن ثابت، ج ١، ص ٢٦ . والكُتَّة : امرأة الابن ، وقوله : كلُّ مطرد : نائب عن المفعول المطلق للفعل "طردت" ، أي طردت كل مطرد : أي هزمت الأوس ولوحقت فلولها ، وتتاغي من المناغاة وهي المحادثة والملاعبة ، والإيْمِد : ضرب من الكحل .

<sup>(٢)</sup>خُفَافُ بْنُ نَدْبَةَ : هو خفاف بن ندبة بن عمير بن الحارث بن عمرو (الشريد) بن قيس بن عيلان السلمي. اشتهر بالنسبة إلى أمه ندبة بنت شيطان، وكانت سوداء سبأها الحارث بن الشريد فوهبها لابنه عمير . وخُفَافُ من فرسان العرب المعدودين، يُكنى أبا خُرَاشَةَ، أدرك الإسلام فأسلم وشهد فتح مكة وغزوة حنين والطائف، ومدح أبا بكر، وكان أحد أغربة العرب ، وهو ابن عم الخنساء الشاعرة ، وأكثر شعره مناقضات مع العباس بن مرداس. وخُفَافُ وخفيف واحد ، وندبة من قولهم: رجلٌ نذَّبَ وامرأةٌ نَذْبَةً، إذا كان سريخَ الثَّهْوِضِ في الأمور. انظر ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٣٠٩، ود. عفيف عبدالرحمن ، معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، ص ٨٥ . وانظر ما قاله في حُضَيْرَ الكَتَائِبِ عند نوري حمودي القيسي ، شعر خُفَافِ بْنِ نَدْبَةَ ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص ١٢٣ ، وعند د. عفيف عبد الرحمن ، ديوان شعر الأيام ، ص ١٥٤ .

<sup>(٣)</sup>انظر هذا الشعر والخلاف في نسبته عند محمد يوسف نجم ، ديوان كعب بن زهير ، دار صادر بيروت ، ط ١، ١٩٩٥ ، ص ١٧ ، ود. عفيف عبد الرحمن ، ديوان شعر الأيام ، ص ١٥٥ .

<sup>(٣)</sup>ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٣٧ .

مَعَاقِلُهُمْ أَجَامُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ      وَأَيْمَانُنَا بِالْمَشْرِقِيَّةِ مَعْقِلٌ<sup>(١)</sup>

ويتمسك قيس بن الخطيم بمواضع الأوس التي تشتمل على نخلهم وخيراتهم محذرا الخزرج من القرب منها ، وطالبا منهم الرحيل عن جُذْمان لأن وجودهم يؤدي هذا المكان وقاطنيه، إذ إن من عادة أصحاب النخيل في حروبهم أن يحرق بعضهم نخل بعض :

فَلَا تَقْرَبُوا جُذْمَانَ إِنَّ حَمَامَهُ      وَجَنَّتَهُ تَأْذِي بِكُمْ فَتَحَمَّلُوا<sup>(٢)</sup>

ويرسم قيس بن الخطيم لجيش قومه الأوس صورة تبث الرعب في قلوب العدو وهم يزحفون كتائب يتلو بعضها بعضا مع بياض الصبح ، ومقابل ذلك يرسم صورة مقابلة لجيش العدو ، فهم أيضا مستعدون ، متراساة صفوفهم تراص حب الحنظل في سلك النظام فيقول :

كَأَنَّ رُؤُوسَ الْخَزْرَجِيِّينَ إِذْ بَدَتْ      كَتَائِبُنَا تَتَرَى مَعَ الصُّبْحِ حَنْظَلٌ<sup>(٣)</sup>

ذاك أن من عادة الشاعر أن يصف عدوه بالقوة وكثرة العدد والعدة ، وليس في خلع تلك الأوصاف على العدو مدح له ، بل هو مدح للواصف وقومه ، إذ إن انتصار الأوس على هذا الجيش المنظم من الخزرج مفخرة لهم كبيرة ، ولا مفخرة في هزم جيش ضعيف ، ذلك هو ما أراده ابن الخطيم ، وهي صورة مكرورة في الشعر الجاهلي ، مثالها قول عنتره في وصف خصمه بالشجاعة :

وَمَدَجَّجَ كَرَهُ الْكُمَاءُ نِزَالَهُ      لَا مُعِينَ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمَ<sup>(٤)</sup>

ونلمس في هذا اليوم موقفين متناقضين لشاعرين من الأوس بعد النصر على الخزرج : الموقف الأول : موقف قيس بن الخطيم في أحد أبيات القصيدة السابقة عند حديثه عن نساء الخزرج ، وهو قوله :

كَأَنَّا وَقَدْ أَجْلَوْا لَنَا عَنْ نِسَائِهِمْ      أُسُودٌ لَهَا فِي عَيْصٍ بَيْشَةَ أَشْبِلُ<sup>(٥)</sup>

فقد صور نساء الخزرج كاشفة من هول المعركة - والمعلوم أن المرأة تحسر عن نفسها عند المصيبة - وصور قيس رجال الأوس أسودا في هذه الحالة ، فأبي فخر يفخر معه قيس وبنات الخزرج منكشفات ؟ وأية بطولة هذه التي يتحدث عنها وهو ينظر إلى حريم بن عمومته

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٨ . وجذمان : اسم موضع في المدينة تقدم ذكره ص ٤٠ من هذه الدراسة ، ولم تحدد القبيلة التي تسكنه ، لكن يبدو من بيت قيس هنا أنه للأوس . انظر ديوان قيس بن الخطيم ص ١٣٨ ، حاشية رقم (٣) ، وتحمل القوم : إذا رحلوا .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٨ . قلت : لم أجد لهذا البيت معنى لا في الديوان ولا في كتب الأدب غير أنني وجدت الجرجاني قد قال في الوساطة : "وقد تنظم الأعراب تيجانها من حب الحنظل، وهو أدق نظاماً من كل جوهر نفيس" . انظر الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٧٨ . واعتماداً على ذلك جعلت معنى بيت قيس بن الخطيم من باب الدقة والتنظيم .

(٤) عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي ، ديوان عنتره ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠ ، ص ١٥٠ .

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٤٠ .

حاسرة ؟ ففي حرب بني العمومة ينبغي ألا يتعرض الشاعر للنساء ، لأن في الأوس نساء خزرجيات ، وفي الخزرج نساء أوسيات . ويؤيد ذلك ما رأيناه من بعض شعراء الخزرج الذين قد عفوا عن ذكر نساء الأوس كحسان بن ثابت حين قال يهجو أبا قيس بن الأسلت :

وَقَدْ أَكْرَمْتُمْ وَسَكَنْتُمْ عَنْكُمْ      سَرَاةَ الْأَوْسِ لَوْ نَفَعَ السُّكُونُ  
حَيَاءً أَنْ أَشَاتِمَكُمْ وَصَوْنًا      لِعِرْضِي إِنَّهُ حَسَبٌ سَمِينُ  
وَأَكْرَمْتُ النِّسَاءَ وَقُلْتُ رَهْطِي      وَهَذَا حِينَ أَنْطَقُ أَوْ أُبِينُ<sup>(١)</sup>

أما الموقف الثاني فموقف أبي قيس بن الأسلت الأوسي حين أسر مُخَلَّدَ بن الصامت الساعدي في يوم بُعَاث ، فهو على النقيض من موقف قيس ، إذ كان موقف عفو عن مقدرة ، فيه مراعاة للرحم ، ذلك أنه اجتمع إليه ناس من قومه ومن مُزَيْنَّةَ ومن يهود ، فقالوا له : اقتله ، فأبى ، وخلق سبيله ، وأنشأ يقول :

أَسْرَتُ مُخَلَّدًا فَعَفَوْتُ عَنْهُ      وَعِنْدَ اللَّهِ صَالِحٌ مَا أُتَيْتُ  
مُزَيْنَّةً عِنْدَهُ وَيَهُودُ قَوْرَى      وَقَوْمِي كُلَّ ذَلِكَ كَفَيْتُ<sup>(٢)</sup>

وفي شعر الأوس والخزرج ذكر لأيام أخر يضيق المقام عن استعراض كل ما جاء فيها من شعر ، وهذه الأيام هي : يوم حاطب ، ويوم القضاء ، ويوم مُضَرَّس ومُعَبَّس ، ويوم الفجار الأول والثاني ، ويوم البقيع ، وحرب فارح ، وحرب ربيع الظفري<sup>(٣)</sup>.

<sup>(١)</sup> انظر الأبيات والمناسبة في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

<sup>(٢)</sup> انظر خبر ذلك عند الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٧ ، ص ١٣٢ ، وانظر شعره أيضا عند حسن محمد باجودة ، ديوان أبي قيس بن الأسلت ، ص ٧١ . وقورى : اسم موضع سبق بيانه .

<sup>(٣)</sup> وقد صنع عفيف عبد الرحمن سقرا قيما في شعر الأيام سماه "ديوان شعر الأيام" جمع فيه كل ما قيل من شعر في أيام العرب كافة ، ومنها أشعار الأوس والخزرج في هذه الأيام . انظر بفية أشعار الأوس والخزرج في تلك الأيام د. عفيف عبد الرحمن ، ديوان شعر الأيام ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٨ ، ص ١١٣-١٥٣ .

## ب - الثأر

تستدعي الأيام والحروب مظهرا آخر من مظاهر العصبية هو الثأر. وهي ظاهرة عانت منها المجتمعات العربية في الجاهلية كثيرا ، وامتدت إلى العصور الإسلامية اللاحقة ، وما زلنا نعاني منها حتى الآن. وظاهرة الثأر ليست خاصة بالمجتمعات العربية ، بل هي ظاهرة عامة في المجتمع الإنساني . وأكثر ما نجد هذه الظاهرة في المجتمعات البدوية أو المجتمعات المغلقة على نفسها ، كما نجدها كثيرا في غياب سلطة الدولة أو ضعفها ، واستحكام القبلية .

وشفاء النفس بالثأر دون إسراف ليست ظاهرة وحشية كما يصورها كثير من الناس ، بل إنها أحيانا ظاهرة طبيعية في النفس البشرية ، لكن الحديث عن ذلك أو سماعه بمعزل عن عيش تلك التجربة يجعل النفس تستتكر القيام بها ، وكما قلنا فإن غياب سلطة الدولة أو ضعفها هو الذي يؤدي إلى انتشار مثل هذه الظاهرة في المجتمعات ، والعمل على تجاوز القانون الذي تمثله الدولة إذا حادت عنه ، إذ إن من واجب الدولة القيام بالاقتصاص من القاتل حتى تهدأ تلك النفوس الثائرة الظمأى إلى إطفاء ذلك الظمأ بالنيل من قاتل ابن أو أخ أو أب ... ، ومن أجل ذلك كله شرع القصاص في الإسلام لأن فيه حياة لآخرين حين يقتل القاتل ، دون إسراف في القتل .

ولم يكن المجتمع اليربى الزراعى ذو الأصول القبلية بمعزل عن هذه الظاهرة ، إذ ثمة أحداث كثيرة في هذا المجتمع تقفنا على هذه الظاهرة . وإذا رمنا هذه الظاهرة في شعر الأوس والخزرج الجاهلي لم نعدم حديثا عنها وذكرها كثيرا ، وأظهر ذلك قصة قيس بن الخطيم بن عدي الظفري الأوسي ، فقد ثأر لجدته عدي وأبيه الخطيم من قاتليهما .

لقد عُيِّرَ هذا الشاعر تركَ ثأر أبيه وجده ، وقد كان تركُ هذا الثأر سقما لنفسه ، وسبة له ولقومه<sup>(١)</sup> ، ولا سبيل إلى الخلاص من ذلك كله إلا بالثأر :

وَكُنْتُ أَمْرًا لَا أَسْمَعُ الدَّهْرَ سُبَّةً      أَسْبُ بِهَا إِلَّا كَشَفْتُ غِطَاءَهَا  
إِذَا سَقَمْتُ نَفْسِي إِلَى ذِي عَدَاوَةٍ      فَإِنِّي بَنَصْلُ السَّيْفِ بَاغٍ دَوَاءَهَا<sup>(٢)</sup>

ويرى ابن الخطيم أن الثأر غصة في الحلق وحسرة لا تزول إلا بتجرع الدواء ، ولم يك هذا الدواء في نظره إلا الثأر :

وَكَانَتْ شَجَا فِي الْحَلْقِ مَا لَمْ أَبْوْ بِهَا      فَأَبْتُ بِنَفْسٍ قَدْ أَصَبْتُ دَوَاءَهَا<sup>(٣)</sup>

(١) انظر تعبير بعضهم قيساً تركَ ثأر أبيه في القصة التي أوردها الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٣ ، ص ٤ ، وما ورد في متن ديوان قيس بن الخطيم عند إيراد هذه القصيدة ، ص ٥١ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

ولم تهدأ لقيس نائرة حتى اشتفت نفسه بإدراك ثأره من قاتلي جده وأبيه<sup>(١)</sup>، وقال حاكيا عن ذلك :

ثأرتُ عديًّا وَالْخَطِيمَ فلم أَضِغْ      ولَايَةَ أَشْيَاءٍ جُعِلَتْ إِزَاءَهَا  
ضَرَبْتُ بِذِي الزَّرَّيْنِ رَبْقَةً مَالِكٍ      فَأَبْتُ بِنَفْسٍ قَدْ أَصَبْتُ شِفَاءَهَا  
وَسَامَحَنِي فِيهَا ابْنُ عَمْرٍو بن عامرٍ      خِدَاشٌ فَأَدَى نِعَمَةً وَأَفَاءَهَا  
طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً نَائِرَ      لَهَا نَفْدٌ لَوْلَا الشُّعَاعُ أَضَاءَهَا<sup>(٢)</sup>

فالتأثر في نظر الجاهلي مسؤولية لا يضيعها إذا وكلت إليه ، وفي درك هذا الثأر راحة للنفس وشفاء لها كما عبر عن ذلك قيس . وفي إدراك هذا الثأر كذلك فخر ومدحة يزين بها الشاعر أعناق قومه ويجعلها من خير سماتهم وخلائقهم :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا انْتَدَوْا      بدأوا بِبِرِّ اللَّهِ ثُمَّ النَّائِلِ  
وَالْمَدْرِكِينَ عَدُوَّهُمْ بِدُحُولِهِمْ      وَالنَّازِلِينَ لَضَرْبِ كُلِّ مُنَازِلِ<sup>(٣)</sup>

ونحو قول ابن الإطنابة السابق قول رفاعة بن خالد الواقفي الأوسي يمدح قومه :

فِيهِمْ لِلْمَلَانِينِ أَنَاءٌ      وَطِمَاحٌ إِذَا يُرَادُ الطَّمَاحُ  
وَمَدَارِيكَ لِلدُّحُولِ مَبَازِيلُ إِذَا قُلَّ فِي السِّنِّينِ اللَّقَاحُ<sup>(٤)</sup>

ومن خير ما يمدح به الجاهلي أباه أو يرثيه إدراك الثأر ، ومع أنهم يعلمون جيدا أن إدراك الثأر ليس بالأمر السهل ، وأن دونه حرط القتاد ، وأنه مرتقى صعب ، فإن ذلك كله لا يجعلهم يحدون عنه قيد أنملة، كقول مالك بن أبي كعب الخزرجي في أبيه :

وَيَمْنَعُ مَوْلَاهُ وَيُدْرِكُ تَبْلُهُ      وَلَوْ كَانَ ذَاكَ التَّبْلُ فِي مَرْكَبٍ صَعْبِ<sup>(٥)</sup>

(١) وكان قتل جده - كما روى صاحب الأغاني - رجل من بني عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقال له مالك من قوم خدّاش ابن زهير العامري ، وقتل أباه رجل من بني عبد القيس . وقد ساعده على قتل الاثنين خدّاش بن زهير العامري مع أن مالكا من قومه من أجل نعمة للخطيم أبي قيس عند خدّاش . انظر خبر ذلك مفصلا عند الأصفهاني، الأغاني ، ج ٣ ، ص ٤ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٣-٤٦ . قوله : "ثأرت عديا .." : يقال ثأرت القتل والقتيل (لسان العرب ، مادة "ثأر") ، وذو الزرّين : الزر : حد السيف (لسان العرب ، مادة "زرر") . وجاء في متن الديوان : ذو الزرين سيف من سيوف كان يعمل فيه شبه الثؤلؤل . انظر الديوان ص ٤٤ . والربقة : العنق هنا ، وأصل الربقة خيط تشد به البهائم الصغار من أعنقها أو يدها لتلا ترضع ، ثم استعير لمعان أخرى . انظر لسان العرب ، مادة "ربق" . وقوله : وسامحني فيها ... لأنه سمح له أن يثأر من رجل من قومه ، والتفد : النفوذ ، والشعاع بضم الشين : ضوء الدم وحمرة وتفرقه ، ويروى بفتح الشين وهو تفرق الدم وغيره . وقوله : لها نفذ ... التقدير : لها نفذ أضواءها لولا وجود الشعاع ، والمعنى على ما قال الأزهري: لولا انتشار الدم لأضاءها الشعاع حتى تستبين . انظر لسان العرب ، مادة "شع" ، وديوان قيس ص ٤٦ ، حاشية (١) .

(٣) الشعر لعمر بن الإطنابة ، انظره عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٦٧-١٦٨ . وانتدوا : كثر عطاؤهم ، والنائل : إعطاء السائل ، والدحول : جمع دحل وهو الثأر .

(٤) انظر البيهقي عند الخالدين ، الأشباه والنظائر ، ج ١ ، ص ٥٢ . وهما مما لم يورده داود غطاشة ضمن أشعار الخزرج . والطَّمَاح : الكيّر والفخر لارتفاع صاحبه (لسان العرب ، مادة "طمح" ) ، و"السِّنِّين" هنا : المحل ، واللّقاَح : جمع لقوح ، وهي الناقة الحلوب .

(٥) نظر الشعر عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ١٨٩ . والتبل : الثأر .

وإذا كان الشاعر يعد إدراكه ثأره مجال فخر وزهو فإن في تقويت الفرصة على العدو من إدراك ثأره منه فخرا آخر لا يقل فخرا عن إدراك الثأر نفسه :

وصاحبُ الوتر ليس الدهر يُدرِكُهُ      عندي وإنِّي لدرّكٌ لأوتر<sup>(١)</sup>

ويَحْزَنُ الجاهلي كثيرا إذا قلّ عقبه من ولده الذكور ، إذ إن فيهم قرّة العين ، وبهم يشتهي طالبُ الوتر ، وغاية أمانى الجاهلي حتى وهو وجود بنفسه أن يكون في عقبه من يشفي غليل النفس حين يدعو الداعي إلى الثأر ، وفي ذلك يقول الأوس بن حارثة أبو القبيلة :

فعلّ الذي أرْدَى ثموداً وجُرْهُمَا      سيُعقبُ لي نسلاً على آخر الدهر  
تقرُّ بهم من آل عمرو بن عامر      عيونٌ لدى الداعي إلى طلب الوتر<sup>(٢)</sup>

وإذا كان الشاعر الجاهلي يؤثر الثأر على الدية والحرب على المهادنة ، وإذا كان موالي القاتل مستعدين في الغالب لدفع الدية حقنا للدماء ، ونزولا على ما حكم عليهم به ، فإن من هؤلاء من يتعنت في دفع هذه الدية ، بل ويفخر بالامتناع عن دفعها ولو كانت قليلة ، ويقسم على ذلك ، فأحيحة يرفض دفع دية خصمه حتى لو كانت هذه الدية بلحة واحدة . وإذا عدنا هذا من جانب أحيحة حرصا منه على المال ، وكان عرف بذلك ، فإن فيه من جانب آخر تهوينا وتقليلا من شأن المقتول وأوليائه وتحديا لهم . وموقف أحيحة هذا فيه كثير من المبالغة إلا أنه يبين لنا حرص الجاهلي على عدم التنازل عن شيء لعدوه ولو كان شيئا يسيرا :

فأنا الذي صَبَّحْتُكُمْ      بالقوم إذ دخلوا الرُحابة  
وقَتَلْتُ كعباً قبلها      وعلوتُ بالسيفِ الدُّوابة  
أقسمتُ لا أعطيك في      كعبٍ ومقتله سيابة<sup>(٣)</sup>

(١) البيت لأبي رفاعه الواقفي الأوسي . انظره عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٧٥ ، وقد جعله حسن محمد باجودة لأبي قيس بن الأسلت ، انظر ديوان أبي قيس بن الأسلت ، ص ٧٦ .

(٢) البيتان من قصيدة قالها الأوس بن حارثة أبو قبيلة الأوس وهو وجود بنفسه ، ولم يكن له ولد سوى مالك بن الأوس . انظر القصيدة كاملة عند الخرائطي ، هواتف الجئان ، ٦٧. وثمرود: قبيلة من العرب الأول، يصرف ويمنع من الصرف ، ويقال: إنهم من بقية عاد ، وهم قوم صالح، عليه السلام، بعثه الله إليهم وهو نبي عربي، واختلف القراء في إعراب هذا العلم في كتاب الله عز وجل، فمنهم من صرفه ومنهم من لم يصرفه، فمن صرفه ذهب به إلى الحي ، لأنه اسم عربي مذكر سمي بمذكر، ومن لم يصرفه ذهب به إلى القبيلة، وهي مؤنثة. قال ابن سيده: وثمرود اسم ، وقال سيويو: يكون اسماً للقبيلة والحي(انظر لسان العرب ، مادة "ثمرود") ، وجُرْهُم: حي من اليمن نزلوا مكة وتزوج فيهم إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، وهم أصهاره ثم ألحدوا في الحرم فأبادهم الله تعالى( انظر لسان العرب ، مادة "جرهم").

(٣) قال أحيحة هذا الشعر في حرب كعب بن عمرو المازني (يوم الرُحابة) يخاطب فيه عاصم بن عمرو المازني أبا كعب المازني الذي هاجت بمقتله الحرب المذكورة . انظر القصيدة عند ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٥١٩ . وهذه القصيدة أسقطها صالح البكاري والطبيب العشاش مما جمعا من شعر أحيحة . والرُحابة : من أطام المدينة ، والنُّوابة : الناصية ، والسيابة: البلحة ، وجمعها سياب . انظر لسان العرب ، مادة "سيب".

## ج - الفخر القبلي

هو مظهر آخر من مظاهر العصبية القبلية شديد اللصوق بها، سواء أكان هذا الفخر بالنفس أم بالقبيلة أم بفرد من أفرادها. ويعد الفخر بالنفس من العصبية القبلية، إذ كان الفرد والقبيلة في العصر الجاهلي مندغمين كأنهما روحان خافقتان في جسد، فأنت لا تكاد ترى شاعرا جاهليا يفخر بنفسه إلا في معرض حديثه عن قبيلته، وبما قدم لهذه القبيلة من مآثر لا يمن بها عليها، بل يفخر بأنه نجح في تقديم كل مايعلي من شأنها.

والفخر بالنفس في الشعر الجاهلي كثير كثرة لافتة، تغذي هذه الكثرة وتتميمها شؤون القبيلة وقضاياها المتجددة. وإن يكن ثمة قواسم مشتركة في الفخر القبلي بالنفس بين شعراء الجاهلية إلا أن لبعض القبائل خصوصية في هذا الأمر كما هو الحال في مجتمع الأوس والخزرج، ذلك المجتمع الزاحف نحو الاستقرار والحياة الزراعية. وأشد ما يكون فخر الأوسي أو الخزرجي بالنفس إذا كان فخرا على من هم خارج هاتين القبيلتين، ولا ينسى شاعرهم أن يجعل قبيلته أمام عينيه وهو يفخر بنفسه، بل ويشهدها على ذلك، وكأنه يخبرها أن لها في معالي الأمور التي يحرزها النصيب الأكبر، فيشركها في فخره بنفسه، ويصرح لها أن هذا الفخر هو من أجلها بالدرجة الأولى، ودفاعا عن عليائها وحماها، وخير ذلك الفخر ما يسطره الشاعر عند الحرب واشتداد جنوتها:

وقد علمتُ سرَّاءُ الأوس أنِّي	إذا ما الحربُ تَحْتَدِمُ احْتِدَامًا
أحوطُ ذِمَارَهُمْ وَأَعِفُّ عَنْهُمْ	إذا لم يَشُدُّدِ الورعُ الحِزَامَا
وأغشي هامةَ البطلِ المَذْكَى	جُرَازًا صارمًا عَضْبًا حُسَامَا
إذا ما البيضُ يومَ الرِّوْعِ أَبَدَتْ	محاسنَهَا وَأَبْرَزَتْ الخِدَامَا <sup>(١)</sup>

ومن واجب الفرد - والحال كما ذكرنا - أن يحمي عن قبيلته كما تحامي الأم الرؤوم عن وليدها، وأن يحوطها بعنايته، ويغفر عوراءها، ولا يبغي سقطاتها وعيوبها، وأن يساند المعوز فيها بنفسه وماله، وأن يكون سيفه على شائئها وباغيها بالشر، وقلبه عليها:

أحوطُ العشيرةَ لم أَبْغِهَا	بعيِّبٍ ولم أَلْتَمِسْ ذِمَامَهَا
وأعطي تلادي ذاقَ فقرها	وأضربُ بالسَّيْفِ مَنْ رَامَهَا <sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> الشعر لسُوَيْدِ بن الصامت الأوسي يفخر على رجل من سُلَيْم. انظر داود غطاشة، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة، ملحق (١)، ص ٢٥٦. والسَّراة: السادة، والذمار: ما ينبغي حمايته والدفاع عنه كالأهل والعرض والديار، والورع: الجبان، وقوله: "لم يشدد الورع الحزاما" كناية عن الاستعداد للحرب، والمذكى: من يُعْدُ ذاق قلب ذكي، والجرار: القاطع من السيوف وكذا العضب، والبيض: النساء، والخدام: الخلائيل، وقوله: "أبدت محاسنها..." كناية عن اشتداد المعركة.

<sup>(٢)</sup> الشعر لعُبَيْدِ بن نافع الأوسي، انظر داود غطاشة، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة، ملحق (١)، ص ٢٥٩، والذام: العيب، والتلاد هنا: المال.

وماكان من مجد أدركه قيس بن الخطيم ، فهو بفضل قبيلته : آبائه وأجداده ، الذين أورثوه إياه حتى أدى به ذلك إلى اجتتاب الدّام وركوب صهوة المجد :

وَأَيُّ أَخِي حَرْبٍ إِذَا هِيَ شَمَرَتْ      وَمِدْرَهُ خَصَمَ بَعْدَ ذَاكَ أَكُونُ  
أَبَى الدَّمِّ آبَاءٌ نَمَتِي جُدُودُهُمْ      وَمَجْدِي لِمَجْدِ الصَّالِحِينَ مُعِينٌ<sup>(١)</sup>

أما الفخر بالقبيلة وأفرادها فطغيانه في شعر الشاعر أكثر من الفخر بالنفس بمرات كثيرة ، وأكثر ترداداً عنده في كل مناسبة ، فقومه هم مرجع الحق والناطقون به ، وهم ذوو الأخلاق ، وهم المتناصحون في ما بينهم ، وهم الحلماء المجانبو الجهل ، وهم أهل الجود في المحل :

لَنَا صِرْمٌ يُوَوِّلُ الْحَقَّ فِيهَا      وَأَخْلَاقٌ يَسْوَدُ بِهَا الْفَقِيرُ  
وَنُصْحٌ لِلْعَشِيرَةِ حَيْثُ كَانَتْ      إِذَا مَلَّتْ مِنَ الْغَيْشِ الصَّدُورُ  
وَحِلْمٌ لَا يَصُوبُ الْجَهْلُ فِيهِ      وَإِطْعَامٌ إِذَا قَحَطَ الصَّبِيرُ  
بَذَاتٍ يَدٍ عَلَى مَا كَانَ فِيهَا      نَجُودٌ بِهِ قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ<sup>(٢)</sup>

ومن أبين الفخر بالقبيلة وأفرادها فخر عمرو بن الإطنابة بقومه فخرا لا يدركه مدرك ، فهو لا يدع صفة حسنة إلا أودعها فيهم حتى يخال السامع أنهم استأثروا بها دون غيرهم ، وهو فخر لا يرى فيه الشاعر أية مبالغة ، ولعلنا لو دخلنا مجاهيل نفسه لوجدنا مع كل ما قاله في قومه شعورا منه بالتقصير في مدحهم ، وإجحافا في استقراء كل يميزهم من أقوال وأفعال حسن كلها ، لا يشوب صغیرها ولا كبيرها شائبة . ذاك هو الشاعر الجاهلي ، يجعل من قومه النموذج الذي يجب أن يُحتذى ، والمثال الذي يتبع ، وكأن قبيلة كل شاعر هي المدينة الفاضلة التي تتغلق أبوابها على كل حسن ، وتتفي عنها كل قبيح . كل ذلك هو ما كان يشعر به عمرو بن الإطنابة وهو يمدح قومه ، من أجل ذلك عجت قصيدته بكل قيمة استطاع أن يحشدها في هذه القصيدة حتى لم يكد يغادر جُلّها ، وفي كل ذلك يقول :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا انْتَدَوْا      بَدَأُوا بِحَقِّ اللَّهِ ثُمَّ النَّائِلِ<sup>(٣)</sup>  
وَالضَّارِبِينَ الْكَبْشَ يَبْرِقُ بَيْضُهُ      ضَرْبَ الْمَهْدِ عَنْ حِيَاضِ النَّاهِلِ<sup>(٤)</sup>

(١) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٦٥-١٦٦ ، والمزنة : السيد الشريف ، ولها معان أخرى . انظر لسان العرب ، مادة ، دره .

(٢) لشعر لأبي صرمة الخزرجي ، انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٤١ . والصرْم : الفرقة من الناس ، لا يصوب : لا ينزل أو لا يحل ، الصبِير : السحاب الأبيض وهو غير ممطر ، وقوله : قحط الصبِير : كناية عن الجذب والمحل .

(٣) انتدوا : من الندى وهو العطاء ، والنائل : إعطاء السائل .

(٤) والكبش : رئيس القوم وسيدهم ، ويبرق : يلمع ويتلألأ ، والبَيْض : جمع بيضة ، وهي واحدة الحديد أو الدرع ، والمعنى : تلمع درعه إذا ضربت بالسيف ، والناهل : الشارب ، وكانوا كثيرا ما يقتتلون على الماء وهم يزودون عن الحياض .



والعاطفين على الطعان خيولهم  
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم  
خزر عيونهم إلى أعدائهم  
ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا  
لا يطبعون وهم على أحسابهم  
والقاتلين فلا يُعاب خطيئهم  
والنازلين لضرب كل منازل<sup>(١)</sup>  
إن المنية من وراء الوائل<sup>(٢)</sup>  
يمشون مشي الأسد تحت الوايل<sup>(٣)</sup>  
ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل<sup>(٤)</sup>  
يشفون بالأحلام داء الجاهل<sup>(٥)</sup>  
يوم المقامة بالكلام الفاصل<sup>(٦)</sup>

وتتردد في الأبيات السابقة قيم كثيرة يفخر بها عمرو بن الإطنابة ويكسوها قومه ، ومن تلك القيم الوقوف عند حق الله ، والكرم ، والشجاعة في الحرب ، والحلم ، والفصاحة .

ومن الفخر القبلي في شعر الأوس والخزرج الجاهلي دون الإسلامي الفخر بالأنساب والعناية بها . ويعيننا في هذا الشأن أن نقرأ ما قاله ابن خلدون عن صلة الأنساب بالعصبية يمكننا من أن نربط بين أشعارهم التي كان موضوعها النسب القريب والبعيد والفخر به ، فقد عقد ابن خلدون لذلك الفصل الثامن من مقدمته الذي بين فيه أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه (أي الولاء والحلف على ما سيأتي) . ويبين ابن خلدون أن صلة الرحم طبيعية في البشر، وأن السبب المباشر للعصبية هو النسب إن قريبا وإن بعيدا ، وأن قرب النسب أو بعده هو الذي يحدد شدة هذه العصبية وعنفوانها ، وهو أمر فطر الناس عليه ، وكان عند العرب أشد من غيرهم من الأمم بحكم طبيعة حياتهم وطرائقها<sup>(٧)</sup> .

وفي شعر الأوس والخزرج مظاهر كثيرة لهذا الفخر كما في الشعر الجاهلي عامة ، وإذا تلمسنا هذه المظاهر وجدنا الأمر كما ذكر ابن خلدون ، فالفخر بالنسب البعيد ملحوظ في شعرهم ، لكن ليس بكثرة الفخر بالنسب القريب ، فإن كان ثمة تفاخر بجذم قحطان مقابل جذم عدنان فإننا نرى شاعرهم يفخر بنسبه إلى هذا الجذم فيقول :

(١) العاطفون : من عطف عليه إذا حمل وكر .

(٢) الوائل : الهارب الناجي ، وقوله : "والقاتلين لدى... البيت" ، قال المرزوقي في تفسير هذا البيت : يريد أنهم يقتلون نظراءهم من الأبطال ومن أعدائهم في كل حال من أحوالهم ، فالمنية من ورائهم . انظر شرح ديوان الحماسة ، ج ٤ ، ص ١٦٣٤ .

(٣) خزر : جمع أخزر وهو الذي ينظر بمؤخر عينه (لسان العرب ، مادة "خزر" ) . وقوله "خزر عيونهم إلى أعدائهم... البيت" ، قال المرزوقي في تفسير هذا البيت : يريد أنهم يتخازرون إذا نظروا إلى أعدائهم ، فعل المتكبر المتوعد ، فلا يملؤون أعينهم منهم ، بل يتبين في نظرهم ما تتطوي عليه قلوبهم ، وإذا مشوا رأيتهم كالأسد تحت المطر الشديد وهي تبادر إلى مواضعها من العرين . انظر شرح ديوان الحماسة ، ج ٤ ، ص ١٦٣٤ .

(٤) أنكاس : جمع نكس وهو الجبان ، والميل : مع أميل ، وهو الذي لا يثبت على الفرس .

(٥) لا يطبعون : من الطبع ، وهو الدنس والعيب (لسان العرب ، مادة "طبع" ) .

(٦) انظر الأبيات عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٦٧-١٦٨ ، وانظرها أيضا عند حميد آدم ثويني ، عمرو بن الإطنابة الخزرجي : حياته وما تبقى من شعره ، ص ٩٧ .

(٧) انظر : ابن خلدون ، مقدمته ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٨ ، ص ١٢٨ .

لَقَدْ كَانَ قَحْطَانُ النَّدَى الْقَرْمُ جَدَّنَا لَهُ مَنَصِبٌ فِي يَافِعِ الْمُلْكِ يُشْهَرُ  
يَنَالُ نُجُومَ السَّعْدِ إِنْ مَدَّ كَفَّهُ ثَقُلُ أَكْفٍ عِنْدَ ذَاكَ وَتَقْصُرُ  
وَرَثْنَا سَنَاءَ مِنْهُ بَرَزَا وَمَحْتَدَا مُنِيفَ الدُّرَى فَخَمَ الْأُرُومَةَ يُذَكِّرُ<sup>(١)</sup>

ولا ينسى الشاعر أن يفخر بنسبته إلى قبيلة الأزد ، القبيلة الأم التي تتحدر من جذم قحطان ، ولأن آل جَفَنَةَ (الغساسنة) أبناء عمومة الأوس والخزرج كانوا ملوك الشام وسادتها ، فقد ألمع شعراؤهم كثيرا إلى تلك النسبة التي تكسبهم بين القبائل فخرا وذكرًا ، وما فتئوا يفتخرون بهم ، لأنهم أيضا من غسان يشتركون معهم في ذلك <sup>(٢)</sup> ، قال سعد بن ثعلبة الخزرجي :

إِنْ كُنْتَ سَائِلَةً وَالْحَقُّ مَعْتَبَةً فَالْأَزْدُ نَسَبَتُنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ  
شُمُّ الْأَنْوَفِ لَهُمْ عِزٌّ وَمَكْرُمَةٌ كَانَتْ لَهُمْ مِنْ جِبَالِ الطَّوْدِ أَرْكَانُ<sup>(٣)</sup>  
وقال قيس بن الخطيم :

وَيَوْمَ بُعَاثٍ أَسْلَمْنَا سَيُوفُنَا إِلَى نَسَبٍ فِي جِذْمِ غَسَّانٍ ثَاقِبِ<sup>(٤)</sup>  
ولا يقتصر الأمر على الفخر بالنسب البعيد بالقول ، بل قد يعدو ذاك إلى نصرتهم بالفعل ، فقد بعدت الشقة ما بين الأوس والخزرج قاطني المدينة والغساسنة ملوك الشام أبناء عمومتهم ، لكن ذلك لم يمنع أبا جُبَيْلَةَ الغساني أحد ملوك الشام من نصرة إخوته الأوس والخزرج على يهود يثرب ، فأنفذ إليهم جيشا لحيًا كان هو على رأسه لما رأى من ذلتهم وسط قبائل يهود ، ونصر إخوته ، فمدحه شاعر الخزرج مدحا يليق به على ما أولى من يد ، فقال الرَّمَقُ الخزرجي :

وَأَبُو جُبَيْلَةَ خَيْرُ مَنْ يَمْشِي وَأَوْفَاهُمْ يَمِينًا  
وَأَبْرُهُ بَرًّا وَأَعْلَمُهُ بَعْلَمَ الصَّالِحِينَ

<sup>(١)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق : وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ج ١ ، ص ٤٧٢ ، وانظر أيضا ص ٤٧٤ . والقرم : السيد المعظم ، وتقل : تكسر ، وبرز : ظاهر ، ومحتد : أصل ، ومنيف : عال ، والأرومة : الأصل أيضا .

<sup>(٢)</sup>غَسَّانُ : ذكر ياقوت في اشتقاقه أقوالا : الأول : أن يكون فحلان من الغس ، وهو دخول الرجل في البلاد ، ومضيه فيها قدما ، أو يكون من غسسته في الماء أي غططته ، والثاني : أن يكون فحلان من الغسن ، وذلك من قولهم : علمت ذلك من غسان قلبك ، أي من أقصى نفسك ، أو من قولهم للشيء الجميل : هو ذو غسن ، وأصل الغسن خصل الشعر من المرأة والفرس . وعلى القول الأول يكون غسان ممنوعا من الصرف لزيادة الألف والنون ، وعلى القول الثاني مصروفا ، لأن النون أصلية لا زائدة . قال ياقوت : وغسان : ماء لبني مازن بن الأزد بن الغوث ، وهم : الأوس والخزرج ، وبنو جفنة (ملوك الشام) ، وخزاعة ، فكل من شرب منه فهو غساني . وقد اختلف في مكان هذا الماء ، فقيل كان بسد مأرب باليمن ، وقيل كان قريبا من الجحفة وقيل غير ذلك . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٣٠-٢٣١ .

<sup>(٣)</sup>جبال الطود : الطود : العظيم ، ومعنى الطود هنا الجبل المشرف على عرفة ، ويستمر إلى صَعَاءَ ، يقال له السَّراةُ ، فأولُه سَراةٌ ثَقِيفٌ ثم سَراةٌ فهم وَعَدَوَانٌ ثم الْأَزْدُ ثم الْحَرَّةُ آخر ذلك (انظر لسان العرب ، مادة "طود") ، وانظر الشعر عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٣٨ .

<sup>(٤)</sup>ديوانه ، ص ٨٩ ، وبُعَاثٌ : يوم من أيام الأوس والخزرج . انظر الحديث عن هذا اليوم ص ٤١ من هذه الدراسة .

أَبَقْتُ لَنَا الْأَيَّامُ وَالْحَرْبُ الْمَهْمَّةُ تَعْتَرِينَا  
كَبِشْنَا لَنَا ذِكْرًا يَقُلُّ حَسَامُهُ الذَّكْرَ السَّيِّئَا<sup>(١)</sup>

وتدلنا نبرة الشاعر هنا على صدق لا نلاحظه في المدح التقليدي ، صدق يدل على قلب محب ، ودم يحن بعضه إلى بعض ، وعنق مطوقة بجميل صنَّع في أهله . ويستمر الشاعر بالفخر بنسبه ، فلا يدع جدًّا يصله بالأزد إلا فخر به، وأعلى من شأنه ، وتعصب له فيقول :

- أنا ابن مُزَيْقِيَا عَمَرُو وَجَدِّي      أبوه عَامِرٌ مَاءُ السَّمَاءِ<sup>(٢)</sup>
- ورثنا من الْبَهْلُولِ عمرو بن عامر      وحرارثة الْغَطْرِيفِ مجداً مُؤْتَلَا<sup>(٣)</sup>

ويتجاوز الشاعر مدح الأجداد والفخر بهم إلى مدح الأفراد من ذوي الشأن ممن يجد فيهم مفخرا يفخر به من قبيلة الأزد ، فما بال شعراء الأوس وعمرو بن حُمَمَةَ الدَّوْسِي<sup>(٤)</sup> يرثونه هذا الرثاء الصادق ، ويفخرون بمآثره ؟ كل ذلك لأن عمرا هذا أزدِي يتصل نسبه بنسبهم ، وهو فضلا عن ذلك ذو شأن كبير بين العرب ، إذ كان حكما بينها في نزاعاتها زمانا طويلا ، وفي رثائه يقول حاطب بن قيس الأوسي:

- سَلَامٌ عَلَى الْقَبْرِ الَّذِي ضَمَّ أَعْظَمًا      تَحُومُ الْمَعَالِي نَحْوَهُ فَتَسَلَّمُ
- فِيَا قَبْرَ عَمْرُو جَادَ أَرْضًا تَعَطَّطَتْ      عَلَيْكَ مِلْتُ دَائِمُ الْقَطْرِ مُرْزَمُ
- فَلَوْ نَطَقَتْ أَرْضٌ لَقَالَ تَرَابُهَا      إِلَى قَبْرِ عَمْرُو الْأَزْدِ حَلَّ التَّكْرُمِ<sup>(٥)</sup>

وينحدر الشاعر في الفخر بالنسب إلى بطون من قبيلته ، فالشاعر الأوسي يتعصب لبطون الأوس ، والخزرجي يتعصب لبطون الخزرج ، ولا يفضل شاعر على قبيلته أحدا حتى لو اشترك معه في النسب ، فانظر إلى حسان حين قال :

<sup>(١)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٣٥ . وانظر تفصيل هذا الخبر عند الحديث عن علاقة الأوس والخزرج باليهود ، ص ١٠٣ من هذه الدراسة . والكش : سيد القوم ، والذكر : السيف ، والسَّيْن (يفتح السين) نعت للذكر ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، أي : السيف المسنون . انظر السَّيْن بمعنى المسنون في لسان العرب ، مادة "سنن" .

<sup>(٢)</sup> البيت لأوس بن الصامت الخزرجي ، انظر البيت والخلاف في نسبته عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٢٢ .

<sup>(٣)</sup> البيت للمنذر بن حرام جد حسان بن ثابت . انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٠٥ .

<sup>(٤)</sup> عمرو بن حُمَمَةَ بن رافع بن الحارث الدوسي من الأزد ، أحد حكام العرب في الجاهلية ، وأحد المعمرين ، يقال إنه عاش ثلاثمائة وتسعين سنة ، وذكر ذلك في شعره ، ويقال إنه هو ذو الحِلْم الذي ضربت به العرب المثل . انظر المرزباني ، معجم الشعراء ، ص ٢٠ .

<sup>(٥)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٢٤ ، والبيتان من قصيدة عدد أبياتها أحد عشر بيتا . وقطر ملث : إذا دام أياما لا ينقطع ، ومرزم من أرزم الرعد وأرزم الريح إذا اشتد صوتهما . وانظر مرثيتين أخريين في عمرو بن حُمَمَةَ الدوسي عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، إحداهما لَعْنَتِكَ بن الحارث بن قيس الأوسي ، ص ٢٦٣ في تسعة أبيات ، والأخرى للهذم بن امرئ القيس الأوسي ص ٢٨٩ ، في ستة أبيات .

بَنُو وَائِلٍ وَبَنُو وَاقِفٍ      وَخَطَمَهُ دُونَ بَنِي الْخَزَرَجِ<sup>(١)</sup>

فَقَضَّلَ قَوْمَهُ الْخَزَرَجَ عَلَى بَطُونٍ مِنَ الْأَوْسِ . ومع أن الفخر بالنسب أكثر ما يكون من جهة الأب ، حتى قال الشاعر :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَانِنَا وَبَنَانِنَا      بَنُونُهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْأَبَاعِدِ<sup>(٢)</sup>

فإننا قد نجد الشاعر يفخر بخؤولته إذا كانوا ذوي شأن ، وهذا قليل بالقياس إلى الفخر بالعمومة ، ومن الفخر بالخؤولة قول حسان :

وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَرَّقٍ      فَأَكْرَمَ بِنَا خَالًا وَأَكْرَمَ بِنَا ابْنَمَا<sup>(٣)</sup>  
وقول مُحَيِّصَةَ بن مسعود الأوسي :

وإن أخا الأضرار بالسيفِ والدي      وخالي أبو بشرِ حُبَابُ بن مُنْذِرٍ<sup>(٤)</sup>

ولعل ذلك محمول في الأكثر على أن الأم والأب هنا من القبيلة نفسها ، وعليه ، فإن الفخر بنسب الخال يقود إلى الفخر بنسب الأب ، فأمر حسان هي الفريضة بنت خالد ، وهي خزرجية من قبيلة أبيه نفسها ، وكذا الحُبَابُ بن المنذر خال مُحَيِّصَةَ بن مسعود ، هو من الأوس ، لذا فالفخر بالانتساب إلى الخال هنا فخر بالقبيلة . ومثما تكون الأم ومن هو من طرفها مجالا للفخر فإنها قد تكون مجالا للذم والهزاء كقول حسان يذم قيس بن الخطيم ورهطه :

نَفَقَكُمْ عَنِ الْعَلْيَاءِ أُمَّ لَنَيْمَةٍ      وَزَنَدٌ مَتَى تُقَدِّحُ بِهِ النَّارُ يَصْلِدُ<sup>(٥)</sup>

وتتجاوز العصبية القبلية الفخر بالنسب من جهة الأم داخل القبيلة إلى الفخر بأبناء البنات من خارج القبيلة إن كان فيهم ثمة مفخر ، فهذا عمرو بن امرئ القيس الخزرجي يمدح عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف جد الرسول ﷺ ، ويفخر بأنهم ولدوه ، فأمر عبد المطلب هي سلمى بنت عمرو النَّجَّارِيَّةِ<sup>(٦)</sup> كانت زوجَ هاشم بن عبد مناف ، وكانت خزرجية :

وَلَدْنَاكَ يَا شَيْبَةَ الْمَكْرُمَاتِ سَاقِي زُورٍ أَرْضَ الْحَرَمِ

فَأَكْرَمَ وَسَيِّئَكَ بَيْتُ الْإِلَهِ      وَأَنْتَ بِنَفْسِكَ بَيْتُ الْكِرَمِ<sup>(٧)</sup>

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٤٩

(٢) هذا البيت أحد أبيات سيبويه المجهولة القائل ، وهو الشاهد الثالث والسبعون . انظر البغدادي ، خزنة الأدب ، ج ١ ، ص ٤٤٤ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ج ١ ، ص ٥ .

(٤) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٨٢ ، وقوله : " وخالي أبو بشر حُبَابُ بن مُنْذِرٍ " ، كذا أثبتنا لفظ "حُبَاب" ، وقد أثبتته داود غطاشة بالخاء (خياب بن منذر) ، وهذا خطأ ، فالمعروف في الأوس هو الحُبَابُ بن المنذر الصحابي ، وقصته معروفة يوم السقيفة ، أما خياب بن المنذر فلا وجود له البتة في تراجم الأعلام على اختلافها .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٦ . وصلد الزند يصلد صلودا : إذا صوت ولم يخرج نارا ، وهنا كناية عن القول وعدم الفعل أو عدم الفائدة .

(٦) سبق الحديث عنها ص ٣٤ ، من هذه الدراسة .

(٧) دراسة داود غطاشة ، ملحق (١) ، ص ١٨٢ ، والسبب : العطاء والمعروف .

ويستجاوز الأوس والخزرج الفخر بنسبهم على عامة الناس إلى الملوك ، فهم يفخرون بنسبهم هذا حين يفدون على الملوك :

نَسَبِي أَصِيلٌ فِي الْكِرَامِ وَمِدَوْدِي      تَكْوِي مَوَاسِمُهُ جُنُوبَ الْمُصْطَلِي  
وَتَرُورُ أَبْوَابُ الْمُلُوكِ رَكَابُنَا      وَمَتَى نُحْكَمُ فِي الْبَرِيَّةِ نَعْدِلُ<sup>(١)</sup>

ويجعلون نسبهم هذا في نحور الملوك ، فلا يخشون سطوة سؤفة ولا ملك ، بل الملك هو من يخشاهم في حال الحرب ، وهذا ما أراده يزيد بن طعمة الخطمي حين قال :

أَبْلَغَا عَوْقًا بِأَنَا مَعْقِلٌ      نَمْنَعُ الضِّمِيمَ وَفَرَعُ مَشْتَبِكِ  
وَإِذَا مَا مَلِكٌ حَارَبَنَا      ضَمِنَ الْخَوْفُ لَنَا قَلْبَ الْمَلِكِ<sup>(٢)</sup>

وفخر خالد بن عبد العزى التجاري الخزرجي بنسبه إلى بني التَّجَّار وبصنديد قومه عمرو بن طلة التجاري الخزرجي الذي أذل الملوك فيقول :

فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ طَلَّةٍ مَلَأَ      الْإِلَهَ قَوْمَهُ عُمَرَهُ  
سَيِّدٌ سَامَ الْمُلُوكَ وَمَنْ      رَامَ عَمْرًا لَا يَكُنْ قَدْرَهُ<sup>(٣)</sup>

وكان الولاء والحلف مما يلحق بالنسب وتدخله العصبية القبلية بكثرة ، ويوضح هذا الأمر ابن خلدون في معرض حديثه عن علاقة الأنساب بالعصبية فيقول :

"ومن هذا الباب - يعني باب العصبية للنسب - الولاء و الحلف ، إذ نعمة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للإلفة التي تلحق النفس من اهتضام جاره أو قريبتها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب ، و ذلك لأجل اللُحمة الحاصلة من الولاء مثل لُحمة النسب أو قريباً منها ، و من هذا يفهم معنى قوله :تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم<sup>(٤)</sup> ، بمعنى أن النسب إنما فائدته

<sup>(١)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٧٥.والمِدَوْد هنا اللسان ، والمواسم والقيام جمع مَيْسَم ، وهو المَكْوَاة أو الشيء الذي تُوسَم به الدواب (انظر لسان العرب ، مادة "وسم" ، وجنوب : جمع جنب ).

<sup>(٢)</sup>داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٩٠ . وقد جعل داود غطاشة اسم الشاعر يزيد بن طعمة الخطمي (بالياء) ، وهو خطأ ، إذ ليس في الأوس هذا الاسم ولا في غيرهم ، وإنما هو في غيرهم الخطمي ، وهو جد جرير الشاعر ، وقد وهم كثير ممن أثبت الخطمي بالياء . انظر ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٢٣١ ، ولسان العرب ، والقاموس المحيط ، مادة "خطف" . وعوف : أراد بني عوف بن الخزرج ، ومعقل : من يُلْتَجأ إليه في النائبات ، وفزع مشتبك : كناية عن لحمتهم ، ولعله أراد هنا تماسك فروع قبيلته واختلاطها ببعضها .

<sup>(٣)</sup>البيتان من قصيدة لخالد بن عبد العزى عدتها عشرة أبيات يمدح بها عمرو بن طلة في حربه مع أبي كرب أحد ملوك التباينة . انظر خبر ذلك مفصلاً عند حديثنا عن حروب الأوس والخزرج الخارجية ص ٣٠ من هذه الدراسة . والقصيدة المذكورة هي مما أشار إليه داود غطاشة من شعر الأوس والخزرج ولم يثبتها . انظر الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن الشعر في الأوس والخزرج ص ٥٣ من هذه الدراسة . وانظر البيتين السابقين والقصيدة عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣٣ . وقوله : "ملئ الإله قومه عُمَرَهُ" : قال صاحب القاموس : ملك الله حبيبك تملية : متعك به وأعاشك معه طويلاً ، وتملى عُمَرَهُ ومُليهِ : استمتع منه ، وسام الملوك : أذاقها العذاب وأذلها .

<sup>(٤)</sup>هذه قطعة من حديث صحيح رواه الترمذي ، وسنده وتمامه : "حدثنا أحمد بن محمد أخبرنا عبد الله بن المبارك عن عبد الملك بن عيسى الثقفي عن يزيد مولى المنيعث عن أبي هريرة : عن النبي ﷺ قال : تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل ، مثرة في المال ، منسأة في الأثر". انظر : الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .

هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة و النصرة... " (١) ، فجعل النصره للولاء والعصبية كالنصرة للنسب سواء بسواء .

وقد حرص العربي الجاهلي على الموالين له والمحالفين حرصه على ذوي نسبه حتى رأينا الشاعر يمدح قومه بأنهم لم يفرقوا بين حلفائهم وأفراد قبيلتهم الصرحاء في النسب ، فخلطوا بعضهم ببعض لما لكليهما من منزلة وحق في القبيلة :

وَالْخَالِطِينَ حَلِيقَهُمْ بِصَرِيحِهِمْ      وَالْبَاذِلِينَ عَطَاءَهُمْ لِلسَّائِلِ (٢)

وقد قامت من أجل علاقة الحلف حروب طاحنة وإحن ، إذ ترد أسباب كثير من حروب العرب في ما بينها إلى الاعتداء على الحليف أو الموالي ، كما رأينا في بعض حروب الأوس والخزرج . وتتردد أصداء العصبية للحلفاء والموالي في أشعار الأوس والخزرج الجاهلية ، فقد اتخذ كل من الأوس والخزرج في حروبهما ضد بعضهما حلفاء لهم من القبائل العربية ومن قبائل يهود .

ونجد الشاعر الجاهلي أحيانا يوجه تهديده أو هجاءه أو وعيده لأحلاف خصمه بدلا من توجيه ذلك إلى الخصم نفسه ، يقينا منه أن كل ما يقوله بحق الحليف ينصرف إلى ذلك الخصم الذي جعل الحليف بضعة من نفسه ، يسره ما يسره ، ويضيره ما يضره .

فعمرو بن الإطنابة الخزرجي تهدد حلفاء الأوس من يهود بني قريظة وبني النضير حين بلغه قولهم فيه ، وكانوا توعدوا هم والأوس أن يقتلوه بجارهم البلوي الذي قتل في حرب فارح (٣) ، وفي ذلك يقول :

أَلَا مَنْ مُبْلَغُ الْأَحْلَافِ عَنِّي      فَقَدْ تُهْدَى النَّصِيحَةُ لِلنَّصِيحِ  
فَإِنَّكُمْ وَمَا تُرْجُونَ نَحْوِي      مِنْ الْقَوْلِ الْمُرَعَّى وَالصَّرِيحِ  
سَيَنْدَمُ بَعْضُكُمْ عَجَلًا عَلَيْهِ      وَمَا أَثَرَى اللِّسَانُ إِلَى الْجُرُوحِ (٤)

أما يزيد بن فُسْحَم الخزرجي فغير اليهود حين خضعوا للخزرج وتعهدوا ألا يحالفوا الأوس ضدهم وجعلوا غلمانهم رهنا على ذلك فقال :

(١) ابن خلدون ، مقدمته ، ص ١٢٦ .

(٢) البيت لعمرو بن الإطنابة الخزرجي . وهو مما لم يورد داود غطاشة من شعر عمرو . انظر البيت ورواياته عند حميد آدم ثويني ، عمرو بن الإطنابة الخزرجي : حياته وما تبقى من شعره ، ص ٩٧ .

(٣) انظر خبر حرب فارح ص ٣٧ من هذه الدراسة .

(٤) انظر الأبيات والمناسبة عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ص ١٥٥ ، و حميد آدم ثويني ، عمرو بن الإطنابة الخزرجي : حياته وما تبقى من شعره ، ص ٩٣ ، وانظر رد الربيع بن أبي الحقيق رأس قريظة على قصيدة ابن الإطنابة هذه في مصادر حرب فارح ص ٣٧ من هذه الدراسة .

هَلُمَّ إِلَى الْأَحْلَافِ إِذْ رَقَّ عَظْمُهُمْ      وَإِذْ أَصْلَحُوا مَا لَا بَجْدَمَانَ ضَائِعَا  
وَذَاكَ بَأْتًا حِينَ نَلَقَى عَدُوَّنَا      نَصُولُ بِضَرْبٍ يَتْرِكُ الْعِزَّ خَاشِعَا<sup>(١)</sup>  
ويهجو ثابتُ بن المنذر قبيلة مُزَيْنَةَ حليفة الأوس التي جاءت تطلب بدم رجل منها قتلته  
الخرزج ، ويستخف بها :

جاءت مُزَيْنَةُ مِنْ عَمَقٍ لِنُفِزَعَنَا      فِرِّي مُزَيْنُ فِي أَسْتَاهِكِ الْفُتْلُ<sup>(٢)</sup>  
ومثلما يتعرض الخزرجي لحلفاء الأوس بالهجاء ، يتعرض الأوسي لحلفاء الخزرج من  
يهود بني قَيْنُقَاعٍ معيرا الجانبين بالنكوص والتخاذل، وفي الوقت نفسه جاعلا منهم شهودا على  
بلاء الأوس في الحرب :

فَسَائِلُ الْأَحْلَافِ إِذْ قَلَّصَتْ      مَا كَانَ إِيْطَائِي وَإِسْرَاعِي  
هَلْ أَبْذُلُ الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ      فَيْكُمُ وَآتَى دَعْوَةَ الدَّاعِي؟  
وَأَضْرَبُ الْقَوْنَسَ بِالسَّيْفِ فِي الْهَيْجَاءِ      لَمْ يَقْصُرْ بِهَا بِاعِي<sup>(٣)</sup>  
وفي الفخر القبلي بأفراد القبيلة لا ينسى الشاعر أن يفخر بالحليف ، إذ إنه معنيٌّ بالدفاع  
عن قبيلة الشاعر كأي واحد من أفرادها سواء بسواء . والأحلاف عندهم توصف بالكثرة :

لَعَمْرِي لَقَدْ حَالَفْتُ دُبْيَانَ كُلَّهَا      وَعَبَسَا عَلَى مَا فِي الْأَدِيمِ الْمُمَدَّدِ  
وَأَقْبَلْتُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ بِحَلْبَةٍ      نَعْمُ الْفَضَاءِ كَالْقَطَا الْمُتَبَدَّدِ<sup>(٤)</sup>  
وتوصف كذلك بالقوة والشجاعة :

أَتَتْ عُصْبٌ مِنَ الْكَاهِنِينَ وَمَالِكٍ      وَتَلْعَبَةُ الْأَثْرِينَ رَهْطِ ابْنِ غَالِبٍ  
رِجَالٌ مَتَى يُدْعَوْنَ إِلَى الْمَوْتِ يُرْقِلُوا      إِلَيْهِ كَارِقَالُ الْجَمَالِ الْمَصَاعِبِ<sup>(٥)</sup>

(١) انظر الأبيات ومناسبتها عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٠٩. وجذمان :

(٢) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٢٨. وعمق : موضع قرب المدينة وهو من بلاد مُزَيْنَةَ. انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة " عمق " ، ومُزَيْنُ (بالبناء على الفتح أو الضم ) : ترخيم مُزَيْنَةَ ، والأستاه : جمع است ، وهي الدبر ، والفتل : جمع فتيل وهي الذبالة التي تكون في السراج ، وقوله : " وفي أَسْتَاهِكِ الْفُتْلُ " كناية عن التحقير .

(٣) انظر البيهقي عند حسن محمد باجودة ، ديوان أبي قيس صَيْقِي بن الأَسْلَتِ الأوسي ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٨٠ . وقُلِّصَتْ : يقال : قُلِّصْتُ الحرب عن حيال أي لقحت عن حيال ، وهو كناية عن وقوعها . انظر لسان العرب ، مادة " قلص " ، والقونس : أعلى البيضة من الحديد (انظر لسان العرب مادة " قنس " ) .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٢٧. الأديم الممدد : الكتاب الذي قد مد ، قال أبو عمرو : كتبوا كتباً وتحالفوا على ما في الصحف ، وحلبة : جماعة من الخيل . انظر الشرح في متن الديوان ص ١٢٧ . وتغم : تغطي ، والفضاء : موضع بالمدينة. انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة " فضاء " .

(٥) ديوان قيس بالخطيم ، ص ٨٣-٨٤ . و م الكاهنين : من الكاهنين وهما قريظة والنضير ، ومالك وتلعبة : بطنان من الأوس ، والأثريين : جمع أثر (يسكون العين وضمها وكسرهما) ، وهو الرجل الذي يستأثر على أصحابه ، أي يختار لنفسه أفعالا وأخلاقا حسنة . انظر لسان العرب ، والقاموس المحيط ، مادة " أثر " ، والإرقال : أن ينفذ البعير رأسه ويرتفع عن الدَّمِيلِ ، وهو ضرب من سير الإبل ، قيل هو السير السريع اللين . ، والمصاعب : جمع مُصْعَب ، وهو ما لم يمسه جبل من الإبل ولم يذلل . انظر شرح البيت في متن الديوان ص ٨٥ .

ومن الفخر القبلي الذي يتردد كثيرا في شعرهم فخرُ الشاعر بحسن علاقته وعلاقة قومه بالجار ، وحال قومه في ذلك كحاله من حيث المحافظة على الجار وحمايته . والإحسان إلى الجار قيمة متأصلة في النفس العربية في الجاهلية والإسلام ، ولا نكاد نجد في شعر الجاهلي من يفتخر بالإساءة إلى جاره أو جارته ، لأن في ذلك عارا كبيرا إذا نُمي إلى القبائل الأخرى ، وخاصة الخصوم . وكل من يسيء إلى جارة ينقلب بعار الدهر ، ويصبح قبلة لهجاء الهجّاتين . والشاعر وقومه لا يفجرون على جيرانهم ، ولا يسمعونهم من فحش الكلام وهُجره ، ويمنعون جيرانهم ممن يتعرض لهم بذلك :

وَالْمَانِعِينَ مِنَ الْخَنَا جِيرَانَهُمْ وَالْحَاشِدِينَ عَلَى طَعَامِ النَّازِلِ (١)

وللجار في الجاهلية حرمة يجب أن تراعى ، وحقوق يجب أن تؤدى ما عاش الإنسان ، وقد عرف الشاعر وقومه هذه الحقوق والحدود فوقفوا عندها :

وَأَرَعَى لَجَارِي مَا حَيَّيْتُ ذِمَامَهُ وَأَعَرَفَ مَا حَقُّ الرَفِيقِ عَلَى الصَّحْبِ (٢)

وإن عدت الخيانة من أقبح الصفات التي كرهها الجاهلي فإن هذه الصفة أقبح ما تكون إذا كانت في حق الجار ، لذا وجدنا من يمتدح نفسه بعدم الخيانة:

فَلَا وَالْهِى لَا يَقُولُ مُجَاوِرِي أَلَا إِنَّنِي قَدْ خَانَنِي الْيَوْمَ بَرْدَعُ (٣)

وإذا صدرت الخيانة من خائن فإن الشاعر الأوسي ليس بمعني بهذا الأمر ، وهو أبعد ما يكون منه:

وَهَلْ يَحْذَرُ الْجَارُ الْغَرِيبُ فَجِيعَتِي وَخَوْنِي وَبَعْضُ الْمُقْرِفِينَ خَوْوُنُ

وكثيرا ما كانت الخلافات تنشب وتحتدم حتى بين أفراد القبيلة الواحدة بسبب تعرض الجار للاعتداء والظلم ، فكان سبب كثير من النزاعات هو الوقوف دون ضيم هذا الجار ، فلا يجد الشاعر حرجا من أن يصبر نفسه على كربة تنفى عنه لوم اللوم ، ويرد بها الظلم عن جار ، ويحقق مغنما :

وَمُرْدِيَةٍ صَبَرْتُ النَّفْسَ مِنْهَا عَلَى مَكْرُوْهٍهَا كِي لَا أَلَامَا  
لَأَكْشِفَ كُرْبَةً وَأَفِيدَ غُنْمًا وَأَمْنَعُ ضِيمَ جَارِي أَنْ يُضَامَا (٤)

(١) البيت لعمر بن الإطنابة ، انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٦٨ .

(٢) البيت لمالك بن أبي كعب الخزرجي ، انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٨٩ .

(٣) البيت لبردع بن عدي الأوسي ، انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ٢١٨ . والمقرف: النذل (لسان العرب ، مادة "قرف") .

(٤) الشعر لسؤيد بن الصامت الأوسي ، انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ٢٥٧ . والمردية : الحرب المهلكة ، والكربة : الشدة والضيق . وقوله : "وأمنع ضيم جاري أن يضاما" ، كذا أثبتها داود غطاشة نقلا عن الأشياء والنظائر ، وهي موافقة لما أورده الخالديان هناك . انظر الخالبيين ، الأشياء والنظائر ، ج ١ ، ص ٢٤ .



وللجار وهو مقيم في بلد الشاعر حق في ماله ونشبهه ، ولا يؤثر عليه شيئا ، بل إنه يجعله شريكا له في كل شيء يملكه ، وإن ضاقت به الحال فإنه يفديه بأعز شيء على نفسه كوله البكر :

وأرهن في الحوادث كفَّ بكري      لجاري في العظيمة إن دُهِيتُ  
أراه ما أقامَ عليَّ حقاً      شريكي في بلادي ما بقيتُ  
ولا بموقر شيئاً عليه      من الحق المُلط إذا اجتديتُ<sup>(١)</sup>

وإذا شحت الموارد ، وأجدبت الأرض فإن ما بقي مما يُنقوتُ به هو حق للجيران يتقاسمونه. ويرسم لنا الشاعر هنا صورة جميلة للجيران وهم يتقاسمون نوقه الحلوب ، كأنما هي غنائم لهم لا عطاء ، وكأنما مال الشاعر أهمل لا صاحب له :

تَقَسَّمْ جِيرَانِي حُلُوبِي كَأَنَّمَا      تَقَسَّمَهَا دُؤْبَانُ زَوْرٍ وَمَنْوَرٍ<sup>(٢)</sup>

ويهجو الشاعر من لا يأمن جاره بوائقه ، وهو بذلك يدفع عن قومه هذه الصفة المشينة ، ويجعل حسان الذين لا يأمن الجار شرورهم فيتجنبونهم كالدنس يتقى دائما ويبتعد عنه لئلا يتأذى به المرء . ومن تمام الصورة التي رسمها حسان لهؤلاء القوم أنهم لا يدنو منهم جار ولا ينزل بساحتهم نازل ، وهم إلى ذلك جبناء لا بطل لهم يعول عليه في حرب :

قَوْمٌ مَدَانِيسُ لَا يَمْشِي بِعَقَوَتِهِمْ      جَارٌ وَلَيْسَ لَهُمْ فِي مَوْطِنٍ بَطْلٌ<sup>(٣)</sup>

ومن أشد الأمور التي يمكن أن يغضب بها الجاهلي خصمه الاعتداء على جاره وإذلاله لينال من المُجير مثلبا ، ويورثه مذمة عجزه عن إعزاز هذا الجار ، وفي ذلك قال بعض الأوس يهجو الخزرج :

وَدَلَّ سُمَيْرٌ عَنَوَةَ جَارٍ مَالِكٍ      عَلَى رَغْمِهِ بَعْدَ التَّخْمُطِ وَالْجَهْلِ<sup>(٤)</sup>

وللجارية - كما للجار - عند الشاعر حق لا يحيد عنه ، ومن أهم تلك الحقوق غض البصر عنها ، وعدم التعرض لها بأذية في حضور أو غياب كخداعها أو التغرير بها وإغوائها :

(١) الشعر لأبي قيس بن رفاعة الواقفي الأوسي ، انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ٢٧٢. والحق المُلط : اللزوم . انظر لسان العرب والصاح ، مادة "لطط" ، واجتديت : سئلت الجدا ، وهو العطاء ( لسان العرب ، مادة "جدو" ).

(٢) البيت لتهيب بن إساف الأوسي ، انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ٢٨٨. والحلوب : تطلق على الواحدة والجمع ( لسان العرب ، مادة "حلب" ) ، وزور ومَنْوَر : حيان من أعداء الشاعر كما جاء في مادة "حلب" في لسان العرب وتاج العروس .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٧٤. والبيت في هجاء قبيلة مُزَيِّنَة حليفة الأوس في حربها مع الخزرج. والعقوة : الساحة .

(٤) التخمط : تخمط الرجل إذا غضب وثار وأجلب ( لسان العرب ، مادة "خبط" . و البيت ثالث ثلاثة أبيات لرجل من الأوس مجهول الاسم يرد بها على حسان بن ثابت ، وقد وردت في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ٢٤٧ . ولم يورد داود غطاشة هذه الأبيات ضمن شعر الأوس. وفي البيت إشارة إلى يوم سُمَيْر الذي اعتدى فيه سُمَيْر بن زيد أحد بني عمرو بن عوف على كعب التعلبي حليف مالك بن العجلان الخزرجي وجاره ، انظر خبر ذلك مفصلا في حرب سُمَيْر ، ص ٣٢ من هذه الدراسة .

وَمَا لَمَعَتْ عَيْنِي لِغِرَّةِ جَارَةٍ وَلَا وَدَّعَتْ بِالذَّمِّ حِينَ تَبَيَّنُ<sup>(١)</sup>

ولا تدخل الجارة في غزل الجاهلي ومغامراته مع النساء ، لأن ذلك في نظرهم من أكبر العيوب التي يتذم بها الجاهلي ، كما لا تدخل في ذلك حليلة الصديق ، لأن حرمتها أيضا كبيرة :

- وَمِثْلُكَ قَدْ أَصْبَيْتُ - لَيْسَتْ بِكُنَّةٍ وَلَا جَارَةٍ - أَفْضَتْ إِلَيَّ حَيَاءَهَا<sup>(٢)</sup>

- وَمِثْلُكَ قَدْ أَصْبَيْتُ لَيْسَتْ بِكُنَّةٍ وَلَا جَارَةٍ وَلَا حَلِيلَةٍ صَاحِبِ<sup>(٣)</sup>

وما أكثر ما يهجي من يغدر بجاره أو يهضم حقه أو يظهر عليه ، فمثل أولئك في نظر حسان لا يفترقون عن البهائم في شيء . ومن ذلك ما قاله حسان في هجاء قوم دأبوا على إيذاء جيرانهم والتواصي بأكل أموالهم بالباطل :

قَوْمٌ تَوَاصَوْا بِأَكْلِ الْجَارِ كُلُّهُمْ فَخَيْرُهُمْ رَجُلًا وَالتَّيْسُ مِثْلَانِ<sup>(٤)</sup>

وخذلان الجار والقعود عن نصرته صفة ذميمة أخرى يجتنبها الشاعر وقومه :

قَوْمِي بَنُو النَّجَّارِ إِذْ أَقْبَلَتْ شَهْبَاءُ تَرْمِي أَهْلَهَا بِالْقَتَامِ

لَا نَخْذُلُ الْجَارَ وَلَا نُسَلِّمُ الْمَوْلَى وَلَا نُخْصِمُ يَوْمَ الْخِصَامِ<sup>(٥)</sup>

ومن شدة حرصهم على جارهم سُمِّيَ قَوْمٌ منهم الجعادرة ، وهم بنو مرة بن مالك بن الأوس ، لأنهم كانوا يقولون للرجل إذا جاورهم : جَعْدَرٌ حيث شئت ، فأنت آمن ، أي اذهب حيث شئت<sup>(٦)</sup>.

والشاعر يملك زمام نفسه إذا شرب الخمر ، فلا يخشى نديمه أذاه ، ولا يخشى جاره الفقر ، وهذه خلائق ورثها الشاعر عن آبائه ، وسيورثها أبناءه من بعده :

يَأْبَى لِي السَّيْفُ وَاللِّسَانُ وَقَوْمٌ لَمْ يُضَامُوا كَلِيدَةَ الْأَسَدِ

لَا أَخْذِلُ الْخَدَشَ بِالنَّدِيمِ وَلَا يَخْشَى جَلِيسِي إِذَا غَضِبْتُ يَدِي

(١) البيت لقيس بن الخطيم ، انظره في ديوانه ، ص ١٦٥ . ولمعت : نظرت نظرة سريعة ، والغِرَّة : الغفلة ، أو مصدر غره يغُرُّه ، أراد أنه لا يتغفلها لينظر إليها ولا يغرر بها ولا يخدعها . انظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٦٥ ، حاشية (٤) .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٢ . وأصيب : أملت إلى ، أفضت إلى حياءها : أي لم يكن بيني وبينها ستر أو أخبرتني بما تكتُم وتسر ، وهذا المعنى للمرأة المخاطبة لا للجارة . انظر تفسير البيت في متن ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٢ . قلت : وفي قوله : "ليست بكنة ولا جارة" قرن بين الكنة والجارة ، فجعل حرمتها واحدة ، ذلك أن زوجة الابن كانت عند الجاهلي من المحرمات من النساء التي نص عليها القرآن من بعد ، فقد حرمت في الجاهلية أولئك النساء كلهن عدا زوجة الأب والجمع بين الأخنتين والجمع بين أكثر من أربع نساء . فصل القول في ذلك جواد علي ، وعقد بابا للزواج عند عرب الجاهلية . انظر جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٤ ، ص ٦٢٩ . ولعل قيسا أراد - والأمر كذلك - من قوله : "ليست بكنة" أنه ليس من أخلاقه أن يتعرض لمحارمه من النساء ، وقد يكون قد وجد في عصر قيس من يفعل مثل هذا الأمر ، خاصة في حال السكر ، كما قد نجد في أيامنا هذه في المجتمعات العربية وغير العربية كثيرا ممن يفعله .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٠ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٧١ .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٠٧ . والشهباء هي السنة إذا كانت مُجْدِبَةً ، بيضاء من الجدب ، لا يُرى فيها خُضْرَةٌ ؛ وقيل : الشَّهْبَاءُ التي ليس فيها مطرٌ (لسان العرب ، مادة "شهب" ) ، والقَتَام : الغبار ، ولا تُخْصِمُ : لا تُغلب في الخصام .

(٦) انظر ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٤٧٣ .

وَلَا نَدِيمِي الْعِضُّ الْبَخِيلُ وَلَا يَخَافُ جَارِي مَا عِشْتُ مِنْ وَبَدٍ<sup>(١)</sup>

ولكن لم جمع الشاعر بين النديم والجار ؟ وما شأن الجار بالحديث عن الخمر والندامى ؟ إن شرب الخمر ومنادمة الأصحاب عليها تستهلك في الغالب مال صاحبها ، فيخشى الجار في هذه الحالة أن ينفد مال الشاعر فلا يستطيع الوقوف إلى جانبه ، لكن الشاعر ينفي أن يكون ذلك منه ماعاش .

وبعد ، فلا يمكن أن نعد كل تلك المعاني التي أوردها شعراء الأوس والخزرج في حق الجار معاني مجردة من الفعل ، إذ يؤيد كل تلك المعاني التي تداولوها تاريخهم المشرف في الإسلام ، وموقفهم من المهاجرين إليهم ، ومدح القرآن لهم على ذلك .

**ومن مظاهر الفخر القبلي** كذلك الفخر بكثرة العدد ، وهو فخر متداول بين العرب كافة ، يعيينا استقصاؤه لو حاولنا أن نتبعه في شعرهم . وقد كان العصر الجاهلي يحكم- في أغلبه - بمنطق القوة ، فكان الأقوى هو المسيطر دائما ، وبالنظر إلى وسائل الحرب البدائية إذ ذاك كان من الطبيعي أن تنبثق تلك القوة- على الأكثر - من كثرة العدد لا من قلته . من أجل ذلك كله ضرب شعراء العرب على هذا الوتر - كثرة العدد- كثيرا ، حتى كدنا لا نجد شاعرا خلا شعره من فخر بكثرة العدد لما رأوا العزة لا تكون إلا في هذه الكثرة ، وعن ذلك عبر الأعشى وهو يخاطب علقمة بن علاثة حين نقر عليه عامر بن الطفيل فقال :

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَأْثَرِ<sup>(٢)</sup>

ولم تكن الأوس والخزرج خارج ذلك النطاق ، فقد كانوا قلة يعيشون بين اليهود وغيرهم من القبائل منبتين عن إخوتهم من الأزديين تفرقوا في البلاد شتت مثر ، بعيدين عن جذورهم اليمنية وعن ديارهم ، ومع ذلك فإننا نجدهم يفخرون بعددهم ليس على عدوهم الخارجي فحسب ، بل على بعضهم أيضا . وليس بالضرورة أن يكونوا أعداء من غيرهم حين يفخرون بهذا العدد ، لكن ذلك ضرب من التخويف والإرهاب الذي يلوحون به في وجه القبائل الأخرى . وأكثر ما يستثمر الشاعر الفخر بالعدد في نصرته من استنصره أو في إدراك وتره ، وفي هذا المعنى نجد فخر عبدالله بن رواحة الخزرجي في قوله :

<sup>(١)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٧٩ . والعرض : الشديدي لداهية من الرجال (لسان العرب ، مادة "عضض") ، والوبد : شدة العيش والحاجة إلى الناس (لسان العرب ، مادة "وبد")

<sup>(٢)</sup> انظر البيت في ديوانه ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ص ٩٤ . وحصى : عددا . وانظر قصة منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وتحكيم الأعشى بينهما عند الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٦ ، ص ٢٨٣ .

إِذَا تُدْعَى لِثَأْرٍ أَوْ لِحَارٍ فَتَحْنُ الْأَكْثَرُونَ بِهَا عِدِيداً<sup>(١)</sup>

ويرسم قيس بن الخطيم لكثرة عدد جيشه صورة تتخلع لها قلوب أعدائه حين يقول :

لَوْ أَنَّكَ تُلْقِي حَنْظَلًا فَوْقَ بَيْضِنَا تَدَحْرَجَ عَنْ ذِي سَامِهِ الْمُتْقَارِبِ<sup>(٢)</sup>

وكما فخر قيس بن الخطيم بكثرة عدد قومه فخر أيضا بكثرة عدد حلفائه من بني قريظة

والنضير ، ورسم لهذا العدد صورة لا تقل شأنًا عما وصف به قومه :

إِذَا فَرَعُوا مَدَّوْا إِلَى اللَّيْلِ صَارِخًا كَمَوْجِ الْأَتِيِّ الْمُزِيدِ الْمُتْرَاكِبِ<sup>(٣)</sup>

وإن كان من الأوس والخزرج من يفخر بكثرة عدد البطن الذي ينتمي إليه ، فإن منهم قوما

أقل الله نَسَمَتَهُمْ ، فجعلوا من قلة العدد لا كثرته فخرا ، وجعلوا أنفسهم المصطفين بقلتهم من بين

الناس ، وخلصوا على هذه القلة كل ما يستحسن من صفات ، ثم راحوا يرسمون لهذه القلة

صورا من واقعهم تدلل على قولهم ، حتى يكاد السامع يسلم لهم بما قالوا تسليما لا مرأ فيه :

إِنْ تَرَيْنَا قَلِيلِينَ كَمَا ذِي\_\_\_\_\_ عَنْ الْمُجْرِبِينَ دَوْدَ صِحَاحُ

فَلَقَدْ يَنْتَدِي وَيَجْلِسُ فِينَا مَجْلِسُ كَالْقَيْفِ فَعَمَّ رَدَاخُ<sup>(٤)</sup>

وإذا كان ثمة مَفَخَرٍ في كثرة العدد أو قلته فيهم ، فإن في قلته في غيرهم مغمزا وأي

مغمز ، فنرى حسان بن ثابت يهجو قوما بأقذع القول حين يعيرهم بعددهم ، فيجعل عددهم مثل

عدد البعر قلة وقدرًا :

أَمَّا الْحِمَاسُ فَإِنِّي غَيْرُ شَاتِمِهِمْ لَا هُمْ كِرَامٌ وَلَا عِرْضِي لَهُمْ خَطَرُ

قَوْمٌ لِنَاكُمْ أَقَلُّ اللَّهُ عِدَّتَهُمْ كَمَا تَسَاقَطُ حَوْلَ الْفَقْحَةِ الْبَعْرُ

(١) ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص ١١٨ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٦ . والبيض جمع بيضة وهي الخوذة ، والحنظل : نبات معروف ، وأراد بالسام هنا : خطوط من ذهب على البيض ثموه بها ، قال ابن قتيبة : عن بمعنى على في قوله "عن ذي سامه" (انظر ابن قتيبة ، المعاني الكبير ، ٨٩١ ( قال ثعلب : معناه أنهم تراصوا في الحرب حتى لو وقع حنظل على رؤوسهم على إملاسه واستواء أجزائه لم ينزل إلى الأرض ) انظر لسان العرب ، مادة "سوم" . ونحو قول ثعلب جاء في شرح هذا البيت في متن ديوان قيس بن الخطيم : قال أبو عمرو بن العلاء : إنما أراد بهذا كثرة الناس ( انظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٧ ) . وقال ابن السيد البطليوسي في شرح هذا البيت : وصف تضاييقهم في الحرب وشدة تلاصقهم لكثرة عددهم حتى لو ألقى الحنظل على بيضاتهم لمشى عليها ولم يسقط إلى الأرض (انظر ابن السيد البطليوسي ، الاقتضاب ، ص ٤٤٢) . وقد نقل ناصر الدين الأسد كل هذه المعاني عند شرح هذا البيت . انظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٧ ، هامش (١) وانظر تعليقه على هذا البيت ص ٢٧٤ من الديوان .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٤ . والصارخ : المغيث ، الأتي : السيل ، والمتراكب : المندفع القوي .

(٤) انظر البيهقي عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ص ٢٧٤ . وقد ورد البيت الأول منسوباً إلى قيس بن الخطيم في زيادات الديوان ، وشرح هنالك ، والمعنى كما ذكره الأعلم الشنتمري : أي نحن وإن قل عدداً فلا يشوبنا لئيم ، فنحن كالإبل الصحاح ليس فيها بغير أجرب . انظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٢٩ حاشية (١) . وورد هذان البيتان منسوبين إلى أبي قيس بن رفاعة الواقفي الأوسي . وذيد : نخي وطرده ، والمجربون : الذي جربت إبلهم ، والذود : القطعة من الإبل ، ينتدي : يجلس في منتدى القوم والقنيف : المكان المستدير ، والفعم : الكثير ، والرداح : الضخم .

إِنْ سَابِقُوا سُبِقُوا أَوْ نَافَرُوا نُفِرُوا أَوْ كَانُوا أَحَدًا مِنْ غَيْرِهِمْ كُثِرُوا<sup>(١)</sup>

د - ومن العصبية القبلية لوم الشاعر الأوسي أو الخزرجي قومه إذا ارتكبوا من الأفعال ما يؤثر في تماسك القبيلة ولحماتها ، ويعرضها للخطر ومطامع العدو. فهذا عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي يلوم قومه أحياء وأمواتا ، ويقرعهم على سفك بعضهم دماء بعض ، ويتحسر على من مات منهم ، ويذكر أيامه معهم ، كما يذكر محاسنهم :

خَلَّتِ الدِّيارُ فَسُدَّتْ غَيْرَ مَسَوِّدٍ      وَمِنْ الْعَنَاءِ نَقَرُدِي بالسُّودِّ  
أَيْنَ الَّذِينَ عَهْدُهُمْ فِي غِبْطَةٍ      بَيْنَ الْعَقِيقِ إِلَى بَقِيعِ الْغَرَقَدِ  
كَانَتْ لَهُمْ أَنْيَابُ كُلِّ قَبِيلَةٍ      وَسِلَاحُ كُلِّ مُدْرَبٍ مُسْتَنْجَدِ  
نَفْسِي الْفِدَاءُ لَفْتِيَةٍ مِنْ عَامِرٍ      شَرَبُوا الْمَنِيَّةَ فِي مَقَامِ أَكْكَدِ<sup>(٢)</sup>  
قَوْمٌ هُمْ سَفَكُوا دِمَاءَ سَرَائِهِمْ      بَعْضُ بَيْعُضٍ فَعَلَ مَنْ لَمْ يَرْشُدِ  
يَا لِلرَّجَالِ لِعَثْرَةٍ مِنْ دَهْرِهِمْ      تَرَكْتُ مَنَازِلَهُمْ كَأَنْ لَمْ تُعْهَدِ<sup>(٣)</sup>

والشاعر يقر بأن تلك النزاعات والحروب بين القبيلتين أفعال حمقاء ، ولحرصه على تماسك أمر قبيلته ، فإنك تلمس في نبرته ذلك الحزن الهاديء وهو يتحدث عن غبر من قومه ، وما اقترفوا من أمور عادت على القبيلة بالويل والوبال والثبور ، وجعلت ديارهم قاعا صاففا ، مهجورة خالية من ساكنيها كأن لم تَعَنَّ بالأمس . ونحن حين نقرأ هذا الشعر يخيل إلينا أن قائله مصلح اجتماعي يسعى إلى رَأْب الصدع بين طرفي قومه ، وأنه قد اعتزل الحرب بين الأخوين ، وليس الأمر كذلك ، فقد كان عمرو هذا رأس الخزرج في أعظم الحروب بين القبيلتين ، وهو يوم بُعِثَ ، لكن تلك هي عادة العرب في حروبها ، فهي تقتل بعضها ثم تعود تبكي قتلها وتندم

<sup>(١)</sup> كيوان حسان ، ج ١ ، ص ٣٥٧ . والخَطَرُ ، بالتحريك : في الأصل الرهن ، وما يُخَاطَرُ عليه ومثلُ الشيء ، والحظ والنصيب . والخَطَرُ هنا : السَّقُّ الذي يترامى عليه في التراهن ، والجمع أخطار ( انظر لسان العرب ، مادة " خطر " ) ، والفقحة : حلقة الدبر . ويريد من البيت الثاني أن عدد قليل مثل عدد البعر المتساقط من دبر البهيمة . والشعر في هجاء النجاشي الحارثي الشاعر وقومه الحماس ، وكانت بينه وبين حسان مهاجاة ، والنجاشي هو قيس بن عمرو بن مالك بن معاوية بن خديج بن الحماس بن ربيعة بن الحارث ابن كعب الحارثي ( انظر سبب تلك المهاجاة وبعض خبرها عند ابن السيد البطلاني ، الحل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل ، ص ٢٤٤ ) .

<sup>(٢)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٨٤ ، والعقيق وبقيع الغرقد موضعان في يثرب ، وعامر المذكور هو جد الشاعر ، وهو عامر بن بياضة بن عامر بن زُرَيْق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج . ومناسبة هذا الشعر أن الأوس والخزرج كانوا دخلوا حديقة من حدائقهم في بعض حروبهم وأغلقوا باب عليهم ، ثم اقتنلوا فلم يفتح الباب حتى قتل بعضهم بعضا . انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة " بقيع الغرقد " . ولعل هذا كان في يوم الحديقة الذي سبق الحديث عنه ص ٣٨ من هذه الدراسة ، وهو نفسه يوم الفجار الأول .

<sup>(٣)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٨٤ ، والبيتان تنمة للآيات السابقة من قول عمرو بن النعمان البياضي . السراة والسراوات جمع سري وهو السيد الشريف السخي في مروءة ( انظر لسان العرب ، مادة " سري " ) ، وقوله : " يا للرجال لعثرة من دهرهم " ، روى المنذري عن المبرد أنه قال : إذا استغيث بواحد أو بجماعة فاللام مفتوحة تقول : يا للرجال ويا للقوم ويا لزيد قال ... فأما لام المدعو إليه فإنها تكسر تقول : يا للرجال للعجب . ( انظر لسان العرب ، مادة " لوم " ) .

على ما بدر منها ، وانظر كيف عبر البحري عن تلك العصبية المقيتة ، فقال وهو يلوم أولئك الذين أشبهوا في فعلهم أهل الجاهلية :

حمية شغب جاهلي وعزّة  
كليبية أعياء الرجال خضوعها  
تقتل من وتر أعزّ نفوسها  
عليها بأيدي ما تكاد تطيعها  
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها  
تذكرت القربى ففاضت دموعها<sup>(١)</sup>

ولو نظرنا مليا في قول البحري الأنف، لوجدناه ينثر لنا خبايا نفس عمرو بن النعمان البيضاوي ، وما يشعر به بعد كل حرب ، فهو سيد قومه ، غير أنه لا يعد نفسه كذلك ، لأنه شارك في قتل إخوته ، ولطخت يده بدمائهم، وعجز عن وقف نزيف الدم المتدفق بينهم ، وليس هذا من فعل السيد الذي يسعى إلى إصلاح ذات البين ، ولم شعث ما تفرق من القبيلة الواحدة ، فقد بدد شملها بدل جمعه ، وأوضع خلالها بدل نصرها .

وليس الخزرج وسيدهم من يشعر بمثل هذا الشعور فحسب ، فمن إخوتهم الأوس من يبادلهم هذا الشعور أيضا ، فقد رأى قيس بن الخطيم أن في قتل إخوته الخزرج عنفا منه ومن قومه ، ومع أن الخزرج في نظره قد صدر منهم ما صدر من إساءة ، فإن الشاعر يشفق عليهم من وراء غيبيهم ، إذ يتذكر عهد الرحم والقربى بينهم ، ولا يعني له ذلك النصر الذي حققه في حربه معهم شيئا ، ولا يعنيه أيضا ما قاله الناس عن هذا النصر ، ففجيعته بمقتل إخوته الخزرج ومصيبته فيهم لا يعادلها شيء ، وقومه لا يعوضه عنهم أحد :

نقلي بحد الصقيح هامهم  
وقلينا هامهم بنا عنف  
إنا ولو قدموا التي علموا  
أكبادنا من ورائهم تجف  
لما بدت غدوة جباههم  
حنّت إلينا الأرحام والصحف  
قال لنا الناس: معشر ظفروا  
قلنا: فأنى بقومنا خلف<sup>(٢)</sup>

وما دمنا نتحدث عن أمر القبيلة والسعي إلى إصلاح أمرها ، فمن تمام العصبية القبلية أيضا أن يهجو الشاعر من يحاول إفساد أمر قبيلته ، ويدب في فسادها حتى لو كان هذا الفرد من قبيلة الشاعر نفسها. ولأن مصلحة القبيلة تأتي بالدرجة الأولى وتسبق مصلحة الأفراد فإننا نجد الشاعر يغضب كثيرا إذا سوّد عليها من ليس بكفاء لها ، ومن لا يراعي مصالحها .

<sup>(١)</sup> ديوان البحري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٤ ، ١٩٧٧ ، ج٣ ، ص ٢٢٣ .  
والشغب: الشر ، وكليبية: نسبة إلى كليب بن ربيعة التغلبي أخي المهلهل الذي هاجت بمقتله على يد أخي زوجته جسّاس حرب البسوس .

<sup>(٢)</sup> ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١١٥-١١٧. ونقلي : يقال : فلاه بالسيف إذا علاه ، وعُفّ : عَفّ ، يقول : قتلنا إياهم عنف منا لأنهم بنو عمنا ، وتجف : أي تخفق حزنا عليهم .

وما دامت مصلحة القبيلة هي التي تملي على الشاعر أفعاله وأقواله ، فلا غرو إذن أن نجد ثابت بن المنذر والد حسان يهجو أحد أفراد قومه حين سُوِّد عليهم ، وهو عمرو بن الإطنابة الخزرجي ، بل يهجو أيضا النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي رأسه ملكا عليهم ويعرّض بسوء اختياره مستندا إلى سطوة نسبه ، وبأس قومه ومن والاهم ، فيخاطبه منتقدا تصرفه حين ملّك عليهم رجلا أحمق :

أَلْكِنِي إِلَى النُّعْمَانِ قَوْلًا مَحْضُتُهُ      وفي النُّصْحِ لِلْأَلْبَابِ يَوْمًا دَلَالُ  
بَعَثْتَ إِلَيْنَا بَعْضَنَا وَهُوَ أَحْمَقُّ      فَيَا لَيْتَهُ مِنْ غَيْرِنَا وَهُوَ عَاقِلٌ<sup>(١)</sup>

وهنا نجد أن ثابت بن المنذر لم يتورع عن هجاء بعض قومه الذين يحرص على كل واحد منهم حرصه على فلذة كبده ، لكنه حين هجاه لم يدر في خَلده ولا كان تُصَبَّ عينيه سوى مصلحة القبيلة كلها مجتمعة ، لا مصلحته هو ، ولا مصلحة فرد من أفرادها .  
وإذا بحثنا في السبب الذي دفع ثابت بن المنذر إلى هجاء عمرو بن الإطنابة وهو من قومه وقفنا على سببين محتملين :

**الأول :** على الرغم من أن عمرو بن الإطنابة كان فارسا وصاحب حرب ، إلا أنه كان ذلك يعيش حياة مترفة لاهية ، حيث كان مفتونا بمجالس اللهو والشرب كما يوضح شعره<sup>(٢)</sup>، ومثل ذلك في نظر ثابت بن المنذر جدير بأن يَحْمَقَ ، فمثله مترفا لاهيا لا يصلح أن يعتني بشؤون مجتمع كبير كالمجتمع اليثربي بما يضم من قبائل متغايرة هدفا وأسلوب حياة .

**الثاني :** قال ابن سعيد الأندلسي وهو يتحدث عن الأوس والخزرج : ومَلَكْتَ الأوس والخزرج المدينة ، إلا أنه كانت الحرب كثيرا ما تقع بين الفريقين ، ولم يستقم لهم أن يستبد بهم ملك ، إلى أن رحل إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة عمرو بن الإطنابة الخزرجي فملكه على المدينة<sup>(٣)</sup> .

من الإشارة السابقة نتبين أن مجتمع الأوس والخزرج ليس من السهل أن يحكمه ملك ، نظرا للنزاعات المزمنة التي خاضتها القبيلتان ، وما يعتمل في نفوس أبنائها من ضغائن وإحن وثورات . ويوحى لنا قول ابن سعيد الأندلسي : " إلى أن رحل إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة عمرو بن الإطنابة الخزرجي فملكه على المدينة " أن أمرهم قد استقر بعد تملك ابن الإطنابة

<sup>(١)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ١٢٧. وألكني إليه : كن رسولي إليه ، أو احمل إليه مملكة ، وهي الرسالة (لسان العرب ، مادة "ألك") ، وَمَحْضُتُهُ : أخلصته .

<sup>(٢)</sup> انظر في ذلك إشارة حميد آدم ثويني ، عمرو بن الإطنابة : حياته وما تبقى من شعره ، ص ٨٣-٨٤ .

<sup>(٣)</sup> ابن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق : د. نصرت عبدالرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٨٢ ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

عليهم ، ولا نَخال ذلك ، لأن حروب القبيلتين المستمرة التي لم تهدأ ثأرتها إلى أن جاء الإسلام تؤيد ما ذهب إليه ثابت بن المنذر وتؤيد رأيه في ابن الإطنابة.

لقد نظر ثابت بن المنذر إلى حقيقة هذا الأمر نظر الناقد البصير بما تصير إليه الأمور، فرأى أن قيام النعمان بتمليك رجل من إحدى القبيلتين عليهما هو فعل مجانب للصواب ، وأن قبول عمرو بن الإطنابة هذا الأمر حمق منه كبير ، كيف لا وما زالت القبيلتان تتنازعان سيادة المدينة والحرب بينهما لم يهدأ أوارها ، والدماء بينهما لم تجف بعد ، فهل تتنازل الأوس للخزرج وعمرو بن الإطنابة عن السلطة بهذه السهولة ؟

إن ذلك في نظر ثابت بن المنذر كان سيخلق عداوات جديدة للقبيلتين تتضاف إلى عداواتهما الراهنة .ولما كان الشاعر حدبا على قومه من القبيلتين ساءه ما ئميَ إلى سمعه من خبر تمليك عمرو بن الإطنابة على القبيلتين فقال ما قال من شعر .



## ٢ - علاقة الأوس والخزرج باليهود في يثرب

تذكر المصادر التاريخية روايات كثيرة مختلفة عن وجود اليهود في يثرب في العصر الجاهلي ، لكن جل ما ذكرته تلك المصادر قد نص على أنهم جاؤوا إليها من خارج الجزيرة العربية في عدة هجرات متوالية:

**الأولى:** في سنة ٥٨٦ ق. م عندما اقتحم بختنصر البابلي أورشليم ودمر الهيكل ، وسبى معظم أهلها (السبي البابلي) ، فهرب جماعة منهم وساروا إلى بلاد الحجاز ونزلوا يثرب .

**الثانية:** ما بين عامي ٦٦ - ٧٠ م عندما هاجم القائد الروماني تيتوس فلسطين ، ودمر أورشليم ثانية ، وشتتهم وأغرق عدداً كبيراً منهم في بحيرة لوط ، ففر الناجون إلى الحجاز ووصلوا إلى يثرب) وأقاموا فيها مع من سبقهم.

**الثالثة :** عام ١٢٣م عندما أرسل الإمبراطور الروماني هادريان جيشاً إلى فلسطين، فأخرجهم منها، وفر من نجا منهم إلى جزيرة العرب<sup>(١)</sup>.

وقد كانت المدينة عندما جاءها أشتات اليهود الهاربين عامرة بمجتمع يضم خليطاً من قبائل عربية بعضها بقية من العماليق وبعضها قبائل توافدت من أطراف (يثرب) القريبة والبعيدة .

وأول من وصل إلى (يثرب) من اليهود ثلاث قبائل هي : بنو قريظة وبنو النضير وبنو قَيْنُقَاع، ثم تبعتهم قبائل أخرى ، فكان ممن يسكن المدينة - حين نزلها الأوس والخزرج - من قبائل بني إسرائيل: بنو عكرمة، وبنو ثعلبة، وبنو مُحَرَّم، وبنو غُوراء، وبنو قَيْنُقَاع، وبنو زيد، وبنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بَهْدَل، وبنو عوف، وبنو القَصِيص. وكان معهم من غير بني إسرائيل بطون من العرب منهم: بنو الحرمان (حي من اليمن)، وبنو مَرْتَد وبنو أُثَيْف (حيان من بَلِيٍّ)، وبنو معاوية (حي من بني سُلَيْم) ، وبنو الشَّطِيَّة (حي من غسان)<sup>(٢)</sup>.

و يحدد لنا ياقوت الحموي مواضع نزول اليهود في يثرب بعد هجرتهم إلى يثرب فيقول : وقد نزلت بنو النضير وادي بَطْحَانَ (أو بَطْحَانَ) ، وبنو قريظة وادي (مَهْزُور) وبنو قَيْنُقَاع في الوسط، وهما واديان تنصب منها مياه عذبة ، فاتخذ فيها بنو النضير الحقائق والأطم ، وأقاموا بها إلى أن غزاهم النبي ﷺ<sup>(٣)</sup>.

<sup>(١)</sup> انظر حديثاً مفصلاً عن اليهود وسكناهم يثرب عند : السمهودي ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق : قاسم السامرائي ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ط١ ، ٢٠٠١ ، ج١ ، ص٢٩١-٢٠٨ ، وإسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ٩٦ ، وجواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص ٥١١ . وقد ذكر ذلك كله بإسهاب شديد : راكان غصاب الزوري ، يهود يثرب (المدينة) (ر.ج ماجستير) ، إشراف : د. محمد عبد اللطيف عبد الكريم ، الجامعة الأردنية ، ٢٠٠١ ، ص ١-٢٥ .

<sup>(٢)</sup> الأصفهاني ، الأغاني ، ج٢٢ ، ص ١٠٩ .

<sup>(٣)</sup> ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة " بطحان " .

وقبل مجيء الأوس والخزرج أقام اليهود تجمعات مغلقة وبنوا الحصون والآطام. وقد اهتموا بزراعة النخل واتسعت زراعتهم ، وكثرت أطامهم وانتشرت في الأطراف الشرقية والجنوبية من يثرب، وما لبثوا أن سيطروا على الحركة الاقتصادية وأشاعوا القروض الربوية الفاحشة. ولما خرجت قبيلتا الأوس والخزرج مهاجرتين بعد سيل العرم لجأوا إلى المدينة التماسا لمكان يأويهم ، وقوت يحفظ عليهم حياتهم ، فنزلوها على أعين اليهود وتحت إمرتهم. وقد رضوا أول الأمر بالقليل فاستقروا في مواضعهم التي أقطعهم إياها اليهود الذين كانوا متنفيذين في المدينة يسيطرون على مواردها وخيراتها ، وكانوا فيها الأمرين الناهين. ولما كان اليهود في حاجة إلى الأيدي العاملة لاستثمار مزارعهم وثرواتهم المتزايدة فقد سمحوا لهم بالنزول في المناطق غير المأهولة من يثرب واستخدموهم في مزارعهم.

وكان ملك على اليهود حينها رجل يهودي اسمه "الفُطَيْيُون"<sup>(١)</sup> ، وكان ظالما مستبدا ، لا يدع امرأة تدخل على زوجها إلا بعد دخوله عليها بما في ذلك نساء الأوس والخزرج ، ولم يكن الأوس والخزرج ليرضوا بهذا الإذلال حياتهم ، ففي يوم زفاف أخت رجل من الخزرج اسمه مالك بن العَجَلان<sup>(٢)</sup> أرسلت أخته إلى الفُطَيْيُون أولا كما هي العادة ، فدخل مالك معها متكررا في زي امرأة ، وقام بقتل الفُطَيْيُون ثم فر إلى أبي جُبَيْلَة الغساني ملك غسان<sup>(٣)</sup> في الشام<sup>(٤)</sup>. ويبدو أن بعض يهود لم يكونوا راضين عن هذا الرجل ، فقد اعتدى على نسائهم أيضا ، وغضبهم أموالهم ، وتمادى في ظلمهم وظلم غيرهم ، من أجل ذلك شاركوا مالك بن العَجَلان في التخلص من حكمه ، فقد ذكر الجاحظ وساق قصة مقتل الفُطَيْيُون أن مالك بن العَجَلان حين انتهى من قتل الفُطَيْيُون قال لليهود: دونكم جنوده فاقتلوهم، فاجتمعت عليهم فقتلوهم عن آخرهم<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر ضبط الاسم عند ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٤٣٦ ، وانظر صيغا أخرى من ضبط اسمه ومعناه والكلام عن هذا الملك وأصله عند جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .

(٢) هو مالك بن العَجَلان بن عمرو بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جُشَم بن الخزرج. انظر نسبه كاملا عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ ، وانظر ترجمته ومصادره عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٩٥ .

(٣) يرتبط غسانة الشام مع الأوس والخزرج برابطة الدم ، فهما يرتدان إلى قبيلة الأزدي اليمانية ، ويرى ابن الأثير ( الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٥١٨ ) : أن أبا جُبَيْلَة عبيد بن سالم بن مالك ، وهو ملك من ملوك غسان لم يكن من آل غسان، وإنما كان من "بنى غضب بن جُشَم بن الخزرج" ذهب إلى غسان فصار عظيما عند ملكهم، مطاعا بينهم ، ويؤيد ذلك ما ساقه ابن حزم من نسب أبي جُبَيْلَة الغساني ، فقد قال عند سوقه نسب بني جُشَم بن الخزرج: ولَدَ جُشَم بن الخزرج: غضب، فولد غضب: مالك، فولد مالك: عبد حارثة؛ وعمرو ؛ وكعب ، فولد عبد حارثة: حبيب ، وزُرَيْق ، فولد حبيب بن عبد حارثة: زيد مناة، وعبد الله ، فولد عبد الله بن حبيب: أبا جُبَيْلَة الملك الغساني، الذي جلبه مالك بن العَجَلان لقتل اليهود بالمدينة . انظر ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٧٥.

(٤) للوقوف على تفصيلات هذا الخبر انظر الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، ص ١٨٥ ، وابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٤٣٦ ، والأصفهاني ، الأغاني ، ج ٣ ، ص ٤١ ، والبكري ، معجم ما استعجم ، مادة "حرض" ، وابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "حرض" ، ومادة "مدينة يثرب" ، وابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥١٧ .

(٥) الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، ص ١٨٦ .

وحين وصل مالك بن العَجَلان إلى أبي جُبَيْلَة شكّا إليه حاله وحال قومه مع يهود ، فدبر مالك بن العَجَلان وأبو جُبَيْلَة الغساني حيلة للقضاء على زعماء اليهود ، فقد عاد مالك بن العَجَلان وزعم أنه يريد بناء موضع لاستقبال الملك القادم لزيارتهم ، وطلب من يهود الخروج لاستقباله ، فتم ذلك وجاء الملك ، وتمكنت جيوش أبي جُبَيْلَة الغساني من القضاء على سادات اليهود وتمت الغلبة من يومئذ للأوس والخزرج ، وعاد أبو جُبَيْلَة إلى مقر ملكه بعد أن وطد الأمر لأبناء عمومته في حكم يثرب وغلبة اليهود عليها .

وقد قام مالك بن العَجَلان بحيلة أخرى لقتل ما تبقى من سادة اليهود ، فدعا رؤساءهم إلى طعام بحجة إبرام صلح بينهم ، ثم قام بقتل العشرات منهم ، فلم تقم بعدها لهم قائمة ، بعد ذلك كان كل قوم من اليهود يلجأون إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم<sup>(١)</sup> .

بعد سيطرة الأوس والخزرج على يثرب تحسنت أحوالهم بمرور الزمن ، وأصبحوا أقوى من ذي قبل فتحركوا خارج الحزام الذي كانوا محتبسين فيه ، وبنوا المنازل والآطام في أنحاء مختلفة من المدينة ، وتوسعوا في المزارع ، وصار لكل بطن من بطونهم مواقع كثيرة.

وإِخَالُ أن قصة الفُطَيَّونَ مع الأوس والخزرج فيها جانب كبير من الصحة لكثرة ترددها في مصادر التراث ، وخاصة كتب الأدب والتاريخ الموثوق بها ، لكني أجد أن قصة اعتدائه المستمر على نساء الأوس والخزرج ودخوله بهن قبل أزواجهن فيها كثير من المبالغة التي لا تتماشى وغيره الأوس والخزرج التي عرفوا بها كما تبين لنا من قصتهم مع أبي جهل عمرو بن هشام وردهم حلفاً قريش بعد أن احتال لذلك أبو جهل للتخلص من هذا الحلف<sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت الظروف قد أجبرتهم على ترك ديارهم في اليمن فما كانت لتجبرهم على ترك خلائقهم وطبائعهم وغيرتهم على نساءهم التي عرف بها العرب جميعاً ، فيقيموا على هذا الخسف والهوان الذي ما بعده هوان . وإذا كنا نشكك في هذا الجزء من القصة فإن بعض الباحثين قد جعل ذلك كله ضرباً من الخيال ، فقد قال جواد علي حين ساق هذه القصة :

ويظهر من دراسة هذه الأخبار المروية عن اليهود وملكهم "الفُطَيَّونَ" وعن الأوس والخزرج وما فعلوه باليهود أن عنصر الخيال قد لعب دوراً في هذا المروي في كتب أهل الأخبار عن الموضوع. ونجد في القصص المروي عن ملوك اليمن وعن ولعهم بالنساء وعملهم المنكر بهن ما يشبه هذا القصص الذي نسب إلى "الفُطَيَّونَ". ونجد للعلاقات الجنسية مكانة في

(١) انظر ، الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ١١٥ .

(٢) انظر الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن أيام الأوس والخزرج ص ٣٧ من هذه الدراسة .

هذا القصص الجاهلي الذي يرويهِ أهل الأخبار عن ملوك الجاهلية. وما قصة "الفِطْيُون" إلا قصة واحدة من هذا القصص الذي نجد للغرائز الجنسية مكانة بارزة فيه<sup>(١)</sup>.

وبعدُ ، فعندما لم يفلح اليهود في إعادة إخضاع هاتين القبيلتين لسيطرتهم ، وظلوا على خوف من غساسنة الشام أن يعودوا لنصرة إخوانهم كما فعلوا أول مرة ، لجأوا هذه المرة إلى الحيلة للإيقاع بين الأخوين عن طريق إشعال نار الفتنة والحرب بينهما، ونجحوا في تفريقهما بإشعال حرب ضروس بينهما لم تخمد جذوتها إلا بمجيء الإسلام .

وإذا كانت بعض حروب العرب قد دامت أربعين سنة مثل حرب بكر وتغلب(حرب البسوس) ، وحرب عبس وذبيان(حرب داحس والغبراء) ، فإن حروب الأوس والخزرج على ما ذكرت بعض الروايات قد دامت أكثر من مئة سنة<sup>(٢)</sup> ، بما كان لليهود من يد في ذلك ، بغية استعادة السيطرة على يثرب بإضعاف خصومهم عن طريق إشغال بعضهم ببعض<sup>(٣)</sup> .

وإذا كانوا قد نجحوا في إشعال تلك الحروب أو بعضها بين هاتين القبيلتين ، أو ساعدوا على دوام استمرارها فهم لم يفلحوا في السيطرة على يثرب وإعادتها إلى حوزتهم ، بل على العكس من ذلك ، فقد رموا فأصابهم سهمهم ، وخرجوا من تلك الحروب أكثر خسارا وبوارا وفرقة بعد أن مزقت تلك الحروب شملهم ، وأصبح بأسهم بينهم شديدا ، وانقلبوا على أنفسهم أحلافا لخصومهم : فريقا للأوس وفريقا للخزرج .

ولا نستغرب هذا الأمر عن يهود فقد عرفوا به عبر تاريخهم الطويل ، ثم إنهم قد حاولوا الوقعة بين هاتين القبيلتين حتى في الإسلام والرسول ﷺ بين ظهرائهم يأمرهم وينهاهم ، ولولا أنه عليه السلام أصلح ذات بينهم لعادت حروبهم جَدَّة كما كانت<sup>(٤)</sup> .

ولم يكن سوى أمر جلال ليوقف هذه الحرب الضروس التي أعلنها أشياخ الأوس والخزرج ، وغدَى جذوتها على مر السنين لليهود ، فظلت الأوس والخزرج في قتال مريب أفنى أوائلها وأواخرها حتى جاء الإسلام فخبث حربهم وكانوا خير الناس وخير النصراء للرسول ﷺ ودعوته . وكما كان بين الأوس والخزرج نزاعات كان بين اليهود أنفسهم نزاعات حتى وصل

(١) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٤ ، ص ١٣٥ .

(٢) أنشأ إلى ذلك ابن الأثير عند حديثه عن حرب حاطب التي كانت الحرب قبل الأخيرة قبيل الإسلام فقال : "وبينها(أي حرب حاطب) وبين حرب سُمَيْر نحو مائة سنة" ، وقد مر بنا أن حرب سُمَيْر كانت أول حرب بين الأوس والخزرج . انظر إشارة ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٥٣٧ .

(٣) أنشأ إلى دور اليهود في تلك الحرب عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب قبل الإسلام ، ص ١٤٨ .

(٤) انظر محاولة شأس بن قيس اليهودي الإيقاع بين الأنصار عند: الشوكاني ، فتح القدير ، دار الفكر ، بيروت ، ج ١ ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ، عند تفسيره قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ كَافِرِينَ هَكَذَا تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (سورة آل عمران ، الآية ١٠٠ - ١٠١) .

بهم الأمر إلى تحالف قبائل منهم ضد الأخرى ، فتحالفت بنو قنْيُفَاع مع الخزرج ، وتحالفت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس<sup>(١)</sup> . وما دما في علاقة الأوس والخزرج باليهود فإنه يحسن التعرّيج على أثر ديانة اليهود في هاتين القبيلتين ، خاصة أن بعض شعر هاتين القبيلتين لا يمكن فهمه أو تعليله دون تعرف ذلك .

لقد كان الأوس والخزرج وثنيتين كما كان كثير من العرب ، ولم يكن تحولهم إلى ديانات أخرى إلا أمرا طارئاً عليهم . ويشير إلى وثنيتهم هذه ابن السائب الكلبي حين تحدث عن صنم "مناة" ، وبَيَّن أن الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قاربهما كانوا يعظمون هذا الصنم ويذبحون ويهدون له ، وأنه لم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج ، وكانوا يخصونه كما تخص قريش اللات وتقيف العزى ، حتى قال عبد العزى بن وداعة المزني (أو غيره):

إِنِّي حَلَقْتُ يَمِينَ صِدْقَ بَرَّةٍ بِمَنَاةَ عِنْدَ مَحَلِّ آلِ الْخَزْرَجِ<sup>(٢)</sup>

ومناة هذه هي التي ذكرها الله عز وجل في كتابه فقال: "وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى"<sup>(٣)</sup> (٤) .

ويذكر المؤرخون أن جملة من العرب قد تهوَّدت ، فقد ذكر اليعقوبي أن ممن تهود من العرب اليمن بأسرها. وكان تُبْع حملَ حَبْرَيْن من أحبار يهود إلى اليمن، فأبطل الأوثان، وتهود من باليمن، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير. وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جُدَام<sup>(٥)</sup> .

وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى : "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ"<sup>(٦)</sup> ، أنها نزلت في الأنصار، فكانت المرأة المقلات (قليلة الولد) في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن تهوَّده، فتهود قوم منهم ، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك، حتى يكونوا هم من يختار الدخول في الإسلام. وقيل : إنهم لما بقوا على يهوديتهم، وأمر اليهود بالجلاء، وفيهم من يهود الأوس والخزرج شق على آبائهم ترك أبنائهم يذهبون مع اليهود ، فقالوا: "يا رسول الله ، أبنائنا وإخواننا فيهم، فسكت عنهم رسول الله ﷺ فأُنزل الله تعالى : "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" ، فقال رسول الله ﷺ : قد خَيْر

(١) انظر ابن هشام السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٥٧١ .

(٢) العرب تسمى الأوس والخزرج جميعا الخزرج ، وهذا البيت شاهد على ذلك سبق الاستشهاد به ص ٩ من هذه الدراسة .

(٣) سورة النجم ، الآية ٢٠ .

(٤) انظر تفصيل ذلك عند ابن السائب الكلبي ، الأصنام ، ص ١٣ .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

أصحابكم ، فإن اختاروكم فهم منكم ، وإن اختاروهم فهم منهم. وذكر بعض هؤلاء المفسرين أن ناساً من الأنصار كانوا مسترضعين في بني قريظة وغيرهم من يهود، فتهودوا، وأن من الأنصار في الجاهلية من رأى أن اليهودية أفضل الأديان، فهودوا أولادهم، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه، فنزل الوحي بالآية المذكورة<sup>(١)</sup>.

وإن تكن مناسبة الآية هي ما ذكره بعض أولئك المفسرين إلا أن ذلك لا يجعلنا نتخيل بأية حال أن قبيلتي الأوس والخزرج كانتا منقسمتين من حيث الديانة إلى فريقين : فريق وثني وآخر يهودي ، ولا يجعلنا نؤمُّ أن اليهودية كانت منتشرة بين هاتين القبيلتين انتشار الوثنية . ولو حاولنا أن نتلمس ذلك في تاريخ هاتين القبيلتين مستخدمين كل ما هُييء من مصادر ومن شعر نستشف ما وراءه من أفكار ما وجدنا بين الأوس والخزرج إلا قلة ممن تهودوا ، وما لبث أكثر من أدرك الإسلام منهم أن دخلوا فيه مع الداخلين .

في ما سبق قدمنا صورة عامة عن علاقة الأوس والخزرج باليهود ، ولو التمسنا أثر هذه العلاقة ومظاهرها - عدا علاقة الحلف - في ما وصل إلينا من شعر هاتين القبيلتين الجاهلي لوجدنا ذلك دون ما نأمل ، فقد اقتصر شعر الأوس والخزرج الذي يشير إشارة صريحة إلى اليهود على صدام الأوس والخزرج الأول مع اليهود ، وخاصة في قصة أبي جُبَيْلَة الغساني وما دار حولها ، وهذا أمر غريب ، إذ إن تاريخ هذه العلاقة كان طويلاً إلى حد ما ، وكان ينبغي أن يفرز شعراً كثيراً ، لكن كما قلنا من قبل ، فإن النزاع الداخلي بين هاتين القبيلتين على إمرة المدينة هو ما حال بينهم وبين الصدامات الخارجية الأخرى المباشرة مع القبائل الأخرى .

وأظهر ما يطالعنا من شعر في ذلك هو شعر مالك بن العَجَلان ، فقد عدَّ اليهود مالك بن العَجَلان - بعد أن فعل بهم ما فعل<sup>(٢)</sup> - شيطاناً ملعوناً، وصوروه ووضعوا صورته في بيعهم

(١) انظر تلك الأقوال عند : الطبري (محمد بن جرير) ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج ٣ ص ١٥ ، وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ج ١ ، ص ٤١٦ ، والقرطبي (محمد بن أحمد) ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ ، والشوكاني ، فتح القدير ، ج ١ ، ص ٤١٦ . وانظر فصلاً كاملاً بعنوان " اليهودية بين العرب " عند جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٦ ، ص ٥١١ .

(٢) انظر الإشارة إلى ما فعله وتوثيقه ص ١٠٥ من هذه الدراسة .

وَكُنُسِهِمْ لَيْلَعْنُوهُ كُلَّمَا دَخَلُوها ، وَذَكَرَهُ شَعْرَاءُ الْيَهُودِ فِي شَعْرِهِمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ يَخَاطِبُ  
مَالِكَ بْنَ الْعَجْلَانَ الْخَزْرَجِيَّ :

فَسَقَّهْتَ قَبِيلَةَ أَحْلَامَهَا      ففيمَن بقيتَ وفيمَن تَسودُ ؟<sup>(١)</sup>

فأجابه مالك بن العجلان :

فإنِّي امرؤٌ من بني سالم بُنْ عَوْفٍ وَأَنْتَ امرؤٌ من يَهُودٍ<sup>(٢)</sup>

وبيت مالك السابق على بساطة تركيبه فيه فخر كبير بقبيلة الخزرج ، و غَضٌ كبير من منزلة اليهود . ولعل ذلك يطلعنا على نظرة العرب لليهود التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ، فقد كانوا يُروون دون العرب قدرا ، فأنت تلحظ كأن في قوله : "وأنت امرؤٌ من يَهُودٍ" شتيمة وتعييرا ، وكأنَّ المخاطب اقتترف فعلا مشينا يلام عليه أن كان من يهود . ولا تقتصر هذه النظرة لليهود على الأوس والخزرج بحكم علاقتهم بهم ، فنحن إذا تتبعنا مثل تلك المعاني في شعر العرب عامة وجدنا شعرا كثيرا يدور حولها .

ويصل إلى مالك بن العجلان ما فعلته يهودٌ من تصويره والدعوة إلى لعنه ، فيهون من ذلك في هجاء مر لهم ، ولا يضيره ما فعلوه ما دام أنه أذلهم ، وقتلهم تقتيلا ، واستباح بيضتهم ، وشرَّد بهم من خلفهم من إخوانهم وغيرهم من القبائل المُساكنة لهم :

تُحَامِي الْيَهُودَ بَتَّلَعَانِهَا      تُحَامِي الْحَمِيرَ بِأَبْوَالِهَا  
فماذا عليَّ بأن يلعنوا      وتأتي المنايا بإذلالِها ؟<sup>(٣)</sup>

ويفخر الصامت بن أصرَمَ بعمه مالك بن العجلان بما فعله باليهود هو وبنو عمه من غساسنة الشام بقيادة أبي جُبَيْلَةَ الغساني ، فقد دهاهم ، وأحلَّ بهم طامة ، وسبى نساءهم ، وقسمها في قومه :

سَائِلُ فَرِيْظَةٍ: مَنْ يُقَسِّمُ سَبِيَّهَا      يَوْمَ الْعَرِيْضِ وَمَنْ أَفَاءَ الْمَغْنَمَا؟  
جاءَهُمُ الْمَلْحَاءُ يَخْفِقُ ظِلُّهَا      وَكُتَيْبَةُ خَشْنَاءُ تَدْعُو أَسْلَمَا  
عَمِّي الَّذِي جَلَبَ الْهُمَامَ لِقَوْمِهِ      حَتَّى أَحَلَّ عَلَى الْيَهُودِ الصَّيْلَمَا<sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> البيت للربيع بن أبي الحقيق كما في معجم الشعراء للمرزباني ، ص ٢٢٩ . وقبيلة هي أم الأوس والخزرج عرفوا بها ، وهي: قبيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء . انظر ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٣٢ .

<sup>(٢)</sup> انظر البيت ومناسبتة عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٩٦ .

<sup>(٣)</sup> انظر البيهقي عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٠٣ ، ومعنى البيت الأول أن اليهود تطلب الحماية لأنفسها عن طريق لعنه ، وليس في ذلك من جدوى ، وفعلهم ذاك مثل فعل الحمير التي تبتغي حماية نفسها بأبوالها .

<sup>(٤)</sup> يوم العريض : هو اليوم الذي نكب فيه أبو جُبَيْلَةَ يهود يثرب . والعريض موضع من أرجاء المدينة فيه أصول نخل ، وله حرة نسبت إلى (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "العريض") ، وأفاء المغنما : ناله من غير قتال ، والملحاء : من الكتائب : العظيمة الكثيرة السلاح (القاموس المحيط ، مادة "ملح") ، والصيلما : الأمر الشديد المستأصل (لسان العرب ، مادة "صلم") ، وأسلم : لعله يعني قبيلة أسلم بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد . انظر نسبها عند ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ٣٧٧ .

ومن المعاني التي تدور في شعر الأوس والخزرج عند حديثهم عن اليهود وصفهم بالذلة والجبن وهو نظير ما وصفهم به القرآن الكريم من بعد كقول حسان:

وَمِنْ لَتِيمِ عَبْدٍ يُحَالِفُكُمْ      لَيْسَتْ لَهُ دَعْوَةٌ وَلَا شَرَفُ  
بِالكَاهِنِينَ الَّذِينَ جَدُّهُمْ      عَبْدُ الْعَصَا وَاللَّئَامِ إِنْ أَسْفُوا<sup>(١)</sup>

واللؤم أيضا - في شعر حسان الأنف - سمة بارزة في خلائق اليهود وطبائعهم فضلا عن انحطاط الشرف والمنزلة. ولما كان اليهود قد جبلوا على المصانعة في الأمور ، ثم الغدر من بعد ، ترددت هذه السمات التي عرفوا بها في شعر الأوس والخزرج الذين هم أعرف الناس بسمات اليهود بعد أن جاوروهم رَحا من الدهر ، وفي ذلك يقول يزيد بن فُسْحَم:

فَأَمَّا الصَّرِيحُ مِنْهُمْ فَتَحَمَّلُوا      وَأَمَّا الْيَهُودُ فَاتَّخَذْنَا بَضَائِعَا  
أَخَذْنَا مِنَ الْأُولَى الْيَهُودَ عَصَابَةً      لِيَغْدِرَهُمْ كَانُوا لَدِينَا وَدَائِعَا  
فَذَلُّوا لِرَهْنٍ عِنْدَنَا فِي حِيَالِنَا      مَصَانِعَةٌ يَخْشَوْنَ مِنَّا الْقَوَارِعَا<sup>(٢)</sup>

ومن سماتهم التي تتردد في الشعر أيضا خذلانهم حلفاءهم ، ونقضهم عهودهم ، وهما أيضا سمتان لازمتان لهما على مر العصور حتى مع الأنبياء عليهم السلام الذين بعثهم الله ، وآخرهم نبينا ﷺ:

أَلَا أَبْلَغُ بَنِي ظَفَرٍ رَسُولَا      فَلَمْ نَذَلِّ بِبَيْتَرْبٍ غَيْرَ شَهْرٍ  
خَذْلَانَاهُ وَأَسْلَمْنَا الْمَوَالِي      وَفَارَقْنَا الصَّرِيحُ لِعَيْرٍ فَقَرٍ<sup>(٣)</sup>

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٨٨ . والكاهنان : بنو قريظة وبنو النضير ، نسبوا إلى جدهم الكاهن بن هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام . (انظر الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩) ، وليس له دعوة : أي ليس له استجابة دعوة إذا دعا إلى أمر ، وعيد العصا : يقال للقوم إذا استدلوا ما هم إلا عبيد العصا ، أي يضربون بها ( انظر لسان العرب ، مادة "عصا" ) ، أو أنهم يهابون من آذاهم ( الزمخشري ، أساس البلاغة ، مادة "عصي" ). وقد اشتهر هذا التركيب بإطلاقه على بني أسد لأن حُجْرا الكندي قتل سراًوتهم بالعصا - وقتلوه من بعد - حين امتنعوا عن دفع الجزية ، فسَمُوا عبيد العصا ، ومعنى إن أسفوا : من أسف عليه أسفاً ، أي غضب ، وأسفه : أغضبه ، وفي التنزيل : " فَلَمَّا أَسْفَوْنَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ " (سورة الزخرف ، الآية ٥٥) ، ومعنى "أسفونا" : أغضبونا (انظر لسان العرب ، مادة "أسف" ) . وكان الشاعر يريد بذلك مكروهم واحتيايلهم لمعاينة من أغضبهم من دون مواجهته كما هي عادتهم .

(٢) انظر الأبيات و المناسبة عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٠٩ ، وانظر الحديث عن ذلك مفصلاً عند الحديث عن "يوم الفجار الثاني" بين الأوس والخزرج ص ٣٩ من هذ الدراسة. والقوارع : جمع قارعة ، والقارعة : من شدائد الدهر ، وهي الداهية (لسان العرب ، مادة "قرع" ) ، والمصانعة : أصلها أن تصنع لأحدهم شيئاً ليصنع لك شيئاً آخر مقابله ، ومن معانيها الرشوة ، وصانعه عن الشيء : خادعه (لسان العرب ، مادة "صنع" ) ، وأنا أرى هنا أنها تحتل كل هذه المعاني مجتمعة ، وخاصة المعنى الأخير ، وكأنه يقول : ذلوا حين رهنوا أبناءهم عندنا مخادعة لنا خشية أن نقتلهم ، ونحن نعلم ذلك منهم . وقد ورد لفظ "اليهود" غير مضبوط ، وهو يحتمل أن يكون مفعولاً به لـ "أخذنا" ، وعصابة : حال ، وأن يكون قوله : "من الأولى" قد أراد به لفظ "الصريح" الوارد أولاً في البيت الأول ، والمراد بهم الأوس ، فجعل أخذ الرهن من حلفائهم كأنه أخذ منهم ، أو يكون لفظ "اليهود" مجروراً والتقدير : من اليهود الأولى وهي قريظة ، لأن أكثر الرهن كان منها ، وعصابة مفعول به .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٨٤ ، وبنو ظفر : بطن من الأوس ، وهم قوم قيس بن الخطيم ، والهاء في خذلناه تعود على "شهر" الواردة في البيت ، وقوله : فلم نذل بئرب غير شهر : لعله يشير إلى هزيمة قومه الأوس في يوم مُعَبَسٍ ومُضَرَسٍ . انظر ديوان قيس بن الخطيم ، ١٨٤ ، حاشية (٢) ، وانظر يوم مُعَبَسٍ ومُضَرَسٍ ص ٣٩ من هذه الدراسة .



وفي قول قيس : "غير فقر" إشارة واضحة إلى حب اليهود المال ولعهم به ، لكنهم هذه المرة في نظر ابن الخطيم لم يكونوا على عادتهم من البعد عن الفقير والضعيف واتباع المال الذي هو قبلتهم أينما وُجد ، مع أن ابن الخطيم وقومه ليسوا فقراء ، وهذا من اليهود عجيب في نظر ابن الخطيم.

والفرار من المعركة سمة مشتركة بين الجميع ، لكن عبد الله بن رَوَاحَة يهجو بهذه السمة حيا كاملا من اليهود ، إذ إن من سمات اليهود في كل العصور التولي يوم الزحف لعدم قدرتهم على المواجهة المباشرة فيقول :

فَخَرْتُمْ بِجَمْعِ زَارِكُمْ فِي دِيَارِكُمْ      تَغْلَغَلْ حَتَّى دَوَفَعُوا بِالرَّوَاجِبِ  
أَبَاحَ حُصُونًا ثُمَّ صَعَدَ يَبْتَغِي      مَطْنَةً حَيٍّ فِي قَرْيَظَةٍ هَارِبٍ<sup>(١)</sup>

ويبين يزيد بن فُسْحُم الخزرجي أن اليهودي في الحرب يَعْجِز عن المقاومة ، بل يَعْجِزُ عن الفرار أيضا ، في حين ينجح الأوس في الفرار تاركين حلفاءهم اليهود لقمة سائغة للخزرج ، أو كأنهم بضاعة مزجاة لا صاحب لها :

فَأَمَّا الصَّرِيحُ مِنْهُمْ فَتَحَمَّلُوا      وَأَمَّا الْيَهُودُ فَاتَّخَذْنَا بِضَائِعًا<sup>(٢)</sup>

لقد كان اليهود في نظر الناس أمة المال وعبيد الدينار والدرهم حتى عرفوا بين الناس بالغنى مع شحهم وإمساكهم عن المعروف . من أجل ذلك نجد عبدالله بن رَوَاحَة الخزرجي يخاطب الأوس حلفاء يهود قريظة والنضير ، ويتهمهم بعدم اعتمادهم على اليهود ومحالفتهم إياهم ظنا منهم أن اليهود سيتنازلون عن مالهم لهم ويعينونهم به في حربهم مع الخزرج ، ويستخبر ابن رَوَاحَة الأوس قائلا لهم : أوجدتم في هذه الحرب يهود وما أطمعكم فيه من حلفهم أم أنهم خذلوكم؟

وَكُنْتُمْ تَدْعُونَ يَهُودَ مَا لَا      الْآنَ وَجَدْتُمْ فِيهَا يَهُودًا؟<sup>(٣)</sup>

ويشير بَرْدَع بن زيد الأوسي إلى لجوء الناس إلى اليهود يقترضون منهم المال ، فيقول موظفا ذلك في الفخر بنفسه :

(١) ديوان عبدالله بن رَوَاحَة ، ص ١٢٤. يرد ابن رَوَاحَة هنا على قيس بن الخطيم حين ذكر في شعره يوم حاطب ويوم بُعَاث . والرَّوَاجِبُ: مفصل أصول الأصابع التي تلي الأنامل؛ وقيل: هي بواطن مفصل أصول الأصابع ، وقيل: هي مفصل الأصابع، واحِدَتُهَا رَاجِبَةٌ (لسان العرب ، مادة " رجب " ) . قلت : ومعنى البيتين : أنكم فخرتم بصد جموع الخزرج التي هاجمت دياركم ، والحقيقة أن هذا الجيش قد دخل دياركم وأوغل فيها حتى استباح حصونها ، وراح يطارد قلوب حلفائكم من بني قريظة ، وما وجد مقاومة سوى منكم سوى مدافعتكم له بأيديكم .

(٢) انظر البيت والمناسبة عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ٢٠٩. والصريح : خالص النسب ، ويعني بهم هنا الأوس .

(٣) ديوان عبدالله بن رَوَاحَة ، ص ١١٩ . والآن؟ : أي : الآن؟ ، فالهزمة استفهامية . قلت : لم أجد أحدا ذكر لهذا البيت معنى ، ومع بساطة تركيبه إلا أن المعنى المراد منه غامض ، وقد اجتهدت في بيان معناه في متن هذه الصفحة ، وأرجو أن أكون قد أصبت .

أَتَانِي وَعَيْدُ الْخَزْرَجِيِّ كَأَنَّنِي      ذَلِيلٌ لَهُ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ مَضْرَعٌ  
مَتَى تَلَقَّنِي لَا تَلَقَّ نُهْزَةً وَاجِدٌ      وَتَعْلَمُ أَنِّي فِي السَّهْرَاهِزِ أَرْوَعُ<sup>(١)</sup>

ولو أنا تركنا فخر الشاعر بنفسه جانباً وتأملنا قوله : "كأنني ذليل له عند اليهودي مَضْرَعٌ" لوجدنا تحت هذه الجملة معنى يلخص عمل اليهود في يثرب ، ويبين لنا سياستهم فيها ، فحب المال همهم وسدَمُهم ، فقد وجد اليهود مذ وجدوا وهم أصحاب مال وتجار ذهب وصيارفة ، يستذلون رقاب الناس بقروضهم الربوية الفاحشة ، ومن أراد من الناس عوناً أو حلت به كربة لا بد أن يطرق بابهم ذليلاً يتضرع إليهم ، وذلك معنى قول الشاعر .

ومن مظاهر الحديث عن اليهود لدى شعراء الأوس والخزرج ذكر بعض معابدهم وبعض طقوسهم الدينية ، ونجد ذلك في شعر قيس بن الخطيم وهو يتغزل فيقول :

كَأَنَّ الْقَرْيَظْلَ وَالزَّجْجِيلَ      وَذَاكِي الْعَبِيرِ بِجَلَابِهَا  
نَمَتْهَا الْيَهُودُ إِلَى قُبَّةٍ      دُوَيْنَ السَّمَاءِ بِمَحْرَابِهَا<sup>(٢)</sup>

فمن هذين البيتين نتبين أنه كان لليهود معابد في يثرب يتعبدون فيها ، وأن هذه المعابد لم تكن تقليدية ، بل كانت ذات قباب شامخة ومحاريب تطل عَنان السماء ، وهذا مظهر يدل دلالة واضحة - إذا انضاف إليه بناء الآطام التي اشتهرت بها يثرب - على أن يثرب قد ضمت مظاهر حضارية كثيرة جلتها لنا أشعار القوم في مناسبات مختلفة . ويتبين لنا أيضاً من ذينك البيتين أنهم في طقوسهم كانوا يقومون بإذكاء الطيب في معابدهم وإطلاق الدخان المُطَيَّب من قبابها .

مما سبق ظهرت لنا علاقة الأوس والخزرج باليهود ، وهي علاقة - كما رأينا - ليست مبنية على التآلف والوئام ، لكن الذي يبدو لنا أن هذه العلاقة كانت مضطربة إلى حد بعيد ، تتحسن مرة وتسوء مرات . وعليه فإننا لا نستغرب إن وجدنا في شعر الأوس والخزرج مدحا لليهود فضلاً عما رأينا من هجاء . ويعلل مثل هذا الأمر أن علاقة الحلف التي تربط الأوس بقبيلتي قريظة والنضير تستدعي هذا المدح ، وقد مر عند الحديث عن الحلف أن العلاقة فيه تأتي بعد علاقة الدم . ولما كان اليهود غالباً قوماً لا عهد لهم في محالفتهم ، فقد كانوا يَفُون مرة فَيُمدَحون ، وينقضون مرة فَيُذَمُّون ، فلا غرو والأمر كذلك أن نجد ذماً لليهود ومدحاً لهم عند

<sup>(١)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢١٧ . البيت قاله حين بلغه أن مالك بن أبي كعب الخزرجي يتوعدده ويسفه رأيه . انظر الشعر والمناسبة بتفصيل عند الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٦ ، ص ٢٣٥ . ومَضْرَعُ : من الضراعة ، وهي هنا الخضوع عند الحاجة والسؤال ، والنهزة : الفرصة التي يجدها المقاتل في طعن خصمه ( انظر لسان العرب ، مادة " نهز " ) ، والواجد : من وجد يجد وجداً ، وهو هنا الحزين الخائف ، والسَهْرَاهِز : الشدائد والحروب ، والأروع : الشهم وذكي الروع ( القلب ) وحديثه ( انظر لسان العرب ، مادة " روع " ) .

<sup>(٢)</sup> ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٣٥ . والذاكي : ساطع الرائحة ، ونمتها : رفعتها .

شاعر واحد ، لكن مدحهم عند الشعراء نادر جدا ، سواء في الأوس والخزرج أم في غيرهم من القبائل العربية . ولم أقف في شعر الأوس والخزرج كله على مدح لليهود إلا في موضعين من شعر قيس بن الخطيم ليس غير ، وفي كليهما جاء المدح من خلال علاقة الحلف التي قدمنا القول فيه حين تحدثنا عن علاقة الحلف<sup>(١)</sup> ، ولم أجد فيهم مدحة خارج علاقة الحلف . وقد مدحهم قيس بن الخطيم بسبب محافظتهم على حلفهم مع الأوس فقال يمدح قريظة والنضير :

كُنَّا إِذَا رَامَنَا قَوْمٌ بِمَظْلَمَةٍ      شَدَّتْ لَنَا الْكَاهَنَانِ الْخَيْلَ وَاعْتَزَمُوا  
سَاقُوا الرُّهُونَ وَآسُونَا بِأَنْفُسِهِمْ      بنو الصَّرِيحِ فَقَدْ عَفَوْا وَقَدْ كَرُمُوا  
تَاللَّهِ نَكْفُرُهُمْ مَا أَوْرَقَتْ عِصَّةٌ      وَكَانَ بِالْأَرْضِ مِنْ أَعْلَامِهَا عِلْمٌ<sup>(٢)</sup>

فالشاعر يستنصر أحلافه من قريظة والنضير على عدوه فيبادرون إلى النصر ، ويبين قيس بن الخطيم كيف ضحى أحلافهم هؤلاء بأبنائهم لأجل نصرته قوم الشاعر . والحقيقة أن هذا الموقف من اليهود مع قوم الشاعر كان الدافع الرئيس إليه هو تحقيق المصلحة لليهود بالدرجة الأولى ، فقد ارتبطت مصالحهم بقبيلة الأوس التي تعزوا بها حفاظا على مصالحهم في يثرب ، ولم يكن موقفهم ذاك إلا لاستمرار هذه المصالح بعد سيطرة الأوس والخزرج على يثرب .

وإذا تتبعنا كل ما وصف به اليهود من أوصاف وجدنا لها نظائر في القرآن الكريم ، فهذه الصفات مستحكمة في طباعهم منذ خلقوا ، وقد بينها لنا الخالق عز وجل العالم بهم .

ذاك مجمل ما وقفنا عليه من ذكر لليهود في شعر الأوس . هذا وتذكر لنا بعض المصادر أن هناك مناقضات كانت تدور بين شعراء الأوس والخزرج وشعراء اليهود ، فقد ذكر المرزباني وهو يترجم لأحد شعراء اليهود هو كعب بن أسد بن سعيد القرظي اليهودي ، أن هذا الشاعر كانت له مناقضات مع قيس بن الخطيم يوم بُعث ، ولقيس بن الخطيم يقول كعب بن أسد بن سعيد القرظي اليهودي هذا :

(١) انظر ص ٧٥ وما بعدها من هذه الدراسة .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٠٦-٢٠٧ . وانظر الأبيات أيضا عند السهمودي ، وفاء الوفا ، ج ١ ، ص ١٢٥ . وانظر تعليقات مستفيضة على هذا الأبيات عند ناصر الدين الأسد ، في ديوان قيس بن الخطيم ، حواشي الصفحات ٢٠٣-٢٠٧ . وقد قال قيس بن الخطيم هذه الأبيات يمدح قريظة والنضير حين دفعوا للخزرج منهم أربعين غلاما رهنا بألا يحالفوا الأوس ضدهم ، انظر تفصيل ذلك ص ٤٠ من هذه الدراسة . ورامنا : أردنا وطلبنا ، والكاهنان : قريظة والنضير ، نسبوا إلى جدهم الكاهن بن هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام (انظر الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩) ، وآسونا : وآسوننا ، والمؤاساة والمواساة : المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق (لسان العرب ، مادة "أسا") ، وبنو الصريح : قريظة والنضير ، يقال لهما الكاهنان ، ويقال لهما أيضا بنو الصريح نسبة إلى الخزرج بن الصريح بن التوأمين بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوي بن خير بن النجم بن تتحوم بن عازر بن عزري بن هارون بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام (انظر النسب عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣٠ ، والوزير المغربي ، الإيناس في علم الأنساب ، ص ٩١) ، ونكفرهم : ننكر ونغطي نعمتهم ، والعصاة : كل شجر له شوك ، وعلم : جبل ، وخطل : الأحمق العجل أو الخطأ ، وخنا : قال الخنا ، وهو الفحش من الكلام ، وجذبوا عرضي ، عابوه ، وكلموا : خدشوا وجرحوا . وانظر تفسير الأبيات وتعليقا على معناها في حواشي ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٠٦-٢٠٧ .

لا تَعْدَم الأوسُ منا في مواطنها      ناباً لمن نابها في الحرب ميمونا  
لا تُسْتَخَفُّ إذا كان الصباحُ ولا      نُعْطِي السَّوَابِغَ إلا أهلها فينا<sup>(١)</sup>

ونحن إذا بحثنا في ذلك لم نجد أثراً يعول عليه من هذه النقائض مع اليهود ، لا في أشعار هاتين القبيلتين ، ولا حتى في ديوان قيس بن الخطيم الذي خُصَّ بخبر هذه النقائض ، بل إننا لا نجد أي ذكر لكعب بن أسد هذا ، حتى إن ناصر الدين الأسد قد أحال في ترجمة كعب بن أسد إلى المرزباني في معجم الشعراء الذي هو المصدر الوحيد لدينك البيتين .  
ولا ندري كيف يستقيم قول المرزباني السابق عن مناقضات قيس بن الخطيم مع كعب بن أسد القرظي يوم بُعَاث ، ومصادر التراث تذكر لنا أن بني قريظة والنضير قد كانوا أحلاف الأوس في هذه الحرب التي انتهت بهزيمة الخزرج ، إلا إذا كان ذلك الأمر قبل إبرام علاقة الحلف<sup>(٢)</sup> .

<sup>(١)</sup> المرزباني ، معجم الشعراء ، ص ٢٠٧ . ولا نستخف : لا نجزع ولا يخيفنا أحد (انظر لسان العرب ، مادة " خفف " ) ، والسوابغ : الدروع .

<sup>(٢)</sup> يذكر صاحب الأغاني أن قريظة والنضير قد اجتمعت على كعب بن أسد اليهودي هذا يوم بُعَاث ثم اتفقوا على أن يُعينوا الأوس على الخزرج ، وهذا مناقض تماماً لما ذكره المرزباني من أن له مناقضات مع قيس بن الخطيم الذي هو حليفه ، والمناقضة تستدعي الهجاء . انظر الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٧ ، ص ١٢٤ .

## موضوعات أخرى في شعر الأوس والخزرج

### أ. الخمر في شعر الأوس والخزرج

في مجتمع تسير الحياة فيه على وتيرة واحدة، والفراغ فيه أكثر من العمل، ومرافق اللهو والتسلية فيه قليلة أو معدومة، والفقر فيه أكثر من الغنى، في مجتمع كهذا المجتمع لا بد أن يقبل الناس فيه على قتل فراغهم بالبحث عن شيء ينسيهم فراغهم وفقدهم وشدة حاجتهم، ويلهيهم عن قساوة الطبيعة عليهم، ويبعث فيهم الأمل والطرب والنشوة، والشعور بأنهم سادة ملكوا الدنيا، وإن كل واحد منهم هو "رب الخورنق والسدير"، فكان إقبالهم على الخمر شديداً، حتى أفرطوا في شربه وأذى بعضهم نفسه من شدة إقباله عليه، وضحى شاربه بمركزه وماله في سبيله، فكان ذلك من عوامل تحريمه في الإسلام من بعد .

وقد كانت الخمر من متع الحياة الثلاث بالنسبة للشباب : الخمر والقمار والنساء ، فإذا أضيفت الشجاعة إليها صار الفتى من خيرة الفتيان، لذلك كان الشباب يفتخرون إذا جمعوا بين هذه المتع ويتباهون على غيرهم بها ، وربما ارتكبوا المخالفات في سبيل الحصول على المال للإنفاق على متعهم هذه وعلى ملذاتهم وملاهيهم في هذه الحياة <sup>(١)</sup> .

وقد أدمن كثير من أهل الجاهلية شرب الخمر، وهلك قسم منهم بسببها ، وحرّم قوم من الجاهليين الخمر على أنفسهم، وأكثرهم ممن يسمون الأحناف، ومنهم من كان يشربها ويقبل عليها، ولكنه وجد نفسه قد قام بأعمال لم يرتضها، جعلته يشعر بالخجل منها، فتركها وحرّمها على نفسه ، وأول من حرّمها على نفسه وامتنع منها في الجاهلية، هو الوليد بن المغيرة. وممن ترك الخمر في الجاهلية أيضاً عبد الله بن جدعان ، وقيس بن عاصم المِثْرِي ، وزيد بن عمرو بن نُفَيْل، وقسّ بن ساعدة الإيادي<sup>(٢)</sup> .

وبعض هؤلاء هم من الحنفاء، وبعضهم من السادة الأشراف الذين لم يتذوقوها، أو أنهم تعاطوها ثم رأوا ضررها فتركوها وحرّموها على أنفسهم. ويظهر أن بعضهم قد حرّمها على نفسه وعلى آله أيضاً، فذكر مثلاً أن الوليد بن المغيرة ضرب فيها ابنه هشاماً على شربها. وقد أشار أهل الأخبار إلى وقوع حوادث لأكثر من ذكرتهم دفعت بهم إلى تحريم الخمر على أنفسهم، كالذي ذكر من أمر عبد الله بن جدعان، وكالذي أشار إليه أهل الأخبار من تحرش بعضهم بمحارمهم تحرشاً لا يفعله إنسان سوي، أو تخليطهم أثناء سكرهم وقيامهم بأعمال مضحكة

(١) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٤ ، ص ٦٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦٧١ .

صَيَّرْتَهُمْ سَخِرِيَّةَ الْحَاضِرِينَ، فَلَمَّا صَحُوا وَسَمِعُوا بِمَا فَعَلُوا نَدَمُوا عَلَى مَا بَدَأَ مِنْهُمْ، وَقَرَرُوا اجْتِنَابَهَا وَتَحْرِيمَهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ<sup>(١)</sup>.

ويطالعنا ذكر الخمر في مواضع كثيرة من شعر الجاهليين ، فقد افتخر الشعراء بذلك كثيراً ، وساقوا لذلك معاني كثيرة تتردد في أشعارهم ، من وصف للخمر وآنيته وشربها ومجالسها وندامها ، وغير ذلك مما سنعرض لجانب منه في أشعار الأوس والخزرج .

ولم أر في شعر الأوس والخزرج من استوفى أوصاف الخمر كلها في قصيدة واحدة ، لذلك فإننا نقع في إحدى القصائد على وصف مزاج الخمرة ، وفي سواها على وصف تأثيرها ، كما نعث في قصيدة أخرى على وصف مجلسها وآنيته، أو سيئاتها وتقديمها ، من دون أن تجتمع هذه المعاني كلها في قصيدة واحدة . وقد تفاوت شعراء الأوس والخزرج في ذكر الخمر ، ومن أكثر من ذكر الخمر منهم حسان بن ثابت الخزرجي وقيس بن الخطيم الأوسي .

وتتردد في أشعار الأوس والخزرج أوصاف كثيرة للخمر : وصف لونها ، ووصف طعمها ومزاجها ، ووصف تأثيرها في الشرب ، ووصف مجلس الشراب والمنادمة ، وما يضم من : ندماء وساقين ، وقينات ، وفي شعرهم أيضاً معان أخر كثيرة تستدعيها الخمر وتدور في فلکها .

أما ذكرهم للون الخمر فهو الذكر المتداول بين شعراء الجاهليين ، وهو البياض والصفاء ، وهي عند عمرو بن الإطنابة لا نظير لصفائها ، فهي من شدة بياضها وصفائها يتلأأ وجه الشارب في قعر إنائها:

بيضاء صافية يرى من دونها قعر الإناء يضيء وجه الناهل<sup>(٢)</sup>

وبذلك وصفها حسان أيضاً<sup>(٣)</sup> ، كما وصفها بأنها كميّت ، وهي الحمراء التي يخالط حمرتها سواد :

<sup>(١)</sup> انظر ابن حبيب ، المحبر ، ص ٢٣٧ ، وجواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٤ ، ص ٦٧٢ .

<sup>(٢)</sup> البيت لعمرو بن الإطنابة الخزرجي . انظر البيت عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٦٧ ، والناهل : الشارب ، والنهل : الشرب الأول ، كما العلل الشرب الثاني . و"بيضاء صافية" صفتان لقهوة في قوله قبل ذلك : " قد بت مالکها وشارب قهوة " ، وفيه شاهد لنا على أثر الخمر سيأتي .

<sup>(٣)</sup> انظر في ذلك قوله : ولقد شربت الخمر في حانوتها صهباء صافية كطعم الفلفل (ديوانه ، ج ١ ، ص ٧٥) ، وفيه شاهد لنا على طعمها ، لذا أرجأنا إيراده في المتن حتى حين .

لِكُمَيْتٍ كَأَنَّهَا دَمٌ جَوْفٌ عُنُقَتْ مِنْ سُلَاقَةِ الْأُنْبَاطِ<sup>(١)</sup>

فَعَبَّرَ عَنْ الْحَمْرَةِ بِقَوْلِهِ : "كَأَنَّهَا دَمٌ" ، وَعَنِ السَّوَادِ بِقَوْلِهِ "جَوْفٌ" ، ذَاكَ أَنَّ الدَّمَ الْخَارِجَ مِنَ الْجَوْفِ عَادَةً مَا يَغَالِبُ لَوْنَهُ لَوْنُ السَّوَادِ لَمَّا يَشُوبُهُ مِنْ أَخْلَاطِ الْجَسْمِ ، عَكْسَ الدَّمِ النَّازِفِ مِنَ الْجَرْحِ فَهُوَ أَحْمَرُ قَانَ .

وَحِينَآ آخَرَ نَجَدَهَا عِنْدَهُ حَمْرَاءَ حَمْرَةٍ دَمٍ الْمَذْبُوحِ لَا يَشُوبُ حَمَرْتَهَا شَيْءٌ:

تَبَلَّتْ فُؤَادَكَ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةً تَشْفِي الضَّجِيعَ بِيَارِدِ بَسَامٍ  
كَالْمِسْكِ تَخْلِطُهُ بِمَاءِ سَحَابَةٍ أَوْ عَاتِقِ كَدَمِ الدَّبِيحِ مُدَامٍ<sup>(٢)</sup>

وَيُشَبِّهُ حَسَانَ صَفَاءَهَا بِعَيْنِ الدِّيكِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ :

وَقَدْ غَدَوْتُ عَلَى الْحَانُوتِ يَصْبَحُنِي مِنْ عَاتِقِ مِثْلِ عَيْنِ الدِّيكِ شَعْشَاعٍ<sup>(٣)</sup>

وَمِمَّا يُوَصِّفُ فِي الْخَمْرِ حَبَابُهَا الَّذِي تَقْنَنُ الشُّعْرَاءُ فِي وَصْفِهِ ، فَلَمْ يَرَوْا مِنْ بَيِّنَتِهِمْ مَا يَصْدُقُ عَلَى شَبِّهِ حَبَابِ الْخَمْرِ الَّذِي يَعْلُو وَيَنْخَفِضُ فِي الزَّجَاجَةِ أَوْ الْكَأْسِ إِلَّا خَبِثَ الْإِبِلُ :

بِزَجَاجَةٍ رَقَصَتْ بِمَا فِي قَعْرِهَا رَقَصَ الْقُلُوصُ بِرَاكِبٍ مُسْتَعِجِلٍ<sup>(٤)</sup>

أَمَّا زَجَاجَتُهَا وَطَعْمُهَا عِنْدَ حَسَانَ فَمُخْتَلَفٌ ، فَهِيَ مُشْعِشَةٌ حَارَةٌ الْمَذَاقِ تَارَةٌ:

حَلَفْتُ لَهُ بِمَا حَجَّتْ قُرَيْشٌ وَكُلُّ مُشْعَشَعٍ مِلْ خَمْرٍ آنَ<sup>(٥)</sup>

وَتَارَةٌ أُخْرَى صَرْفَةٌ خَالِصَةٌ لِاذْعَةِ كَالْفَلْفَلِ :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْخَمْرَ فِي حَانُوتِهَا صَهْبَاءَ صَافِيَةٍ كَطَعْمِ الْفُلْفُلِ<sup>(٦)</sup>

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَالْمُرَادُ مِنْ شَرْبِ الْخَمْرِ هُوَ الشُّعُورُ بِتِلْكَ النُّشُوءِ الَّتِي تَغْمُرُ الشَّارِبَ ،

وَلَيْسَ مِنْ فَرْقٍ فِي النِّهَايَةِ بَيْنَ كَوْنِهَا صَرْفَةً أَوْ مَمْزُوجَةً فِي نَظَرِ حَسَانَ :

(١) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٩١ ، والسُّلَاقَةُ مِنْ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ ، وَالتَّبِيطُ وَالتَّبْيِيطُ: قَوْمٌ يَنْزِلُونَ بِالْبَطَاحِ بَيْنَ الْعِرَاقَيْنِ ، وَالْجَمْعُ أَنْبَاطٌ (لِسَانُ الْعَرَبِ ، مَادَّةُ "نَبَط") ، وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ جَبَلَةِ الْعَرَبِ ، وَإِنْ تَبَرَأَ الْعَرَبُ مِنْهُمْ ، وَغَيَّرُوا بِهِمْ ، وَبَاعَدُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْهُمْ وَعَابُوا عَلَيْهِمْ لَهْجَتَهُمْ ، حَتَّى جَعَلُوا لُغَتَهُمْ مِنْ لُغَاتِ الْعَجَمِ ، وَقَالُوا إِنَّهُمْ نَبَطٌ ، وَإِنْ فِي لِسَانٍ مِنْ اسْتَعْرَبَ مِنْهُمْ رَطَانَةً . وَسَبَبُ ذَلِكَ ، هُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَتَقَفُوا بِتَقَافَةِ إِرَمَ ، وَكَتَبُوا بِكُتَابَتِهِمْ ، وَتَأَثَّرُوا بِلُغَتِهِمْ ، حَتَّى غَلَبَتْ الْإِرَمِيَّةُ عَلَيْهِمْ ، وَلَأنَّهُمْ فَضَّلُوا عَنْ ذَلِكَ خَالَفُوا سَوَادَ الْعَرَبِ بِاسْتِغَالِهِمْ بِالزَّرَاعَةِ وَبِالرَّعْيِ وَبِاحْتِرَافِهِمْ لِلْحَرْفِ وَالصَّنَاعَاتِ الْيَدَوِيَّةِ ، وَهِيَ حَرْفٌ يَزِدُّهَا الْعَرَبِيُّ الصَّمِيمُ ، وَيُغَيِّرُ مِنْ يَقُومُ بِهَا وَيَحْتَرِفُهَا . وَقَدْ اشتهر هؤلاء القوم بصناعة الخمر حتى نسبت بعض أنواعها إليهم كما نرى في شعر حسان (انظر جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٣ ، ص ١١) .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ، وتَبَلَّتْ مِنَ التَّيْلِ ، وَهُوَ أَنْ يَسْقُمَ الْهَوَى الْإِنْسَانُ (لِسَانُ الْعَرَبِ ، مَادَّةُ "تَبَل") ، وَهُوَ مِنَ الْمَجَازِ ، إِذْ أَوَّلُ التَّيْلِ الثَّأْرُ ، وَالْخَرِيدَةُ مِنَ النَّسَاءِ : الْبِكْرُ الَّتِي لَمْ تَمْسَسْ قَطْ (لِسَانُ الْعَرَبِ ، مَادَّةُ "خَرَد") ، وَالْعَاتِقُ : الْمَعْتَقُ مِنَ الْخَمْرِ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٢ ، وَالْحَانُوتُ دُكَّانُ الْخَمَارِ ، وَشَعْشَاعٌ وَمُشْعَشَعٌ بِمَعْنَى ، وَالْمُرَادُ الْخَمْرُ الْمَمْزُوجَةُ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٥ ، وَالْقُلُوصُ : الْفَتِيَّةُ مِنَ الْإِبِلِ بِمَنْزِلَةِ الشَّابَةِ مِنَ النَّسَاءِ (لِسَانُ الْعَرَبِ ، مَادَّةُ "قُلُوص") .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٩ . وَيُرِيدُ بِقَوْلِهِ "بِمَا حَجَّتْ قُرَيْشٌ" الْبَيْتَ الْحَرَامَ (الْكَعْبَةَ) ، وَمِلَ الْخَمْرُ : مِنَ الْخَمْرِ ، حَذَفَ النُّونَ لِلزَّرُورَةِ ، وَقَدْ تَكْتَبُ : مَلْخَمَرٌ ، أَوْ مِ الْخَمْرِ .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٥ ، وَالصَّهْبَاءُ : الْخَمْرُ ، قِيلَ : هِيَ الَّتِي عَصَرْتَ مِنْ عِنَبٍ أبيض ، وَقِيلَ : هِيَ تَكُونُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ ، وَذَلِكَ إِذَا ضُرِبَتْ إِلَى الْبَيَاضِ ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: الصَّهْبَاءُ: اسْمٌ لَهَا كَالْعَلَمِ ، وَقَدْ جَاءَ بِغَيْرِ أَلْفٍ وَلامٍ ، لِأَنَّهَا فِي الْأَوَّلِ صَفَةٌ (انظر اسم ابن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم ، مَادَّةُ "صَهْب") .

نَشْرِبُهَا صِرْفًا وَمَمْرُوجَةً      ثُمَّ نُغْنَى فِي بُيُوتِ الرُّخَامِ<sup>(١)</sup>

ومما يستلزم طعم الخمر الحديث عن تعتيقها ، وهو معنى تداوله الشعراء ، إذ لا يمر شاعر بذكر خمر إلا ذكر هذا المعنى ، وهو معنى توصف به جودتها ، ويقاس به أثرها في شاربها .

ونجد عند معشر الشعراء مبالغات كثيرة تدور حول هذا المعنى ، فمن شاعر يجعلها عتقت من عهد نوح ، وآخر يراها من عهد عاد ، وآخر يكتفي بالإشارة إلى تعتيقها حسب ، أما حسان فقد جعل مدة تعتيقها مجهولة حتى ما يدري أحد كم مر عليها من دهور ، ولعل هذا أبلغ في تأكيد المعنى :

عَتَّقَهَا الْحَانُوتُ دَهْرًا فَقَدْ      مَرَّ عَلَيْهَا فَرَطٌ عَامُ فَعَامٍ<sup>(٢)</sup>

وتقديم الخمر المعتقة للضيف سلوك حريٌّ بأن يكون مجال مدح ، وهو غاية ما يطمح إليه الجاهلي من كرم المضيف ، وإلى ذلك يشير قيس بن الخطيم بقوله :

وَإِنْ تَنْزِلُ بِذِي النَّجْدَاتِ كُرُرٌ      ثَلَاقٌ لَدَيْهِ شُرْبًا غَيْرَ نَزَرٍ  
لَهُ سَجَلَانٌ : سَجَلٌ مِنْ صَرِيحٍ      وَسَجَلٌ ثَرِيكَةٌ يَعْتِيقُ خَمْرُ<sup>(٣)</sup>

والخمر المعتقة المختومة يشبه بها ثغر المحبوبة وربقتها :

كَأَنَّ فَاهَا ثَغْبٌ بَارِدٌ      فِي رَصَفٍ تَحْتَ ظِلَالِ الْعَمَامِ  
شَجَّتْ بِصَهْبَاءَ لَهَا سَوْرَةٌ      مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ عُنُقَتْ فِي الْخِتَامِ<sup>(٤)</sup>

والتنوع في تلك الأوصاف عند الشعراء مرده مادة الخمر نفسها ، إذ كانت تصنع الخمر من مواد مختلفة كالعسل والتمر والبر والشعير والزبيب والذرة<sup>(٥)</sup> .

أما تأثيرها في الشرب فقد اختلفت النظرة إليه ، فجعل بعضهم شربها خلة من خير الخلال ، فهي كالتريق شفاءً والماء رواءً :

أُظْلِمُ مَا يُدْرِيكَ رُبَّةَ خَلَّةٍ      حَسَنٌ تَرَعُّمُهَا كَطَبِي الْحَائِلِ

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(٢) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٨٦ . وكرُرُ : هو كُرُرُ بن عامر بن عبدالله ، من بجيله من قحطان ، وشرب : ضبطها ناصر الدين الأسد بالمثلثة دون أن يشير إلى معناها المراد لاحتمال المعاني كلها ، فالشُّربُ : الحظ من الشراب أو الماء ، والشُّربُ : جماعة القوم يشربون ، والشُّربُ : مصدر شرب . والسَّجَلُ : الدلو الضخمة المملوءة ، والصريح هنا : اللبن الذي ذهب رغوته ، والتريقة : الماء الذي غادره السيل . انظر كلام ناصر الدين الأسد عن هذين البيتين في ديوان قيس الخطيم ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٤) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، والثَّغْبُ والثَّغْبُ ، والفتح أكثر : ما بقي من الماء في بطن الوادي ؛ وقيل : هو بقيَّة الماء العذب في الأرض (لسان العرب ، مادة "ثغب") . ، والرَّصَفُ : الحجارة المتراففة ، واحدها رَصْفَةٌ بالتحريك (لسان العرب ، مادة "رصف") ، وشجَّتْ : مُزجت وخلطت ، وسَوْرَةٌ : حدة ، وبَيْتِ رَأْسٍ : قرية من قرى الشام اشتهرت بالخمر ، وهي اليوم قرية معروفة تتبع لمحافظة إربد (بيت راس) .

(٥) لمزيد بيان عن صناعة الخمر عند العرب انظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٤ ، ص ٦٨٠ .



قد بَتُّ مالَكها وشاربَ قهوةٍ درياقةٍ رَوَّيْتُ منها وَاغْلَى<sup>(١)</sup>

ومما تبعته الخمر في النفس أنها تهيجُ الحرب وتسعّرُها ، وهي من الصفات التي يُمدح بها الحيُّ أو يُرثى بها الميت :

نَفَرْتُ قَلُوصِي مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهَوْبِ  
لا تَتَفَرِّي يَا نَاقُ مِنْهُ فَإِنَّهُ شَرَّابُ خَمَرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ  
لا يَبْعَدَنَّ رَبِيعَةَ بَنٍ مُكْدَمٍ وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِذُنُوبِ<sup>(٢)</sup>

وجعلها آخرون محفزا للحرب ، فهي يزعمهم تشد من أزهرهم حتى ما يكادون يشعرون بلظى الحرب ، ويجالدون فيها جلال المستميت :

فَلَسْتُ لِحَاصِنِ إِنْ لَمْ تَرَوْنَا نُجَالِدُكُمْ كَأَنَّا شَرَبُ خَمَرٍ<sup>(٣)</sup>

فانظر كيف جعل الشاعر جلال شارب الخمر قوةً وصبراً ليس كغيره من الجلال ، وكيف سبق ذلك بدعاء على نفسه يتضمن القدح في نسبه إن لم يفعل ما قال .

ولنا أن نسأل في معرض قول حسان الأنف : كيف لشارب الخمر الذاهل الفاقد لتوازنه أن يقاتل في معركة ويحقق نصرا ؟

لعل ما أراده الشاعر من قوله هو أن الخمر تفقد المرء الإحساس بالألم والخوف ، وتبث فيه الشجاعة ، ولا يقصد الشاعر أن كل من شربها يتحقق فيه ذلك ، وإنما يعني منهم أولئك الذين تعودوا شرب الخمر وعاقروها حتى أدمنوها ، فأصبحت تمتعهم وتحلق بهم في أجواء أخرى دون أن يفقدوا معها وعيهم ورزانتهم ، أو دون أن تؤثر فيهم وتتل منهم أثرها ونيلها

(١) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٦٧ ، وظليم : ترخيم ظليلة اسم امرأة ، والترغم : قال الربيعي : تلغمت المرأة بالطيب إذا تضرخت به ومثله المراعغ (انظر الربيعي ، نظام الغريب ، ص ١١) . غير أنني لم أجد هذا المعنى في أي من المعاجم اللغوية وعلى رأسها لسان العرب ، ولا وجدت من استخدمها من الشعراء بهذا المعنى غير ابن الإطنابة ، وكأنه مأخوذ على المجاز من التعفر بالتراب من قولهم : رَغِمَ أَنْفُ فَلَانٍ أَيِ التَّصَقُّ بِالتَّرَابِ ، وهذا المعنى هو خير ما يحتمله البيت ، لأن في قوله : "حسن ترغمها" دلالة على ذلك . والحائل التي لم تحمل من النوق وغيرها ، ودرياقة : اسم للخمر ، يريد أنها شفاء كالدرياق (الترياق) (انظر ابن قتيبة الدينوري ، الأشربة واختلاف الناس فيها ، ص ٦٦ ، ولسان العرب ، مادة "ريق" .

(٢) قالها حسان بن ثابت يرثي ربيعة بن مُكْدَم بن عامر بن حرثان بن جُدَيْمَة بن علقمة بن جَدَل الطَّعَان بن فراس بن عثمان بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، أحد فرسان مضر المعدودين ، وشجعانهم المشهورين ، قتله بُيَيْشَة بن حبيب السلمي في يوم الكدبد ، وكان حسان مر بقره . انظر خبر ذلك والأبيات والخلاف في نسبتها : عند الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٦ ، ص ٦٢ ، وديوان حسان ، ص ١ ، ص ٤٠٩ ، والغوادي : جمع غادية ، وهي السحابة التي تتشأ غدوة ، والذُنُوب : الدلو المملأ ، ولا يقال لها وهي فارغة ذنوب .

(٣) الحاصن والحصان : المرأة العفيفة ، يريد أنه ليس ابن امرأة كريمة عفيفة إن لم يقاتلهم . انظر ديوان قيس بن الخطيم ص ١٨٢ ، حاشية (١) . وقد جعل هذا البيت ناصر الدين الأسد لقيس بن الخطيم ، وأورده في ديوانه ، من قصيدة وقعت في عشرين بيتاً ، انظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٨٢ ، ونسبه حسن محمد باجودة إلى أبي قيس بن الأسلت ، وأورده في ديوانه ضمن قطعة كان البيت المذكور فيها ثالث ثلاثة أبيات . انظر حسن محمد باجودة ، ديوان أبي قيس بن الأسلت ، ص ٧٦ .

قلت : وقد اجتهدت في استخراج معنى البيت السابق على ما أورده من معنى ، فقد أثبتته ناصر الدين الأسد في ديوان قيس بن الخطيم دون أن يشير إلا إلى معنى صدر البيت تاركاً عجزه . وكذا أورده حسن محمد باجودة دون إشارة لمعناه . ثم إنني جهدت أن أجد من أورد معناه في مصادر التراث فلم يسعني البحث ، حتى ذكرت عَجَزَ بيت حسان في الخمر عند فتح مكة :

وَنَشْرَبُهَا فَتَنْزَكُنَا مَلُوكَا وَأَسْدًا مَا يَنْهِنُنَا الْفِئَاءُ

فقسنت المعنى السابق عليه ، أملاً أن أكون أصبت مراد الشاعر .

ممن شربها أول مرة. ويجدر بنا أن نشير ونحن في معرض حديث حسان عن الخمر في هذه القصيدة أننا تركنا الاستشهاد بأبياتها ونحن نسوق شعر الأوس والخزرج في الخمر لما في أبياتها العشر من خلاف بشأن الزمن الذي قيلت فيه<sup>(١)</sup>.

وتبعث الخمر الصداق مع ما تجلب للشارب من لذة ونشوة ، لكن ذلك في نظرهم لا يمنع من شربها ، ومادام كل شيء فانيا ، فالموت والحياة سيان :

وَمَمْسِكِ بِصُدَاغِ الرَّأْسِ مِنْ سُكْرِ نَادِيئِهِ وَهُوَ مَغْلُوبٌ فَقَدَّانِي  
لَمَّا صَحَا وَتَرَاحَى الْعَيْشُ قُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْحَيَاةَ وَإِنَّ الْمَوْتَ مِثْلَانِ  
فَأَشْرَبَ مِنَ الْخَمْرِ مَا آتَاكَ مَشْرِبُهُ وَاعْلَمْ بِأَنْ كُلُّ عَيْشٍ صَالِحٍ فَانٍ<sup>(٢)</sup>

كما تؤدي الخمر إلى فتور في الجسد والمفاصل ، لكن هذا الفتور هو ما يريده الشارب ، وإذا خير بين كأسين اختار أشدهما إرخاء للمفاصل :

إِنَّ الَّتِي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا قُتِلَتْ قُتِلَتْ فَهَاتِيهَا لَمْ تُقْتَلْ  
كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاظِنِي بِزُجَاغَةٍ أَرَاخُمَا لِلْمَقْصِلِ<sup>(٣)</sup>

ويجمل حسان أثر الخمر في الشارب في قصيدة أخرى ، فيجعل سريانها في الجسم مثل دبيب الجراد الصغير على الرمل ، ترد على الشيخ ما فات من شبابه ، وفيها الشفاء ، وفيها تفكير للعظام :

تَدِبُّ فِي الْجِسْمِ دَبِيبًا كَمَا دَبَّ دَبِيَّ وَسَطَ رِقَاقِ هَيَامٍ  
كَأَسَاءَ إِذَا مَا الشَّيْخُ وَالْيَ بَهَا خَمْسًا تَرْدَى بِرْدَاءِ الْعُلَامِ  
مِنْ خَمَرٍ بَيَّسَانَ تَخَيَّرْتُهَا دِرْيَاقَةً تَوْشِكُ فُتْرَ الْعِظَامِ<sup>(٤)</sup>

ويحدد حسان للخمر أثرين في الشارب في قصته مع جبلة بن الأيهم : أثرا سلبيا ، وآخر إيجابيا ، فيقول في ذمها وبيان أثرها السلبي :

وَلَوْ لَا ثَلَاثُ هُنَّ فِي الْكَاسِ لَمْ يَكُنْ لَهَا ثَمَنٌ مِنْ شَارِبٍ حِينَ يَشْرَبُ  
لَهَا نَزَقٌ مِثْلُ الْجُنُونِ وَمَصْرَعٌ دَنِيٌّ وَأَنَّ الْعَقْلَ يَنْأَى وَيَعْرُزُبُ<sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup>نظر بيان ذلك في ديوان حسان ، ج ١ ، ص ١٩.

<sup>(٢)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٤ . ومغلوب غلبته الخمر ، وفداه : إذا قال له جعلت فدائك (الجوهري ، الصحاح ، مادة "قدي") .

<sup>(٣)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٧٥ . و"قُتِلَتْ" الأولى بمعنى مزجت ، وقُتِلَتْ الثانية : دعاء على الساقى بالقتل بسبب فعله .

<sup>(٤)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٠٦ . وتدب : تسري ، والدبى : الجراد قيل أن تنبت أجنحته (لسان العرب ، مادة "دبي") . وهيام : تراب يخالطه رمل (لسان العرب ، مادة "هيم") ، وبيسان : هي بيسان التي من أرض فلسطين المحتلة .

<sup>(٥)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٤٢ ، والنزق : خفة في كل أمر وعجلة في جهل وحُمق . وعن ابن سيده : النَّزَقُ الخفة والطيش (لسان العرب ، مادة "نزق") ، ويعزب : يغيب .

فجعل من سماتها الشائنة أنها تجعل شاربها أحق طائشا كالمجنون ، وجعلها صارعة لصاحبها ، وأنها تغيب العقل الذي هو مناط السلوك .

ويقول في مدحها وبيان أثرها الإيجابي :

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ فِي الْكَأْسِ أَصْبَحَتْ كَأَنْفَسٍ مَا لَا يُسْتَفَادُ وَيُطْلَبُ  
إِمَانَتُهَا وَالنَّفْسُ تَظْهَرُ طَيِّبَهَا عَلَى حُزْنِهَا وَالْهَمُّ يُسَلَى فَيَذْهَبُ<sup>(١)</sup>

فجعل من سماتها الحسنة إِمَانَتَهَا الشعور بالألم ، وأن النفس تُسَرُّ بها مع أنها حزينة ، وأنها تذهب الهم والغم .

وللخمر لذادة عند حسان لا تفارق شاربها ولا يمكن أن تنسى ، حتى غدت مضرباً لغيرها من الأمور ، فهذه اللذادة لا تعادلها إلا لذادة حديث المحبوبة:

وَحَلَفْتُ لَا أَنْسَى حَدِيثَكَ مَا ذَكَرَ الْغَوِيُّ لَذَاذَةَ الْخَمْرِ<sup>(٢)</sup>

**أما وصف مجالس الخمر والندامى والسقاة** وما يصاحب ذلك عادة من غناء فكثير في شعر الأوس والخزرج ، أطال شعراؤهم فيه حتى رسموا لنا صورة حية يمكن تخيلها لتلك المجالس التي ضمتهم ، فالشاعر عند شرب الخمر لا يؤذي نديمه بما يكون منه من الكلام كما هي عادة السكارى ، فهو يملك زمام نفسه حتى لا يكون عرضة للسخرية :

وَلَا أَسْمَعُ النَّدْمَانَ شَيْئًا يُرِيْبُهُ إِذَا الْكَأْسُ دَارَتْ بِالْمُدَامِ عَلَى الشَّرْبِ<sup>(٣)</sup>

وإذا كان مالك بن أبي كعب لا يُسمع ندمانه ما يكرهون إذا شرب ، فإن ندامى حسان أيضا لا يخشون لسانه ولا يده في حال الشرب<sup>(٤)</sup> ، وأذى الجليس باليد محتمل كثيرا فضلا عن اللسان ، فالخمر توقع العداوة والبغضاء كما صرح بذلك القرآن الكريم<sup>(٥)</sup> . والشاعر يحسن تقديم الخمر للندامى ، فهو يرحب بهم ، ولا يمنعها عنهم ، وحين تنقذ بيعث من يشتريها ، ولا يساوم في ثمنها فعَلَ البخيل ، فهي عنده دائما متوافرة ميسورة كما الماء ، وإذا اكتفوا من الشرب لم يكتف هو من سقيهم ، بل يواصل إسقاؤهم :

(١) ديوان حسان بن ثابت ن ج ١ ، ص ٤٤٢ . وللأبيات الأربعة السابقة في مدح الخمر وذمها قصة لحسان بن ثابت مع جيلة بن الأيهم الغساني أحد ملوك الشام ، أوردها وليد عرفات حين ساق الأبيات نقلا عن ابن عساكر في تاريخه وعن ظافر الأزدي في بدائع البدائه . ومجمل القصة أن جيلة قال لحسان - وكان يرد عليه - : يا أبا الوليد ، إن الخمر شغفتني فاذمها لعلني أرفضها ، فلما ذمها حسان قال له : أفسدتها فحسنها ، فمدحها ، فقال جيلة : لا جرم والله لا تركتها . انظر القصة والأبيات جميعها في ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٤٤٢ .

(٢) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٥٣ ، والغوي : الضال ، وهذا هو الأصل في المعنى ، ولعل المراد هنا المعنى المجازي ، وهو الذي أغوته الخمر فادمن عليها ، فذهبت بعقله .

(٣) انظر البيت عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٨٩ . والندمان : واحد الندامى ، والشرب : الشاربون .

(٤) سبق بيان تلك الأبيات عند الحديث عن العلاقة بالجار . انظر ص ٩٦ من هذه الدراسة .

(٥) في قوله تعالى : " إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... الآية " ، (سورة المائدة ، الآية ٩) .

إذا ما اعتري بعضُ الندامى حاجةً      فقُولي له: أهلاً وسهلاً وفي الرَّحْبِ  
إذا أنقذوا الزَّقَّ الرَّويَّ وصُرَّعوا      نشاوى فلم أنقُعْ بقولهم: حَسْبِي  
بعثتُ إلى حانوتها فاستبَّتْها      بغير مِكَاسٍ في السَّوَامِ ولا غَصْبِ  
وقلت: اشربوا رِيًّا هَنيئاً فإنها      كماء القليبِ في اليَسارةِ والقُربِ<sup>(١)</sup>

ويتحف الشاعر نداماه بما لذ وطاب من أطعمة ، ويهيئ لهم من تغنيهم من  
القيان ، فقد اقترن شرب الخمر بالغناء فكانا بمنزلة الروح من الجسد ، كل ذلك هو  
غاية ما تستلزمه مجالس الشراب عندهم ، وفي ذلك يقول مالك بن أبي كعب:

يُطافُ عليهم بالسَّديفِ وعندهم      قِيَانٌ يُلْهَيْنَ المَزارِهرَ بالضَّرْبِ<sup>(٢)</sup>  
ونهاية الكرم عند من يهيئ للندماء مجلس الشراب والقيان المغنيات أن يهب هؤلاء  
القيانَ لجلسائه بعد انفضاض السامر ، كما ذكر حسان عن أحد مضيفيه:

ظَلَّ حَوْلِي قِيَانُهُ عازِفاتٍ      مِثْلَ أَدَمَ كَوَانِسٍ وَعَوَاطِ  
طُفْنَ بالكأسِ بَيْنَ شَرَبِ كِرَامٍ      مَهَّدُوا حُرَّ صَالِحِ الأنْمَاطِ  
سَاعَةً ثُمَّ قَالَ هُنَّ بَدَادٍ      بَيْنَكُمْ غَيْرَ سُمْعَةٍ الإِخْتِلَاطِ<sup>(٣)</sup>  
ومن الكرم ألا يمنع الشاعر نداماه ماله ، وسيظل كذلك ماظلوا معه ، وهو يدعو على

نفسه وعلى ماله بالويل والثبور والهلكة إن منع عنهم هذا المال :

إذا ما منعتُ المالَ منكم لثَروَةٍ      فلا يُهَنِّني مَالِي ولا يَنِّمَ لي كَسْبِي  
فإن يَصْبِرُوا لي الدهرَ أَصْبِرُهُمْ بها      وَيَرْحُبْ لَهُمَ باعِي وَيَغْزُرْ لَهُمْ شِرْبِي<sup>(٤)</sup>

(١) الشعر لمالك بن أبي كعب الخزرجي . انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٨٩ . واستبَّتْها : اشتربتها وهو خاص بالخمر لا يقال في غيرها ( انظر لسان العرب ، مادة "سبأ" ) ، والمكاس والمماكسة : المشاكسة في البيع والشراء (انظر لسان العرب ، مادة "مكس" ) ، والسوام : المساومة ، والقليب : البئر .

(٢) انظر البيت عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٨٩ . والسديف : لحم السنام ، والمزاعر جمع مزهر ، وهو العود الذي يضرب به .

(٣) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٩١ . والأدم : البويض ، جمع أدماء ، وكوانس : جمع كانس وهي الطيبة الداخلة كناسها أي بيتها ، وعواط : جمع عاطية ، وهي الطباء تتطاول إذا رفعت أيديها لتتناول الشجر (انظر لسان العرب ، مادة "عطو" ) ، ومهدوا : فرشوا ، والأنمط : ضرب من البسط ( لسان العرب ، مادة "نمط" ) ، وبداد : متفرقة ، والمعنى أنه قسم القيان على ندمائه . وبداد مبنية على الكسر لأنها معدولة عن المصدر وهو البدد ( لسان العرب ، مادة "بدد" ) ، وقوله "غير سمعة الإختلاط" : أي أعطاهم القيان من غير أن يختلط عقله سكرًا وفسادًا ، والسمعة الشهرة . انظر ، شرح ديوان حسان بن ثابت ، ص ٢٣٦ . وقد قطعت الهمزة في " الإختلاط " ضرورة .

(٤) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٨٩ .

وليس من شيء أشهى إلى الشاعر من حديث جلسائه على الخمر الذي شبهه بتغريد الطائر في حسنه :

أَشْهَى حَدِيثَ النَّدْمَانِ فِي فَلَقِ الصُّبْحِ وَصَوْتَ الْمُسَامِرِ الْغَرْدِ<sup>(١)</sup>  
ويوصف النديم والندامي عادة بالكرم والشرف ، خاصة إذا كان النديم هو الذي ينفق على مجلس الخمر :

رُبَّ لَهْوٍ شَهْدَتْهُ أُمٌّ عَمَرُو      بَيْنَ بَيْضِ نَوَاعِمِ فِي الرِّيَاطِ  
مَعَ نَدَامَى بَيْضِ الْوُجُوهِ كِرَامِ      نُبِّهُوا بَعْدَ هَجَعَةِ الْأَشْرَاطِ  
لِكُمَيْتٍ كَأَنَّهَا دَمٌ جَوْفٍ      عَنَّقَتْ مِنْ سُلَافَةِ الْأَنْبَاطِ  
فَاحْتَوَاهَا فَتَى يُهَيِّنُ لَهَا الْمَالَ      وَنَادَمْتُ صَالِحَ بَنِ عِلَاطٍ<sup>(٢)</sup>  
وممن وصفه الشعراء في مجالس الخمر ساقياها ، فهو أعجمي جميل المحيا ، أحمر الوجه ، حسن اللباس ، يشد حزامه على وسطه مستعدا لخدمة السُّمَّار ، سريع الإجابة ، خفيف لا يثنيه شيء عن خدمة الندماء :

يَسْعَى بِهَا أَحْمَرُ ذُو بُرْنَسٍ      مُخْتَلِقُ الدُّقْرِى شَدِيدُ الْحَزَامِ  
أَرْوَعُ لِلدَّعْوَةِ مُسْتَعِجِلٌ      لَمْ يَثْنِهِ الشَّأْنُ خَفِيفُ الْقِيَامِ<sup>(٣)</sup>  
ويخلع الشاعر على الساقى وصفا آخر يزيد من حسن هيئته حين يذكر أنه منتطف (في أذنيه قرطان) ، وهو يسقيه على كل حال عطش أم لم يعطش فيقول :  
يَسْعَى عَلَيَّ بِكَاسِهَا مُنْتَطِفٌ      فَيُعِلُّنِي مِنْهَا وَلَوْ لَمْ أَنْهَلْ<sup>(٤)</sup>  
ومن المعاني الأخرى التي ترد في الخمر في شعر الأوس والخزرج الإعلاء من شأن الخمر حتى رأينا حسانا قد أقسم بها وهو يخاطب أحد الندماء فقال :  
حَلَفْتُ لَهُ بِمَا حَجَّتْ قُرَيْشٌ      وَكُلِّ مُشْعَشَعٍ مِلْ خَمَرٍ أَنْ<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٧٩ . وأشهى هنا معناها : أشهى .

(٢) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٩١ . والرياط : جمع رِيْطَة ، وهي الملاءة ، وهجعة الأشرط : قال صاحب اللسان وأورد هذا البيت : يقال إنهم أوردوا الحرس وسفلة الناس (لسان العرب ، مادة " شرط "). وقد سبق توضيح البيت الثالث عند الحديث عن تعتيق الخمر . وصالح بن علاط : هو صالح بن علاط بن خالد بن ثوبيرة بن جسر بن هلال بن عبد بن ظفر بن سعد بن عمرو بن تميم بن بهز بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم ، وهو أخو الحجاج بن علاط السلمي أحد خيار الصحابة . انظر ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٢٦٢ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٠٦ . والبرنس : كل ثوب رأسه منه ملتزق به (لسان العرب ، مادة " برنس ") ، ومختلق الذفرى : قال البرقوقي : لعله يريد أن ذفر ييه - وهما العظمان الشاخصان خلف الأذنين وهما أول ما يعرق من الإنسان والحيوان - مُخْتَلِقَانِ ، أي مطليان بالخلوق ، وهو ضرب من الطيب قيل هو الزعفران . انظر البرقوقي ، شرح ديوان حسان بن ثابت ، ص ٣٨١ . والحزام : هو الزنار الذي يشده اليهود والنصارى على أوساطهم (الزمخشري ، أساس البلاغة ، مادة " طق " ، وقد أورد بيت حسان هذا شاهدا على ذلك) .

(٤) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٧٥ . والتَّهْلُ : الشرب الأول ، والعلل الشرب الثاني .

(٥) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ١٣٩ . وسبق توضيح هذا البيت عند الحديث عن طعم الخمر ومزاجها .

فقرن حسان بينها وبين الكعبة في الحلف ، وهو معنى لا تكاد تجد له نظيراً في غير شعر حسان ، فقد بحثت ملياً في الحلف بالخمير فلم أقف في ذلك على أثر عند غير حسان . ولا إخال ذلك الحلف يكون إلا من عظم شأن الخمر عند الجاهلي ، فحسان كان صاحب خمر وندام في الجاهلية ، ولا نستغرب أن يكون منه قسم بها أو مبالغة في تعظيم شأنها . أما أحیحة بن الجلاح فيرثي نفسه أو يتحسر عليها وقد بلغه أن الملك ثُبَّعا أبا كَرَبَ قاتله ، ويجعل أول من يبيكه مجلس الخمر وما يستلزمه من ندماء وغناء ، وإن دل ذلك على شيء فيدل على أن أحیحة قد عز عليه أن يغتاله الموت من بين تلك الملذات ، فجعلها رفيقة له قبل موته ، وباكيته حين دنو أجله مع أنه لم يكن يدمنها كما حسان :

لَتَبْكِنِي قَيْنَةٌ وَمَزْهَرُهَا      وَلَتَبْكِنِي قَهْوَةٌ وَشَارِبُهَا<sup>(١)</sup>

وإذا كان ذلك هو حالهم والخمر وهم مقيمون بين أهليهم ، فليس غريباً أن يكون لها شأن أكبر في السفر ، إذ نجد أن الخمر كانت رفيقتهم في سفرهم ، والسفر قطعة من عذابات الجاهلي يومها لا تقل عن معركة يخوضها أو حرب يشنها .

والسفر عندهم يحتمل - في مجتمع كمجتمع الجاهلية - ما لا يخطر على بال من المخاطر ، ثم إنه فضلاً عن ذلك مظنة الهلكة ، من أجل ذلك كله نرى الجاهلي يروّج عن نفسه باستصحاب الخمر وأدواتها في السفر ، فهي عدته وزاده حين لا زاد ، أو نجده يعوج في سفره على الحوانيت التي كانت تنتشر في طرق السّفر أو القرى والمدن التي يمرون بها<sup>(٢)</sup> ، وفي ذلك يقول حسان :

فَعَجَبْتُ وَأَلَقْتُ لِلْجِرَانِ رَجِيلَةً      لَأَنْظُرَ مَا زَادَ الْكَرِيمَ الْمُسَافِرَ  
إِذَا فَضْلُهُ مِنْ بَطْنِ زَقٍّ وَنُطْفَةٍ      وَقَعْبٌ صَغِيرٌ فَوْقَ عَوْجَاءَ ضَامِرٍ  
فَقُمْتُ بِكَاسٍ قَهْوَةٍ فَشَنَنْتُهَا      بِذِي رَوْنَقٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ فَاتِرٍ<sup>(٣)</sup>

(١) صالح البكاري ، والطبيب العشاش ، أحیحة بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، ص ٣١ .

(٢) يشير إلى ذلك جواد علي في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٤ ، ص ٦٦٧ ، فيقول : وكانوا يضعون خميرهم في زَقٍّ يحملونه معهم ، فأينما يكن الإنسان يكن خميره معه . وقد كانوا يكثرّون من استعماله كما يظهر ذلك من روايات أهل الأخبار مع فقر شاربها وعدم وجود طعام عنده . أما في المدن والقرى والحواضر ، فهناك خمارات ، جمعت إلى الخمر وسائل المتع الأخرى ، يقصدها أهل المكان والغرباء للاستمتاع بها ، والترفيه عن خاطرهم . وقد هيأت بعض الخمارات المغنين فيها ، وجلبوا إلى حاناتهم أنواع الخمر . وكانت الخمارات منتشرة في كل مكان ، ولا سيما على الطرق ، حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة واستعادة النشاط بعد تعب ونصب . وكان بمكة وبساتر القرى خمارات كذلك ، أصحابها نصارى ويهود في الغالب ، ومعظمهم من غير العرب ، وفدوا من الخارج للتكسب والعيش فامتحنوا مهنة بيع الخمر وإسقاؤها للناس .

(٣) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٣١٠ . عجت الناقة : صوّتت ، رجيلة : قوية على المشي ، والجيران : مقدم العنق ، ونطفة : هو الماء الصافي أو الماء القليل الذي يبقى في القرية ، والقعب : قدح من خشب مقعر صغير ، والعوجاء : المذعان من الإبل ، وشننتها : مزجتها . ومعنى الأبيات : أن الشاعر صاحبت ناقته لما أراد النزول للطعام مع أنها ما تزال قوية على المشي ، ثم إنه بحث عن الطعام أو السزاد فلم يجد سوى بقية من خمر وقدح صغير فوق هذ الناقة ، فمزجها بماء ذي رونق من ماء زمزم فاتر . انظر تفسير الأبيات عند البرقوق ، شرح ديوان المتنبي ، ص ٢٠٨ ، وانظر الخلاف في رواية قوله "للجيران" وشرح ذلك والتعليق عليه عند وليد عرفات ، ديوان حسان بن ثابت ، ج ٢ ، ص ٢٢٥-٢٢٦ .

ومن المعاني التي كانت ترد في الخمر أيضا رؤيتهم أن الخمر شراب المحارب ، لا يستحقها إلا من طاعن الفرسان وضاربهم ، لذلك فإن الخمر تحرم على الشاعر وقومه مالم يقاتلوا عدوهم وكأنها مكافأة تقدم لهم بعد حسن بلاتهم :

وَلَمَّا هَبَطْنَا الْحَرِثَ قَالَ أَمِيرُنَا حَرَامٌ عَلَيْنَا الْخَمْرُ مَا لَمْ نُضَارِبِ<sup>(١)</sup>

وكذا تحرم الخمر على شاربها مالم يدرك ثأره في عدوه ، فقد يألو شاربها على نفسه ألا يعاقرها إلا بعدما يحقق نصرا ، أو يرد غارة ، أو يكشف غمة ، أو يزيل عارا لحق به ، كما فعل حُضَيْرَ الكَتَائِبِ الأوسي<sup>(٢)</sup> يوم بُعَاثَ حين أقسم ألا يشرب الخمر حتى يهدم مُزاجما أطم عبدالله بن أبي فقال في ذلك قيس ابن الخطيم :

وَمِمَّا أَلَذِي أَلَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً عَنْ الْخَمْرِ حَتَّى زَارَكُمُ بِالْكَتَائِبِ<sup>(٣)</sup>

ويتردد في شعر الأوس والخزرج الحديث عن إنفاق المال في الخمر ، لِمَا كانت تستلزمه الخمر من نفقات كبيرة ، ، لكننا نلمس في شعرهم عدم اكتراثهم بما أنفقوا من مال في سبيلها ، وما دام أنهم ينتشون بشربها فقد اطرّحوا جانبا كل ما يكدر عليهم صفو ذلك الجو الذي صنعوه لأنفسهم ، فقيس بن الخطيم لا يرى بأسا في أن يُنْفَقَ ماله ومالُ قومه في الخمر ، فنراه يفخر بقومه الأوس ( بني النبيت ) في بعض أيامهم وبإنفاقهم ماله في الخمر ، فقومه من حبهم للخمر يعمدون إلى بيع أهم ما يملكون ، وهم العبيد الذين يعتمدون عليهم كثيرا في زراعتهم ومعاشهم ، ولا يجدون حرجا في ذلك ما دامت الخمر تحقق لهم هذه النشوة :

وَيَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيْتَ رَاسَ بَيْتِ رَبِّ مِيزَانِهَا  
حِسَانُ الْوُجُوهِ حَدَادُ السُّيُوفِ يَبْتَدِرُ الْمَجْدَ شُبَّانُهَا  
وَيَالِ الشَّوْطِ مِنْ يَثْرِبِ أَعْبُدُ سَهْلُكَ فِي الْخَمْرِ أَثْمَانُهَا  
يَهُونُ عَلَى الْأَوْسِ أَثْمَانُهُمْ إِذَا رَاحَ يَخْطُرُ نَشْوَانُهَا<sup>(٤)</sup>

ولا يجد عمرو بن الإطنابة الخزرجي حرجا إذا أنفق ما يملك من مال على طعامه ، واستدان ثمن الخمر حين تقضتي الحاجة :

<sup>(١)</sup> ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٩٤ والحرث : موضع ، قال ياقوت الحموي (وساق بيت قيس بن الخطيم هذا شاهدا): حرث بفتح أوله ويضم ، وثانيه ساكن وآخره ثاء مثلثة ، فمن فتح كان معناه الزرع وكسب المال ، ومن ضم كان مرتجلا ، وهو موضع من نواحي المدينة. انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، " مادة حرث " .

<sup>(٢)</sup> وقيل : أبو قيس بن الأسلت يوم بُعَاثَ ، فهو أيضا له قصة في هذه الحرب . انظر كلام ناصر الدين الأسد في تحقيق ذلك ، ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٩٢ ، حاشية رقم (٤) .

<sup>(٣)</sup> ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٩١ . وآلى : أقسم

<sup>(٤)</sup> ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٧٢-٧٣ ، راس : ثابت ، يبتدر : يسرع ، والشوطة : اسم حائط (بستان) بين أحد والمدينة (انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة " شوطة " ) .

فَلَنَأْكُلَنَّ بَنَاجِرَ مَنْ مَالِنَا وَلَنَشْرَبَنَّ بَدَيْنَ عَامٍ قَابِلٍ<sup>(١)</sup>

أما حسان فلا يلتفت إلى عدل عاذلته على إنفاقه المال في الخمر الذي لو ادخره لكان ثريا :

تَقُولُ شَعْتَاءُ لَوْ تَفِيقُ مِنَ الْكَأْسِ لَأَلْفَيْتَ مُثْرِي الْعَدَدِ<sup>(٢)</sup>

وفي مقابل ذلك نجد من لا يجترىء على إنفاق ماله في الخمر ، ويرى أنه تصرف في ماله تصرفا تمليه عليه إرادته ، فيقول أحيحة الذي عُرف بحبه للمال وحرصه على جمعه ، فكان أغنى قومه :

وَلَوْ أَنِّي أَشَاءُ نَعِمْتُ حَالًا      وَبَاكَرَنِي صَبُوحٌ أَوْ نَشِيلُ  
وَلَا عَيْنِي عَلَى الْأَنْمَاطِ لُعْسُ      عَلَى أَفْوَاهِهِنَّ الزَّنَجِيلُ  
وَلَكِنِّي جُعِلْتُ إِزَاءَ مَالِي      فَأَقْلِلُ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ أُنِيلُ<sup>(٣)</sup>

وبعد ، ففي نهاية حديثنا عن الخمر في أشعار الأوس والخزرج الجاهلية أختتم بالقول إنني لم أجد ما يشير إلى أن نساء الأوس والخزرج كانت تشارك الرجال في شرب الخمر . ولعل سبب ذلك ما ذكره جواد علي حين قال : كان الجاهليون يشربون على النساء في شرب الخمر حتى لم يُحفظ أن امرأة سكرت<sup>(٤)</sup> .

(١) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٦٧ ، وناجز : فان ونافذ ، قال صاحب اللسان ( مادة "نجز" ) : وَنَجَزَ وَنَجَزَ الشَّيْءُ فَنِي وَذَهَبَ ، فَهُوَ نَاجِزٌ ، وَعَامٌ قَابِلٌ : مَقِيلٌ وَقَادِمٌ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) صالح البكاري ، والطيب العشاش ، أحيحة بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، ص ٣٦ . والنَّشِيلُ : المراد به هنا اللحم ( لسان العرب ، مادة "نشيل" ) ، والصَّبُوحُ : ما أَصْبَحَ عندهم من شراهم فشريوه ، وحكى الأزهري عن الليث : الصَّبُوحُ : الخمر ، والصَّبُوحُ : اللبن يصطبغ ، والصَّبُوحُ من اللبن ما حلب بالغداة ( لسان العرب ، مادة "صبح" ) ، وعكسه الغَبُوقُ . قلت : لم أجد من القدماء أو المحدثين من بين المقصود بكلمة : "صَبُوح" في البيت ، وإنني لأجد أنه أراد بها الخمر هنا ، إذ إن التوسيع على النفس وحسن الحال يعرف عند الجاهليين بشرب الخمر لا بشرب اللبن الذي كان شراب العامة ، ومن جانب آخر فقد قرن الشاعر بين الخمر والنساء في البيت الثاني عند الحديث عن نعمة الحال ، وما أكثر ما يقتربان ، وأخيرا فقد وردت الصبوح كثيرا بمعنى الخمر التي تشرب صباحا على الرقيق ، فهذا لبيد تناول الخمر سخرها ، فقال :

وَصَبُوحٌ صَافِيَةٌ وَجَذَبٌ كَرِيئَةٌ      بِمُؤَثَّرٍ تَأْتَالُهُ إِيهَامُهَا

واللَّعْسُ : جمع لعساء ، وهي المرأة التي يضرب لون شفتيها إلى السواد ، وذلك يستملح (انظر الجوهري ، الصحاح ، مادة "لعس" ) ، والأنمَاطُ : جمع نمط ، وهو ضرب من البسط له خمل رقيق ( لسان العرب ، مادة "نمط" ) ، والزنجبيل : نبات معروف ، وقيل هو الخمر ( لسان العرب مادة "زنجبيل" ) ، والزنجبيل هنا بمعنى الخمر أنسب للمعنى المراد من الحديث عن وصف الشفة .

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .



## ب. الميسر في شعر الأوس والخزرج

الميسر أو القمار عادة عرفها الجاهليون . وقد تباينت أهداف من يلعبون الميسر في الجاهلية ، فكان منهم من يلعب الميسر من أجل التسلية عن النفس والمتعة. وأما القسم الآخر ممن كان ييسر، فكان يبغى الكسب والمال، لذلك كان يقامر بكل ما يملك في سبيل الحصول على المال للمياسرة<sup>(١)</sup>.

واقترنت عادة الميسر بالخمير كثيرا ، لأن الخمر كانت كثيرا ما تشرب بعد الانتهاء من الميسر . والميسر عادة متأصلة شاعت في الأغنياء ، ولعل لاشتقاق هذه المادة علاقة وثيقة بشيوع هذه العادة في الأغنياء ، فلفظ الميسر(القمار) واليسار(الغنى) يرتدان إلى مادة لغوية واحدة هي "يسر" .

وقد افتخر العرب بهذه العادة ، لأنها ضرب من المقدره والكرم ، حيث يطعمون المحاويج ما ربحوه وخاصة أيام الشدة وانقطاع اللبن وأيام الشتاء والجذب. وكانوا ييسرون ليلاً حيث يوقدون النار وقد عقروا ناقه ، وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة ينتظرون ما يرمي به الأيسار من أنصبتهم التي حرموها على أنفسهم كرمًا وأنفة<sup>(٢)</sup> .

وإذا نظرنا في شعر الأوس والخزرج وجدنا أصداء لهذا الظاهرة عند شعرائهم لكنها قليلة ، إذ تمثلت في بضعة أبيات . وقد ذكرت عادة الميسر عند شعراء الأوس والخزرج على سبيل المدح بالكرم ، ولم تذكر على سبيل كسب المال أو جمعه ، وفي ذلك يقول حسان مادحا قومه في الميسر قارنا بينها وبين الشجاعة في الحرب :

وَتَلَقَّى لَدَى أُبَيَاتِنَا حِينَ نُجْتَدَى      مَجَالِسَ فِيهَا كُلُّ كَهْلٍ مُعَمَّمٍ  
ضَرُوبٍ بِأَعْجَازِ الْقِدَاحِ إِذَا شَتَا      سَرِيعٍ إِلَى دَاعِي الْهِيَاجِ مُصَمَّمٍ<sup>(٣)</sup>

وقال نَهيك بن إِسَاف:

إِنِّي أَتَمُّ أَيْسَارِي بِذِي أَوْدٍ      قَرْدٍ إِذَا حَارَدَ الْجُونُ الْمَجَالِيحُ

<sup>(١)</sup> انظر مزيد بيان عن عادة الميسر عند الجاهليين وطريق لعبه وأسماء القداح عندهم في فصل خاص عند جواد علي ، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٥ ، ص ٧١ .

<sup>(٢)</sup> انظر أحمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص ٢٦٣ .

<sup>(٣)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٦٣ . ونجندى : يطلب ما عندنا من الجدا أي العطاء ، ومعهم : شريف يلبس العمامة ، وضروب بأعجاز القداح : أي أنه صاحب ميسر .

في يوم غَرَبٍ وماء البئر مُشْتَرَكٌ وفي مَبَارَكِهَا الجُونُ المصَابِيحُ<sup>(١)</sup>

ويكرر قيس بن الخطيم المعنى السابق جاعلا ما يغرمه في الميسر سهمين : سهم لفقراء  
الحي المحاويج ، وسهم لجيرانه :

إِنِّي أَتَمُّ أَيْسَارِي بِذِي أَوْدٍ      فَرْدٍ إِذَا حَارَدَ الشَّمُّ المصَامِيحُ  
سهمان : سهمُ عيالٍ الحيِّ إن سَغَبُوا      والسَّهْمُ سَيَّبٌ إِلَى الجيرانِ ممنوحُ<sup>(٢)</sup>

(١) أتمم أيساري : قال صاحب اللسان : ورجل مُتَمَّمٌ إذا فَازَ قِنْحُهُ مرَّةً بعد مرَّةٍ فأطعمَ لحمه المساكين. وتَمَّمَهُم: أطعمهم نصيبَ قِنْحِهِ؛ حكاه ابن الأعرابي (لسان العرب ، مادة "تم") ، وأود : اعوجاج ، فرد : لا مثيل له ، وحارَدَتِ النوق : قلت ألبانها في الشتاء والجذب ، والخور : النوق الغزيرة اللبن ، والمجاليج : جمع مجلاح ، وهي الناقة الباقية على اللبن في الشتاء . ومعنى البيت على ذلك أن الشاعر يطعم ما غنمه من الميسر - وهو اللحم هنا - من حضر من المشاركين له في لعب الميسر والفقراء ، وأنه يعتمد الخسارة ليطعم الناس مما خسره ، كل ذلك يكون منه في حال الجذب وحين يعز لبن النوق المعروفة بغزارة لبنها . وأراد بقوله : في يوم غرب ، أي في يوم يسقى فيه بالغرب ، وهو الدلو الكبير (لسان العرب ، مادة "غرب") ، والجون : النوق السود أو البيض (ضد) ، والمصابيح : جمع مصباح ، وهو من الإبل الذي يَبْرُكُ في مُعْرَسِهِ فلا يَنْهَضُ حتى يُصْبَحَ وإن أُثِيرَ ، وقيل: المصْبُحُ والمصْبَاحُ من الإبل التي تُصْبِحُ في مَبْرَكِهَا لا تَرْعَى حتى يرتفع النهار؛ وهو مما يستحب من الإبل وذلك لقوتها وسمنها (لسان العرب ، مادة "صبح") ، ومعنى البيت الثاني: أنه يفعل ذلك أيضا في الأيام التي يقل فيها الماء فيشترك الناس في البئر ، ويسقى بالدلو ، وتظل الإبل في مباركها لا تزد الماء لعدم توافره .

(٢) حارَدَ الشَّم المصَامِيح : أراد الرجال الكرام ، قل عطاؤهم ، شبههم بالنوق قليلة اللبن ، وسغبوا : جاعوا ، والسيب : العطاء قلت : أورد هذين البيتين لقيس بن الخطيم مع بيتين آخرين الخالديان (الأشباه والنظائر ، ج ٢ ، ص ٣٧٩) ، وأورد آخرون أبياتا شبيهة بها لحاتم الطائي ، ولم يذكر ناصر الدين الأسد هذه الأبيات الأربعة في ما نسب إلى قيس بن الخطيم .

### ج. المرأة في شعر الأوس والخزرج

تحتل المرأة حيزاً كبيراً في الشعر العربي في مختلف عصوره . ولا تذكر المرأة في الشعر إلا انصرف الذهن إلى المرأة الحبيبة ، مع أن صور المرأة في الشعر الجاهلي قد تعددت ، وكان للمرأة الحبيبة وما تعلق بها الصورة الغالبة لدى الشاعر الجاهلي ، فحظيت منه بأكثر قدر من الاهتمام مقارنة بصور المرأة الأخرى.

ومن صور المرأة الأخرى التي ذكرها شعراء الجاهلية واعتنوا بإبرازها: الزوجة والأم والابنة والقينة والسبيّة. وسنقتصر في حديثنا على المرأة المحبوبة والزوجة لكثرة دوراتها في شعر الأوس والخزرج ، أما الأنواع الأخرى فوروّدها في شعرهم قليل لا يكاد يذكر .

ومن المفيد هنا أن نشير إلى أن المرأة في الأوس والخزرج لم تكن دائماً متلقية للشعر الذي قيل فيها ، فقد كانت أيضاً تقول الشعر ، وإن كان ما وصل إلينا من شعرها قليلاً ، وتعبّر عما في نفسها تجاه قومها وتجاه ذاتها . وقد بلغ عدد شواعر الأوس والخزرج خمس شاعرات ، وعلى قلة هذا العدد يالقياس إلى عدد الشعراء إلا أنه يشي بأن المرأة الجاهلية لم تكن بعيدة بحال عن مجريات الأحداث في قبيلتها .

### الحبيبة

يستغرق الحديث عن المرأة في الشعر الجاهلي مساحة كبيرة ، إذ لا يخلو ديوان شاعر جاهلي من ذكرها. وتحتل المقدمة الطللية عند الشاعر قسماً كبيراً من الحديث عن المرأة الحبيبة وديارها ومنازلها ورحيلها وصفاتها وما يتعلق بذلك. وللمرأة في حياة الجاهلي مكانة كبيرة ، إذ كانت في ذلك العصر - وما زالت - موضوع الحب والشوق والوجد حتى قال الجاحظ : لم نجد أحداً من الناس عشق والديه ولا ولده، ولا من عشق مراكبه ومنزله كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام<sup>(١)</sup> .

وقد درج شعراء الأوس والخزرج الجاهليون - كغيرهم من شعراء الجاهلية - على ذكر المرأة في مقدمات قصائدهم قبل الانتقال إلى الموضوع الذي هم بصدد<sup>(٢)</sup> ، وقل أن نجد قصيدة كاملة تخلو من هذه المقدمة باستثناء قصائد الرثاء.

(١) الجاحظ ، الرسائل ، ج٣ ، ٣٧٠ .

(٢) سيكون لنا حديث مفصل عن مقدمات هذه القصائد مدعومة بالإحصاءات الدقيقة عند الحديث عن بناء القصيدة في الفصل الأخير من هذه الدراسة .

وكثيرا ما يكون الحديث عن المرأة في مقدمات القصائد تقليدا درج عليه شعراء الجاهلية ومن جاء بعدهم تميهدا لما يطرقون من موضوعات من غير أن يكون الحديث عنها أو التغزل بها مقصودا لذاته .

على أننا - فضلا عن ذلك - نجد في شعرهم غزلا بالمرأة مقصودا لذاته ، لكنه قليل ، إذ إننا لو تتبعنا أصداء ذلك في شعر الأوس والخزرج لم نجد في شعرهم كله قصيدة كاملة خصصت للحديث عن المرأة المحبوبة دون غيرها ، إلا قصيدتين لحسان بن ثابت وقصيدة لقيس بن الخطيم.

أما القصيدة الأولى<sup>(١)</sup> لحسان بن ثابت فقد جاءت في أربعة وأربعين بيتا أكثر فيها من الحديث عن المحبوبة ، وتوزعت الأبيات الآخر على الفخر بالنفس والقبيلة أخلت بها القصيدة ودُيِّلَتْ. وأما قصيدة حسان الثانية<sup>(٢)</sup> فجاءت في أربعة عشر بيتا ، أحد عشر بيتا منها في الغزل ، وثلاثة أبيات في الصديق ختمت بها القصيدة جاءت على سبيل المقارنة بين الصديق والمحبوبة في عدم الإنصاف .

وأما قصيدة قيس بن الخطيم<sup>(٣)</sup> فجاءت في ثمانية وعشرين بيتا استنفد الحديث عن المحبوبة ثمانية عشر بيتا منها ، وكان للفخر والحديث عن الحرب ما بقي منها . وتتردد في أبيات الغزل عند شعراء الأوس والخزرج معان كثيرة يحسن بنا الوقوف على بعضها لنتبين موقفهم من المرأة .

يذكر حسان في مطلع قصيدته الغزلية الأولى طروق خيال المحبوبة ليلا ، وقد جعل حسان هذا الطروق في السفر ، لأن السفر مظنة الفكر والكدر لما فيه من البعد والمشقة ، وخيال المحبوبة خير ما يهون على المرء من وعثائه ، لذا فإن طروق الخيال يجمل ، ويتمثل في السفر أكثر من غيره . وفي العادة يجري الشاعر حوارا حقيقيا مع هذا الخيال ، وكأنه روح وجسد ، وأول سؤال يوجهه إلى خيال المحبوبة هو : كيف وصلت ؟ أو كيف اهتديت ؟

إِنَّ النَّضِيرَةَ رَبَّةَ الْخِدرِ      أَسْرَتْ إِلَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ تُسْري  
فَوَقَفْتُ بِالْبَيْداءِ أَسأَلُها:      أَيْ اهْتَدَيْتِ لِمَنْزَلِ السَّفرِ؟<sup>(٤)</sup>

ويتكرر هذا المعنى عند قيس بن الخطيم الذي يتعجب من وصول طيف المحبوبة إليه على بُعد منها ، مع أنها ليس بمُكْنَتْها أن تتعرض لمشقة الرحلة وأهوال الطريق ، ثم يرجع على نفسه

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٥ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٥٢ . والنضيرة : اسم امرأة ، والسَّفر : المسافرين .

ليقرر أن ذلك إنما كان حلماً ، ومن عادة الأحلام أن تقرب البعيد على الإنسان ، وهذا "من مليح الإشارة إلى غرور الطيف وكذب تخيله"<sup>(١)</sup> :

أَتَى سَرَبَتْ وَكَنتَ غَيْرَ سَرُوبٍ وَتَقَرَّبُ الْأَحْلَامُ غَيْرَ قَرِيبٍ<sup>(٢)</sup>

ومن عادة المحبوبة التمتع على الحبيب والضن عليه بالرؤية والوصال ، أما في النوم ،  
وحين التفكير فيها فإن هذه المحبوبة تعطي كل ما كانت تمنعه في اليقظة دون حساب ، وتعطي  
أيضا ما لا يتوقع منها ولا يكون بحسبان :

مَا تَمْنَعِي يَقْظَى فَقَدْ تُؤْتِيَنِي فِي النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوبٍ<sup>(٣)</sup>

لكن الشاعر يعترف في النهاية أن لقاءه بخيال المحبوبة وأنسه به كان محض كذب ،  
وأحلام نوم أو أحلام يقظة ، فهو لم يظفر بشيء من ذلك كله :

كَانَ الْمُنَى بِلِقَائِهَا فَلَقِيَهَا فَلَهَوْتُ مِنْ لَهْوِ إِمْرِي مَكْذُوبٍ<sup>(٤)</sup>

وإذا كان لطيف المحبوبة هذا الأثر في الحبيب فإن لوقع اسمها أثرا أنكى من ذلك ، إذ  
هو كفيلاً أن يهيج الحبيب ، ويزيد ولعه وشغفه بها على ما كان من بعد بينهما في الزمان  
والمكان:

إِذَا ذُكِرَتْ أَمَامَهُ قَرُطُ حَوْلٍ وَلَوْ بَعْدَتْ مَحَلُّهَا غَرِيتُ<sup>(٥)</sup>

ولوقع اسمها أيضا أثر عجيب في الشاعر ، فبمجرد تذكرها وهي نائية يصبح الشاعر  
كأنه محموم عليل ، ضاوي الجسم ، كأنما سقي السم ناعقا :

أَكَلَفُهَا وَلَوْ بَعْدَتْ نَوَاهَا كَأَنِّي مِنْ تَذَكُّرِهَا حَمِيتُ  
طَلِيحٌ لَا يَوُوبُ إِلَيَّ جَسْمِي كَأَنِّي سَمٌّ عَاضِيَةٌ سُقِيتُ<sup>(٦)</sup>

ومن طبع المحبوبة المنع والتمتع والضن على الحبيب بالقليل ، لذا فإن قرب دارها  
وبعدها عند الشاعر سواء ما دام يرجع منها في الحاليتين بالحرمان :

<sup>(١)</sup> الشريف المرتضى ، طيف الخيال ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، دار إحياء التراث ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٤٦ . وانظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٦ ، حاشية ٣ .

<sup>(٢)</sup> ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٥ . وسربت : خرجت نهارا ومضيت في حاجتك ، وغير سرور : يريد أنها لا تبعد الضرب في الأرض .

<sup>(٣)</sup> ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٦ . وغير مصرد محسوب : غير مقلل وغير محسوب ، أو غير محسوب بمعنى : غير متوقع ولا منتظر . انظر الخلاف في هذا المعنى ص ٥٦ من الديوان .

<sup>(٤)</sup> المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

<sup>(٥)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٧١ ، والبيت من قصيدة لأبي قيس بن رفاعة الأوسي . وفرط حول : بعد سنة ، وغريت : من غري بالشيء أي أولع به .

<sup>(٦)</sup> المرجع نفسه ، ص ٢٧١ . والبيتان من قصيدة لأبي قيس بن رفاعة الأوسي . وحَمِيت : أصبت بالحمى ، وطلّيح : ضعيف هزيل ، وعاضهة : حية تقتل من ساعتها إذا نهشت .

قد اقتربت لو كان في قرب دارها جَدَاءٌ ولكنْ قد تَضِنُّ وتمنُّ<sup>(١)</sup>

وتتردد عند شعراء الأوس والخزرج أوصاف حسية كثيرة للمرأة مدارها هو ما عليه عامة الشعراء الجاهليين وغير الجاهليين . وليس بالضرورة أن تكون هذه الأوصاف هي عينها في محبوبة الشاعر ، فالشاعر بهذه الأوصاف إنما يصف لنا المرأة النموذج التي يحب الشاعر أن تكون عليها محبوبته ، فنحن نجد أن كل النساء جميلات في الشعر ، ولم يسبق لشاعر أن قال : إن محبوبته متوسطة الجمال مثلاً ، أو غض من صفاتها الحسية ورفع من صفاتها المعنوية ، فالمحبة في الشعر الجاهلي دائماً جميلة حسياً ومعنوياً ، وفي ذلك يقول حسني عبد الجليل : وقد استطاع الشاعر الجاهلي أن يقدم لنا امرأة نموذجية ، أو بمعنى آخر امرأة جميلة في كل العصور<sup>(٢)</sup> .

وعلى ذلك فلا عجب أن نجد الجاهلي يشبه محبوبته في جمالها بالشمس في شروقها وغروبها مع أن الشمس ربما تكون قد لوحت وجهها الشمس ، واسودَّ عَقَبَاها من السير في الهجرة :

فَرَأَيْتُ مِثْلَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا فِي الْحُسْنِ أَوْ كَدُّنُوهَا لِعُرُوبِ<sup>(٣)</sup>  
أو أن يجعلها حين برزت أجمل:

مِنْ دُرَّةٍ أَغْلَى الْمُلُوكِ بِهَا مِمَّا تَرَبَّبَ حَائِرُ الْبَحْرِ<sup>(٤)</sup>

وحبيبة الشاعر غاية في الجمال لا يستقيم مع رؤيتها متبتل ولا راهب ، بل يختار النظر إليها على عبادته ، ويضعف أمام رؤيتها أيما ضعف :

بَيْضَاءُ لَوْ مَرَّتْ بِذِي نُسْكَ يَبْلُو الْبَيَانَ يَلُوحُ فِي الزُّبُرِ  
مُنْبَلِّلٌ عَنْ كُلِّ فَاخِشَةٍ سَكَنَ الصَّوَامِعَ رَهْبَةً الْوَزُرِ  
لِرَأْيَيْهِ حَرَّانَ يَذْكُرُهَا يَخْتَارُ رُؤْيَيْهَا عَلَى الدُّكْرِ<sup>(٥)</sup>

(١) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢١٧ . وجداء : نفع وفائدة ، والبيت لبرذع بن عدي الأوسي .

(٢) حسني عبد الجليل يوسف ، عالم المرأة في الشعر الجاهلي ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٨ ، ص ١٠٦ .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٧ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٥٣ . وأغلى الملوك بها : يقال : أغلى الشعر وبه ، أي رفعه ، ويعني الشاعر الدرة التي يُرَبِّبُهَا (يحفظها ويراعيها) الصَّدَفُ في قَعْرِ الْمَاءِ . والحائرُ : مُجْتَمَعُ الْمَاءِ . انظر لسان العرب ، مادة "رب".

(٥) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٥٢ . والزُّبُرُ : جمع زَبُور ، وهو الكتاب ، وجمعه مضموم الباء في الأصل ، وسُكِّنَ هنا ضرورةً ، ومتبتل : هو المنقطع لله في العبادة ، المخلص له ، والوزر : الإثم ، وحرَّان : عطشان .

ومن المعاني الحسية التي تتكرر عند شعراء الأوس والخزرج تشبيه أسنان الحبيبة بالبرد ، وأنها منعمة مترفة نؤوم ، ممكورة الساقين ، طفلة ، كاعب .... وغيرها من الصفات التي هي مشتركة بينهم وبين بقية الشعراء الجاهليين وغير الجاهليين.

## الزوجة

هي الصور الثانية للمرأة في شعر الأوس والخزرج من حيث تكرار ورودها بعد الحبيبة ، وقد تندغم هاتان الصورتان معا ، فتكون الزوجة هي الحبيبة ، كما نرى عند أبي قيس بن الأسلت الذي أورد لنا صورة نموذجية لزوجته خالعالها كل صفة يرضاها الزوج في الزوجة :

رَقُودُ الضَّحَى صِفْرُ الحِشَامِ تُنْتَهَى الْمُنَى      قُطُوفُ الخُطَى تَمْشِي الهَوِينَا فَتُبْهَرُ  
خَفِيضَةٌ أَعْلَى الصَّوْتِ لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ      وَلَا نَمَّةٍ خَرَّاجَةٌ حِينَ تَظْهَرُ  
وَيُكْرِمُنَهَا جَارَاتُهَا فَيُزِرْنَهَا      وَتَعْتَلُّ عَنْ إِيْتَانِهِنَّ فَتُعْذَرُ  
وَلَيْسَ بِهَا أَنْ تَسْتَهِينَ بِجَارَةٍ      وَلَكِنَّهَا مِنْ ذَاكَ تَحِيَا وَتَحْصَرُ  
وَإِنْ هِيَ لَمْ تَقْصِدْ لَهِنَّ أَتَيْتَهَا      نَوَاعِمَ بَيْضًا مَسْنِيُهُنَّ التَّاطُرُ<sup>(١)</sup>

فزوجة الشاعر مترفة منعمة جميلة ، متلطفة في مشيتها بطيئة ، ليست بسليطة اللسان ولا بصخابة ، لا يكاد يسمع أعلى صوتها إن تحدثت . وهي تلزم بيتها ولا تمشي بالنميمة بين الناس ، ، لذلك فهي كثيرا ما تُزار ، وتعتذر عن الزيارة حياء وخفرا ، ومع ذلك فهي تحترم جاراتها. ونلاحظ أن الشاعر قد أشار إلى جمال زوجته حين قال : فتبهر ، صفر الحشا ، وهذا أمر نادر الوقوع في الشعر الجاهلي ، فقد كان من عادة الشاعر أن يشير إلى جمال محبوبته لا جمال زوجته أو ابنته أو أخته . ولعله يمكننا الخروج من ذلك بالقول إن الشاعر هنا يصف ما ينبغي أن تكون عليه الزوجة من صفات ، وليس بالضرورة أن يكون كلامه ذاك مختصا بزوجته ، فكما رأينا الشعراء يجعلون محبوباتهم أجمل النساء نراهم هنا يجعلون نساءهم خير النساء ، وكأنهم يرسمون أنموذجا للمحبوبة والزوجة في كل زمان ومكان .

<sup>(١)</sup>ديوان أبي قيس بن الأسلت، ص ٧٢ . وصفر الحشا: يريد أنها ضامرة البطن ، وقطوف الخطى : متقاربة الخطى ، تمشي بسكينة ، الهوينى : تصغير الهوى مؤنث الأهون ، وهي نائب عن المفعول المطلق ، أي تمشي برفق ولين . قلت : رأيت غير معجم من المعاجم اللغوية كلسان العرب وتاج العروس وغير مصدر من مصادر التراث يثبت كتابة هذه الكلمة مرة بالآلف القائمة (الهوينى) ، ومرة بالآلف المقصورة (الهوينى) ، ولا أدري الوجه في ذلك . وتبهر: تغلب النساء في الحسن ، والسلفع: الجريئة البذيئة الصخابة ، والنمة : النمامة ، وخراجة : يقال فلان خراج ولاخ؛ يقال ذلك عند تأكيد الطَّرْفِ والاحتِثَالِ (انظر لسان العرب ، مادة "خرج") وتحصّر: أي تعجز عن زيارتهن ، والتأطر: التثني في المشي ، وقوله: "ويكرمنها جاراتها" كذا ورد في المصادر عامة ، قال ابن هشام: نون الإناث اسم في نحو : "النسوة يذهبن" خلافا للمازني ، وحرف في نحو : "يذهبن النسوة" في لغة من قال : "أكلوني البراغيث" خلافا لمن زعم أنها اسم ، وما بعدها بدل منها ، أو مبتدأ مؤخر والجملة قبله خبره (انظر ابن هشام ، مغني اللبيب ، ج ٢ ، ص ٢٥).

وتبادل الزوجة الجاهلية زوجها مشاعر الحب والإعجاب ، فتمدحه حيا إن كانت شاعرة ، وترثيه ميتا ، بل تبالغ في تأبينه مبالغة تبدو منها مظاهر الضعف الأنثوي والاحتفاء بالرجل والتمسك به إلى درجة من نكران الذات في سبيل الحفاظ على صيانة هذا الضعف كما نرى في رثاء فاطمة بنت الأحجم زوجها الجراح :

يا عَيْنُ بَغْيٍ عِنْدَ كُلِّ صَبَاحٍ      جُودِي بِأَرْبَعَةٍ عَلَى الْجَرَّاحِ  
قَدَ كُنْتُ لِي جَبَلًا أَلُوذُ بِظِلِّهِ      فَتَرَكْتَنِي أَمْشِي بِأَجْرَدٍ ضَاحٍ  
قَدَ كُنْتُ ذَاتَ حَمِيَّةٍ مَا عَشْتُ لِي      أَمْشِي الْبَرَّازَ وَكُنْتُ أَنْتَ جَنَاحِي  
فَالْيَوْمَ أَخْضَعُ لِلدَّلِيلِ وَأَتَّقِي      مِنْهُ وَأَدْفَعُ ظَالِمِي بِالرَّاحِ<sup>(١)</sup>

وعلى الرغم من تلك العلاقة الطيبة المفترضة بين الزوج وزوجته إلا أن ذلك لم يمنع من ورود معان أخرى عند الشعراء كانت الزوجة فيها مَعْرُضًا للذم هي وبنات جنسها ، فجعل مالك بن أبي كعب الخزرجي بعضهن كالنبات المر الذي لا بد من أكله ، وجعل فيهن بعض مظاهر الجهل مهما بلغن ، ومن أشد صفاتهن سوءا في نظر الشاعر أنهن إذا نهين عن أمر فعلمنه :

إِنَّ النِّسَاءَ كَأَشْجَارٍ نَبِثْنَ مَعًا      مِنْهُنَّ مَرٌّ وَبَعْضُ الْمَرِّ مَأْكُولٌ  
إِنَّ النِّسَاءَ وَلَوْ صُوِّرْنَ مِنْ ذَهَبٍ      فَيَهِنَّ مِنْ هَفَوَاتِ الْجَهْلِ تَخْيِيلٌ  
إِنَّكَ إِنْ تَنَّهُ إِحْدَاهُنَّ عَنْ خُلُقٍ      فَإِنَّهُ وَاجِبٌ لَا بَدَّ مَفْعُولٌ<sup>(٢)</sup>

وقد يلجأ الشاعر إلى هجاء قوم زوجته وأهلها ، وهذا الضرب أشد على الزوجة وأوجع من هجائه لها ، ومن ذلك قول حسان بن ثابت يذم خصالا في ابن له بهجاء أخواله من قبيلة أسلم :

غَلَامٌ أَنَاهُ اللَّؤْمُ مِنْ شَطَرِ خَالِهِ      لَهُ جَانِبٌ وَافٍ وَآخِرُ أَكْثَمٍ<sup>(٣)</sup>

ويظهر لنا أنه كان لبعض النساء في الجاهلية قدر من الحرية ، ولم يكن مسحوقات كما يصورن في كثير من الدراسات ، فامرأة حسان ترد على زوجها هجاءه بهجاء قومه وأعمام ابنها ، وترفع من شأن إخوتها مبينة أن خير أصول ابنها أصوله من جهة أخواله من قبيلة أسلم فتقول :

(١) ابن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ص ١٩٨. وقولها : "بأربعة " ، أي مجاري الدمع ، وأجرد ضاح : أملس بارز للشمس ، تريد لا سائر ولا وافي لها ولا مدافع عنها . وأمشي البراز : أمشي في المكان الفضاء من الأرض ، والراح : جمع راحة ، وهي باطن اليد ، وبان : ابتعد وفارق . وانظر تفسير الأبيات عند المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، ج ٢ ، ص ٩٠٩.

(٢) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٩٢.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٧٨. وأكثم : ناقص الخلق أو ناقص النسب . وكان حسان قد خطب امرأة من أسلم فلم يزوجه فهجاهم ، فزوجوه فولدت امرأته غلاما فقال هذا البيت فيه . انظر ديوان حسان ص ١٧٦-١٧٨.



غلامٌ أتاه اللؤمُ من نحو عمّه ومن خير أعراف ابن حسان أسلم<sup>(١)</sup>

والزوجة عند الجاهلي كثيراً ما تكون عاذلة رجلها في مواقف لعل أشهرها قاطبة عدله على إنفاقه حرصاً منها على ماله، وهي صفة حمّدت في المرأة الجاهلية خاصة، فالرجل كريم ينفق ماله، والمرأة مقتصدة تتفق بقدر لتدبر بيتها ، وبذلك يحصل التوازن .

والشاعر الجاهلي يظل عرضة للعدل من زوجه في هذه الناحية، وهذا يسبب له الضيق ، لأن المرأة هنا تكون عائناً أمام كرمه وسخائه، والكرم يعود عليه بالشهرة والذكر الحسن . هذه هي الصورة التي تتكرر في الشعر الجاهلي عامة ، وفي شعر الأوس والخزرج خاصة ، وقد وقفنا على لوم امرأة حسان له على إنفاقه المال حين عرضنا للحديث عن الخمر . ومن ذلك أيضاً لوم زوجة قيس بن الخطيم إياه على إنفاقه المال في الحرب والتجهز لها :

تَقُولُ ظَعِينَتِي لَمَّا اسْتَقَلْتُ      أَتَتْرُكُ مَا جَمَعْتَ صَرِيمَ سَحَرٍ  
فَقُلْتُ لَهَا: ذَرِينِي إِنَّ مَالِي      يَرُوحُ إِذَا غَلِبَتْهُمْ وَيَسْرِي<sup>(٢)</sup>

غير أن ثمة صورة مغايرة تماماً لما كان عليه عامة القوم نتحسها عند أحيحة بن الجلاح الأوسي الذي كان صنيعاً للمال ، شحيحاً عليه ، حاذقاً بجمعه ، حريصاً على تميمته وتكثيره ، لذلك نرى زوجته تلح عليه في الإنفاق ، لأنها لا تريد أن يعاب زوجها بين الأقوام بشحّه . وقد كان إنفاق المال مما يسيئه ، لكنه كان يسرها . ويبدو أن أحيحة بن الجلاح قد افتقر من أجل ذلك<sup>(٣)</sup> ، فقال وقد أطاع زوجه بإنفاق ماله حتى تربت يدها :

أَطَعْتُ الْعَرَسَ فِي الشَّهَوَاتِ حَتَّى      أَصَارْتَنِي أَسِيفًا عَبْدَ عَبْدٍ  
إِذَا مَا جِئْتُهَا قَدْ بَعْتُ عِدْقًا      تُعَانِقُ أَوْ تُقَبِّلُ أَوْ تُقَدِّي  
فَمَنْ نَالَ الْغِنَى فَلْيَصْطَنْعُهُ      صَنِيعَتُهُ وَيَجْهَدْ كُلَّ جُهْدٍ  
أَعْلَمُكُمْ وَقَدْ أَرَدَيْتُ نَفْسِي      فَمَنْ أَهْدِي سَبِيلَ الرُّشْدِ بَعْدِي؟<sup>(٤)</sup>

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٨١ . وعنى بظيعته هنا زوجته ، واستقلت : استوت على ظهر الراحلة ، وصريم سحر : قال ابن منظور : كل ما يُئس منه فهو صريم سحر (لسان العرب ، مادة "سحر") . وأصل التركيب أن معنى "صريم" : مصروم ، أي مقطوع ، والسحر : الرئة ، فالمعنى على ذلك : أتترك ما جمعت مقطوع الرئة ؟ أي فانيا لأحياة فيه ، لأن الرئة إذا قطعت لم يعيش الإنسان ( انظر شرح ذلك والإشارة إلى شروحات أخرى للبيت في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٨١ ) ، وقوله : يروح إذا غلبتهم ويسري : لعله أراد أن إنفاق المال يجعل له ذكراً حين تتكشف الحرب عن انهزام العدو ، أو أراد أن المال يذهب ويجيء ، وأن هزيمة العدو وغلبة قوم الشاعر هي التي تبقى على مر الأيام .

(٣) انظر الجاحظ ، الأمل والمأول ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٤٨ .

(٤) صالح البكاري والطبيب العشاش ، أحيحة بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، ص ٣٧ . والعرس : الزوجة ، والأسيف : الحزين ، وهنا الأسيف هو الغضبان مع حزن (انظر لسان العرب ، مادة "أسف") ، والعنق : النخلة بحملها ، وتنفدي : نقول فذاك أبي وأمي ، وأرديت نفسي : أهلكتها .

ومن الصفات التي تُدْمُ في الزوج ويندر ورودها في الشعر الجاهلي خضوعه لزوجته ،  
ونزوله على أمرها ، وتبّعها لها كما يتبع الفصيل أمّه :

تَبُوْعٌ لِلْحَلِيلَةِ حَيْثُ كَانَتْ      كَمَا يَعْتَادُ لِقَحْتَهُ الْفَصِيلُ<sup>(١)</sup>

ويظهر لنا أن الجاهليين كانوا يعتقدون نقصان عقل النساء ، وخفة أحلامهن ، ، لذلك  
كان من الهجاء المر عندهم أن يشبه عقل رجل بعقل امرأة ، أو أن تُهجى قبيلة بأن رجالها لهم  
عقول نساء كما فعل حسان بن ثابت حين هجا بني سُلَيْم بن منصور فقال :

لَقَدْ غَضِبْتَ جَهْلًا سُلَيْمٌ سَفَاهَةً      وَطَاشَتْ بِأَحْلَامٍ كَثِيرٍ عُثُورُهَا  
لَهَا عَقْلٌ نِسْوَانٍ وَشَرٌّ شَرِيعَةٍ      نَزُورٌ نَدَاهَا حِينَ يُبْغَى بُحُورُهَا<sup>(٢)</sup>

وقد يتزوج الرجل الجاهلي الصغيرة في السن من النساء دون النظر إلى فارق العمر ،  
لذلك فإن المرأة الجاهلية كثيرا ما كانت تزهد في زوجها حين يدنو من الهرم أو يصبح عاجزا ،  
فتبغضه وتبتعد عنه ، ويقال لها: فاركك ، ويقال له: مُفْرَكْ ، وهذا طبع في النساء قديما وحديثا  
يكاد ينسحب على أكثرهن. واشتعال الرأس شيئا أظهر علامات الهرم والدنو من الفناء ، ومن  
علامات ذلك أيضا ذهاب أتراب الشاعر بموتهم واحدا تلو الآخر ، وهذا ما دعا زوجة حسان  
إلى أن تهجره :

ابْيَضَ مِنِّي الرَّأْسُ بَعْدَ سَوَادِهِ      وَدَعَا الْمَشِيبُ حَلِيلَتِي لِيُعَادِ  
وَاسْتَفِدَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا مِنْهُمْ      وَكَفَى بِذَاكَ عَلَامَةً لِحَصَادِي<sup>(٣)</sup>

ولما كان العربي الجاهلي كلفا بالإشادة بمفاخره وإذاعة محامده ، فكثيرا ما كان يتوجه  
إلى الزوجة ليشهدها على ذلك ، فيستعرض مفاخره ومناقبه أمامها لتكون له خير مرآة يرى  
صورته فيها، ومن تلك المفاخر أنه يحسن اختيار الندامي والأصدقاء ، وهو صاحب حرب ،  
صلب في النوائب :

سَلِيٍّ مَنْ نَدِيمِي فِي النَّدَامَى وَمَأْلَفِي      وَمَنْ هُوَ لِي عِنْدَ الصَّقَاءِ خَدِينُ  
وَأَيُّ أَخِي حَرْبٍ إِذَا هِيَ شَمَرَتْ      وَمِدْرَهُ خَصْمٌ بَعْدَ ذَاكَ أَكُونُ  
فَذَلِكَ مَا قَدْ تَعْلَمِينَ وَإِنِّي      لَجَلْدٌ عَلَى رَيْبِ الْخُطُوبِ مَتِينُ<sup>(٤)</sup>

(١) صالح البكري والطيب العشّاش ، أحيحة بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، ص ٣٧. واللقحة : الناقة الحلوب الكثيرة اللبن ، والفصيل : ولد الناقة .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢١٥ . ونزور نداها : قليل خيرها وعطاؤها .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٦٩ . وحصادي : موتي .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٦٤-١٦٦ . وخدين : صديق و خليل ، والميزر : المدافع عن قومه .

والمرأة عامة هي عرض الرجل الذي يجب عليه الدفاع عنه و صونه من أي دنس ، فلا يعرضه لعبث العابثين ، وهو من أجل ذلك يجعل المال واقيا لعرضه ، لأن المال يُحتاج إليه لتنتفع به النفس، ولتنتزه بإنفاقه عن المعاييب. والمال إذا استهلكه منفقهُ أمكن الاعتياض منه، والاحتيايل في جمعه وتثميّره، أما العرض فإنه إذا كُلم لا سبيل إلى تنقيته من درن العار :

أَصُونُ عَرْضِي بِمَالِي لَا أُدْنِسُهُ      لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعَرْضِ بِالْمَالِ  
أَحْتَالُ لِلْمَالِ إِنْ أُوْدِيَ فَأَجْمَعُهُ      وَلَسْتُ لِلْعَرْضِ إِنْ أُوْدِيَ بِمُحْتَالٍ<sup>(١)</sup>

وفي ساح المعركة يستميت الشاعر في الدفاع عن عرضه والقتال دونه، لأن من يسلم حريمه أو يفر عنها حري أن ييؤ بالخزي، و أن يجلل بالعار الدهر كله ، فالمرأة من أقدس المقدسات التي ينبغي الدفاع عنها في حال الحرب ، لأن اتخاذها سبية يورث المرء ذلا ما بعده ذل ، ومن ذلك نرى كيف افتخر قيس بن الخطيم بمنع نساء قومه في الحرب ، وعيّر عدوّهُ عدم قدرته على ذلك :

وَإِنَّا مَنَعْنَا فِي بُعَاثٍ نِسَاءَنَا      وَمَا مَنَعَتْ مِ الْمُخْزِيَاتِ نِسَاءَهَا<sup>(٢)</sup>

وتقترن حماية العرض بحماية المآثر الصالحة التي يتنادى بها الجاهليون :

لَأُدْفَعَ عَنْ مآثرَ صَالِحَاتٍ      وَأُحْمِي بَعْدُ عَنْ عَرْضِ صَحِيحٍ<sup>(٣)</sup>

وقد تلجىء صروف الدهر المرء إلى التغاضي عن أمور كثيرة ، لكن العرض ليس واحدا من هذه الأمور في رأي قيس بن الخطيم :

وَلَا يُنْسِينِي الْحَدَثَانُ عَرْضِي      وَلَا أُرْخِي مِنَ الْمَرْحِ الْإِزَارَ<sup>(٤)</sup>

ويبدو لنا من الوهلة الأولى أن قيس بن الخطيم متسامح في ما يمس عرضه حين نقرأ قوله في بني قريظة والنضير :

وَلَسْتُ نَاسِيَهُمْ إِنْ جَاهِلٌ خَطِلٌ      خَنَا وَمَا جَدَّبُوا عَرْضِي وَمَا كَلَمُوا<sup>(٥)</sup>

غير أن القوم الذين أشار إليهم الشاعر كانوا قد وقفوا مع قومه في حربهم ضد الخزرج ، فأدى به ذلك إلى أن يتجاوز عن مسيئتهم وسفيههم إن أخطأ ، ولا ينسى معروفهم معه ومع قومه ، وليس هذا ضعفا من الشاعر ، ولا تهاونا منه ، فالكريم عندهم من إذا قدر غفر ، ومن لم يؤاخذ الجميع بفعل سفيه منهم .

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥١ . وم المخزيات : من المخزيات ، حذف النون ضرورة ، والضمير في منعت يعود على قبيلة الخزرج .

(٣) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٥٥ . والبيت لعمر بن الإطناية في قصيدة له .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٣٣ . والشطر الثاني معناه أنه لا يتكبر .

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٠٧ . وخنا : أفحش بالقول ، جدبوا : خدشوا ، وكلموا : جرحوا .

## د. الموت

أرق الموت الإنسان ، وشغل تفكيره المصير المحتوم الذي أثار في أعماق نفسه تساؤلات حائرة عن الموت والحياة ، وسر الفناء، وغاية الزوال. وقد عبرت ثقافات الشعوب ، وفلسفاتها ، وأساطيرها عن قضية الموت بمستويات مختلفة ونقلت كثيرا من التصورات عن طبيعة العدم والبقاء ، وكان الشعر من بين الفنون الإبداعية التي عبرت عن هذا القلق والحيرة. ويرى بعض الباحثين أن الجاهلي لم يكن - على الأكثر - ينظر إلى الموت نظرة فلسفية، فهو مظهر طبيعي يظهر للأحياء يتركهم معطلين الأجساد والأنفس...<sup>(١)</sup> .

وهذا كلام فيه جانب كبير من الصحة ، غير أننا لو استقرأنا الشعر الجاهلي عامة لوجدنا قدرا كبيرا من النظرات الفلسفية التي لم يقتصر صدورها عن حكماء الشعراء ومعمريهم أو الحنفاء منهم ، بل تجاوزت ذلك إلى شعراء لم يمتد بهم العمر إلا قليلا كطرفه بن العبد البكري ، وإلى الشعراء الصعاليك الفتاك الذين اعتزلوا الناس واعتزلهم الناس. ولم تكن النظرة للموت متشابهة عند الشعراء جميعا ، بل لقد اختلفت باختلاف نمط حياتهم وفكرهم ومعتقدهم ، مع أنهم مجمعون على أن الموت حقيقة ماثلة للعيان ، وأنه لا منجى منه ولا مهرب ، وأن كل حي لاقيه. والتفكير في الموت أوقد في نفس الشاعر الجاهلي جذوة قلق لا تسكن ، أفسد عليه متعة الحياة ، وكدر صفوها ، إذ صار الشاعر يخشى أن يصرعه الموت في أية لحظة ، وأن يباغته الردى في غفلة ، ما دامت سهامه مشرعة لا تخطيء من تصيب .

وإدراك الموت بحد ذاته يتجلى في التفكير بالمآل الذي يصير إليه الشاعر حيث سيصبح منزله العامر حفرة موحشة ، لا مؤنس فيها ، حفرة تسفي عليها الرياح ، ويهجع فيها جثة هامدة ، لا تسمع ، ولا تجيب ، إنه الشعور بالعدم المطلق كما عبر عنه صرمة بن أبي أنس الخزرجي في نظريته الفلسفية للموت ، فرأى الموت مفنيا للنفس والمال ، كأن له سائقا يسوقه إلى مآله المحتوم ، وإلى المورد الذي ورده كل من قبله :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى	من الأمر أو يبدو لهم ما بدا لي
بدا لي أن الناس تقنى نفوسهم	وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا
إلى حفرة أهوي إليها مقبمة	يحث إليها سائق من ورائي
ألا لا أرى على الحوادث باقيا	ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا <sup>(٢)</sup>

(١) عبد الله الصائغ، الزمن عند الشعراء الجاهليين العرب قبل الإسلام، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢م، ص ١٥١.

(٢) انظر الشعر والخلاف في نسبة بعض الأبيات عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٤٩ .

ولم تكن هذه النظرة إلى الموت هي الوحيدة ، بل لقد وجدنا من شعراء الأوس والخزرج من كان على الحنيفية ، ، مثل أبي قيس بن الأسلت الأوسي . ومع أني لم أجد في شعر أبي قيس بن الأسلت ما يوضح لنا نظرته إلى الموت إلا أن حنيفيته التي صرح بها في شعره قد قالت ما لم يقله ، وبيّنت أن موقفه من الموت ليس مشابها لما كان عليه عامة قومه ، فهو يؤمن بالله ، وبأنه الهادي إلى سواء السبيل ، وهذا يستدعي الإيمان بالبعث والنشور :

أَرَبَّ النَّاسِ أَمَّا إِذْ ضَلَلْنَا      فَيَسِّرْنَا لِمَعْرُوفِ السَّبِيلِ  
فلولا ربُّنا كنّا يهودًا      وما دينُ اليهودِ بذِي شُكُولِ  
ولولا ربُّنا كنّا نصارى      مع الرُّهبانِ في جَبَلِ الجَلِيلِ  
ولكنّا خلّقنا إذْ خلّقنا      حنيفًا ديننا عن كلِّ جِيلِ<sup>(١)</sup>

وقد علم الجاهلي أن لا أحد ينجو من الموت ، وترسخت عنده هذه الحقيقة بما يرى من مصارع الأقوام على مر الدهور ، لذلك فإن من هؤلاء من أنطقته الحكمة حتى أخذ يزجي النصيحة لغيره بألا يركنوا إلى مجريات الأيام التي ستأتي عليهم كما أتت على سابقهم ، فهم دُبالها الذي تتغذى به ، ولن تلقى عصا ترحالها إلا بفنائهم والإتيان عليهم :

يا بني الأيام لا تأمئوها      واحذروا مكرها ومرّ الليلي  
واعلموا أنّ مرّها لنفادِ الخلق ما كان من جديدٍ وبالي<sup>(٢)</sup>

ولعل معظم المعاني التي تدور حول الموت تؤكد مفهوم حتميته، وأنه واقع لا محالة ، ولا راد له ، ومن ذلك قول أبي قيس بن رفاعة الأوسي :

إمّا تَرِينَا وقد خَفَتْ مجالسُنَا      والموتُ أمرٌ لهذا الناسِ مكتوبٌ<sup>(٣)</sup>

وإذا كانت نظرة الجاهلي إلى الموت فيها التسليم بحتميته والخشية منه ، ، فكيف نعلل افتخارهم بحب الموت ومواجهته ، وتعبير بعضهم بعضاً بالخوف منه ؟

إن فكرة حتمية الموت قد منحت الجاهلي حرية في الاختيار، فمادام الموت قدرا مضروباً ومحدداً ، فإن خشية أسبابه لا تهب المرء خلوداً، فلماذا لا يغشى الإنسان ساحات

(١) حسن محمد باجودة ، ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت ، ص ٨٧ . وشُكُول : جمع شكل وهو المثل والشبه . ولعله يريد أن دينهم متناقض مختلف لأشكال بعضه بعضاً، وحنيفاً : مثلاً، وجبل الجليل: في ساحل الشام ، يمتد إلى قرب حمص ، ذكر ذلك ياقوت وساق الأبيات السابقة . انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة " الجليل " . وجبال الجليل اليوم هي كتلة جبلية في فلسطين تشكل امتداداً لجبل عامل (لبنان) ، وتنتهي عند مرج ابن عامر ، طولها ١٢٠٨ أمتار . وتقع منطقة الجليل التي تقوم عليها تلك الجبال في فلسطين الشمالية بين لبنان شمالاً ، والبحر المتوسط غرباً ، والأردن شرقاً ، والسامرة جنوباً . وينبسط في جنوبها مرج ابن عامر ، ومن مدنها : حيفا وعكا والناصرة . ولعل هذا الجبل كان يضم معابد للرهبان من النصاري يتعبدون فيها ، ومواقع دينية لهم .

(٢) الشعر لصرمة بن أبي أنس الخزرجي . انظر داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

الوغي ؟ ولماذا لا يضرب في الأرض ، ولا يطوّف في الآفاق ؟ بل لماذا يستكين مستسلما والموت حين يأتي لا يرده شيء ؟ فطعمه واحد ونتيجته واحدة :

فَإِذْ لَمْ يَكُنْ عَن غَايَةِ الْمَوْتِ مَدْفَعٌ فَأَهْلًا بِهَا إِذْ لَمْ تَزَلْ فِي الْمَرَا حِبِ<sup>(١)</sup>

وقد أخذوا من أجل ذلك يفتخرون بالسير إلى الموت بدلا من انتظاره :

نَمْشِي إِلَى الْمَوْتِ مِنْ حَفَائِظِنَا مَشْيًا ذَرِيعًا وَحُكْمُنَا نَصَفٌ<sup>(٢)</sup>

وبالنزول عليه بدلا من نزوله عليهم :

فَنَحْنُ النَّازِلُونَ عَلَى الْمَنَآيَا وَنَحْنُ الْآخِذُونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ<sup>(٣)</sup>

ومن الطبيعي ألا يكونوا كلهم سواء في نظرهم إلى الأسباب المؤدية إلى الموت ، ولأن الحرب غالبا ما تكون أداة الموت عند الجاهلي ، فإن منهم من يخاف إذا اشتدت الحرب ، وحمي وطيسها على شجاعته وعلو همته ، لكن الشاعر الخزرجي مالك بن أبي كعب ليس ممن يخافونها ، إذ يخوض هذه الحرب والموت متربص به :

وَلَا أَهَابُ إِذَا مَا الْحَرْبُ حَرَّشَهَا الْأَبْطَالُ وَاضْطَرَبَتْ فِيهَا الْبَهَائِلُ

أَمْضِي أَمَامَهُمُ وَالْمَوْتُ مُكْتَنِعٌ قُدَمَا إِذَا مَا كَبَا فِيهَا التَّنَائِيلُ<sup>(٤)</sup>

ولأن الموت حتمي على الناس ، فمن غير المنطقي أن يترقب المرء موت أحد أو يشمت به إن مات ، وكأنه بمنجى من الفناء ، فهو عما قريب لاق ما لقيه غيره ، وهذا حال كل امرئ مهما كان شأنه :

كَمْ قَائِمٍ يُحْزَنُهُ مَقْتَلِي وَقَاعِدٍ يَرْقُبُنِي شَامِتٌ

أَبْلَغُ خِدَاشًا أَنَّنِي مَيِّتٌ كُلُّ امْرِئٍ ذِي حَسَبٍ مَائِتٌ<sup>(٥)</sup>

ولإيمانهم العميق بهذه الحتمية ، تردد في شعرهم تركيب "قصد السبيل" الذي يعني الموت ، وهو تركيب يعني الطريق المستقيم ، يريدون أنه الطريق الذي يسلكه كل حي سائر إلى

(١) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨١ . والمرحّب ، جمع مَرَحَبٍ ، والمرحّب : السَّعة أو المكان الواسع . ويريد بقوله : " إذ لم تزل في المَرَا حِبِ " ، أي لا يزال في الأمر سعة ، قبل أن يضيق عليه . انظر في ذلك كلام ناصر الدين الأسد ، ص ٨٢ من الديوان .

(٢) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٧٧ . والبيت لعمرو بن امرئ القيس الخزرجي . ونَصَفٌ : عادل ، والحفاظ : جمع حفيظة ، وهي الحمية والغضب ، وذريعا : سريعا .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٨٧ .

(٤) البيتان عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٩٢ . وحرَّشَهَا : هيجَهَا ، والبهائل : جمع بُهْلُول : الحَيُّ الكريم ، والعزیز الجامع لكل خير ( لسان العرب ، مادة " بهل " ) ، ومكتنع : حاضر ودان ( لسان العرب ، مادة " كنع " ) ، وقُدَمَا : أصلا : قُدَمَا : سكنت الدال لضرورة الوزن . وفي اللسان : مضى قُدَمَا وتأخَّرَ أخْرًا ( لسان العرب ، مادة " آخر " ) ، والتنايل : جمع تنبال ، وهو الرجل القصير الزُرِّي ( انظر جمهرة اللغة ، مادة " تنبل " ) .

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢١١ . وخدّاش : أحد قوم الشاعر ، وميِّت ومائت : أي سيموت . انظر لسان العرب ، مادة " موت " .

فنائنه ، ففي استخدامه تسليم بحتمية الموت وبوقوعه الذي لا بد منه، ومن ذلك قول أحيحة بن الجلاح الأوسي في رثاء بعض قومه :

مَضَوْا قَصْدَ السَّبِيلِ وَخَلَّفُونِي      إِلَى خَلْفٍ مِنَ الْأَبْرَامِ خَلْفٍ <sup>(١)</sup>  
وقول ثعلبة بن كعب الأوسي :

لَقَدْ صَاحَبْتُ أَقْوَامًا فَأَضْحَوْا      خُفَاتًا مَا يُجَابُ لَهُمْ دُعَاءُ  
وَقَوْمًا بَعْدَهُمْ قَدْ نَادَمُونِي      فَأَضْحَى مُقْفَرًا مِنْهُمْ قُبَاءُ  
مَضَوْا قَصْدَ السَّبِيلِ وَخَلَّفُونِي      فَطَالَ عَلَيَّ بَعْدَهُمُ النَّوَاءُ <sup>(٢)</sup>

فهم مع تسليمهم بحتمية الموت فإن ذلك لم يمنعهم من الحزن على من تَخَطَّفَه من أحببتهم ، وهذا جعل الشاعر يزهد في الحياة بعدهم وقد بقي فردا مع أقوام لا يوائمونهم في طباعهم .

ويستخذ الشعراء من الموت أداة للتهديد والوعيد كما اتخذوه أداة للفخر ، إذ مهما فخر المرء بحبه للموت وبنزوله عليه ، إلا أنه حين يدنو منه يكتنفه الخوف ، وتتملكه الرغبة في الحياة ، وهذه طبيعة في الإنسان مذ خُلِق ، لذا رأيناهم يهددون بعضهم بالموت ، يفخرون بذلك ويخوِّفون به خصومهم ، وكان الموت سلاح في يد الشاعر أو ذات مشاهدة تحرسه، وتحول دون وصول خصمه إليه :

المَوْتُ دُونِي لَسْتُ مُهْتَضِمًا      وَدَوُو الْمَكَارِمِ مِنْ بَنِي عَمْرٍو <sup>(٣)</sup>  
وكما يَحُول الموت الذي أصبح أداة بيد الشاعر بينه وبين خصمه يحول أيضا بين خصمه وكل ما يخص الشاعر وقومه من ممتلكات يُحامون عنها :

لَنَا حَائِطَانِ ، الْمَوْتُ أَسْفَلَ مِنْهُمَا      وَجَمَعَ مَتَى يُصْرَخُ بِيْتَرَبَ يُصْعِدُ <sup>(٤)</sup>  
وتنتفزع عن حتمية الموت شموليته، فالموت يساوي بين الناس كافة ، وبذلك تبرز عدالته التي لا تؤثر في نفاذ أحكامها مكانة المرء أو منزلته بين القوم. وفي شمولية الموت يتحقق نوع من العزاء بالمساواة ، حيث تزول الفوارق ، وتلغى الامتيازات ، وهذا ما يخفف من أثر وقع

<sup>(١)</sup> صالح البكاري ، والطبيب العشاش ، أحيحة بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، ص ٣٦ . والأبرام : جمع بَرَم ، وهو اللنيم ، وأصله الذي لا يدخل مع القوم في الميسر . انظر لسان العرب ، مادة "برم" ، وخَلْفُ الأَوَّلَى بفتح الخاء وسكون اللام: القرن يأتي بعد القرن ، ويريد هنا أهل ذلك القرن ، وخَلْفُ الثانية، وهي بفتح الخاء وسكون اللام أيضا : الطالع من الولد ، وإذا كانوا صالحين قيل لهم : خلف بفتح الخاء واللام . انظر لسان العرب ، مادة "خلف" .

<sup>(٢)</sup> داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ٢٢٣ . وخفاتا : لا حسَّ لهم ، وقُبَاء : موضع معروف في المدينة ، والنَّوَاء : البقاء والإقامة .

<sup>(٣)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٥٤ . والمهتضم : الرجل الذي ترى الحزن في وجهه (المحيط في اللغة ، مادة هضم " ) ، وبنو عمرو : بنو عمرو بن الخزرج قوم الشاعر .

<sup>(٤)</sup> ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٢٥-١٢٦ . وقوله : "مَتَى يُصْرَخُ بِيْتَرَبَ يُصْعِدُ" ، أي متى يسمع قومه الصريح يهبوا للنجدة .

الموت على النفوس ، ويبدو تقبل هذه النتيجة مرضيا بعض الشيء ، فالإنسان الحي حين يتأمل قبور الموتى يجدها واحدة في مظهرها، فأنت لا تميز بين قبر شجاع وقبر جبان ، ولا بين قبر بخيل وقبر كريم ، ولا قبر غني وقبر فقير ، ولا قبر ملك وقبر سوقة .

وفي إطار فكرة الحتمية وما يستلزمها من شمولية أصبح التفكير في الخلود ضربا من المستحيل الذي لا طاقة للإنسان به ، وأصبحت نظرة الإنسان إلى الموت تنسم بالواقعية من خلال تأمله في مصير الأولين ، الذي كون في وجدانه قناعات راسخة عبر عنها في شعره ، واعترف بإتيان الموت على كل حي :

فلم أرَ ذا مُلْكٍ من الناس واحداً ولا سَوْقةً إلّا إلى الموتِ والقبر<sup>(١)</sup>

وفي ظل هذه الحقائق التي كونها الشاعر الجاهلي عن طبيعة الموت ، وحتميته ، وشموله ، أيقن أن مواجهة الموت باللذة هي شكل من أشكال التعبير من وجوده، ولهذا دعا إلى اغتنام أكبر قدر ممكن من المتع التي يرد بها على الموت ، ويبادر بها المنية ، فحسان بن ثابت لا يريد من نديمه على الخمر إلا أن يظل ذاهلا من شربها ، لأن المتعة المحققة من ذلك الذهول هي بحد ذاتها المغنم من هذه الحياة الزائلة :

لَمَّا صَحَا وَتَرَاحَى الْعَيْشُ قُلْتُ لَهُ إِنَّ الْحَيَاةَ وَإِنَّ الْمَوْتَ مِثْلَانِ

فَأَشْرَبَ مِنَ الْخَمْرِ مَا آتَاكَ مَشْرَبُهُ وَاعْلَمْ بِأَنْ كُلَّ عَيْشٍ صَالِحٍ فَانَ<sup>(٢)</sup>

على أن مفهوم اللذة لا يقتصر على المتعة الحسية التي تخلق السعادة أو البهجة في النفس ، فالشاعر الجاهلي إذ يطلب المتعة الجسدية ، يشير من جهة أخرى إلى اللذة المعنوية التي تحققها أفعال أخرى كالشجاعة ، والكرم ، وبذل المعروف ، فهو يحرص على أن يشتري في حياته الحمد والثناء، لأن ذلك يحقق له متعة في حياته ، ويبقي أثره حيا بعد مماته :

أَبَتْ لِي عَقَّتِي وَأَبَى بَلَائِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالنَّهْمِ الرِّيحِ

وَإِقْدَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرَبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمُشِيحِ

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشَتْ مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

فَإِمَّا رُحْتُ بِالشَّرَفِ الْمُعْلَى وَإِمَّا رُحْتُ بِالْمَوْتِ الْمُرِيحِ<sup>(٣)</sup>

(١) البيت للأوس بن حارثة الأكبر أبي قبيلة الأوس في قصيدة له . انظر الخرائطي ، هواتف الجنان ، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز ، بيروت ، ١٩٨٩، ص ٦٧.

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٤١.

(٣) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١)، ص ١٥٥. والأبيات لعمر بن الإطنابة الخزرجي في قصيدة له . والربيع : الرابع ، والمشيع : المتكبر والمجد في الأمر ، وجشأت النفس وجاشت بمعنى ، أي ثارت خوفا (انظر لسان العرب ، مادة "ثور" ، ومادة "جيش") ، ومعنى قوله : "مكانك تُحمدي أو تستريحي" : يخاطب نفسه في المعركة قائلا لها : اثبتي في الحرب لتحمدي أو تموتي فتستريحي من عناء الحياة .



فالشاعر جعل الثبات في الحرب شرفا ، غير أنه جعل الموت في البيت الثالث راحة ، والراحة ضرب من المتعة، وعاد وكرر هذا المعنى في البيت الرابع ، مما يعطينا إشارة واضحة إلى أن الشاعر هنا لم يكن حريصا على الحياة التي اتخذها سبيلا للمجد والشرف ، وأنه كان يرى الراحة في الموت الشريف لا في الحياة الذليلة .  
ويجمع قيس بن الخطيم بين المتع الحسية والمعنوية مشيرا إلى أنه سيحققها كلها قبل أن يدركه الموت فيقول :

مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تَبْقَ حَاجَةٌ لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قُضِيَتْ قَضَاءَهَا<sup>(١)</sup>

وحين نتأمل دوافع الخوف من الموت عند الجاهلي نجد أنها تنطلق من إدراك الشاعر أن الموت يحول بين الإنسان والملذات الحسية والمعنوية ، ولولا أن الموت يحرم الإنسان منهما لما وجد الشاعر رهبة في مواجهته . ولا يغيب عن البال أن إلحاح الشاعر الجاهلي على انزاع الملذات ، واغتنام المكرمات ينبع من اعتقاده باستحالة الخلود من جهة ، وعدم الإيمان بالحياة بعد الموت من جهة ثانية ، فهو من رؤيته الوثنية المادية يؤمن بالحاضر المدرك على حساب المستقبل المجهول معتقدا أن مافاته في حياته لم يكن ليذكره بعد مماته .

وتجدر الإشارة إلى أن موقف الجاهلي من الموت لم يكن ثابتا ، فنرى بعضهم قد أحب الموت في مواقف الحرب كعمرو بن الإطنابة ، وخافه بعضهم في هذا الموقف . وإذا كان الموقف الذي يمر به الجاهلي قد حدد نظرته إلى الموت فإن طور الحياة الذي يعيشه أيضا قد جعل موقفه يختلف من الموت ، فرأينا بعض النصوص تحمل موقفا يبدو من خلاله الشاعر وهو حزين لأنه لم يميت ، فقد ضاق بالحياة ذرعا حين مات أقرانه ، وخلفه الموت وحيدا غريبا ملازما بيته ، يعاني الحياة ورتابتها المملة بلا معنى :

فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ رَهِينَ بَيْتِي وَأَخْلَفَنِي مِنَ الْمَوْتِ الرَّجَاءُ<sup>(٢)</sup>

وغالبا ما تكون هذه التحولات مرتبطة بأطوار نفسية ، وزمنية يمر بها الإنسان ولا سيما حين تدهمه الشيخوخة ، ويصل إلى مرحلة أرذل العمر، وما يصاحب ذلك من تغير الزمان وتبدل الأقران ، وعندئذ تفقد الحياة معناها، ويصاب المرء بالسأم ، ويشعر أن حمل الحياة أصبح عبئا ثقيلا عليه ، وأنه هو نفسه قد أصبح عبئا على غيره ، فليس خيرا من الموت عند ذلك .  
وبعدُ ، فلعلنا مما سبق نكون قد وقفنا على نظرة شعراء الأوس والخزرج إلى الموت وموقفهم منه وتصوير نظرته إليه . ويجدر القول في ختام هذا الموضوع إن تلك التصورات

(١) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٩ . والبيت من قصيدة قالها حين ثار أباه وجدّه من قاتليهما .

(٢) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٢٣ . والبيت لثعلبة بن كعب الأوسي .

والتأملات التي عبروا عنها وثيقة الصلة بحياتهم وبنيتها الفكرية التي تقوم على التجربة في الغالب ، دون التوغل في متاهات الفكر، والمناقشات الفلسفية العميقة التي تبحث في عالم الموت الغامض والمجهول ، ولهذا فإننا لا نجد غوصا في طبيعة هذه الظاهرة ولا تصورا عن إمكانية الانتصار على الموت بالبعث وبالحياة الثانية كما جاء في الديانات التوحيدية ، وهذا ما جعل صورة الموت عند الجاهلي قائمة ، والأسئلة عنه دون إجابات ، وجعل رحلة الموت نهائية لا عودة لغائبها، وبذلك يمكن أن ندرك ذلك التخبط النفسي الذي يسري في أعماق الشاعر الجاهلي في مواجهة فكرة الموت ، والتعبير عنها في قالب من الحكمة الشعرية ، والخطرات التأملية المتشحة بالقلق ، وهو اجس الخوف والاضطراب.

## ثانيا : موضوعات شعر الأوس والخزرج في صدر الإسلام

ليس من شك في أن القصيدة العربية قد استقرت تقاليدھا الفنية ، وبلغت قمة نضجھا في أواخر العصر الجاهلي . وبيزوغ شمس الإسلام وجد العرب أنفسهم على مشارف عصر جديد ومرحلة مختلفة شملت جميع مجالات الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فأصبح لزاما على الأدب في ذلك الوقت أن يتفاعل مع هذا الواقع الجديد والمرحلة الجديدة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بعصر صدر الإسلام ، ويضم عصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين .

ولما كانت الأوس والخزرج هما الجزء الأساس من المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام ، بل هم الجزء الذي أسهم في إحداث تلك التغييرات الجذرية في مجتمع المدينة والمجتمعات الأخرى ، فإن تحولهم نحو الدين الجديد الذي آمنوا به ودافعوا عنه كان مختلفا نوعا ما عن غيرهم من المجتمعات التي لم تعاصر الدعوة ولم تتح لها فرصة العيش في المجتمع المدني ، حيث النبي ﷺ ينتزل عليه الوحي ، لذلك فقد اتخذ الشعر عند الأوس والخزرج خاصة منحى ملتزما بقضايا عصره حتى كانت في شعرهم قضايا بأعيانها يعبرون عنها ، وأوشكت موضوعات شعرية أخرى أن تختفي كالغزل وشعر الخمر وغيرها.

وإذا كان للشعراء عامة دور في أحداث عصر صدر الإسلام والتعبير عنها ، فإن لشعراء الأوس والخزرج خاصة النصيب الأكبر من المشاركة في تلك الأحداث ، لما لهم من خصوصية في ذلك ، تمثلت في أنهم كانوا لسان الدعوة وحمايتها وسيفها المسلول في وجه المناوئين لها من أول أمرها.

ويتركز معظم شعر الأوس والخزرج في هذا العصر في الزمن الممتد من هجرة الرسول ﷺ حتى وفاته ، أما بعد ذلك فإننا نجد تراجعا ظاهرا لشعرهما مقدارا ونوعا .

ولو تتبعنا الشعر الذي قيل في أحداث عصر صدر الإسلام حتى وفاة الرسول ﷺ لوجدنا أن أكثره كان نتاج شعراء الأوس والخزرج ، أما المكيون وغير المكيين ممن ناصرُوا الدعوة فهم قلة نبغت بعد ظهور الإسلام ، ولم يكن لمعظمهم تاريخ شعري قبل ذلك يمكن أن يعول عليه ، وأشعارهم لا تكاد تذكر بالمقارنة مع شعراء كبار مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رَوَاحَة .

وثمة ظاهرة جديرة بالملاحظة ونحن نتحدث عن تمثيل شعر الأوس والخزرج لأحداث صدر الإسلام وقضاياها ، وهي أن الكثرة الكاثرة من الشعر في هذا العصر كانت في الخزرج

دون الأوس ، إذ لا تتجاوز أشعار الأوس في عصر صدر الإسلام عامة - فضلا عن عصر الرسول ﷺ - أبياتا معدودات .

ولا نجد للأوس في هذه المرحلة شاعرا معدودا أو قصيدة تذكر مثلما وجدنا لهم في العصر الجاهلي ، فقد استحوذت الخزرج في هذه المرحلة على الشعر وملكتم زمامه حتى لم تدع للأوس منه إلا أقله .

والحقيقة أن الأحداث المتوالية التي شهدتها الأوس في هذا العصر كافية لأن تجعل شعراء ينبغون فيهم ، فقد كانت أحداثا جساما غيرت وجه التاريخ ، ونقلت المسلمين نقلة نوعية واسعة ، غير أن قلة الشعر فيهم يمكن أن ترد إلى أمرين :

**الأول :** أن شعر الأوس لم يصل إلينا كاملا ، وضاع مع ما ضاع من دواوين القبائل ، إذ لا يعقل ألا يعبر الأوس عن أحداث كبيرة كأحداث العصر الإسلامي إلا بأبيات قليلة ، وقد كنا أشرنا - عند الحديث عن الشعر في الأوس والخزرج - أنه كان لهاتين القبيلتين ديوان شعر ذكره العلماء الرواة .

**الثاني :** أن الأوس لم يكن لها شاعر معدود مخضرم ، فشعراؤهم الثلاثة : قيس بن الخطيم وأحيحة بن الجلاح وأبو قيس بن الأسلت لم يسلموا ، ولم يظهر في هذه القبيلة شاعر كبير كهؤلاء ، وأن شعراء الخزرج الكبار : حسان بن ثابت وعبدالله بن رَوَاحَة وكعب بن مالك قد أسلموا ، فعبروا عن القضايا الإسلامية من خلال شعرهم الذي وصل إلينا مجموعا كديوان حسان ، أو شعرهم الذين أوردته المصادر المختلفة ، وجمعه باحثون محدثون كشعر كعب بن مالك وعبدالله بن رَوَاحَة ، وهو ما عوض عن شعر الخزرج الذي لم يصل إلينا ، وإلا فإن شعر الخزرج في غير هذه الدواوين الثلاثة قليل أيضا قلة شعر الأوس .

وقد تناولنا موضوعات شعر الأوس والخزرج في عصر صدر الإسلام على مرحلتين : الأولى عصر الرسول ﷺ ، والثانية عصر الخلفاء الراشدين . وتمثلت أشهر موضوعات شعر الأوس والخزرج في عصر الرسول ﷺ في: الدفاع عن الإسلام ، ونصرة النبي ﷺ ، ووصف غزواته ، وثناء الرسول ﷺ ، وثناء شهداء الإسلام ، وموقف القوم الجديد من العصبية . أما في عصر الخلفاء الراشدين فتمثلت موضوعات شعرهم في : موقفهم من الخلافة ، وموقفهم من فتنة عثمان ومقتله ، وموقفهم من حرب علي ومعوية رضي الله عنهما . وفي ما يأتي بيان لتلك الجوانب جميعها وصداها في شعر الأنصار .

## ١ - موضوعات شعر الأوس والخزرج في عصر الرسول ﷺ

### أ - الدفاع عن الإسلام ونصرة النبي ﷺ ووصف غزواته

لم تقتصر المواجهات بين المسلمين على الحرب العسكرية التي تعتمد على المواجهة المباشرة بن الطرفين ، بل لقد كان للحرب الكلامية أو الدعائية شأن كبير في ذلك العصر كما هو الحال اليوم . ويوضح لنا حسان بن ثابت الجبهتين اللتين كان يخوضهما المسلمون ضد المشركين وهما: جبهة كلامية دعائية ، وجبهة عسكرية حربية ، فيقول :

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ      سِيَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءٌ  
فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا      وَنَضْرِبُ حِينَ تَحْتَظِلُ الدَّمَاءُ<sup>(١)</sup>

ولقد كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقرظوا الشعر عند الحرب ، فمن شعرهم ما يكون قبلها حضا للمقاتلين ، ومنه ما يكون في أثنائها تحميسا لهم على الاستبسال ، ومنه ما يكون عقبها فخرا بالنصر أو رثاء للقتلى أو ردا على مقالة لعدوهم وتفنيدا لها . ولم تكن الحروب بين المسلمين والمشركين بمعزل عن ذلك كله ، إذ لم يقف الدين الجديد حائلا بين شعراء المسلمين وشعرهم في مواجهة المشركين ، وعليه فإن الشعر في صدر الإسلام عامة وشعر الأوس والخزرج خاصة لم يكن يقل شأنًا عنه في العصر الجاهلي ، ولا كان يقل في أثره عن آلة الحرب ، وذلك واضح من قول حسان حين قال :

لِسَانِي وَسَيْفِي صَارَ مَانِ كِلَاهُمَا      وَيَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السِّيفُ مِدْوَدِي<sup>(٢)</sup>

وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بزم الشعراء عامتهم ، فلقد استثنى منهم المنافحين عن الإسلام ورسوله العظيم ﷺ من مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وغيرهم من شعراء الأنصار والمهاجرين . وقد وجه الرسول ﷺ شعراء المسلمين إلى الرد على شعراء المشركين ، فكان توجيهه أول توظيف للشعر في خدمة الدعوة الإسلامية . وقد كان سبب ذلك أن المشركين لم يوظفوا الشعر في مواجهة الدعوة أول الأمر ، لأن المسلمين كانوا بين ظهرانيهم وتحت سيطرتهم يسومونهم سوء العذاب ، فما حاجتهم عند ذلك إلى الشعر في هجاء المسلمين ؟

<sup>(١)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٨ . ومعد: هو معد بن عدنان ، اسم حي غلب عليه التذكير مصروف ، وقد يطلق على القبيلة فيمنع من الصرف (انظر لسان العرب ، مادة "معد") . قال ابن دريد : واشتقاق معد من شينين : إما أن يكون مفعول من العدد ، فكأنه كان معدد فادغمت الدال ، وإما أن يكون من المعد ، وهو اللحم في مرجع كنف الفرس . قال الشاعر :

فإِذَا زَالَ سَرَجٌ عَنْ مَعَدٍّ      فَأَجْدِرُ بِالْحَوَادِثِ أَنْ تَكُونَا

انظر : ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٣٠-٣١ .

<sup>(٢)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٥ . ومذودي : لساني .

لكنهم حين خرجوا عن سيطرتهم بالهجرة ، وكونوا مجتمعاً كان فيه أكابر الشعراء ، أخذت قريش - خاصة بعد المواجهة العسكرية الأولى بين الطرفين في غزوة بدر - تلجأ إلى أي أسلوب يمكّنها من إيذاء الرسول ﷺ ، فتناقلت الركبان هجاء النبي ﷺ ودعوته وصحبه ، ونحن نعلم ما يمكن أن يخلفه الشعر من أثر كبير في النفس ، وخاصة إذا لجأ إلى الهجاء المقذع والتسفيه ، إذ كانت العرب تنتدر بأبيات الهجاء وترويه أكثر من غيرها ، ورأينا كيف كانت القبيلة تعير بيت شعر قاله شاعر في حالة غضب فصيرها سبة بين القبائل الأخرى ، والأمثلة على ذلك كثيرة<sup>(١)</sup> .

وقد تأذى الرسول ﷺ من ذلك الشعر الذي دُمَّ به هو ودعوته وأتباعه ، ودعا على بعض قائله ، وبلغ به الأمر أن أهدر دم عدد من الشعراء الذين نالوا منه ومن المسلمين .

يتبين لنا مما سبق أنه ﷺ لم يكن بعيداً عن الحرب الكلامية التي كان يخوضها الشعراء ضد أعدائهم من قريش وغيرها من القبائل العربية ، ومع أنه لم يرو الشعر ولم يقرظه كما صرح بذلك القرآن الكريم فقال تعالى : "وَمَا عَلَّمَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ"<sup>(٢)</sup> ، إلا أنه ﷺ كان يعرف قيمة هذا الشعر وتأثيره في أعداء الإسلام ، لذلك رأيناه يتابع مقولات الشعراء من المسلمين والمشركين ، ويستمتع لما كان ينشده حسان وكعب وغيرهما ، ويستتشد أصحابه ما قال المسلمون والمشركون من شعر .

ولم يكتف الرسول ﷺ بذلك ، بل كان يأمر شعراءه بالرد على هذا الشاعر أو ذاك ، واستتفر حساناً خاصة ، وباقي الشعراء للرد على شعراء المشركين ، فكان يقول لحسان : "اهْجُ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ جَبْرِيلَ مَعَكَ"<sup>(٣)</sup> ، ويقول له أيضاً : "إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ"<sup>(٤)</sup> .

وقد قام حسان وبقية شعراء المسلمين بهذه المهمة ، فوظفوا شعرهم في الرد على المشركين وتسفيه معتقداتهم وإعلاء كلمة الله . ويبين لنا الرسول ﷺ أن أثر الشعر في قريش لا

(١) كهجاء حسان بنو عبد المدان بطول الأجسام حين قال : لَا عَيْبَ بِالْقَوْمِ مِنْ طَوْلٍ وَلَا عِظَمٍ جَسْمُ الْبِغَالِ وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ وهجاء جرير بنو نمير حين قال يهجو الراعي النميري: فَعُضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا وهجاء الطرمّاح بن حكيم حين قال في بني تميم : تَمِيمٌ يَطْرُقُ اللَّؤْمُ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وهجاء الأخطل التغلبي بني كلب قوم جرير حين قال : قَوْمٌ إِذَا اسْتَبَحَّ الْأَضْيَافُ كَلَبَهُمْ قَالُوا لِأَمِّهِمْ بُوْلِي عَلَى النَّارِ ومثل ذلك كثير .

(٢) سورة يس ، الآية ٦٩ .

(٣) رواه البخاري ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

(٤) رواه مسلم ، باب فضائل حسان ، ج ١٢ ، ص ٢٨٤ .

يقول عن أثر السلاح الحربي فيقول محرضا شعراءه على هجاء قريش: "اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ"<sup>(١)</sup>.

ولم يكن في الإسلام أي حرج من هجاء العدو من خلال نسبته ، فقد كان النبي ﷺ يدعو الشعراء إلى تعرف نسب العدو لتلمس مثالبهم وهجائهم بها . وقد توعد حسان قريشا في حضرة النبي ﷺ فقال له : "وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأُفْرِيتَهُمْ بِلِسَانِي فَرِي الْأَدِيمِ"<sup>(٢)</sup> ، فيدعوه ﷺ إلى اللجوء إلى أبي بكر الصديق - وكان نسابة - ليلخص له نسبه من قريش قائلا له : لا تَعْجَلْ ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا ، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي"<sup>(٣)</sup>. ولم تكن الحرب تنتهي بين المسلمين والمشركين بتحاجز الفريقين ، إذ سرعان ما كانت تبدأ بين الفريقين حرب الشعر متمثلة غالبا في المناقضات التي تكون بعد انتهاء المعركة ، فتسير بها الركبان لتصل إلى شعراء الفريقين ، ويجتهد كل فريق في تنفيذ مقالة الآخر وينقضها . وإذا كان الشاعر الجاهلي قد هجا كل من مس قبيلته بسوء فإن هذا الشاعر بعد إسلامه قد أخذ يهجو كل من تعرض للرسول ﷺ أو أصحابه أو للدعوة بأدنى سوء .

وأشد شعر على المسلمين هو الشعر الذي كان يهجي به الرسول ﷺ خاصة ، ثم صحابته ، حتى بات من المؤكد أن ما وصل إلينا مما هُجي به رسول الله ﷺ وصحابته لا يتجاوز بضعة أبيات بعد أن ترك كثير من المؤرخين والرواة رواية مثل هذا الشعر<sup>(٤)</sup>. وقد كان حسان بن ثابت رأس شعراء الأنصار المدافعين عن شخص الرسول ﷺ ، فنجده يرد على أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، ويهجو هجاء مرا لما كان قد نال من رسول الله ﷺ في هجائه فيقول :

أَلَا أَبْلَغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي	مُغْلَغَلَةٌ فَقَدْ بَرَحَ الْخَفَاءُ
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَّتْكَ عِبْدًا	وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتْهَا الْإِمَاءُ
هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ	عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفَاءٍ	فَشَرُّكُمْ لَخَيْرُكُمْ الْفِدَاءُ
هَجَوْتُ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا	أَمِينَ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ	وَيَمْدَحْهُ وَيَصْرُءُ سَوَاءُ ؟

(١) المصدر نفسه ، والحديث نفسه .

(٢) رواه مسلم في باب فضائل حسان ، ج ١٢ ، ص ٢٨٤ . ولأفريتهم : لأقطعهم ، والأديم : الجلد .

(٣) المصدر نفسه ، والحديث نفسه . كذا هي الرواية (يخلص) ، قال صاحب تاج العروس : "والتلخيص : التبيين والشرح ... قيل : التلخيص التلخيص" ( انظر تاج العروس ، مادة "لخص").

(٤) انظر بعض الإشارات إلى إسقاط مثل هذا الشعر أو إبدال كلمات منه عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٧٦٣ ، ٧٩٠ .

فَإِنْ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرَضِي لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ  
لِسَانِي صَارَ لَا عَيْبَ فِيهِ وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ<sup>(١)</sup>

ويبين لنا حسان أنه لا يلتبس من دفاعه عن رسول الله ﷺ سوى الأجر من الله ، وأنه لا يستوي من يمدح الرسول ﷺ ويهجوّه . وقد بلغ من حب الصحابة للرسول ﷺ أنهم كانوا يحبونه أكثر من أنفسهم ، ويفدونهم بأنفسهم وبأحب شيء عندهم ، لذلك نجد حسانا يجعل أعز شيء لديه ، وهو أباءه وعرضه ، دون عرض رسول الله ﷺ ، فالدفاع عنه ﷺ ضد من ناواه مقدم على كل شيء ، ومظاهر ذلك في شعر الأنصار كثيرة.

غير أننا نجد مظهرا جديدا في شعرهم حين تحولوا إلى الإسلام ، وذلك أنه من شدة حبهم لرسولهم ﷺ وجدنا أحدهم يلجأ إلى هجاء بعض أفراد قبيلته إذا آذى رسول الله ﷺ حتى لو كان مسلما . ففي زلة زلها حسان بن ثابت رضي الله عنه حين تسرع وقذف عائشة في حادثة الإفك المشهورة في غزوة بني المصطلق ثم تاب عن ذلك ، نجد عبدالله بن رَوَاحَةَ يقف له بالمرصاد مع أنه خزرجي مثله ، فيهجو حسانا ومن فعل فعله حين أقيم عليهم الحد فيقول:

لَقَدْ ذاقَ حَسَّانُ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ وَحَمْنَةُ إِذْ قَالُوا هَجِيرًا وَمِسْطَحُ  
تَعَاطُوا بِرَجْمِ الْغَيْبِ زَوْجَ نَبِيِّهِمْ وَسَخَطَةَ ذِي الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فَأَتَرَحُوا  
وَأَذَاوَ رَسُولَ اللَّهِ فِيهَا فَجُلُّوا مَخَازِي تَبْقَى عُمُومُهَا وَقُضُّوا  
وَصَبَّتْ عَلَيْهِمْ مُحْصَدَاتٌ كَأَنَّهَا شَابِيبُ قَطْرِ مِنْ دُرِّ الْمُزْنِ تَسْقَحُ<sup>(٢)</sup>

وتتردد في شعر الأنصار عامة مقولة نصرهم لرسول الله ﷺ وإيوائه وأصحابه حين قدموا المدينة مهاجرين . ولا نكاد نجد شاعرا منهم إلا ذكر ذلك ، لا يمتنون بذلك عليه وعلى أصحابه المهاجرين ، بل يوردونه في الغالب في موطن الفخر والتباهي بذلك، ويجعلون أوليتهم في تلك النصرة وذلك الإيواء ميزة لهم:

وَأَوَّلُ مَنْ آوَى النَّبِيَّ مُحَمَّدًا نَصَرْنَا وَأَوَيْنَا نَذْبُ وَنَنْصُرُ<sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> ديوان حسان ، ج ١ ، ص ١٨ . ومغلغلة : رسالة ، وبرج الخفاء : وَضَحَ الأمر (لسان العرب ، مادة "خفي") ، وقوله : "فَشَرَكَمَا لَخَيْرَكَمَا الْفِدَاءُ" ، قال السهيلي: في ظاهر هذا اللفظ شناعة ، لأن المعروف أن لا يقال: هو شرهما ، إلا وفي كليهما شر ، وكذلك شر منك ، ولكن سيبويه، قال: تقول: مررت برجل شر منك، إذا نقصن أن يكون مثله. وهذا يدفع الشناعة عن الكلام الأول. ونحو منه قوله عليه السلام: "شر صفوف الرجال آخرها"، يريد: نقصان حظهم عن حظ الصف الأول، كما قال سيبويه. ولا يجوز أن يريد التفصيل في الشر. انظر البغدادي ، خزنة الأدب ، ج ٩ ، ص ٢٣٧.

<sup>(٢)</sup> وليد قصاب ، ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص ١٤٣ . والهجير : الهُجْر ، وهو القول الفاحش ، وأترحوا : أحزنوا ، ومحصدات : سياط محكمة شديدة الفتل ، والشابيب : جمع شُؤبوب ، وهو الدفعة من المطر ، وتسفح : تسيل . و"حَمْنَةُ" الواردة في البيت الأول : هي حمنة بنت جحش بن رثاب الأسدية أخت زينب بنت جحش زوج رسول الله ﷺ ، ومِسْطَحُ : هو مسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، شهد بدرًا . وقد كان مسطح وحمنة ممن قذفوا عائشة مع حسان ، وجُلِدُوا حد القذف . انظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ١١٢٤ .

<sup>(٣)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٧٣ .



ويعرضون بالقبائل التي خذلت الرسول ﷺ ، خاصة قريشا التي أخرجته من مكة ، فيقول عبدالله بن رَوَاحَة في معرض مدحه للرسول ﷺ يعرض بقريش:

وَلَوْ سَأَلْتَ أَوْ اسْتَنْصَرْتَ بَعْضَهُمْ  
فِي جُلِّ أَمْرِكَ مَا آوَوْا وَلَا نَصَرُوا<sup>(١)</sup>

وقد نجد فخر الأنصار بنصرة الرسول ﷺ ودعوته في غير موطنها السوي ، كما في فخر الحُبَاب بن المنذر والنعمان بن العجلان الخزرجيين حين أرادا أن ينتزعا الخلافة من قريش ويجعلها في قومهما الخزرج فقالا ما قالاه<sup>(٢)</sup>.

وقد يخرج الفخر بذلك إلى أبعد من هذا ، ويصل الأمر ببعضهم إلى حد معاتبة الرسول ﷺ على أمر بدر منه رأوا فيه انتقاصا لحقهم ، كما فعل حسان حين عاتب الرسول ﷺ لما أعطى غنائم غزوة حُنَيْن لقريش وقبائل من العرب ولم يعط الأنصار شيئا ، فساء ذلك حسانا ، خاصة حين رأى ما أعطيت قبيلة سُليم ، فيقول في ذلك شعرا يتوجه به إلى الرسول ﷺ ، ويأخذ بتعداد مآثر الأنصار وجهادهم مع النبي ﷺ :

وَأَتِ الرَّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُؤْتَمَنٍ  
عَلَامَ تُدْعَى سُلَيْمٌ وَهِيَ نَازِحَةٌ  
سَمَاهُمْ اللَّهُ أَنْصَارًا بِنَصْرِهِمْ  
نُجَالِدُ النَّاسَ لَا نُبْقِي عَلَى أَحَدٍ  
فَمَا وَتَيْنَا وَمَا خِمْنَا وَمَا خَبَرُوا  
مِنَّا عِثَارًا وَكُلُّ النَّاسِ قَدْ عَثَرُوا<sup>(٣)</sup>

وقد كان شعراء الأنصار رداء للدعوة وصاحبها ، وكانوا رصدا لكل من حاول النيل من الإسلام ، بعد أن نسوا دين آبائهم و صار الإسلام والذب عن حماه همهم وغايتهم .

وقبل أن نعرض لدور شعراء الأنصار في الرد على المشركين أعداء الدين الجديد ، لابد من القول إن الشعراء أيضا قد انصرفوا إلى محاربة عدوهم الداخلي الذي يجول بينهم ، أعني المنافقين من بني قومهم الأوس والخزرج ومن يهود .

لم يكن الأوس والخزرج سواء في موقفهم من النبي ﷺ ودعوته ، إذ ثمة قوم دخلوا في الإسلام نفاقا وخوفا ، وكان في الأوس والخزرج كثير من المنافقين ، حتى عقد ابن هشام فصلا لهؤلاء فعدد منهم نفرا غير قليل<sup>(٤)</sup>.

<sup>(١)</sup> وليد قصاب ، ديوان عبدالله بن رَوَاحَة ، ص ١٥٩ .

<sup>(٢)</sup> انظر شعرهما عند الحديث عن موقف الشعراء من الخلافة ص ١٨٤ من هذه الدراسة .

<sup>(٣)</sup> ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٢٦٥ . وخمنا : من خام يخيم ، إذا نكص وجين ، وخام عن القتال : جبن عنه ، والخائم : الجبان ، وخاموا في الحرب ، إذا لم يظفروا بخير وضعفوا ( انظر لسان العرب ، مادة "خام" ) .

<sup>(٤)</sup> انظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٥٤٨ .

وقد كان لزاما على الشعراء أن يهجوا مثل هؤلاء ويكشفوا عنهم غطاء الخيانة ، لما يشكلون من خطر كبير على الدعوة يفوق خطر الأعداء الصرحاء ، فهم يعيشون بينهم ، ويشاركونهم حياتهم، ويصلون في مسجدهم ، ويحاربون عدوهم معهم ، وكم غدروا بهم وتخلفوا عن نصرتهم ونصرة نبيهم ﷺ !

والقرآن الكريم قد نبأ بأخبار هؤلاء في عشرات السور ومئات الآيات حتى باتوا معروفين للناس. ولم يكن شعراء الرسول ﷺ ليتذكروا مثل هؤلاء يعيشون فسادا في صفوف المسلمين دون أن يعرفوا حقيقتهم للناس ويهجوهم كما يهجون المشركين من قريش وغيرهم. فيذكر حسان أول شأن المنافقين في معركة بدر فاتحة المواجهات بين الإيمان والكفر ، ويقول مفتخرا بقومه ومعرفتهم بالمنافقين :

وَكَمْ رَدَدْنَا بِيَدِ دُونَ مَا طَلَبُوا أَهْلَ النَّفَاقِ وَفِينَا أَنْزَلَ الظُّفَرُ<sup>(١)</sup>

ويعز على حسان أن يكون في الأنصار منافقون ، لكن ذلك لا يردعه عن هجائهم ، لا يفرق في ذلك بين أوسي ولا خزرجي ، فقد انتقلت المعركة من كونها بين الأوس والخزرج في الجاهلية حتى صارت في الإسلام معركة بين الإيمان والكفر ، لذا فهو لا يألو جهدا في هجاء الضحَّاك بن ثابت الأشهلي الأوسي الذي كان يُتهمُ بالنفاق وحبُّ يهود<sup>(٢)</sup> فيقول فيه :

مَنْ مَبْلَغُ الضَّحَّاكِ أَنْ عُرُوْقُهُ أَعْيَتْ عَلَى الْإِسْلَامِ أَنْ تَتَمَجَّدَا  
أُحِبُّ يَهُدَانَ الْحِجَازِ وَدِينَهُمْ كَبَدَ الْحِمَارِ وَلَا تُحِبُّ مُحَمَّدًا<sup>(٣)</sup>

ويستمر حسان بن ثابت في هجاء هذا المنافق الذي ترك قومه ودينهم الحق ، وراح يهود أبناءه ، ولا يعترف به حسان فردا منهم لاتباعه ديناً مختلفاً مشوها لا يتفق والإسلام :

وَإِذَا نَشَأَ لَكَ نَاشِئٌ ذُو غِرَّةٍ فَهُ الْفُؤَادِ أَمْرَتُهُ فَتَهَوَّدَا  
لَوْ كُنْتَ مِثْلًا لَمْ تُخَالِفْ دِينَنَا وَتَبَعْتَ دِينَ عَتِكَ حِينَ تَشْهَدَا  
دِينًا لَعَمْرِي لَا يُوَافِقُ دِينَنَا مَا اسْتَنَّ آلٌ فِي الْقَضَاءِ وَخَوَّدَا<sup>(٤)</sup>

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٦٥.

(٢) انظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٥٥٤.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٩٢. ويُهدان : جمع يهود ، وكبد الحمار : أي يا كبد الحمار . قلت : أورد وليد عرفات صدر البيت الأول هكذا: (ألا أبلغ الضحَّاك أن عروقه) ، وهذا خطأ بَيِّن ، فصدر البيت على بحر الطويل ، والقصيدة على بحر الكامل ، والصواب في ذلك هو الرواية التي أثبتناها عن ابن هشام في سيرته حين روى : " من مبلغ الضحَّاك ... البيت " ، فاستقام بذلك البيتُ صدرا وعجزا والقطعة التي هو منها على بحر الكامل . وقد أحال وليد عرفات إلى رواية السيرة حين خرَّج هذه القطعة ، لكنه لم يشر إلى خطأ الرواية التي أثبتها هو من مخطوطات ديوان حسان .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص . ونشأ : نشأ ، خففت لضرورة الوزن ، وذو غرة : أي غريب ، لاختبر له في الحياة ، وفه الفؤاد : جاهل لا يبين ، وعتيك : هو عتيك بن النُّيهان الأشهلي الأوسي ، شهد بدرا واستشهد في أحد ، واستنَّ آل : اضطرب السراب ، كأنه يسيل (المعجم الوسيط ، مادة "ستن") ، وخوَّد : أسرع . قلت : ولفظ "عتيك" مصروف في الأصل ، ولا علة لمنعه من الصرف ، غير أن الشاعر صرفه لضرورة الوزن ، ومنع المصروف من الضرائر القبيحة ، والمقبول في ذلك هو صرف الممنوع على ما تقرَّر في كتب الضرائر .

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن دور شعراء الأنصار في الرد على المشركين وشعرائهم وجدنا قَدْرًا كبيراً من هذا الشعر قد تمثل في المناقضات التي أحدثتها المواجهات الحربية بين الطرفين . وقد أدت تلك المناقضات إلى ازدهار الشعر في قريش التي عرفت بقلّة شعرها قبل الإسلام كما أشار إلى ذلك ابن سلام<sup>(١)</sup>.

و قد كان لكل فريق شعراؤه ، فكان لقريش شعراء أشهرهم عبدالله بن الزبَعْرَى وضرار بن الخطاب وهُبَيْرَةُ بن أبي وهب وأبو سفيان بن الحارث وأبو عَزَّةَ الْجُمَحِي وغيرهم ، وكان للمسلمين شعراؤهم الذين اشتهر منهم من المهاجرين : عبدالله بن جحش وعثمان بن مَطْعُون وعبدالله بن حُذَافَة وصفية بنت عبد المطلب وغيرهم . أما شعراء الأنصار فكان أشهرهم حسان ابن ثابت وعبدالله بن رَوَاحَة وكعب بن مالك ، وكان لهؤلاء الثلاثة أثر كبير جدا في نصرته الإسلام والرد على المشركين. أما باقي شعراء المهاجرين والأنصار فكانوا مقلين ، ولم يكن أحد منهم بمستوى هؤلاء الثلاثة .

وللحديث عن غزوات الرسول ﷺ شأن يذكر في شعر الخزرج خاصة ، ولما كان أهل مكة على عدا دائم مع الدين الجديد ، كان من الطبيعي أن تتشب بينهم وبين أتباعه الحروب والمواجهات الحربية ، فخاض المسلمون مع الرسول ﷺ حروبا ضارية ضد قريش ومن سار في ركابها ، وكان الشعر في ذلك كله هو الناطق بمجريات كل حدث ، فوصف الشعراء كل غزوة غزاها الرسول ﷺ ، يفخرون ببلائهم فيها ، ويصفون أحداثها وصفا مستمدا في الغالب من المعاينة الحقيقية لها ، إذ لم يكن الشاعر في أحيان كثيرة إلا جزءا من المعركة أو الحدث ، لذلك رأينا عندهم دقة الوصف ، واستقصاء جوانب الصورة .

إن الوقائع التي جسدها الشعر بين المسلمين وقريش كثيرة جدا ، وشعر الأوس والخزرج فيها أكبر من أن يتناول في هذه الدراسة، وعليه فإننا سوف نتناول من هذه الوقائع وقعتين :وقعة انتصر المسلمون فيها على المشركين ، وهي غزوة بدر الكبرى ، ووقعة انهزموا فيها ، وذلك لنتبين المعاني المختلفة في كلتا الحالتين.

فمن أعظم الأحداث أثرا في انتشار الإسلام وتمكنه في الأرض غزوة بدر الكبرى التي عول المسلمون عليها كثيرا ، واجتهد فيها الرسول ﷺ في الدعاء وألح على ربه في طلب النصر، فكان يدعو قائلا : اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنَّ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٢) رواه الترمذي ، ج ٥ ، ص ٢٦٩ .

ولهذه الغزوة الأثر الكبير في تاريخ الإسلام ، فقد كانت أول صدام جدي بين المسلمين وقريش ، انتصر فيه المسلمون على الكفار وتجلّى فيه للمشرّكين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتفانيهم في نصره دينهم. وقد فرح المسلمون كثيراً بانتصارهم في تلك الغزوة التي كانت فاتحة النصر ، وسماها القرآن غزوة الفرقان ، لأن الله فرق بها بين الحق والباطل ، وأعز الإسلام وأذل الكفر بقتل صناديد قريش وأسّر كبرائهم على قلة عدد المسلمين وكثرة عدد قريش ، كما سُمّي كل من شهد بها بدرية ، وكان المسلمون يعتزّون بهذه التسمية ويفتخرون بها .

وكان الرسول ﷺ يجل كل من شهد بدرا ، ويتجاوز عن عورائه ، حتى لقد عفا عن حاطب بن أبي بلتعة الذي سرّب معلومات عسكرية لقريش وهو بدري ، وعندما قال عمر للرسول ﷺ: "إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلاضرب عنقه . فقال : أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم ، فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم" (١) .

ونستطيع أن نتبين بوضوح دور شعراء الخرج في التعبير عن معركة بدر الكبرى وغيرها من المعارك في ما كان يورده ابن هشام في سيرته عقب كل غزوة ، فقد كان يعقد عنوانا يورد فيه معظم ما قيل من شعر للأنصار وغير الأنصار على نحو لا يكاد يغادر فيه شيئاً من تلك الأشعار . وقد كانت أشعار الأنصار المتمثلة في شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة هي الأكثر عدّة من بين كل ما قيل من أشعار في غزوات الرسول ﷺ ، فشعرهم في ذلك لا يجاريهم في كثرته شعر المهاجرين ولا شعر غيرهم ممن اعتنقوا الإسلام من القبائل العربية الأخرى .

ومن أشهر قصائد حسان يوم بدر قصيدته التي يقول في أولها :

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكُثِيبِ      كَخَطِّ الْوَحْيِ فِي الرَّقِّ الْقَشِيبِ  
تَعَاوَرُهَا الرِّيحُ وَكُلُّ جَوْنٍ      مِنْ الْوَسْمِيِّ مُنْهَمِرٍ سَكُوبٍ (٢)

وكما نرى فإن الشاعر قد ابتدأ قصيدته بالوقوف على أطلال المحبوبة ، لكن وقوفه كان على استحياء ، إذ الذي يبدو أن هذه المحبوبة لم تعد ذات بال عند حسان بعد الإسلام ، وخاصة في هذا الموقف ، فهو لا يلبث أن يغادر هذا الطلل بعد ثلاثة أبيات ليدخل في الحديث عن لذة النصر في وقعة بدر التي لا تعدلها لذة ، منهايا الحديث على نحو قطعي بقوله :

(١) رواه البخاري ، ج ٣ ، ص ٧ .

(٢) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٨٢ . والوحي هنا : الكتابة ، والرق : الصحيفة البيضاء أو ما يكتب فيه ، وهو جلد رقيق ، والقشيب : الحديد أو الأبيض أو النظيف ، وتعاورها : تتعاورها حذفت التاء تخفيفاً . قال صاحب اللسان : تعاورت الرياح رسم الدار أي تداولته ، فمرة تهب جنوباً ، ومرة شمالاً ، ومرة قبلاً ، ومرة دُبُوراً (لسان العرب ، مادة "عور) ، وجَوْنٌ : أسود وأبيض ، وهو من الأضداد ، ولعل المراد هنا السحاب الأسود ، لأن السحاب الأبيض غير ممطر ، والوسمي : مطر أول الربيع .

وَرَدَّ حَرَارَةَ الصَّدْرِ الْكَنِيبِ

بَصِيقٍ غَيْرِ إِخْبَارِ الْكُذُوبِ

لَنَا فِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ<sup>(١)</sup>

فَدَعُ عَنْكَ التَّذَكُّرَ كُلَّ يَوْمٍ

وَخَبَّرْ بِالَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ

بِمَا صَنَعَ الْمَلِكُ غَدَاةَ بَدْرٍ

ولم يعد النصر في المعارك كما كان في الجاهلية ، يحققه الأبطال ، وينسب إلى الأفراد ، فقد تغيرت النظرة في ذلك العصر ، وأصبح النصر ينسب إلى الله تعالى مصداقا لقوله عز وجل: "وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ"<sup>(٢)</sup>. ولم يعد العدد والعدة مقياس الهزيمة أو النصر في هذه الغزوات ، إذ أصبح الإيمان والتوكل على الله والأخذ بالأسباب هي مقاييس النصر أو الهزيمة عند المسلمين عامة ، كمالم يعد للكثرة أو القلة كبير أثر في تحقيق النصر بعد وعد الله للمسلمين بقوله: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ" **آ** الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ"<sup>(٣)</sup>. وقد كان عدد المشركين في بدر ثلاثة أضعاف عدد المسلمين تقريبا حتى شبههم حسان بجبل حراء في كثرتهم وضخامة جيشهم بالنظر إلى عدد الجيوش في ذلك العصر ، فقال :

بَدَتْ أَرْكَائُهُ جُنْحَ الْغُرُوبِ<sup>(٤)</sup>

غَدَاةَ كَأَنَّ جَمْعَهُمْ حَرَاءٌ

إن هذا العدد الكبير من المشركين لم يكن ليُهْزَم لولا تأييد الله للمسلمين ، ومع ذلك كله فلم يأل المسلمون جهدا في الاستعداد للمعركة ، والاستبسال في ساح الجهاد ، حتى انجلت المعركة عن قتل صناديد قريش وكبرائها الذين غودروا صرعى في قليب بدر :

كَأَسَدِ الْغَابِ مُرْدَانٍ وَشَيْبِ

عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي رَهْجِ الْحُرُوبِ

وَكُلِّ مُجَرَّبٍ خَاطِي الْكُغُوبِ

وَعُنْبَةٍ قَدْ تَرَكْنَا بِالْجَبُوبِ

نَوِي حَسَبٍ إِذَا تُسِيُوا حَسِيبِ<sup>(٥)</sup>

فَلَا قِيْنَاهُمْ مِثْلًا يَجْمَعُ

أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدْ أَزْرُوهُ

بِأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مُرْهَقَاتٍ

فَغَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيْعًا

وَشَيْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا فِي رَجَالٍ

<sup>(١)</sup> المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٢.

<sup>(٢)</sup> سورة آل عمران ، الآية ١٢٦ .

<sup>(٣)</sup> سورة الأنفال ، الآيتان ٦٥-٦٦.

<sup>(٤)</sup> ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٨٢ .

<sup>(٥)</sup> المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٢. والخاطي : الغليظ الصلب (لسان العرب ، مادة "خطا") ، والكُغوب جمع كعب ، وهو طرف الأثيوب الناشز ، وجمعه كُغُوب وكُعَابٌ ، والمراد به هنا الرمح (انظر لسان العرب ، مادة "كعب") ، والجبوب (يفتح الجيم) : وجه الأرض ، أو الأرض الغليظة (لسان العرب ، مادة "جيب") .

وعن ابن عمر قال : اطلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال : وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، فَقِيلَ لَهُ : تَدْعُو أَمْوَاتًا ، فَقَالَ : مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ" (١) ، وذلك قول حسان في نهاية القصيدة :

يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا      قَدَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ فِي الْقَلِيبِ  
أَلَمْ تَحْذُوا كَلَامِي كَانَ حَقًّا      وَأَمْرُ اللَّهِ يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ  
فَمَا نَطَقُوا وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا      صَدَقْتَ وَكُنْتَ ذَا رَأْيٍ مُصِيبٍ (٢)

وبالمقارنة بين الحديث النبوي الشريف وأبيات حسان الثلاثة لا نجد فرقا كبيرا بين قول الرسول ﷺ في الحديث وقول حسان ، إذ حرص حسان على تمثيل قوله ﷺ ، فنقل هذه الحادثة كما وقعت ، ونقل كلام الرسول ﷺ كما قاله دون تغيير في المعنى ، فالصدق في نقل الحدث عند وصف المعارك وحين انتهائها قد كان هو السمة الغالبة في هذا العصر إذا تجاوزنا بعض المبالغات ، لأن الدين الجديد قد علم الشعراء وغير الشعراء الصدق في القول والعمل ، فعج القرآن والسنة بالنصوص التي تدعو إلى الصدق حتى بات الكذب خطيئة كبيرة عند الناس عامة ، والشعراء خاصة الذين ذم القرآن الكريم أراذلهم ممن خالف قولهم فعلهم مخرجا منه صحابة رسول الله ﷺ الذائدين عن حمى الدين فقال تعالى : "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ☀️ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ" إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ" (٣) .

وفي غزوة بدر كثير من التفاصيل ، لكن الشاعر يغلب عليه تناول العموميات ، وتتمثل العموميات في هذه الغزوة في : النصر على المشركين ، وتأيد الله للمسلمين ، ومقتل صناديد الكفر وإقائهم في القليب ، والحديث عن الأسرى. وقد يتناول الشاعر بعض التفاصيل التي تقع في المعركة، رغبة منه في سرد مجرياتها ، ففرار رجل من المعركة مثلا هو أمر طبيعي في أية معركة ، إذ الحرب كُرٌّ وفرٌّ ، لكن حسانا يجعل من فرار الحارث بن هشام حدثا كبيرا يعير به قريشا قاطبة إمعانا في وصف هزيمتها ، حتى يخيل للمرء أن قريشا كلها هي الحارث بن هشام الفار المنهزم ، وهذا نوع من الدعاية الإعلامية التي اتبعها الشعراء ولجؤوا فيها إلى المبالغة في تصوير الحدث لإضعاف معنويات أعدائهم :

(١) رواه البخاري في صحيحه ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

(٢) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٨٢ . وكباكب : من كبكب الشيء إذا ألقى بعضه على بعض ( انظر لسان العرب ، مادة "كيب" ) ، وانظر أيضا (جمهرة اللغة ، مادة "كيب" ) ، فقد ذكر فيها بيت حسان . والقليب : البئر .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤-٢٢٧ .

إِنَّ كُنْتُ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثْتَنِي      فَتَجَوْتُ مَنَجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ  
 تَرَكْتُ الْأَحْيَةَ أَنْ يُقَاتَلَ دُونَهُمْ      وَتَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ  
 لَوْلا إِلَالُهُ وَجَرِيهَا لَتَرَكْنَهُ      جَزَرَ السَّبَاعِ وَدُسْنَهُ بِحَوَامِي<sup>(١)</sup>

ومن الطبيعي أن يتحدث الشاعر عن القتلى والأسرى من أعدائه ، وما آل إليه أمرهم  
 من الذل والمهانة ، فالقتلى مصرعة في أرض المعركة معطلة الحواس ، والأسرى تساق  
 مشدودة الوثاق :

مِنْ بَيْنِ مَأْسُورٍ يُشَدُّ وَثَاقُهُ      صَقَرَ إِذَا لَاقَى الْأَسِنَّةَ حَامِي  
 وَمَجْدَلٍ لَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةٍ      حَتَّى تَرُودَ شَوَامِيخُ الْأَعْلَامِ  
 بِالْعَارِ وَالذِّلِّ الْمُبِينِ إِذْ رَأَى      بَيْضَ السَّيُوفِ تَسُوقُ كُلَّ هُمَامٍ<sup>(٢)</sup>

أما كعب بن مالك فقد تحدث عن بغي قريش في محاربتها رسول الله ﷺ ، وجمعها  
 القبائل من كل حذب وصوب لمقاتلته فيقول :

قَضَى يَوْمَ بَذْرِ أَنْ نُلَاقِيَ مَعَسِرًا      بَغَوًا وَسَيْلُ الْبَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرُ  
 وَقَدْ حَشَدُوا وَاسْتَنْقَرُوا مِنْ يَلِيهِمْ      مِنْ النَّاسِ حَتَّى جَمَعَهُمْ مُتَكَاثِرُ<sup>(٣)</sup>

وفي الحديث عن الحرب ذكر لمصير القتلى من الكافرين ، ووصف للنار التي أعدت  
 لهم :

فَأَمْسَوْا وَقُودَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا      وَكُلُّ كُفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرُ  
 تَلَطَّى عَلَيْهِمْ وَهِيَ قَدْ شَبَّ حَمِيهَا      بِزُبُرِ الْحَدِيدِ وَالْحِجَارَةِ سَاجِرُ<sup>(٤)</sup>

ويبين كعب أن سبب استحقاق هؤلاء القتلى النار هو تكذيبهم بالرسول ﷺ ودعوته حين  
 دعاهم إلى ربهم واتهامهم إياه بالسحر :

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا      فَوَلُّوا وَقَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ سَاحِرُ<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٩ . والطمرة: الفرس الطويلة القوائم المستعدة للعدو ، وقيل غير ذلك (انظر لسان العرب ، مادة "طمر") ، جزر السباع : أي قطع لحم لها (انظر لسان العرب ، مادة "جزر") ، والحوامي : عظام الحجارة وتقالها ، مفردها حامية (لسان العرب ، مادة "حمى") ، وهنا يشبه حوافر الخيل بالحجارة الثقيلة .

(٢) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٣٠ . ومجلد : صريع ، والأعلام : الجبال ، والهمام : السيد الشجاع العظيم الهمة .

(٣) ديوان كعب بن مالك ، ص ٤٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٤٧-٤٨ . وحميها : وقودها ، وزبُر: هي قطع الحديد ، أصلها زُبُر جمع زُبُرَة : سكنت ضرورة ، و وساجر : شديد الاشتعال .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٤٨

وبعد ، فليس لغير حسان وكعب من شعر في يوم بدر مما وصل إلينا ، وهنا نثبت ملاحظتين :

**الأولى :** نلاحظ هنا أنه لم يكن للأوس شعر في معركة بدر ، وقد كنا عرجنا على هذه الظاهرة في الصفحات السابقة .

**الثانية :** لم يكن لعبدالله بن رَوَاحَة شعر في غزوة بدر الكبرى ، مع أنه شهد بدرا والمشاهد كلها إلا فتح مكة ، لأنه استشهد في مؤتة قبل فتح مكة ، لكنه كان له شعر في أحد ومؤتة وبدر الآخرة وغيرها من أحداث الإسلام ، ولعل ذلك يعود إلى ضياع شعره وقلة ما وصل إلينا منه ، إذ لا يتجاوز شعره الإسلامي في مجموعه مئة واثنين وأربعين بيتا وشطرا ، ولا يعقل أن يكون هذا فقط هو شعر ابن رَوَاحَة طوال تلك السنين وطوال تلك الأحداث التي شهدها .

والغزوة الثانية التي نجد فيها قدرا كبيرا من شعر الأنصار هي غزوة أحد ، إذ بعد عام تقريبا من غزوة بدر الكبرى ، وفي النصف من شعبان في السنة الثالثة للهجرة أرادت قريش أن تثار لقتالها في بدر ، فخصصت جميع ما كان من مال في القافلة التي اعترضها المسلمون ليستعينوا به على حرب الرسول ﷺ ، فاجتمع لأبي سفيان بن حرب ثلاثة آلاف من قريش والأحابيش وعرب كنانة وتِهَامة .

دارت المعركة في منطقة أحد إحدى مواضع المدينة المنورة ، وكان هذا اليوم يوم محنة وبلاء ، إذ كان فيه النصر للمشركين. وقد تلقى المسلمون في هذه الموقعة أنفع الدروس وأبعدها أثرا في حياتهم المستقبلية إذ تسببت مخالفة الرماة أوامره عليه السلام في إلحاق الهزيمة بهم ، كما كشفت للمسلمين عن زيف إيمان المنافقين وعدم استعدادهم للتضحية بعد أن انخرل زعيم المنافقين عبدالله بن أبي بثلث الناس ، كما أطمعت الهزيمة في هذه الغزوة قريشا وغيرها من القبائل في جماعة المسلمين حتى استهانوا بهم ، وظنوا أنه من اليسير القضاء عليهم فحزبوا عليهم الأحزاب في غزوة الخندق .

وإذا انتقلنا إلى تعبير شعراء الأنصار عن هذه الغزوة فسنجد شعرا كثيرا. وتعود كثرة الشعر في هذه الغزوة إلى كثرة أحداثها وتنوعها ، ففيها جرح الرسول ﷺ ، فأصيبت ربايعته ، وشج في وجهه ، وكَلِمَتْ شفته ، وفيها استشهد عدد من أكابر الصحابة منهم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ ، ومصعب بن عمير ، وحنظلة الغسيل، وغيره ممن لم يدع الشعراء أحدا منهم إلا رثوه غير مرة في غير قصيدة .

وترد كثرة شعر الأنصار أيضا في هذه الغزوة إلى كثرة مناقضاتهم مع شعراء قريش ومن ناصرهم ، إذ لا نجد شعرا لقريش وحلفائها إلا وجدنا نقيضة له في شعر الأنصار . ولما



كان على شعراء قريش أن يستوعبوا هذا النصر الذي حققوه على المسلمين فقد تحدثوا عنه مجملا ومفصلا ، وكان رد الأنصار من جنس ذلك حتى وجدنا في شعرهم القصائد التي تتجاوز الأربعين بيتا كما نرى في شعر حسان وكعب خاصة . ولم يقتصر الشعر في هذه الغزوة على شعراء الخزرج : حسان وكعب وابن رَوَاحَة كما في غزوة بدر ، بل تجاوزهم إلى شعراء آخرين من الأوس والخزرج معا كعاصم بن ثابت الأوسي وأبي دُجَانَة سِمَاك بن خَرْشَة الخزرجي ، وأبي زُغْبَة الخزرجي وخُبَيْب بن عَدِيّ الأوسي .

وقد كان الشعر الذي وصل إلينا من هذه الغزوة على ضربين : ضرب قيل في أثناء المعركة وضرب قيل بعد انتهائها. أما ما قيل في أثناء المعركة فليس بكثير ، إذ يقتصر الشعر في هذه الحالة على ما يرتجز به المحاربون لحض المقاتلين على الجهاد . ويتميز ما يقرظ هنا بأنه قصير مرتجل يتناسب والظرف الذي يكون فيه المقاتل ، فهو منشغل بالحرب ، ولا وقت لديه للتطوير .

ومن هذا الضرب نجد أربعة أشطار لأبي دُجَانَة سِمَاك بن خَرْشَة الخزرجي الذي أخذ سيف رسول الله ﷺ بحقه ، وأبلى في أحد بلاء حسنا<sup>(١)</sup> ، وفي ذلك ويقول :

أَنَا الَّذِي عَاهَدَنِي خَلِيلِي  
وَتَحَنُّنُ بِالسَّقْحِ لَدَى النَّخِيلِ  
أَلَا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الْكَيْوُلِ  
أُضْرِبُ بِسَيْفِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ<sup>(٢)</sup>

وتبين لنا الأشطر السابقة على قصرها مبلغ حب الشاعر للرسول ﷺ ، وكيف حافظ على العهد الذي قطعه على نفسه حين أخذ السيف من الرسول ﷺ فقاتل به المشركين متقدما الصفوف . ومن الرجز في غزوة أحد في أثناء المعركة قول أبي زُغْبَة الخزرجي :

(١) انظر خبر ذلك عند ابن هشام ، السيرة النبوية ج ٢ ، ص ٨٤٦-٨٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٤٧ . والكَيْوُل : آخر الصفوف في الحرب ( لسان العرب ، مادة "كيل"). وقد جُزِمَ الفعل "أضرب" من غير جازم لضرورة الوزن ، وهذا نظير قول امرئ القيس بن حُجْر الكِنْدِيِّ ، وهو أحد شواهد سيبويه :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ      إِنَّمَا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلَ

انظر الشاهد والحديث عن ذلك عند البغدادي ، خزنة الأدب ، ج ٨ ، ص ٣٥٠ .

أنا أبوزُغْبَةَ أَعْدُو بِالْهَزَمِ  
لَنْ تُمْنَعَ الْمَخْرَأَةُ إِلَّا بِالْأَلَمِ  
يَحْمِي الدِّمَارَ خَزْرَجِيٌّ مِنْ جُشَمٍ  
قَدْ لَقَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمٍ<sup>(١)</sup>

فالشاعر يركض وسط المعركة ويتحرك في جنباتها وهو يصيح بالعدو يرعبهم بصوته ، وقد علم أنه لا يرد خزي الهزيمة إلا تحملُ الجراح أو التضحية بالنفس . ويفتخر الشاعر بأنه يحض قومه على القتال غير عابئ بما يصيبهم في سبيل الله مشبها نفسه بالراعي الذي يسوق الماشية دون رحمة بها. وينتسب الشاعر هنا إلى قومه الخزرج ، ثم إلى جُشَم أحد بطونها ، وليس في ذلك شيء من العصبية في نظري ما دام قوم الشاعر يدا على نصرته الرسول ﷺ ومعهم إخوتهم الأوس ، إذ في ذلك أيضا حفز لقومه وإخوتهم وشحذ لهمهم ، فورود اسم القبيلة في الرجز في أثناء الحرب يعد إيذانا بأنها المعنية ، وهذا يجعلها أشد ضراوة على العدو وأكثر إقداما وجرأة عليه .

أما الضرب الثاني من الشعر في غزوة أحد ، أعني الذي قيل عقب انتهاء المعركة ، فتمثل في شعر حسان بالدرجة الأولى ثم شعر كعب ثم قصيدة واحدة لعبدالله بن رَوَاحَةَ ، وتروى لكعب بن مالك ، ولا نجد لغير هؤلاء شعرا في غزوة أحد .

ومن شعر حسان في أحد مطولة له يبتدئها بالبكاء على شهداء أحد ، فيطلب من مي - التي قد تكون هنا رمز للمرأة ، أية امرأة - أن تندب قتلى أحد ، وتفعل فعل النائح اللواتي يُعولن ويخمشن وجوههن ، وينقضن شعورهن:

يَا مَيَّ قُومِي فَأَنْدُبِينَ بِسُحْرَةٍ شَجْوَ النَّوَاحِ  
كَالْحَامِلَاتِ الْوَقْرِ بِالثَّقْلِ الْمُخَاتِ الدَّوَالِ  
الْمُعُولَاتِ الْخَامِشَاتِ وَجُوءَ حُرَاتِ صَحَائِحِ  
وَكَأَنَّ سَيْلَ دُمُوعِهَا الْأَنْصَابُ تُخَضَّبُ بِالدَّبَائِحِ  
يَنْقُضْنَ أَشْعَارًا لِهِنَّ هُنَاكَ بَادِيَةَ الْمَسَائِحِ  
وَلَقَدْ أَصَابَ قُلُوبَهَا مَجَلٌّ لَهُ جُلْبٌ قَوَارِحِ

<sup>(١)</sup> انظر الرجز عدا الشطر الأخير عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٩٦٣ ، وانظرها كاملة عند الأسود الغندجاني ، فرحة الأديب ، تحقيق محمد علي سلطاني ، دار النبراس ، دمشق ، ١٩٨١ ، ص ٢٠٣ . ويرى الشطر الأخير للحطيم القيسي . والهزم : شدة الصوت . قلت : لعله يريد بأنه يتحرك وسط المعركة وهو يصيح على الأعداء . والذمار : ما لزمك حفظه مما وراءك . ويتعلق بك (لسان العرب ، مادة "ذمر") ، وسواق حطم : إذا كان قليل الرحمة للماشية يهشم بعضها ببعض ، انظر لسان العرب ، مادة "حطم" ، والمعنى هنا أنه يحطم الأعداء .

إِذْ أَقْصَدَ الْحَدَّثَانُ مَنْ كُنَّا نُرَجِّي إِذْ نُشَايَحُ  
أَصْحَابَ أَحَدٍ غَالَهُمْ دَهْرٌ أَلَمَ لَهُ جَوَارِحُ<sup>(١)</sup>

ويعزي الشاعر نفسه والمسلمين بأن الموت حق ، لا منجى منه ، فإن كان أقصد قوما وأبقى آخرين ، فإن واجب من بقوا هو البكاء على أصحاب المفاخر من أهل أحد . ونلاحظ أن الشاعر في هذا القسم من القصيدة قد أصبح هادئا يدعو إلى البكاء لا النواح بعد أن أفاق من هول الصدمة :

فَعَزَّأُونَا أَنَا نَقُولُ وَقَوْلُنَا بَرَحُ بَوَارِحُ  
مَنْ كَانَ أَمْسَى وَهُوَ عَمَّا أَوْقَعَ الْحَدَّثَانُ جَانِحُ  
فَلْيَأْتِنَا فَلْتَبْكِي عَيْنَاهُ لِهَلْكَانَا النَّوَافِحُ  
الْقَائِلِينَ الْفَاعِلِينَ ذَوِي السَّمَاحَةِ وَالْمَمَادِحِ<sup>(٢)</sup>

وتقتصر قصيدة حسان السابقة التي تقع في بضعة وأربعين بيتا على بكاء الشهداء دون أن يذكر فيها شيئا عن سير المعركة . ونجد أنه قد استهلك قدرا كبيرا من القصيدة في الدعوة إلى البكاء على الميت ، مشبها دموع النساء بالدماء المهرقة مما ذبح على النُصْب ، وذاكرا غير مظهر من المظاهر الجاهلية التي تكون في حال الموت .

ونحن إذا تأملنا أحاديث رسول الله ﷺ وجدنا عددا منها يرخص في البكاء على الميت حتى عقد بعض المحدثين كالترمذي والنسائي بابا بعنوان : "الرخصة في البكاء على الميت" <sup>(٣)</sup> . ويقصد بالبكاء حزن القلب وفيض الدمع من غير نوح .

أما النواح على الميت والإعوال وشق الجيوب وخمش الخدود فكل ذلك عادات جاهلية نهى الرسول ﷺ عنها حين قال : لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ <sup>(٤)</sup> ، وعن ابن عباس

<sup>(١)</sup> ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٤٥٠ . والنَّدْب : حسن الثناء على الميت ، والوَقْر بكسر الواو : الحمل ، وبالفَتْح : الثقل في الأذن ، والدَّوَالِح : جمع دالِح ، وهو المتنقل في مشيه من ثقل الحمل (لسان العرب ، مادة " دلح " ) ، والمسَانِح : جمع مَسِيحَة ، وهي الذَّوَابِة ، والمجل : التقرح أو القبح الذي يكون بين الجلد واللحم (انظر لسان العرب ، مادة "مجل" ) ، والجُلْب جمع جَلْبَة : وهي جُلَيْدَة تعلو الجرح (الصحاح ، مادة "جلب" ) ، والحدَثان : ثوب الدهر ، وهو ليس مثني ، ونشايح : نقائل .

<sup>(٢)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٥٠ . البَرَح : الشر والعذاب الشديد ، والبوارح : جمع بارح ، وهي الريح الحارة ، وجانح : مائل ومتباعد ، والنوافح : الكرماء الباذلون المال .

<sup>(٣)</sup> انظر الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ ، والنسائي ، سنن النسائي ، تحقيق عبد الله فتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ ، ج ٤ ، ص ١٩ .

<sup>(٤)</sup> رواه البخاري في صحيحه ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: النَّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّ النَّايَحَةَ إِنْ لَمْ تَنْبُ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ فَإِنَّهَا تُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا سَرَابِيلُ مِنْ قَطِرَانٍ ثُمَّ يُعَلَّى عَلَيْهَا بِدِرْعٍ مِنْ لَهَبِ النَّارِ (١) .

أما ما نراه في شعر حسان فهو مناقض تماما لما عليه الأحاديث المجوزة للبكاء وداخل في ما نهت عنه الأحاديث من النواح . ولا يستقيم لنا أن نخرج شعر حسان السابق في دعوته إلى ما نهت عنه الأحاديث بالقول مثلا : إن ذلك كان قبل النهي عن النياحة، لأن بعض أحاديث النهي عن النياحة ترد في تاريخها الزمني إلى بداية الدعوة الإسلامية حين بايع الرسول ﷺ النساء ، فقد روي عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : أَخَذَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ الْبَيْعَةِ أَنْ لَا نَنْوَحَ (٢). وأرى أن ورود الدعوة إلى النياحة وما تعلق بها من أفعال جاهلية في شعر حسان يمكننا تعليلها بأحد أمرين :

الأول : إن صح هذا الشعر لحسان بن ثابت فإنه يمكننا القول في تخريج ما ورد فيه من مخالفات تتنافى وتعاليم الدين بأن المصاب كان جلا في أحد ، ومن عادة المرء أن يذهل في حال المصيبة ، كما حصل عند وفاة الرسول ﷺ ، إذ لم يصدق عمر بن الخطاب أن الرسول ﷺ قد توفي ، فيذكره أبو بكر ويذكر الناس بقوله تعالى: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ" (٣) ، فيثوب ويثوبون إلى رشدهم ، فإذا كان ذلك قد حدث مع عمر ، وهو من قد علمنا ، فما بالنا بحسان الذي خاض في بعض أمور الجاهلية التي قدمنا الحديث مثل قصة الإفك التي جلد فيها حد القذف ، وتسرعه وقوله شعرا يعاتب الرسول ﷺ حين وزع الغنائم في حنين ولم يعط الأنصار ، فليس عجيبا إذن أن يصدر منه في حال الحزن والهلع مثل ذلك الذي ذكره في شعره .

وفضلا عن ذلك فإن يوم أحد قد استشهد فيه حمزة بن عبد المطلب ، وورد في قصيدة حسان السابقة مجموعة أبيات في بكائه وتعداد خصاله وفضائله ، وقد حزن الرسول ﷺ على حمزة في هذا اليوم حزنا شديدا حتى بلغ من حزنه عليه ومحبتة له أن صلى عليه سبعين صلاة (٤) ، وحين يرى نساء الأنصار يبكين قتلاهن ، كان يحض على البكاء عليه قائلا : "لَكِنَّ حَمْزَةَ

(١) رواه ابن ماجة في سننه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت ، ج ١، ص ٥٠٤ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، ج ١، ص ٢٢٧ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٤ .

(٤) رواه أحمد في مسنده ، ج ١، ص ٤٦٣ .

لَا بَوَاكِيَ لَهُ"<sup>(١)</sup> فتستجيب له نساء الأنصار وبيكين ، فلما رأى حسان ذلك منه ضاعف من وتيرة الحزن والرثاء على حمزة ، فقال ما قال. ونحن لا ننسى أن حسانا يظل شاعرا ، لكنه ليس كأحد من الشعراء ، إنه شاعر الرسول ﷺ الذي أيد بروح القدس ، ولم يدخل في قوله تعالى : "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ"<sup>(٢)</sup> .

**الثاني :** أن تكون الأبيات الأولى التي ذكرت فيها الدعوة إلى النياحة مما قاله حسان في الجاهلية ووصله بعد ذلك في الإسلام ، كما هو الحال في قصيدته قبل فتح مكة التي مطلعها :

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ قَالِجَوَاءُ إِلَى عَذَاءٍ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ

فقد ذكر فيها الخمر وهو يدافع عن الرسول ﷺ ويمدحه<sup>(٣)</sup>. ومع أنني لم أجد من أشار إلى هذا الأمر في قصيدة حسان التي نحن بصددھا ، إلا أن ما ذكرناه يظل وجهة نظر جديرة بالتأمل وثمة تخريج ثالث نفرض فيه أن هذه القصيدة لا تصح لحسان بن ثابت اعتمادا على قول ابن هشام في سيرته : "وأكثر أهل العلم ينكر هذه القصيدة لحسان"<sup>(٤)</sup>.

وفي نظري أن قصيدة حسان هذه ، وخاصة الأبيات الخمسة الأولى منها ، تتشابه إلى حد كبير مع الأبيات الخمسة الأولى من قصيدة أمية بن أبي الصلت في رثاء قتلى المشركين في بدر، وليس من المستبعد في رأيي أن تكون أبيات حسان الأولى تنتمي لقصيدة أمية بن أبي الصلت ، إذ تصلح أن تتخللها ، وتبنى عليها ، فقد جاء في الأبيات الخمسة الأولى من قصيدة ابن أبي الصلت :

أَلَا بَكَيْتِ عَلَى الْكَرَامِ بَنِي الْكَرَامِ أُولَى الْمَمَادِحِ  
كَبُكََا الْحَمَامِ عَلَى فُرُوعِ الْأَيْكِ فِي الْغُصْنِ الْجَوَانِحِ  
يَبْكِينَ حَرَى مُسْتَكِينَاتٍ يَرُحْنَ مَعَ الرِّوَائِحِ  
أَمْتَالُهُنَّ الْبَاكِيَاتُ الْمُعْوَلَاتُ مِنَ النَّوَائِحِ  
مَنْ يَبْكُهُمْ يَبْكِي عَلَى حُزْنٍ وَيَصْدُقُ كُلُّ مَادِحٍ<sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> رواه ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٥٠٧ .

<sup>(٢)</sup> سورة الشعراء ، الآية ٢٢٤ .

<sup>(٣)</sup> انظر تفصيل الكلام في ذلك عند وليد عرفات ، ديوان حسان ج ١ ، ١٩ ، وج ٢ ، ص ٥ .

<sup>(٤)</sup> ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٩٤٧ .

<sup>(٥)</sup> بهجة الحديثي ، أمية بن أبي الصلت : حياته وشعره ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط ٢ ، ١٩٩١ ، ص ١٦٧ . قوله : من يبكهم بيك ... كذا هي رواية ابن هشام في السيرة النبوية ، ج ٢ ، ٧٨٩ ، وأثبت جامع ديوان أمية بن أبي الصلت بهجة الحديثي ، ص ١٦٨ الرواية "من يبكهم بيك" ، وقد أثبتنا رواية السيرة (بيكي) ليستقيم الوزن ، وهي الأصح ، إذ على رواية الديوان يدخل الكامل الخبث (حذف التاء من متفاعلن) ، والخبث غير جائز في الكامل .

فهذه الأبيات كما نرى شبيهة إلى حد كبير بأوائل قصيدة حسان ، وتصلح أن تكون جزءا منها ، فموضوع القصيدتين واحد ، وهو الرثاء ، فضلا عن أنهما متفقتان في الوزن والقافية ، كما يمكن أن تكون قصيدة حسان من باب المعارضة لقصيدة أمية بن أبي الصلت ، ومن المعلوم أن المعارضات كثيرا ما تتضمن معاني وألفاظا متشابهة ، ويأخذ اللاحق فيها من معاني السابق .

أما قصيدة كعب في أحد وتقع في تسعة وأربعين بيتا ، فقد تناول فيها الواقعة خطوة خطوة ووصف لنا مشاهد منها كأننا نعاينها . بدأ كعب قصيدته بالفخر بقومه وبنصرتهم لرسول الله ﷺ والحديث عن تجهز قريش لغزو المسلمين وموقف الأنصار المتماسك وعدم خشيتهم مما تخطط له قريش ، فيقول :

أَلَا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا وَدَوْنَهُمْ      مِنْ الْأَرْضِ خَرَقٌ سَيْرُهُ مُتَنَعِعٌ  
وَأَنَا بِأَرْضِ الْخَوْفِ لَوْ كَانَ أَهْلُهَا      سَوَانًا لَقَدْ أَجَلُّوا بَلِيلَ فَأَقْشَعُوا  
إِذَا جَاءَ مَنَا رَاكِبٌ كَانَ قَوْلُهُ      أَعِدُّوا لِمَا يُزْجِي ابْنَ حَرْبٍ وَيَجْمَعُ  
فَلَوْ غَيْرُنَا كَانَتْ جَمِيعًا تَكِيدُهُ الْبَرِيَّةُ قَدْ أَعْطُوا يَدًا وَتَوَرَّعُوا<sup>(١)</sup>

ثم يبدأ كعب بالحديث عن المعركة من لدن الاستعداد لها حتى انتهائها ، وكأنه ينقل لنا بثا حيا مشاهدا عن أحداثها ، فقصيدته هذه تكاد تضاهي في تفصيلاتها السرد النثري الذي ورد في كتب السير ، بل ربما تفوقه بما تورد من صور وتفاصيل لا نجد لها هناك ، خاصة أن الشاعر قد خاض هذه المعركة وخبرها وخبر كل دقائقها ، بل أبلى فيها بلاء حسنا حتى جرح بضعة عشر جرحا على ما أورد الواقدي<sup>(٢)</sup>.

ويتناول كعب - بعدما فخر بقومه ووقفهم مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة - الأسس التي بُيِّنَ عليها المقاتل في عهد الرسول ﷺ ، وأول هذه الأسس هو طاعة الله ورسوله ﷺ في كل شيء . ويبين كعب مدى طاعة المسلمين للرسول ﷺ ومكانته ﷺ في نفوس أصحابه فيقول :

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَّبِعُ أَمْرَهُ      إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لَا نَنْتَطِعُ<sup>(٣)</sup>

(١) ديوان كعب بن مالك ، ص ٥٨. والخرق : الفلاة الواسعة، سميت بذلك لأن خرق الريح فيها وتخللها إياها، والجمع خُرُوقٌ ( انظر لسان العرب ، مادة "خرق" ، ومتنوع : متباعد) انظر لسان العرب ، مادة "تبع" ) ، وأقشعوا : تفرقوا ، وابن حرب : أبو سفيان بن حرب بن أمية ، وتورعوا : خافوا .

(٢) الواقدي ، المغازي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢٦٠.

(٣) ديوان كعب بن مالك ، ص ٥٩ . و"لانتطع" ، أي لا ننظر إلى قول سواه .

فقلوه ﷺ لا يمكن إلا أن يسمع ، وأمره لا يمكن إلا أن يطاع دون جدال أو ريبة فيه ، إذ هو في نظرهم ليس قائدا عاديا وإن كان بشرا ، بل هو قائد رسول ينتزل عليه وحي السماء يوجهه في كل خطوة يخطوها :

تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ يُنْزِلُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ<sup>(١)</sup>

ثم يتحدث كعب عن الإعداد النفسي للمحاربين الذي كان رسول الله يقوم به قبل كل معركة، فهو ﷺ يدعوهم إلى الزهد في الحياة ، وبيع النفس لله ، والتوكل عليه، ويهون عليهم الموت :

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا بَدَّوْا لَنَا دَرُّوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا  
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الْحَيَاةَ تَقَرُّبًا إِلَى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ وَيُرْجَعُ  
وَلَكِنْ خُذُوا أَسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعُ<sup>(٢)</sup>

بعد مرحلة الاستعداد النفسي السابقة التي يدخل فيها أيضا التوكل على الله ، يمضي كعب في بيان سير المعركة ، ومن الطبيعي أن تكون الخطوة اللاحقة هي السير إلى العدو بالسيف ، ومن يسير في هذا الدرب يكون قد أكمل الاستعداد العسكري ، وليس بنا حاجة لأن نتحدث عن استعداد القوم العسكري ، فهم في حرب مذ خلقوا . ويسير المسلمون إلى المشركين ضحىً آخذين أهبتم النفسية والعسكرية متوكلين على الله ، لا تبدو عليهم آثار الخوف أو الذلة :

فَسِرْنَا إِلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي رَحَالِهِمْ ضَحِيًّا عَلَيْنَا الْبَيْضُ لَا نَتَخَشَّعُ  
بِمَلْمُومَةٍ فِيهَا السَّنُورُ وَالْقَنَا إِذَا ضَرَبُوا أَقْدَامَهَا لَا تَوَرَّعُ<sup>(٣)</sup>

ثم يشرع كعب بالحديث عن عدد الجيش ، فيشبه جيش المشركين من قريش ومن شايعها من العرب والأحابيش بموج البحر في كثرتة ، ثم يصرح أن عدد هذا الجيش كان ثلاثة آلاف مقاتل ، أما جيش المسلمين فيذكر كعب أنهم كانوا سبعمائة رجل على الأكثر :

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطُهُ أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْتَعُ  
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَتَحْنُ نَصِيَّةُ ثَلَاثُ مِئِينَ إِنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعُ<sup>(٤)</sup>

(١) المرجع نفسه ، ص ٦٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٠ . والمنيات : جمع منية ، وهي الموت ، واطمَعُوا : أي في ثواب الله والجنة .

(٣) ديوان كعب بن مالك ، ص ٦٠ . وَضَحِيًّا : تصغير ضحى ، ولا نتخشع : لا نخاف ، وملمومة : كتيبة مجموعة ، والسنور : الدرع التي تغطي كامل الجسم وغيرها من لباس الحرب ، والقنا : الرماح ، ولا تَوَرَّعُ : لا تتورع ، أي لا تخاف .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٦٠ . وحاسر : كاشف عن رأسه ، ونصية : أشراف القوم وسادتهم ، وقوله : " ثَلَاثُ مِئِينَ إِنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعُ " ، يعني ثلاثمائة وأربعمائة ، أي سبعمائة ، وهو عدد المسلمين في أحد . وأحابيش : نسبة إلى حُبَشِي ، وهو جبل بأسفل مكة ، يقال منه سمي أحابيش قريش ، وذلك أن بني المصطلق وبني الهون بن خزيمه اجتمعوا عنده فحالفوا قريشا ، وتحالفوا بالله إنا ليد على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار وما أُرْسَى حُبَشِي مكانه ، فسَمُوا أحابيش قريش باسم الجبل ، والتحبش : التجمع ، وحبش الشيء جمعه (انظر لسان العرب ، مادة "حبش") .

ويرمي كعب من ذكر عدد جيش المسلمين وجيش المشركين إلى بيان الفارق بين الطرفين في العدد ، ليعتذر للعرب كافة عما حل بجيش المسلمين من هزيمة ، مع أنه في قرارة نفسه يعلم علم اليقين أن ذلك لم يكن هو السبب المباشر للهزيمة في أحد ، لكنه يخاطب قوما لا يؤمنون بالله ، لذلك رأيانه يتحدث بمقاييس قبلية . ومن دراستنا لتاريخ غزوة أحد نجد أن جيش المشركين كان أربعة أضعاف جيش المسلمين ، لكننا من نظرنا في حروب الإسلام كافة نجد أن مثل هذا الفارق في العدد لم يكن يوما ليقف حائلا بين المسلمين والنصر في أية غزوة غزوها أو حرب خاضوها . ويحاول كعب في الأبيات اللاحقة وهو يتحدث عن التحام الجيشين أن يبين أن الحرب بين الطرفين كانت سجالا :

تُغَاوِرُهُمْ تَجْرِي الْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا      تُشَارِعُهُمْ حَوْضَ الْمَنَايَا وَتَشْرَعُ  
فَلَنَلْنَا وَنَالَ الْقَوْمُ مِنَّا وَرَبُّمَا      فَعَلْنَا وَلَكِنْ مَا لَدَى اللَّهِ أَوْسَعُ  
وَدَارَتْ رَحَانَا وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ      وَقَدْ جُعِلُوا كُلٌّ مِنَ الشَّرِّ يَشْبَعُ  
تَهَادَى قِسِي النَّبْعِ فِينَا وَفِيهِمْ      وَمَا هُوَ إِلَّا الْيَثْرِيُّ الْمُقْطَعُ<sup>(١)</sup>

لكنه يتجاوز ذلك حين يبدأ برسم صورة جديدة للمعركة بعيدة كل البعد عن السجال الذي طالعنا به في الأبيات الأنفة ، ولو لم نقرأ تاريخ غزوة أحد واعتمدت على هذه القصيدة لما شككت لحظة في أن النصر كان حليف المسلمين ، وليس كذلك ، إذ من عادة الشعراء من لدن العصر الجاهلي أن يفخروا بشجاعتهم في المعركة حتى في حال الهزيمة ، لما في ذلك من رفع لمعنويات الجند وتفويت الفرصة على العدو من أن يشمت بهم ، فيروح كعب يبين لنا كيف استقبل المسلمون جيش المشركين ، فقتلوا سرائهم ، ولاذ بالفرار بقيتهم سراعا ، ورجع المسلمون بطاء يمشون مشي الأسود المطمئنة :

فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرَّحَى      وَلَيْسَ لِلْأَمْرِ حَمَّةُ اللَّهِ مَدْفَعُ  
ضَرْبَانَهُمْ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَائَهُمْ      كَأَنَّهُمْ بِالْقَاعِ خُشْبٌ مُصَرَّعُ  
لَدُنْ غُدُوَّةٍ حَتَّى اسْتَفْقْنَا عَشِيَّةَ      كَأَن ذُكَّانَا حَرُّ نَارٍ تَلْفَعُ  
وَرَاخُوا سَرَاعًا مُوجِفِينَ كَأَنَّهُمْ      جِهَامٌ هَرَاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مَقْلَعُ  
وَرُحْنَا وَأَخْرَانَا بِطَاءٍ كَأَنَّا      أُسُودٌ عَلَى لَحْمٍ بَبِيضَةٍ ظَلَعُ<sup>(٢)</sup>

(١) ديوان كعب بن مالك ، ص ٦١. ونغاورهم : نبادلهم الغارة ، أي الكر في الحرب ، ونشارعهم : من الشريعة ، وهي الماء الذي يشرب ، وتهادى : تتبادل القسي الهدايا ، ويريد بها هنا الضربات ، والنبع : شجر تصنع منه القسي صلب العود ، واليثرى : الوتر من صنع يثرى (المدينة).

(٢) ديوان كعب بن مالك ، ص ٦١. وحمة الله : قدره وقضاه ، وسرة القوم : أسيادهم ، والقاع : المنخفض المطئن من الأرض ، والمصرع : المفتول الذي لقي مصرعه ، وذكنا : اشتعال نار الحرب بيننا ، وتلفع : تتلفع ، أي تحرق من دنا منها ، وببيشة : واد كثير الشجر من أودية تهامة ، وببيشة السماوة مأسدة معروفة (الروض المعطار ، مادة "بيشة") ، وظلع : جمع ظالع ، من ظلع في مشيته ، إذا عرج . ولعله يريد هنا أن الأسود نتناقل في مشيتها إذا شبت من فريستها ، فكانها تظلع ( انظر ديوان كعب بن مالك ، ص ٦١ ).



## ب - الرثاء

اختفى الرثاء القلبي أو كاد في عصر صدر الإسلام ، وحل محله الرثاء الديني ، فقد أخذ الشاعر لا يقتصر على رثاء من مات عشيرته الأقربين ، بل تعدى ذلك إلى رثاء الشهداء الذي قضاوا في نصرة الإسلام ورثاء إخوته في الله الذين لا تربطهم به أية صلة قرى أو نسب إلا صلة العقيدة والأخوة في الدين . والشهادة مفهوم جديد يطالعنا في شعر الأوس والخزرج أحدثه الدين الجديد ، واعتنى بإبراز أهميته بين من دانوا بالإسلام . وقد حفل القرآن الكريم بالحديث عن الشهداء ومنزلتهم العظيمة عند الله تعالى يوم القيامة ، كما أبرزت عشرات الأحاديث النبوية الشريفة كثيرا من الجوانب التي تتعلق بالشهيد والشهادة مرسخة بذلك هذا المفهوم في أذهان المسلمين قديما وحديثا .

ونجد الصحابة لا يحرصون في حروبهم على شيء أكثر من حرصهم على الشهادة ، حتى رأينا منهم من يحزن إذا ما مات على فراشه مثل خالد بن الوليد ، ويفرح إذا رزقه الله الشهادة كعلي بن أبي طالب ، ويعدُّ ذلك فوزا عظيما . وشعر الأوس والخزرج في صدر الإسلام لم يكن بمنأى عن ذلك ، فقد وجدنا شعرا كثيرا في ذلك مداره بكاء الشهداء ، وبيان مآلهم يوم القيامة ومنزلهم في الجنة ، كل ذلك والشعراء يمتحون من المعاني التي ترددت في القرآن الكريم والحديث الشريف كونهما المصدرين الوحيين اللذين أوردا هذه المعاني . ولم يكن شعراء الأوس والخزرج في تعبيرهم عن الشهيد والشهادة بعيدين عن ميدانها ، بل لقد رأوا ميادينها بأعينهم في مشاركاتهم في غزوات الرسول ﷺ ، وسمعوا بأذانهم أقواله في حق الشهداء ، وكيف تمنى هو نفسه ﷺ الشهادة ، وأن يقاتل في سبيل الله فيقتل غير مرة .

إن خير من تناول الحديث عن الشهادة من شعراء الأنصار عبد الله بن رَوَاحَة ، عبر عنها قبل أن يسير إلى الحرب ، وعبر عنها بعد وصوله ساح المعركة ، وعبر عنها قبل استشهادها بلحظات . حين سار ابن رَوَاحَة إلى مؤتة كان يتنازع إحساس بأنه لن يرجع ، كعادة الصحابة ، وقد كان الناس يودعونهم حين خروجه إلى أرض الشام لقتال الروم في غزوة مؤتة ، ويدعون له بالسلامة ، لكن أمله في الشهادة التي طالما تمنّاها هو وإخوته كان كبيرا ، إنه يسأل الله الشهادة صادقا ، فهي سبيل الرشاد :

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً      وَضَرْبَةَ ذَاتِ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا  
أَوْ طَعْنَةَ بِيَدِي حَرَّانَ مُجَهَّزَةً      بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ لِأَحْشَاءِ وَالْكَفْدَا  
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَّتِي      أُرْشِدَهُ اللَّهُ مِنْ غَارٍ وَقَدْ رَشَدَا<sup>(١)</sup>

(١) د. وليد قصاب ، ديوان عبد الله بن رَوَاحَة ، ص ١٤٧ . والفَرغ : مخرج الماء من الدلو ، يريد ضربة يكون أثرها كالفرغ في السعة ، وحرَّان : هو العطشان ، ويعني به هنا المتعطش لدمه ، والجدت : القبر .

في الأبيات الثلاثة السابقة دعوات للشاعر يدعو بها الله تعالى آملا أن تتحقق له : إنه يسأله المغفرة ، ويسأله ضربة سيف قاضية ، أو طعنة حربة تخترق أحشاءه وكبدته ، كما يرجو أن يذكره الناس ويدعوا له بالخير ، تلك هي أمنيته ، ولأنه يطلب الشهادة صادقا بلغه الله منازل الشهداء ، ليس على فراشه ، بل في ساح الوغى .

ولأن المقبل على الموت من شأنه أن يزهد في كل شيء ، إذ ليس بعد نفسه ما يمكن أن يكون ذا قيمة ليحرص عليه ، فإن ابن رَوَاحَةَ حريص كل الحرص على عدم الرجوع إلى أهله ، والبقاء في أرض الشام ثاويا في الشهداء ، فليس يبالي بشيء من متاع الدنيا ، ولا يطلب من ناقلته إلا أن توصله إلى أرض الشام :

إِذَا أُدِّيْتِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي      مَسِيرَةَ أَرْبَعِ بَعْدَ الْحِسَاءِ  
فَسَأَلْتُكَ أَنْعَمَ وَخَلَائِكَ دَمٌ      وَلَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي  
وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ وَغَادَرُونِي      يَأْرُضُ الشَّامُ مُشْتَهِيَ الثَّوَاءِ  
هُنَالِكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ بَعْلٌ      وَلَا نَخْلٍ أَسَافِلُهَا رِوَاءِ<sup>(١)</sup>

ويعبر عبدالله بن رَوَاحَةَ قبل أن يموت عن خلجات نفسه المترددة وهو يرى الموت رأي العين ، إنه يقسم عليها أن تبشر أسباب الموت وتنزل عليه:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ  
لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرِهَنَّ  
أَنْ أَجْلِبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّتَّةَ  
مَالِي أَرَاكِ تَكْرِهِينَ الْجَبَّةَ  
قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتُ مُطْمَئِنَّةً  
هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْقَةٌ فِي شَنَّةٍ<sup>(٢)</sup>

قد سمعنا كثيرا بمن يحض غيره على الموت ، لكننا لم نسمع من حض نفسه على اقتحام ساحات الموت غير ابن رَوَاحَةَ . قد يُظَنُّ أننا نبتعد كثيرا إذا قلنا إن شعره ذاك يمثل نوعا

<sup>(١)</sup>المرجع نفسه ، ص ١٥١ . والخطاب هنا للناقة ، والحساء : اسم موضع في الأردن قرب مدينة الطفيلة ، وخلاك دم : فارقك الذم ، ولا أرجع : مجزوم على الدعاء ، أي اللهم لا أرجع (أي لاترجعني). انظر المبرد ، الكامل في الأدب ، ج ١ ، ص ٢١١ ، والثواء : الإقامة ، والبعل: كل شجر أو زرع لا يسقى إلا بماء المطر (انظر لسان العرب ، مادة "بعل") ، ومعنى البيت الثالث أنه لا يفكر في مال ولا زرع إذا رُزِقَ الشهادة . قلت : أورد وليد قصاب كلمة "رواء" في البيت الأخير مضبوطة بالكسر ، ثم قال في حاشية رقم (٤): "ورواء" (بكسر الهمزة) صفة النخل (انظر ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص ١٥١) ، لكنه ترك كلمة "أسافلها" المرفوعة دون تخريج ، وليس من وجه مقبول لها عند ضبط "رواء" بالكسر ، ولعل الصواب في ضبطها هو ما جاء عند ابن هشام (السيرة النبوية ، تحقيق نخبة من العلماء ، دار الفكر ، القاهرة ، ج ٣ ، ص ١٢٠٤) ، إذ ضبطت هناك بالرفع مع أن القصيدة مكسورة ، وعلى ذلك ففي هذا البيت إقواء ، وهو مالم يشر إليه محققو سيرة ابن هشام . ويخرج وجه الرفع بأن تكون "أسافلها" مبتدأ ، "ورواء" خبرا ، وجملة "أسافلها رواء" نعتا لـ نخل في محل جر .

<sup>(٢)</sup>وليّد قصاب ، ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص ١٥٣ . وأجلب الناس ، من الجلبة ، وهي الصياح واختلاط الأصوات ، والرنة : صوت فيه ترجيع يشبه البكاء ، والشنة : القرية البالية .

من الرثاء ،إنه رثاء للنفس وهي متيقنة من الموت،وتعزية لها وهي مدبرة عن الفناء ومقبلة على الحياة ، ليس بينها وبين الخلود سوى لحظة ، ثم تتال الخلود الذي طالما حلم به البشر. لم يدع ابن رَوَاحَةَ أي خيار لنفسه ، فهي إما أن تموت طوعا ، وإما أن تُكْرََ على الموت .إنها تجزع حين تشتجر القنا ويقرع النبل بالنبل ، وهي تكره الجنة ، وتركن إلى السلامة ، مع أنها سلخت دهرها وهي ناعمة مترفة ، لكنها نسيت أن أولها نطفة وآخرها جيفة ، لذلك فهي تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .بهذه الطريقة كان ابن رَوَاحَةَ يناجي نفسه المترددة المحجمة عن الموت بعد أن رأت مصرع صاحبيه زيد وجعفر ، فأيقنت بالهلاك ودنوه . لم يكن بين ابن رَوَاحَةَ والشهادة إلا لحظات ، وقد جرحت أصبعه ونفر منها الدم ، فتوجه بالخطاب هذه المرة إليها مقللا من شأن ما أصابها ، وجاعلا ما أريق من دمها في سبيل الله :

هل أنتِ إلا أَصْبَعٌ دُمِيتِ  
وفي سبيل الله ما لَقِيتِ<sup>(١)</sup>

ثم يعاود خطاب نفسه قائلا:

يا نفسُ إلا تُقَتِّلِي تموتي  
هذا حِمَامُ الموتِ قد صُلِّيتِ  
وما تَمَيَّنْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ  
إنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هُديتِ  
وإنْ تَوَلَّيْتِ فَقَدْ شَقِيتِ<sup>(٢)</sup>

وهنا يعد ابن رَوَاحَةَ نفسه خيرا بعد فناء الجسد الذي لا بد أن يفارق هذه الحياة ، بالموت على الفراش أو بالقتل في المعركة ، والقتل أعلى وأجلّ ، يهون عليها الموت بما بعده ، ويهديها سبيل الرشاد ، سبيل صاحبيه اللذين سبقاه ، ويجنبها وعناء الدنيا وشقاءها .

والموت عندهم كان سبيلا للحياة ، الحياة الفضلى السرمدية في الآخرة ، كانوا على يقين تام بما ينتظرهم بعد البعث ، وكانوا يجدون ريح الجنة وهم في طريقهم إلى الموت ، وابن رَوَاحَةَ تتسم هذه الريح ، ووجد شَمِيمَهَا وهو بعدُ ما يزال في دار الدنيا ، لذلك فهو يخاطب صاحبه الذي سبقه إليها قائلا :

(١) ولید قصاب ، دیوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص ١٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .

جَعْفَرُ ، مَا أَطْيَبَ رِيحَ الْجَنَّةِ !<sup>(١)</sup>

وَيَصُورُ لَنَا خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ<sup>(٢)</sup> حاله وهو مقبل على الموت على نحو ما فعل ابن رَوَاحَةَ ، فقد اجتمع القوم لصلبه ، فقال يرثي نفسه ويعبر عن خطراتها قبيل مصرعها ، ويطلب من الله التثبيت وهم يمزقون لحمه وقد أيس من الحياة التي باعها لله عسى أن يبدله خيرا منها :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو غُرْبَتِي ثُمَّ كُرْبَتِي وَمَا أُرْصِدَ الْأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مَصْرَعِي  
فَذَا الْعَرْشُ صَبْرُنِي عَلَى مَا يُرَادُّ بِي فَقَدْ بَضَعُوا لِحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي  
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَإِنْ يَشَاءُ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوِ مُمَزَّعٍ<sup>(٣)</sup>

لم يكن خبيب يريد النجاء بنفسه من الموت ، ولو أراد النجاء لكان له ذلك ، فقد خَبَّرَ بين أمرين : الموت أو الكفر . وهو لا يريد العودة إلى الكفر بعد أن هداه الله ، لأنه يخاف النار ، أما الموت فسيحل به عاجلا أم آجلا ، لذا فهو لا يبالي بأي سبب له ، ولن يعطي الذنبة في دين الله ما دام إليه مرجعه :

وَقَدْ خَيْرُونِي الْكُفْرَ وَالْمَوْتَ دُونَهُ وَقَدْ هَمَلْتُ عَيْنَيَّ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعٍ  
وَمَا بِي حِذَارُ الْمَوْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ وَلَكِنْ حِذَارِي جَحْمُ نَارٍ مُلْقِعٍ  
فَوَاللَّهِ مَا أَرْجُو إِذَا مِتَ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي  
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخَشُّعًا وَلَا جَزَعًا إِنِّي إِلَى اللَّهِ  
مَرْجِعِي<sup>(٤)</sup>

وقد رثى شعراء الأنصار في عصر الرسول ﷺ شهداء الإسلام كافة ، حتى لا نكاد نجد شهيدا ليس له مَرْتَاة في شعر حسان بن ثابت، أو كعب بن مالك ، أو عبدالله بن رَوَاحَةَ . إنه رثاء لا يقاس بأي رثاء ، فهو رثاء من نوع مختلف ، رثاء الأخوة في الإسلام المقدم على

<sup>(١)</sup> المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

<sup>(٢)</sup> هو خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ بن مالك بن عامر بن مجدعة بن جَحْجَبِي بن عوف بن كُفَّة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي ، شهد بدرًا واستشهد في عهد النبي ﷺ في يوم الرِّجِيع في السنة الثالثة للهجرة . انظر ترجمته وقصة مقتله عند ابن حجر ، الإصابة ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

<sup>(٣)</sup> انظر الأبيات والقصيدة كاملة عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٩٧٦ ، والنويري ، نهاية الأرب ، ج ١٧ ، ص ٩٦-٩٨ ، وصلاح الدين الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٨ ، ص ١٦٢ . وأرصد : أعد ، وذا العرش : منصوبة على تقدير أداة النداء ، وبضَع اللحم (وتخفف الضاد) : قطعه ، ويأس : يئس ، قلبت الهمزة ألفا ضرورة ، والشَّلَو : الجلد والجسد من كل شيء ، وممزع : مقطع ومفروق .

<sup>(٤)</sup> انظر الأبيات والقصيدة في المصادر المشار إليها في الحاشية السابقة (حاشية ٣) . وهملت : فاضت ، ومجزع وحذار وتخشع وجَزَع ، كلها بمعنى خوف ، وجَحْمُ نار : توقدها ، وملفع : من لَفَعَه يَلْفَعُه : إذا غطاه وشمله (لسان العرب ، مادة "لفع") . قلت : ربما تكون ملفع : نعت لقوله "جحم" المرفوعة ، ثم كسرهما على الإتياع لـ : "نار" لأجل الضرورة ، وأما أن تكون "ملفع" نعتا لنار فغير جائز ، لأنها مذكورة ونار مؤنثة ، وملفع ليس خاصا بالمؤنث ، ولا هو مما يستوي فيه المذكر والمؤنث . وقوله : "فوالله ما أَرْجُو إِذَا مِتَ مُسْلِمًا" هي رواية ابن هشام في السيرة ، والمشهور رواية "ولست أبالي حين أقتل مُسْلِمًا" ، وهي رواية غيره .

الأخوة في الدم والنسب ، فقد نجد شاعرا مسلما يترك رثاء أعز أهله ممن قتلوا بيد المسلمين ، ويلجأ إلى رثاء أخ له استشهد وهو يقاتل في سبيل الله . وفي هذا النوع من الرثاء نلمح صدقا ظاهرا ، إذ لم يأت من رغبة أو رهبة ، بل من حب في الله واشتراك في الدين والعقيدة ، من أجل ذلك رأينا هذا الرثاء لا يفرق بين مهاجر وأنصاري ، ولا بين عربي وغير عربي ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين سيد ومسود .

ومن ذلك ما نراه في رثاء حسان شهداء مؤتة مجتمعين ، فقد جمع في رثائه بين زيد بن حارثة وهو مولى رسول الله ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، وعبدالله بن رَوَاحَة وهو أحد قوم الشاعر ، وجعلهم كلهم أحبته وإخوانه الذين هاج ذكرهم همه ، وهيج فقههم دمه :

تَأْوَبَنِي لَيْلٌ بِيَثْرَبَ أَعْسَرُ      وَهَمَّ إِذَا مَا نَوَّمَ النَّاسُ مُسْهَرُ  
لِذِكْرِ حَبِيبٍ هَيَّجَتْ ثُمَّ عَبْرَةٌ      سَفُوحًا وَأَسْبَابُ الْبُكَاءِ التَّنْذَرُ  
بَلَاءٌ وَفَقْدَانُ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ      وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ<sup>(١)</sup>

ويعبر حسان عما يتنازعه من أمانيّ ، ونراه حسيرا لأنه لم يمت شهيدا وهو يرى قوافل الشهداء تمضي إلى ربها ، فهو إذن ليس سعيدا ببقائه فيمن بقي ، ويغبط الشهداء الذين اختارهم الله ، لكنه يعلم أن الخيرة في ما اختاره الله ، كما يعلم أن الشهداء هم ممن اختاره الله إلى جواره ، وأن الظفر بالشهادة لا يتأتى لكل من قاتل أو رمى بنفسه في أتون المعركة :

رَأَيْتُ خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا      شَعُوبَ وَقَدْ خُلِفَتْ فِيمَنْ يُؤَخَّرُ<sup>(٢)</sup>

ويمضي حسان بن ثابت في رثاء الشهداء من قواد مؤتة فيقول :

فَلَا يُبْعَدَنَّ اللَّهُ قَتْلَى تَتَابَعُوا      بِمُؤْتَةِ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعَفَرُ  
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حِينَ تَتَابَعُوا      جَمِيعًا وَأَسْبَابُ الْمَنِيَّةِ تَخْطُرُ<sup>(٣)</sup>

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٩٨ . وتأوب: آب ورجع ، وأعسر: عسير ومشؤوم ، وتوّم: نام ، وسفوح: سائلة مرسلّة.

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٨ . وشعوب: هي المنية ، لأنها تشعب القوم وتفرقهم . قلت: كذا وردت رواية هذه الكلمة في المصادر ، ممنوعة من الصرف. قال صاحب اللسان: ومنه سميت المنية شعوب ، وهي معرفة لا تتصرف ، ولا تدخلها اللام (لسان العرب ، مادة "شعب") ، وعلى ذلك فإن سبب منعها من الصرف هو العلمية والتأنيث . والقصيدة التي وردت فيها هذه الكلمة من بحر الطويل ، وجاءت كلمة "شعوب" في التفعيلة الخامسة من البيت وقد دخلها القبض (إسقاط الخامس الساكن).

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٨ . ولا يُبْعَدَنَّ: دعاء لهم ، بعدم الهلاك أو الفراق ، وهو من أساليب العرب في الدعاء ، (انظر لسان العرب ، مادة "بعد") ، وتخطر: تهتز وتنتختر ، وقوله: "ذو الجناحين جعفر" ، فيه إشارة إلى ما أخبر به الرسول ﷺ من أن الله أعطى جعفرا جناحين يطير بهما في الجنة . والحديث طويل ، وفيه ضعف ، لم يرد في أي من الكتب التسعة ، وقد رواه الحاكم في المستدرک ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ ، والطبراني في المعجم الكبير ، ج ١٩ ، ص ١٦٧ .

و يبدأ حسان برثاء الشهداء ، فأول ما يرثي به جعفرا الحديث عن شجاعته ، ثم كونه من بني هاشم ، ثم وفاؤه وحزمه اللذين أشبه فيهما رسول الله ﷺ :

غَدَاةٌ غَدَوَا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ	إِلَى الْمَوْتِ مَيِّمُونَ النَّقِيبَةَ أَزْهَرُ
أَغْرُ كُلُّونَ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ	شُجَاعٌ إِذَا سِيمَ الظَّلَامَةَ مَجْسَرُ
قُطَاعِنَ حَتَّى مَاتَ غَيْرَ مُوسَدٍ	بِمُعْتَرَكٍ فِيهِ الْقَنَا يَتَكَسَّرُ
وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ	وَفَاءً وَأَمْرًا حَازِمًا حِينَ يَأْمُرُ <sup>(١)</sup>

ثم يمضي حسان نحو نهاية القصيدة متحدثا عن آل البيت عامة مشبها إياهم بالجبل العظيم والناس حوله كقطع الصخور المترابكة ، فهم أولياء الله جعلت فيهم النبوة وأنزل فيهم القرآن :

فَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ	دَعَائِمُ عِزٍّ لَا يَزُولُ وَمَفْخَرُ
هُمْ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلُهُ	رِضَامٌ إِلَى طَوْدٍ يَرُوقُ وَيَقْهَرُ
هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ	عَلَيْهِمْ وَفِيهِمْ وَالْكِتَابُ الْمُطَهَّرُ
بِهَالِيلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ	عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ
وَحَمْزَةُ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ	عَقِيلٌ وَمَاءُ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ <sup>(٢)</sup>

وإذا كان حسان قد خصص جُلَّ هذه القصيدة للحديث عن آل بيت رسول الله ﷺ ، فإن ذلك لا يعني أن ينسى الإشادة بشهداء قومه الخزرج ، فهو وإن كان قد مر على ذكر عبدالله بن رواحة الخزرجي مروراً سريعاً في القصيدة السابقة فإنه قد خصص قصيدة مستقلة في رثائه والحديث عن نسبه قال منها :

أَعَيْنِي جُوداً عَلَى فَارِسٍ	بَأَجْرَاعِ مُوْتَةٍ فَأَلْخَرَجَ
طَوِيلَ النَّجَادِ رَفِيعَ الْعِمَادِ	مُصَاصِ النَّجَارِ مِنَ الْخَزْرَجِ
وَيَنْمِي رَوَاحَةَ أَبَاءِهِ	إِلَى كُلِّ ذِي غُرَّةٍ أَبْلَجَ
إِذَا سَاوَرَ الْقَوْمُ أَقْرَانَهُمْ	قَصَدَتْ إِلَى الْفَارِسِ الْأَهْدَجَ

<sup>(١)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٩٩ . وميمون النقيبة : مبارك النفس ، منجج الفعال ، مظفر المطالب (لسان العرب ، مادة " نقب" ) ، وأزهر : أبيض مشرق الوجه ، وسيم الظلامه : جشمت ظلما ، ومجسر : شجاع جريء يعاقب من ظلمه ، وغير موسد : أي مقتول في المعركة ، لا ميت على فراشه (انظر المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، ج ٢ ، ص ٥٦٧ ) ، والقنا : الرماح .

<sup>(٢)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٩٨ . والرضام : الصخور التي توضع فوق بعضها ، وطود : جبل ، ويروق : يعجب من رآه ، وبهاليل : جمع بهلول ، وهو العزيز الجامع لكل خير .

وَإِنْ ضَاقَ بِالْمَوْتِ صَدْرُ امْرِئٍ      فَصَدْرُكَ بِالْمَوْتِ لَمْ يَخْرَجْ  
مَضَى صَاحِبَاكَ وَقَدْ ضُرِّجَا      شَهِيدَيْنِ بِالْعَلَقِ الْأَضْرَجِ<sup>(١)</sup>

أما حمزة سيد الشهداء فقد عجت دواوين الشعراء أنصارا وغير أنصار برثائه<sup>(٢)</sup> ، متأثرين في ذلك بحزن الرسول ﷺ الشديد عليه ، وبما أصاب جسده من مثلة حين استشهد في أحد ، فرثاه حسان بن ثابت وعبدالله بن رَوَاحَة وكعب بن مالك ، وشعراء آخرون من المهاجرين وغير المهاجرين .

ويرثي كعب حمزة أصدق رثاء فيبين لنا وقع فقدته في نفسه ، ويصور لنا موته حدثا جللا تخر منه الجبال هدا ، كم يبين لنا مكانه من النبي ﷺ ، فهو عمه ، وصفيه ، وناصر دعوته ، و يبين مكانته في بني هاشم :

وَلَقَدْ هُدِدْتُ لِفَقْدِ حَمَزَةٍ هَذِهِ      ظَلَمْتُ بَنَاتُ الْجَوْفِ مِنْهَا تَرَعَدُ  
وَلَوْ أَنَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءٌ بِمِثْلِهِ      لَرَأَيْتُ رَأْسِي صَخْرَهَا يَتَبَدَّدُ  
قَرْمٌ تَمَكَّنَ فِي دُؤَابَةِ هَاشِمٍ      حَيْثُ النَّبُوءَةُ وَالنَّدَى وَالسَّوْدُودُ  
عَمُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَصَفِيَّةُ      وَرَدَ الْحِمَامَ قَطَابَ ذَلِكَ الْمَوْرُدُ  
وَأَتَى الْمَنِيَّةَ مُعَلِّمًا فِي أُسْرَةٍ      نَصَرُوا النَّبِيَّ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَشْهَدُ<sup>(٣)</sup>

ومن الملاحظ في شعر الأنصار في عصر الرسول ﷺ أن الرثاء الجماعي قد شكل سمة غالبية في رثاء هذا العصر ، فكثير من شعراء الأنصار وغير الأنصار كان يجعل قصيدته في الرثاء الجماعي ، وقد يخص في أثناء ذلك قوما أو أفرادا ذكرا أسماءهم لمزية فيهم .

أما الرثاء الأصدق في شعر الأوس والخزرج فهو رثاء الرسول ﷺ الذي اضطربت لموته النفوس وزلزلت حتى بلغ الحد ببعضهم إلى عدم تصديق موته عليه السلام ، وكأنه ليس

<sup>(١)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤١٢ . وأجراع : جمع أجرع ، وهو كثيب جانب منه رمل وجانب حجارة ، والأخرج : السواد واللبياض كالألبق ، قال أبو زياد : الأخرج من الرمال والجبال أن يكون أسفل الجبل بالرمل مغطى ، وأعله خارج ليس عليه رمل أسود . انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "برقة الخرجاء" ، ومصاص التجار : خالص النسب ، وينمي : يرفع ، ورجل ذو غرة : أبيض ، والأبلج : الأبيض الحسن الواسع الوجه ، وساور : نازل ، والأقران : الخصوم ، والأهدج : المتقارب في الخطو والسريع فيه ، ولم يخرج : لم يضق ، والعلق : الدم ، والأضرع : الدم الذي يخضب صاحبه . وقوله : " وَيَنَمِي رَوَاحَةً أَبَاءَهُ " كذا هي في ديوان حسان من غير تعليق عليها . قلت : و "رواحة" مفعول به للفعل "ينمي" ، و "أباءه" منصوب على البذل من "رواحه" ، وأما الفاعل فمحذوف دل عليه الكلام ، تقديره : النسب أو الأصل .

<sup>(٢)</sup> انظر مرثيات أخرى في حمزة عند حسان بن ثابت في ديوانه ، ج ١ ، ص ٣٢١ ، ٤٥٠ ، وعند كعب بن مالك في ديوانه ، ص ٣١ ، ٨١ ، وعند عبدالله بن رَوَاحَة في ديوانه ، ص ١٣٢ . وهذه القصيدة تروى لكعب بن مالك ، انظر تعليق وليد فصاب على ذلك في ديوان عبدالله بن رَوَاحَة ، ص ١٧٢ .

<sup>(٣)</sup> ديوان كعب بن مالك ، ص ٣٦ . والأبيات من قصيدة عدتها واحد وعشرون بيتا . وبنات الجوف : الأحشاء (ابن سيدة ، المخصص ، ج ٣ ، ص ١٧١) ، والراسي : الثابت ، والقرم من الرجال : السيد المعظم ، ودؤابة هاشم : أعلامه وأشرفهم ، والسوؤد (بضم الدال الأولى ويفتحها) : المجد والعظمة ، والحمام (بكسر الحاء) : الموت ، والمعلم : من أعلم الفارس ، إذ جعل لنفسه علامة الشجعان ليُعلم مكانه في الحرب ، وكان حمزة قد أعلم يوم بدر ، وله في ذلك بيت ساقه صاحب اللسان وهو يبين هذا المعنى (انظر لسان العرب ، مادة "علم" ) .

ببشر يصيبه الموت كبقية الناس. وقد اتخذ الصحابة من وفاة الرسول ﷺ مثلاً يضرب من عظمة مصيبيته ، فكانوا يعززون بعضهم عند موت أحبّتهم بالتذكير بمصيبة الناس بموته ﷺ. وقد كان لحسان بن ثابت النصيب الأكبر في رثاء الرسول ﷺ من بين شعراء المسلمين حتى خصص ابن هشام في سيرته فصلاً خاصاً بعنوان " شعر حسان بن ثابت في مراثية الرسول ﷺ " (١) . وأطول مرثي حسان في رثاء الرسول ﷺ مرثيته التي في مطلعها:

بَطِيَّةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعَهْدٌ مُنِيرٌ وَقَدْ تَغْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ (٢)

وتقع في ستة وأربعين بيتاً. وينهج حسان في رثائه نهج القدماء في وقوفهم على الأطلال والآثار وبكائها ، غير أن بين تلك الآثار وأثر الرسول ﷺ بونا شاسعاً ، فهي تزول وتَمَحِّي ، أما آثار الرسول ﷺ وذكره وتعاليمه فباقية على مر الدهور ، لا تتال منها عوادي الأيام .

وليس من مصيبة تعدل مصيبة فقده ﷺ ، ولا من فقيده يشاكله ، إذ انقطع بموته وحي السماء الذي كان يؤنسهم ، وهذه أشد مصيبة في نظرهم :

وَهَلْ عَدَلْتَ يَوْمًا رَزِيَّةً هَالِكٍ رَزِيَّةً يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدٌ؟  
تَقَطَّعَ فِيهِ مُنْزَلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ وَقَدْ كَانَ ذَا نَوْرٍ يَغُورُ وَيُنْجِدُ (٣)

والفقيده هنا ليس كأحد من الناس ، فهو لم يوجد مثله قط في سالف الأزمنة ولن يوجد ، ولم يفقد المسلمون مثله ، ولن يفقدوا حتى قيام الساعة ، لذلك فإن حسانا يستحث عينه على البكاء التي ما عرفها يوماً جموداً في بكاء حبيب ، فكيف بأعر الأحبة :

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ  
فَبُكِّي رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عِبْرَةَ وَلَا أَعْرِفَنَّكَ الدَّهْرُ دَمْعَكَ يَجْمَدُ (٤)

(١) نظر القصيدة كاملة في ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٤٥٥.

(٢) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٤٥٥ . وتهمد : تزول وتبلى وتتغير . وانظر مرثي حسان الأخرى في النبي ﷺ في ديوانه ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٤٢١ ، ٤٣٦ . ولكعب في رثاء الرسول ﷺ ثلاث مرثيات ، انظرها في ديوانه ج ١ ، ص ٣٥ ، ١٠٧ ، ١١١ .

(٣) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٤٥٦ . ويغور وينجد : يهبط ويرتفع .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٥٦ . ودمعك يجمد : يقال للعين إذا كانت لا تدمع أو كانت قليلة الدمع : عين جمود (انظر لسان العرب ، مادة "جمد"). قلت : وقد أثبت وليد عرفات قول حسان " دمعك يجمد" بنصب "دمعك" ، ولا أدري كيف يمكن أن نوجه هذا الضبط إلا أن يكون حالاً من الكاف (الضمير) في "أعرفنك" ، وهذا لا يستقيم مع اتصال لفظ "دمع" بالضمير ، ووجود جملة " يجمد" بعده . ولعل الوجه في ذلك رفع "دمعك" كما ضبطت في (السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٥٢٦) وعلى الرفع تكون "دمعك" مبتدأ ، وتكون جملة "يجمد" خبراً له ، وتكون الجملة الاسمية من المبتدأ والخبر حالاً من الكاف في "أعرفنك" ، والكاف في دمعك رابطة للجمليتين ، وتقدير الكلام : لا أعرفنك جامداً دمعك .



ويروح حسان يصف الرسول ﷺ بخير الصفات ، فنعّمه بعد الله على الناس كافة ، فهو صادق الوعد ، وافي الذمة ، معطاء ، كريم النسب ، شريف المحّدد :

وَمَا لِكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النُّعْمَةِ الَّتِي      عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَّعَمِدُ  
أَعْفٌ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ      وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لَا يُنْكَدُ  
وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ      إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءُ بِمَا كَانَ يُتْلَدُ  
وَأَكْرَمَ صَيْتًا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى      وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوِّدُ  
وَأَمْنَعَ ذُرُواتٍ وَأَثْبَتَ فِي الْعُلَى      دَعَائِمَ عِزٍّ شَامِخَاتٍ تُشَايِدُ  
وَأَثْبَتَ قِرْعًا فِي الْفُرُوعِ وَمَثْبِتًا      وَغُودًا غِذَاهُ الْمُزْنُ فَالْغُودُ أَغْيَدُ<sup>(١)</sup>

ونلاحظ أن حسانا في الأبيات السابقة قد أكثر في القصيدة من استخدام اسم التفضيل (أعف ، أوفى ، أقرب ، أبذل ، أكرم(مرتين) ، أمنع ، أثبت(مرتين) ) ، وهو استخدام يتناسب مع الممدوح الذي لا يدانيه في صفاته مخلوق أبدا . وليس ينكر أحد ما وصف به حسان رسول الله ﷺ إلا أن يكون غائب اللب ، أو ممن أبعده الله . وفي مدح رسول الله ﷺ عبادة لا يحيد عنها الشاعر لعله يلقي الله بذلك ، فيكون إلى جوار رسول الله ﷺ في الجنة :

أَقُولُ وَلَا يُلْفَى لِمَا قُلْتُ عَائِبٌ      مِنَ النَّاسِ إِلَّا عَازِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ  
وَلَيْسَ هَوَايَ نَازِعًا عَنْ ثَنَائِهِ      لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلَدُ  
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَلِكَ جِوَارَهُ      وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ<sup>(٢)</sup>

وبعد ، فتلك مقتطفات قليلة من شعر الرثاء لدى الأوس والخزرج في عصر صدر الإسلام ، وما زال هناك الكثير مما قيل في الرثاء يضيق عن إيراده المقام .

أما رثاء الرسول ﷺ فليس نرى من شاعر في الأنصار أو غيرهم قد أوفى هذا الجانب حقه حتى لم يدع قولاً لقائل في رثائه ، وجُلُّ ما قيل فيه ﷺ كلام شبيه إلى حد بعيد بمراثي عليّة القوم التي نقرأها ، وليس هذا عيباً في الشعراء ، بل لأن المصاب جلل ، ولا يمكن لبشر مهما أوتي من فصاحة أن يستقصي شمائله ﷺ ، فالله وحده هو القادر على ذلك ، وعليه ، فإن ما لم يُقَل في رثائه ﷺ على مر العصور أكثر مما قيل .

<sup>(١)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٥٦ . وسابغ : مجاز من قولهم : ثوب سابغ ، أي يغطي الجسد كله ، ويتعمد : يغطي ويغشي ، ونائلاً : عطاء ، ولا ينكد : لا ينقص باليمن ، والطريف من المال : المستفاد المستحدث ، والتالد : المال القديم الأصلي ، وهو عكس الطريف (انظر لسان العرب ، مادة "تلد") ، ويتلد : يتخذ مالا ، وأبطحي : نسبة إلى الأبطح ، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، ومثله البطحاء ، وأبطحي : المنسوب إلى بطحاء مكة ، وهم قریش ، ويسود : يجعل سيّداً ، وغذاء : سقاء ، والمزن : السحاب ، وأغيد : ناعم .

<sup>(٢)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٥٧ . وعازب العقل : غائب العقل ، ومبعد : من أبعده الله ، إذا أهلكه ، أو غيَّبه ، ونازعا عن ثنائه : ماثلا عن مدحه وتاركه .

### ج - موقفهم الجديد من العصبية القبلية

أوهن الإسلام العصبية القبلية والنعرات الجاهلية ، فجاء غير نص يحض على تركها وعدم التخلق بها ، لأنها من أخلاق الجاهلية وخصالها المذمومة التي تضعف الأواصر في المجتمعات ، فقد ذم الله تعالى الكفار بسبب حميتهم وعصبيتهم الجاهليتين فقال : "إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" (١) ، كما سوى الله تعالى بين الناس في أصولهم وأجناسهم جاعلا التقوى هي معيار التفاضل بينهم في الدنيا والآخرة : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (٢) .

وقد جاءت الأحاديث النبوية مفسرة لمضمون الآيات الكريمة ، فنهت عن الدعاء بدعوى الجاهلية فقال ﷺ : "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ" (٣) ، وقال ﷺ : "وَقَدْ هَمَّ الْأَنْصَارُ وَالْمُهَاجِرُونَ بِالْإِخْتِلَافِ وَالِاسْتِئْصَارِ عَلَى بَعْضِهِمْ بِقَبَائِلِهِمْ حِينَ صَفَعَ مُهَاجِرِيَّ أَنْصَارِيًّا : دَعَا فَاثْنَاهَا مُنْتَبِهَةً" (٤) ، يعني العصبية والجاهلية . وقال لأبي ذر وقد ساء رجلا وعيَّره بأمة الأعجمية : "يَا أَبَا ذَرٍّ أَعْيَرْتَهُ بِأَمَةٍ ؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ" (٥) .

و تمثل المسلمون عامة والشعراء خاصة هذه المعاني ، فساروا على ضوئها وجعلوها منهجا في حياتهم وهم يقرضون الشعر ، فلم نكد نعثر على نص يدعو إلى عصبية أو نكرة جاهلية في عصر الرسول ﷺ ، بل على العكس من ذلك ، فقد وجدنا شعراء الأوس والخزرج قد نسوا كل خلافاتهم وحروبهم الطويلة في الجاهلية ، وصرنا نرى الخزرجي يفخر على المشركين بالأوس وبنصرتهم لرسول الله ﷺ ، بل يقدم ذكرهم على ذكر قبيلته :

وَقَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ وَالْأَوْسُ حَوْلَهُ      لَهُ مَعَقَلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ وَنَاصِرٌ  
وَجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لَوَائِهِ      يُمَشُّونَ فِي الْمَاضِي وَالنَّفْعُ ثَائِرٌ (٦)

وقد اتفقت كلمتهم بعد عداا طويل مرير ، فأخذوا لا يفرقون وهم يتحدثون بين أوسي ولا خزرجي ، وبعد أن كانوا يستعينون على بعضهم باليهود صاروا يدا واحدة على أعدائهم ،

(١) سورة الفتح ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

(٥) رواه البخاري في صحيحه ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٦) ديوان كعب بن مالك ، ص ٤٧ . والمعقل : الحصن المنيع ، والماضي : الدروع البيض اللينة ، والنفع : غبار المعركة .

فَعَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ الْخَزْرَجِيَّةِ تَفْخَرُ عَلَى هَنْدِ بِنْتِ عَتَبَةَ بِمَا حَقَّقَهُ قَوْمُهَا مِنَ الْأَوْسِ وَمَنْ  
الْخَزْرَجِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَمَا فَعَلُوا بِقُرَيْشٍ مِنَ الْأَفَاعِيلِ :

يَا هَنْدُ مَهْلًا لَقَدْ لَاقَيْتِ مُهْبِلَةً      يَوْمَ الْأَعْنَةِ وَالْأُرُوحِ فِي الرَّاحِ  
اللَّهُ أَهْلَكَهُمُ وَالْأَوْسُ شَاهِدَةٌ      وَالْخَزْرَجُ الْغُرُّ فِيهِمْ كُلُّ مُجْتَاكِ  
أَسَدٌ غَطَارِفَةٌ غُرٌّ جَحَاجِحَةٌ      أَبْنَاءُ مُحْصَنَةٍ بَيْضٌ لَجَجَاجٍ<sup>(١)</sup>

وَقَدْ صَارَ تَحْقِيقُ النِّصْرِ أَوْ خَوْضُ الْمَعْرَكَةِ مَشْتَرَكًا بَيْنَ الْجَمِيعِ لَا يَسْتَأْثِرُ بِهِ قَوْمٌ دُونَ  
آخَرِينَ ، وَلَا يُقْخَرُ بِقَبِيلٍ دُونَ آخَرٍ إِلَّا بِمِقْدَارٍ مَا يَقْدُمُهُ لِنَصْرَةِ الدِّينِ وَصَاحِبِ الدَّعْوَةِ :

غَدَاةٌ أَجَابَتْ بِأَسْيَافِهَا      جَمِيعًا بَنُو الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ  
فَمَا بَرَحُوا يَضْرِبُونَ الْكُمَاةَ      وَيَمْضُونَ فِي الْقَسْطِ الْمَرْهَجِ<sup>(٢)</sup>

وَأَنْتَ حِينَ تَقْرَأُ قَوْلَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ الْخَزْرَجِيِّ فِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي وَقْعَةِ بَدْرٍ :

بَنُو الْأَوْسِ الْغَطَارِفُ أَزَرَّتْهَا      بَنُو النَّجَّارِ فِي الدِّينِ الصَّلِيبِ<sup>(٣)</sup>

تَظُنُّ أَنَّ زِمَامَ الْمَعْرَكَةِ كَانَ فِي يَدِ الْأَوْسِ ، وَأَنَّ الْخَزْرَجَ إِنَّمَا كَانُوا تَبَعًا لِلْأَوْسِ يُؤَازِرْنَهُمْ فِي  
حَرْبِهِمْ ضِدَّ قُرَيْشٍ ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا أَرَادَ الشَّاعِرُ الْخَزْرَجِيُّ حَسَّانٌ أَلَّا يَغْضُ مِنْ شَأْنِ  
أَبْنَاءِ عَمُومَتِهِ الْأَوْسِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَفْخَرَ بِهِمْ فَخْرَهُ بِقَوْمِهِ ، فَقَدَّمَ ذِكْرَهُمْ وَجَعَلَهُمْ سَادَةَ الْمَعْرَكَةِ ،  
مَعَ أَنَّ الْحَقَائِقَ التَّارِيخِيَّةَ تَذَكِّرُ أَنَّ الْخَزْرَجَ قَدْ أَلْبَلُوا بِلَاءَ حَسَّانٍ فِي بَدْرٍ ، وَأَنَّ عَدَدَ الْخَزْرَجِ فِي  
بَدْرٍ كَانَ مِائَةً وَسَبْعِينَ رَجُلًا ، وَعَدَدُ الْأَوْسِ كَانَ وَاحِدًا وَسِتِّينَ رَجُلًا ، وَعَدَدُ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ  
ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا ، إِذْنِ فَقَدْ شَكَلَ عَدَدُ الْخَزْرَجِ فِي بَدْرٍ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ .

وَقَدْ اتَّجَهَتْ الْمُنَاقَضَاتُ الْحَادَةُ الَّتِي كَانَتْ قَائِمَةً بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي الْمَدِينَةِ وَجِهَةً  
جَدِيدَةً ، فَتَحَوَّلَتْ إِلَى مُنَاقَضَاتٍ بَيْنَ قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ وَالْأَنْصَارِ فِي الْمَدِينَةِ ، فَتَنَشَّطَ فِي ذَلِكَ مِنْ  
شُعْرَاءِ الْخَزْرَجِ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ .

أَمَّا الْفَخْرُ بِالْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَحَوَّلَ إِلَى فَخْرٍ بِالْإِسْلَامِ إِلَى الْإِسْلَامِ دُونَ  
نَظَرٍ إِلَى أَصْلِ أَوْ بَلَدٍ أَوْ لَوْنٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يُقْخَرُ بِهَا إِلَّا بِمِقْدَارِ مِشَارَكَتِهَا فِي الذُّودِ عَنْ حِمَى  
الدَّعْوَةِ وَنَبِيِّهَا ﷺ ، فَضْلًا عَنْ فِدَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ :

<sup>(١)</sup> الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، ج ١ ، ص ١٢٨ . ومهبلية : مصيبة مهلكة تجلب لك التكل ، وقولها : "يوم الأعنة والأرواح في  
الراح" : لعلها تعني يوم بدر ، وأن زمام المعركة وأرواح الأعداء كانت في يد المسلمين ، ومجتاح : هو الذي يهاجم العدو فيأتي  
عليه وعلى ماله ، وقريب من هذا المعنى ما جاء في لسان العرب ، مادة "جوح" ، والخطر : السيد الكريم السخي الكثير الخير  
، والجحاجة : جمع جحاجح : وهو السيد الكريم المسارع المكارم .

<sup>(٢)</sup> ديوان كعب بن مالك ، ص ٣٣ . والكماة : جمع كمي ، وهو الشجاع الذي كمي نفسه بالسلاح ، أي سترها (لسان العرب ، مادة "كمي") ،  
والقسطل المرهج : غبار المعركة المتصاعد الساطع .

<sup>(٣)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٨٢ . والغطارف : جمع غطريف ، وهو السيد الكريم السخي الكثير الخير ، وأزرتها : أعانتها  
وظايرتها ، والصليب : الشديد (تاج العروس ، مادة "صلب") .

زَعَمَ ابْنُ نَابِغَةَ اللَّثِيمُ بِأَنَّنَا      لَا نَجْعَلُ الْأَحْسَابَ دُونَ مُحَمَّدٍ  
أَمْوَالَنَا وَنَفْسُنَا مِنْ دُونِهِ      مَنْ يَصْطَنِعُ خَيْرًا يُثَبِّبُ وَيَحْمَدُ<sup>(١)</sup>

كمال يكن التفاضل بين هذه الأنساب إلا بمقدار حب الرسول ﷺ لها بما قدمته لنصرته  
ونصرة دينه:

وَكَفَى بِنَا فَضْلًا عَلَى مَنْ غَيْرِنَا      حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا<sup>(٢)</sup>

وقد كان الشاعر الجاهلي يفخر بأبيه وجده فخرا لا يجاوز المكان الذي يسكنه ، أما في  
الإسلام فصار هؤلاء الذين يُفَخَّرُ بهم ردءا وفداء لرسول الدعوة ﷺ ، فتحول الفخر بالنسب من  
نطاق ضيق يصب في مصلحة العصبية إلى نطاق أرحب وأشمل يهدف إلى إعلاء شأن كلمة  
الدعوة الإسلامية وعالميتها وشأن صاحبها :

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرَضِي      لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ<sup>(٣)</sup>

أما الفخر بالقبيلة وأفرادها فقد أصبح في معرض الفخر الديني الذي يتحدث عن مآثر  
هؤلاء الأفراد في الإسلام وما قدموه للدعوة الإسلامية ونبينا العظيم ﷺ ، ولم يعد هناك أي ذكر  
لمفاخرهم الجاهلية التي طالما تحدثوا عنها وهم يفخرون على أنفسهم وعلى غيرهم :

أروني سُعُودًا كَالسُّعُودِ الَّتِي سَمَتَ      بِمَكَّةَ مِنْ أَوْلَادِ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ  
أَقَامُوا عَمُودَ الدِّينِ حَتَّى تَمَكَّنْتَ      قَوَاعِدُهُ بِالْمُرْهَفَاتِ الْبَوَاتِرِ  
هُمْ عَقَدُوا لِلَّهِ ثُمًّا وَقَوُوا بِهِ      بِمَا ضَاقَ عَنْهُ كُلُّ بَادٍ وَحَاضِرِ<sup>(٤)</sup>

وليس من فرق بين أن يفخر الشاعر بفرد من قومه أو أي فرد آخر من المسلمين ،  
سواء أكان من المهاجرين أم من الأنصار ، إذ أصبح المسلمون جسدا واحدا ونفسا واحدة  
مصادقا للحديث الشريف ، وهذا ما جعل حسان بن ثابت يفخر بمن نصر رسول الله ﷺ من  
قريش وهو يتحدث عن فرار الحارث بن هشام ، فمدح الشاعر وفخره وكل أغراضه ترمي في  
نهاية الأمر إلى الإشادة بهذا الدين الذي تبناه ، ونذروا أنفسهم له :

وَبَنُو أَبِيهِ وَرَهْطُهُ فِي مَعْرَكٍ      نَصَرَ الْإِلَهِ بِهِ ذَوِي الْإِسْلَامِ<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٥٩ . والبيتان في هجاء عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي ، وابن نابتة : نسبة إلى  
أمه النابتة بنت حرملة ، وهي سبية من بني عَنَزَةَ بن أسد بن ربيعة بن نزار ( انظر ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ن ص ١٦٣ ) .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٥١٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٣٣ . وعمرو بن عامر هو جد الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو مُزَيَّيَاءَ بن  
عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . انظر النسب عند ابن حزم ، جمهرة أنساب  
العرب ، ص ٣٢٩ - ٣٣٢ .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٠ .

ونجد أن الشاعر لا يكتفي بالفخر بنسبه في معرض الفخر الديني ، بل يفخر أيضا بنسب قريش الذي منه نسب الرسول ﷺ ، ويفخر بذلك القبائل ويهاجها :

ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالْعَلَاءِ وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ مَشْيَ الْمُؤَمِّسَاتِ الْخُرَّعِ  
وَإِذَا قُرَيْشٌ حُصِّلَتْ أَنْسَابُهَا قِبَالَ شَجْعٍ قَاقِخَرُوا فِي الْمَجْمَعِ<sup>(١)</sup>

وبالرغم من كل ما ذكرنا فإن الشاعر قد يسهو أحيانا في شعره ، كما فعل كعب بن مالك حين ظن أنه في حربه إلى جانب الرسول ﷺ إنما يدافع هو وقومه عن جذم غسان الذي ينتمون إليه :

مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلِّ فُخْمَةٍ مُدْرَبَةٍ فِيهَا الْقَوَانِسُ تَلْمَعُ<sup>(٢)</sup>

لكن الرسول ﷺ يسمع ذلك منه ، ويرى في بيته رجوعا إلى القبلية ، فيعيد الشاعر إلى الجادة أخذا بيده إلى القول الحق على نحو هادئ كما عرف عنه ﷺ ، فقد قال ابن هشام بعد إيراد قصيدة كعب هذه: وَكَانَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَدْ قَالَ : مُجَالِدُنَا عَنْ جِذْمِنَا كُلِّ فُخْمَةٍ ، فقال رسول الله ﷺ : أَيْصَلِحْ أَنْ نَقُولَ مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا ؟ فَقَالَ كَعْبٌ نَعَمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَهُوَ أَحْسَنُ ، فَقَالَ كَعْبٌ : مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا<sup>(٣)</sup> . لقد كان ﷺ يريد أن يجتث كل ما يمت إلى العصبية والجاهلية بصله ، وإن كان قد سكت عن أمور ذكرها الشعراء فخرا بأقوامهم ، لأن القوم كانوا ما زالوا حديثي عهد بالجاهلية ، وكان من سياسته أن يتألفهم ما دام كلامهم وفخرهم بقومهم لمصلحة الدعوة ، ولا يثير نكرة أو ارتدادا إلى الجاهلية الجهلاء .

نخلص مما سبق إلى القول بأن العصبية في عصر الرسول ﷺ قد خفتت في شعر الأو س والخزرج بسبب تلك التوجيهات والإرشادات النبوية التي دعت إلى نبذها ، ومع هذا فإن اليهود لم يكونوا راضين عن تلك الحالة التي آل إليها الأوس والخزرج من التجمع بعد الفرقة ، والتواصل بعد القطيعة ، فقد اجتمع عليهم أمران : عداوتهم للأوس والخزرج على ما كان بينهم في الجاهلية وانتزاعهما سيطرة المدينة من أيديهم ، وعداوتهم للدين الجديد الذي نسخ به الله ما قبله من الأديان ، وعلى رأسها اليهودية .

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٦٣ . والعلاء: العلو والرفعة والمجد ، والمومسات : جمع مومس ومومسة ، وهي المرأة الفاجرة الزانية (لسان العرب ، مادة "ومس" ) ، والخرع: من التخرع وهو اللين والضعف والتثني (لسان العرب ، مادة "خرع" ) ، وشجع : اسم قبيلة من كنانة ، نسبة إلى شجع بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة (انظر ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ١٨٢ ، وتعليق وليد عرفات في تحقيقه ديوان حسان ، ج ٢ ، ص ١٩٨) .

(٢) ديوان كعب بن مالك ، ص ٥٨ . والبيت من قصيدة يرد بها على هُبَيْرَةَ بن أبي وهب يوم أحد . ومجالدنا: مدافعنا ، وفخمة : كتيبة عظيمة ، ومدرية : مدرسة على القتال بارعة فيه ، والقوانس: جمع قونس ، وهي أعلى خوذة الحديد .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٩١٩ . والجذم، بالكسر: أصل الشيء، وقد يفتح. وجذم كل شيء: أصله، والجمع أجدام وجذوم. وجذم الشجرة: أصلها، وكذلك من كل شيء. وجذم القوم: أصلهم .

## ٢- موضوعات شعر الأوس والخزرج في عصر الخلفاء الراشدين

شكلت الأحداث العظام في عصر الرسول ﷺ حافزا مهما للشعر حتى رأيناها يواكبها صغيرها وكبيرها ، وكان شعر الأنصار هو الناطق الأهم بمجرياتهما . وقد أدت المناوشات الكلامية بين شعراء الأنصار وأعدائهم من قريش إلى ازدهار الشعر وارتفاع حصيلته ، حتى إذا كان فتح مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا خفت صوت الشعر عامة وشعر الأنصار خاصة لانعدام الحافز إليه ، فقد دخل معظم شعراء قريش الإسلام وأصبحوا حماة بعد أن كانوا أعداءه .

وقد كان آخر الأحداث المتصلة بحياة الرسول ﷺ عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة ، إذ بدأت العرب تفد على رسول الله ﷺ معلنة إسلامها وولاءها ، وتقول خلال ذلك شعرا في مدح الرسول ﷺ أو تفخر بنسبها . وقد اقتضى ذلك أن يرد شعراء الرسول ﷺ على هذه الوفود خيرا بخير وشرا بشر ، إذ إن من هذه الوفود مَنْ أسلم ، ومنها من جادل وناقض أو ارتد . ولا نجد في ذلك العام وما جرى فيه من مواقف شعرا للأنصار سوى قصيدتين لحسان بن ثابت <sup>(١)</sup> . وقد كان لوفاة الرسول ﷺ في العام نفسه أثر عظيم في نفوس المسلمين ، وكنا أشرنا عند تناولنا رثاء الرسول ﷺ والشهداء إلى شعر الأنصار في هذا الحدث ، ووقفنا على جانب من شعرهم .

بعد كل ما سبق تطالعنا مرحلة جديدة وعصر جديد من تاريخ الإسلام هو عصر الخلفاء الراشدين . وقد زخر هذا العصر بالأحداث الجسام التي توزعت على طول الامتداد الزمني لهذا العصر ، ومن أهم هذه الأحداث : النزاع على الخلافة بين المهاجرين والأنصار ، والردة ، ومعركة اليرموك ، ووفاة أبي بكر وتولي عمر الخلافة ، ومعركة القادسية ، ومقتل عمر بن الخطاب وتولي عثمان الخلافة ، وفتنة عثمان ومقتله ، وحرب صفين والجمل بين علي ومعاوية ، ومقتل علي بن أبي طالب ، وغيرها .

كل ما سبق من أحداث كان ينبغي أن يفرز شعرا كثيرا وشعراء جددا من الأنصار وأبناء الأنصار ، غير أن الواقع يشهد بغير ذلك ، إذ لا نجد لشعراء الأنصار خلال تلك الأحداث مجتمعة إلا قصائد معدودات سنقف على جانب منها . وقد يسرع إلى خاطر أن شعراء الأنصار لم يشهدوا المراحل اللاحقة لوفاة الرسول ﷺ ، وليس كذلك ، فباستثناء عبدالله بن رَوَاحَةَ الذي استشهد في مؤتة في السنة التاسعة للهجرة ، نجد أن شاعرين كبيرين مثل حسان بن ثابت وكعب

<sup>(١)</sup> انظرهما في ديوان حسان ، ج ١ ، ص ١٠١ ، ١٠٩ .

بن مالك قد شهدا كل تلك الأحداث ، فقد توفي حسان بن ثابت سنة ٤٠ للهجرة على أرجح الأقوال<sup>(١)</sup> ، وتوفي كعب بن مالك ما بين ٥٠-٥٣ للهجرة<sup>(٢)</sup> .

ومن استقراء شعر حسان نظمئن إلى القول بأن "جذوة شاعرية سان تكاد تخمد بعد وفاة الرسول ﷺ ، فلا نجد له شيئاً ذا بال غير أبيات قالها في مدح الزبير بن العوام<sup>(٣)</sup> ، وقطع أخرى يبكي فيها الخليفة عثمان بن عفان حين اعتدى عليه المعتدون ، وانتهكوا بقتله حرمة الإسلام ، فهو ينعى على أهل المدينة وصحابة رسول الله ﷺ قعودهم عن نصرته وخذلانهم إياه"<sup>(٤)</sup> .

وكعب بن مالك حاله حال حسان ، إذ لا نجد له شعراً بعد وفاة الرسول ﷺ في غمرات تلك الأحداث سوى عدد من القصائد والمقطعات في رثاء عثمان بن عفان ، فقد يكون شعره في ذلك قد ضاع كغيره من الأشعار .

أما ما بقى من شعراء الأنصار غير حسان وكعب فلا نجد لأحد منهم شعراً بعد شعرهم يوم السقيفة إلا ما كان من خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة الأوسي ، فإن له شعراً في علي بن أبي طالب ونزاعه مع معاوية .

نخلص من كل ما ذكرنا إلى القول بأن شعر الأنصار قد اقتصر في هذا العصر على التعبير عن أحداث ثلاثة هي : النزاع على الخلافة ، ومقتل عثمان بن عفان ، والحرب بين علي ومعاوية ، ويمكننا أن نطلق على هذا النوع من الشعر "الشعر السياسي" ، وفي ما يأتي وقوف على هذه الأحداث في شعر الأنصار لبيان موقفهم منها .

### أ - موقفهم من الخلافة

لم يوص الرسول ﷺ بزعامة المسلمين لأحد من أصحابه، بل ترك مسألة الخلافة شورى بينهم . ولما توفي ﷺ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة في المدينة ، وأرادوا أن يبايعوا بالخلافة رجلاً منهم هو سعد بن عبادة سيد الخزرج ، فحضر جماعة من المهاجرين وكاد يكون بين هؤلاء وهؤلاء خلاف شديد ، لولا أن قام أبو بكر خطيباً في الناس ، وبَيَّن لهم أن هذا الأمر لقريش ، وأن أمر العرب لن يصلح إلا إذا وليته قريش ، وحذر الأنصار إن وليته الأوس أن تنفَسَ عليها الخزرج ، وإن وليته الخزرج أن تنفَسَ عليها الأوس . ولما ذكّر الأنصار بما

(١) انظر بيان ذلك وليد عرفات ، مقدمة ديوان حسان ، ص ١٢ .

(٢) انظر مجيد طراد ، مقدمة ديوان كعب بن مالك ، ص ١٥ .

(٣) وهي قصيدة من تسعة أبيات . انظر القصيدة والمناسبة في ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٤٣٣ .

(٤) يحيى الجبوري ، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١٩٨١ ، ص ٧١-٧٢ .

كان بينهم في الجاهلية ، وأن الحال توشك أن تعود إلى مثل ما كانوا عليه من عداوة اطمأنوا إلى رأي أبي بكر ، فعرض عليهم أبو بكر مبايعة عمر أو أبي عبيدة بن الجراح .

وقد خشي عمر إن ترك للناس الخيار أن يختلفوا على أنفسهم ، فقام إلى أبي بكر وبايعه بالخلافة ، وقال له : ألم يأمر النبي ﷺ بأن تصلي أنت بالناس يا أبا بكر ؟ فأنت خليفته ، ونحن نبايعك ، فنبايع خير من أحب رسول الله ﷺ منا جميعا . وقد بايع عمر وأبو عبيدة وسبقهما بشير بن سعد الخزرجي ، ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه .

وتسمى بيعة السقيفة بالبيعة الخاصة ، لأنه لم يبايعها إلا قلة من المسلمين ، وهم الذين حضروا السقيفة ، فلما كان الغد جلس أبو بكر على المنبر وبايعه الناس البيعة الكبرى أو العامة . ومع أن بيعة أبي بكر قد تمت إلا أن قوما من المهاجرين والأنصار كان ما يزال في أنفسهم شيء من هذه البيعة ، فقد رفض سعد بن عبادة سيد الخزرج أن يبايع أبا بكر ، ورحل إلى الشام ومات هناك ، كما اعتزل البيعة علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ورجال من المهاجرين ، وكان الزبير بن العوام يريد مبايعة علي ، ولم يبايع علي أبا بكر إلا بعد وفاة فاطمة ، وقال بعض الأنصار : لا نبايع إلا عليا .

ويشير ابن الأثير إلى أن الأوس لم تكن ترغب في تولي سعد بن عبادة الخزرجي الخلافة ، لأنهم ظنوا أن الخلافة لن تخرج من الخزرج أبدا ، وقد كان بينهما ما كان من حروب وإحن في الجاهلية ، لذلك فقد أسرع إلى مبايعة أبي بكر الصديق . أما بشير بن سعد الخزرجي فقد بايع أبا بكر ولم يبايع ابن عمه لأنه رأى أحقية المهاجرين بهذا الأمر<sup>(١)</sup> .

وقد بسط الخلاف في ذلك عبد الوهاب النجّار ، ومما قاله في ذلك : "ولم يوجد عند الأمة الإسلامية أمر من أمورها اختلفت فيه الكلمة وتشعبت بشأنه الآراء بمقدار ما كان في شأن الخلافة"<sup>(٢)</sup> ، ثم أخذ في تحديد مظاهر هذا الخلاف بعد أن ذكر أنه تمثل في أمرين هما : البيت الذي يكون منه الخليفة ، وشكل الانتخاب أو الطريقة التي يكون فيها الانتخاب<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر تفصيل الحديث عن يوم السقيفة وخلافة أبي بكر عند : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٥١٥-١٥٢٠ ، والطبري ، تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ، وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ ، وابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٨٥٣ .

(٢) عبد الوهاب النجّار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٥ ، وانظر ص ٦-٣٣ . وانظر أيضا محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ٤٠٦-٤٠٢ .

(٣) عبد الوهاب النجّار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٥ .



ويذكر لنا الحميري أن للأنصار أشعارا كثيرة في يوم السقيفة ، يلوم فيها بعضهم بعضاً على خذلانهم سعد بن عبادَةَ الخزرجي ، ويعنفون بشير بن سعد الخزرجي وابن الحُصَيْن ومن تبعهما منهم في ميلهم إلى قريش ، وكسرهم على سعد بن عبادَةَ<sup>(١)</sup>.

لكننا لا نلاحظ هذه الكثرة التي تحدث عنها في ما وصل إلينا من شعرهم ، وفي ما أورد الحميري نفسه من أشعار لم تتجاوز في مجموعها بضعة وثلاثين بيتاً ، ولعل معظم تلك الأشعار قد ضاعت أو أسقطها الرواة لما فيها من إشارة للعصبية والنعرات الجاهلية .

وقد كان للحُبَاب بن المنذر الخزرجي موقف مشهور يوم السقيفة ، وحفظ عنه أنه خاطب المهاجرين قائلاً : "أنا جُدَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ، وَعُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ ، إن شئتم كَرَرْنَاها جَذَعَةً، مَنَا أَمِيرٌ وَمَنْكُمْ أَمِيرٌ"<sup>(٢)</sup>(٤).

وقد ساء الحُبَاب بن المنذر الخزرجي ما فعله بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير حين بادر وباع أبا بكر ، فقال يهجو بشير بن سعد ورجلاً آخر معه ، هو ابن الحُصَيْن :

سعى ابنُ الحُصَيْن في العنادِ لَجَاجَةً      وأسرعُ منه في الفسادِ بشيرُ  
يظنُّانَ أنَّا قد أتينا عَظيمةً      وخطبُهما في ما نراه صغيرُ  
وما صِغَرُ إلا بما كان منهما      وخطبُهما لولا الفسادُ كبيرُ  
ولكنهُ من لا يراقبُ قومَه      قليلٌ ذليلٌ فاعلمنَّ وحقيرُ  
فيا بنَ الحُصَيْن وابنَ سعدٍ كِلاكُما      بتلك التي تُعنى الرجالُ خبيرُ<sup>(٣)</sup>

فالحباب بن المنذر يرى لقومه الحق في تولى هذا الأمر أو جانب منه ، لكن مبايعة قومه لأبي بكر فوتت عليه ذلك . ولم يكن الشاعر يرى في ما طلبه أمراً غريباً ، لكن الغريب في نظره هو خذلان بعض قومه له ، وتنازلهم للمهاجرين عن الخلافة ، وهذا عدو كبير على مصالح القبيلة وشؤونها في نظر الشاعر .

(١) نشوان الحميري ، الحور العين ، ص ٢١٢.

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٥١٨ ، وانظر الجاحظ ، البيان والنبين ، ج ١ ، ص ٥٢٧ . وقوله " جُدَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ " : عَنَى بِالْجُدَيْلِ ههنا الأصل من الشجرة تحكُّ به الإبل فتشتفي به ، أي قد جَرَيْتني الأمور ولي رأي وعلم يشفي بهما كما تشفي هذه الإبل الجربى بهذا الجدل ، وصغره على جهة المدح (انظر لسان العرب ، مادة "جدل") ، وقوله : عُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ : العذيق تصغير عذق ، وهو النخلة بحملها ، والتصغير للتعظيم (انظر لسان العرب ، مادة "عذق") ، والمرجب : الترحيب هنا إرقاد النخلة من جانب ليمتعها من السقوط ، أي أن لي عشيرة تُعَصِّدُنِي وتُثَمِّنُنِي وترقِّدُنِي ، وقيل : أراد بالترحيب : التُعْظِيم ، وَرَجَبٌ فلانٌ مَوْلَاهُ : عَظَمَهُ (تاج العروس ، مادة "رجب") ، وجذعة : قال صاحب اللسان : "وإذا طَفِنَتْ حربٌ بين قوم فقال بعضهم : إن شئتم أعذناها جذعة أي أول ما يُبَدَأُ فيها" (انظر لسان العرب ، مادة "جذع").

(٣) نشوان الحميري ، الحور العين ، ص ٢١٢ . واللجاجة : التمادي في الأمر . وابن الحُصَيْن الذي ذكره الشاعر : لم يبين نشوان الحميري من هو ، ولعله أراد : أسلم بن جبيرة بن حصين بن النعمان بن سنان بن عبد الأشهل الأنصاري الأوسي . انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ١ ، ص ٦٠-٦١ .

ونتبين من الأبيات السابقة أن النزاع على الخلافة قد أظهر بعض كوامن العصبية التي حاربها الإسلام ، وأن أفراداً معدودين - كالشاعر ومن رأى رأيه - لم يتخلصوا بعد من بقايا هذه العصبية القبلية التي ما تزال تبعاتها تلاحقهم منذ العصر الجاهلي ، وهم بهذا ينسون أهم مبدأ رسخه الرسول ﷺ قبل وفاته ، ألا وهو مبدأ الشورى . فخلافة أبي بكر الصديق لم تكن انتزاعاً لحق الأنصار في تولي هذا الأمر بقدر ما كانت ترسيخاً للشورى التي ذكرها القرآن ، وأراد الرسول ﷺ أن يعلمها المسلمين حين لم يسمّ خليفة له قبل موته . وليس أدل على هذه الشورى من مبايعة أكثر قوم الشاعر لرجل من المهاجرين هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، لأنهم رأوه خير الأمة بعد صاحبه ﷺ ، وخيرهم لها ، وأحدهم عليها مصداقاً لقول الرسول ﷺ : "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر" (١).

ويعود الحباب بن المنذر مخاطباً بشير بن سعد وابن الحُصَيْن في الجزء الآخر من قصيدته نازعاً إلى العتاب القاسي أكثر من الهجاء ، ومذكراً بدور الأنصار في نصرته النبي ﷺ وإيوائه وفدائه بالنفس والمال والأهل حين خذله الناس :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا أَكْمَةٌ وَبَصِيرُ	أَلَمْ تَعْلَمَا اللَّهُ دَرُّ أَبِيكُمَا
أَسْوَدٌ لَهَا بِالْغَابَتَيْنِ زُئِيرُ	بَأْنًا إِذَا مَا سَارَ مَتًّا كَتَائِبُ
سِوَانَا مِنْ أَهْلِ الْمَكْتَنِّ نَصِيرُ	نَصَرْنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ وَمَالَهُ
وَأَمْوَالُنَا وَالْمَشْرُوكُونَ حُضُورُ	قَدِينَاهُ بِالْأَبْنَاءِ بَعْدَ دِمَائِنَا
سِيَهَامَا حِدَادًا ضَمَّهِنَّ جَفِيرُ (٢)	وَكُنَّا لَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَرِيئُهُ

ويبدو أن قول الحباب يوم السقيفة : (منا أمير ومنكم أمير) ، قد أثر في كثير من الناس ، فاستعظموه وعدوه مخالفاً لما عليه الكثرة الكاثرة ، إلا أن الحباب بن المنذر - بعد أن ذكّر بما فعله قومه لأجل الإسلام - أراد أن يهون من قوله الذي استعظمه الناس ، وكأنه يقول : ليس كثيراً على قوم فعلوا ما فعلوا من إتمام هذا الأمر أن يكونوا شركاء فيه :

وكان عظيمًا أنني قلتُ منهمُ      أميرٌ ومَنَّا يا بشيرُ أميرُ (٣)

ولم تكن كلمة الأنصار واحدة في شأن الخلافة ، فإذا كنا قد رأينا الحباب بن المنذر يتعصب لقومه لا يجاوزهم فإن منهم من تعصب لقومه ثم جاوزهم إلى التعصب إلى آل البيت كالنعمان

(١) رواه الترمذي في السنن، ج ٥، ص ٦٦٤ ، وابن ماجه في سننه، ج ١، ص ٥٥.

(٢) نشوان الحميري ، الحور العين ، ص ٣٧٦. والأكمة : الذي يولد أعمى ، والمكتان : مكة والمدينة المنورة ، ويرينه : يغلبه ويغمر عليه ، والجفير : جعبة من جلود لا خشب فيها أو من خشب لا جلد فيها ، والجفير أيضاً : جعبة من جلود مشقوقة في جنبها ، يفعل ذلك بها ليدخلها الريح فلا ياتكل الريش . وقيل : الجفير شيء الكنانة إلا أنه واسع وأوسع منها يجعل فيه نشاب كثير (انظر لسان العرب ، مادة "جفر").

(٣) نشوان الحميري ، الحور العين ، ص ٢١٣.

بن العجلان الزُّرَيْقِي الخَزْرَجِي الذي أخذ يتحدث عن دور الأنصار في نصرته الإسلام ونبه ﷺ،  
معددا مفاخر قومه في نصرته الدين ، وما خاضوه من مواقع في سبيل ذلك ، ومذكرا المهاجرين  
بفضل الأنصار عليهم وكيف رحبوا بهم وقاسموهم أموالهم وديارهم ، فقال يتعصب لقومه :

فقلْ لقريش نحنُ أصحابُ مكةٍ      ويوم حُنَيْنٍ والفوارسُ في بَدْرٍ  
وأصحابُ أحدٍ والنَّضِيرِ وخَيْبَرِ      ونحن رجَعنا من قَرِيظَةٍ بالذِّكْرِ  
ويوم بأرض الشامِ إذ قُتِلَ جَعْفَرُ      وزيدٌ وعبدُ الله في علقٍ يجري  
وفي كل يوم يُنكرُ الكلبُ أهله      نطاعنُ فيه بالمتَّقَةِ السُّمْرِ  
ونضربُ في يوم العجاجةِ أروساَ      ببيض كأمثالِ البروقِ على الكُفْرِ  
نصرنا وأوينا النبيَّ ولم نخفْ      صُروفَ الليالي والعظيمِ من الأمرِ  
وقلنا لقوم هاجروا : مَرَحِباً بكم      وأهلاً وسهلاً قد أمِئْتُم من الفقرِ  
نُقاسِمُكمُ أموالنا وديارنا      كقسمةِ أيسارِ الخَروفِ على الشَّطْرِ  
ونكفيكمُ الأمرَ الذي تَكرهونَه      وكنا أناساً نُذهبُ العُسرَ باليُسْرِ<sup>(١)</sup>

وينكر النعمان بن العجلان على قريش فعلتها حين تجاهلت الأنصار في هذا  
الأمر جاعلة تصرفها صوابا وحلالا حين نصبت أبا بكر الصديق ، وتصرف الأنصار  
خطأ وحراما حين أرادوا تنصيب سعد بن عبادة الخزرجي :

وكان خطأ ما أتينا وأنئُم      صواباً كأننا لا كَريش ولا نَبِري  
وقلتم حرامٌ نَصَبُ سعدٍ ونصبُكم      عتيقَ بنَ عثمانِ حلالٌ أبا بكر<sup>(٢)</sup>  
ولم يكن الشاعر لينكر فضل الصديق وأهليته لهذا الأمر ، فقد شهد له الرسول  
ﷺ بكل خير ، وما دامت الخلافة قد جاوزت قوم الشاعر إلى قريش فإنه يصرح  
بأن علي بن أبي طالب كان أحق بها وأخلق من أبي بكر :

(١)الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٩ ، ص ٢٥٢ . وأصحاب مكة : أي فتح مكة ، والنَّضِير : غزوة بني النضير سنة أربع للهجرة  
، وفيها أجلى الرسول ﷺ يهود بني النضير عن المدينة ، وقريظة : غزوة بني قريظة سنة خمس للهجرة ، ويوم بأرض الشام :  
أي معركة مؤتة ، وعلق : دم ، وينكر الكلب أهله : كناية عن التجهز للحرب قال المعري : يقال إن الكلب لا ينكر صاحبه إلا  
إذا لبس لأمة الحرب (انظر المعري ، رسالة الصاهل والشاحج ، ص ٣٧٠ ، والمتقّة : الرماح ، والسمر : جمع أسمر ، وهو لون  
يضرب إلى سواد خفي ، والعجاجة والعجاج : غبار المعركة ، وقوله : كقسمةِ أيسارِ الخَروفِ على الشَّطْرِ : أي كما يقسم  
المتقائمون ما يقرونه على الناس .

(٢)الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٩ ، ص ٢٥٣ . وخطاء : خطأ ، وقوله : "لا نريش ولا نبري" ويروى : "لا كَريش ولا نَبِري" : أي  
لا نضر ولا ننفع ( انظر لسان العرب ، مادة "ريش" ) ، وعتيق بن عثمان : اسم أبي بكر الصديق ، وسمي عتيقا لجماله ، وقيل  
اسمه عبدالله ، ولعل عتيقا لقب له ( انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج٤ ، ص ١٦٧ ، ١٧٠ ) . قلت : وقوله : "نصبكم" مبتدأ ، وحلال : خبره  
، فصل بينهما بـ"أبا بكر" التي هي بدل منصوب من "عتيق" الواقعة مفعولا به للمصدر "نصبكم" .

وأهلُّ أبو بكر لها خيرٌ قائمٌ وإنَّ عليًّا كان أخلقَ للأمر  
وكان هوانا في عليٍّ وإنه لأهلُّ لها من حيث ندري ولا ندري<sup>(١)</sup>

ولا يملك الشاعر وقد تمت البيعة لأبي بكر دون غيره إلا أن يسلم بذلك مكررا تعظيمه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حامدا الله على ما وصلت إليه الأمور ، وكأنه كان غافلا فانتبه :

وهذا بحمد الله يشفي من العمى ويفتحُ آذانا ثقُلْنَ من الوقر  
نجيُ رسول الله في الغار وحده وصاحبهُ الصديقُ في سالفِ الدهر<sup>(٢)</sup>

لقد كانت العقلانية التي تمتع بها معظم الصحابة من الأنصار حينئذ هي التي سيطرت على مجريات الأحداث ، فقد كانت مخافة الله بين أعينهم في كل خطوة يخطونها . ولأن التمادي في هذا الأمر قد يقود إلى فتنة كبرى أقصر الشعراء وغير الشعراء لما في ذلك من توحيد لكلمة الأمة التي رضوا بها واستبدلوها بالقبيلة ، فكم جرَّت عليهم النزعة القبلية من ويلات قبل الإسلام! فهم لا يريدون أن يرجعوا بعد الرسول ﷺ كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأما ما سوف نعرضه من أقوال للشعراء في ما يأتي فلم تكن تمثل إلا طوائف محدودة من هاتين القبليتين ، وخير دليل على ذلك أن خلافة أبي بكر لم تُرق فيها قطرة دم واحدة في هذا الخلاف ، لذلك كانت خلاصة هذا الأمر قول النعمان بن العجلان مخاطبا قريشا :

فلولا اتقاء الله لم تذهبوا بها ولكن هذا الخير أجمع للصبر<sup>(٣)</sup>

وقد كان صوت بعض شعراء الأنصار مدويا وهو يتعصب لعلي بن أبي طالب مستكبرا انتقال الخلافة عن بني هاشم ثم عن علي بن أبي طالب من غير أن نجد في شعره أي مظهر من مظاهر التعصب لقومه، ويمثل هذا الاتجاه ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت الأوسي حين يقول :

ما كنت أحسبُ هذا الأمرَ منصرفا عن هاشم ثم منها عن أبي حسن  
أليس أول من صلى لقبلتكم وأعلم الناس بالقرآن والسُنَن  
وآخر الناس عهدًا بالنبِّي ومن جبريلُ عونٌ له في الغسل والكفن  
ما ذا الذي ردكم عنه فنعرفه ها إن بيعتكم من أغين الغبن<sup>(٤)</sup>

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ .

(٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ . والوقر : ثقل في الأذن .

(٣) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ .

(٤) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٩ ، ص ٣٥٥ . وقوله : "أليس أول من صلى لقبلتكم" ، قيل إن علي بن أبي طالب أول من صلى مع النبي ﷺ (الحاكم ، المستدرک ، ج ٣ ، ص ٥٧١) ، وقيل إن أول من صلى معه أبو بكر الصديق (الطبراني ، المعجم الأوسط ، ج ٢ ، ص ٢٩٠) . وفي البيت الثالث إشارة إلى أن علي بن أبي طالب كان آخر الناس عهدا برسول الله ﷺ ، فقد غسله هو والعباس بن عبدالمطلب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وكفئوه ( انظر ابن هشام السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٥٢١ ) ، والغبن : ضعف الرأي (لسان العرب ، مادة "غب").

ونلاحظ في شعر خزيمة الآنف تعصبا واضحا ليس لقريش بل لبني هاشم أولا ثم لآل البيت ثانيا . ولعلنا نتبين هنا البدايات الأولى لظهور التشيع لآل البيت وتفضيلهم على خير الصحابة ، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فالشاعر يرى في البيت الأخير أنبيعة الناس لأبي بكر من أشد الغبن ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى رفض هذه البيعة واستنكارها ، لأنها لم تكن في محلها في ما رآه خزيمة . ومع إيرادنا لهذا الشعر إلا أننا نشير هنا إلى أنه شعر قابل للشك فيه ، إذ يظن أنه من صنع الشيعة ، خاصة أنه لم تتداوله عامة المصادر . وعلى الرغم من وجوده في مستدرك الحاكم إلا أن بقية كتب الحديث ومتونه لم تورد .

أما حسان بن ثابت شاعر الدعوة فإنه يعرض لنا رأيه على نحو واضح وهو يتعصب لسيد قومه سعد بن عبادة الخزرجي ، داعيا قريشا إلى عدم إنكار فضل سعد ، لأنها ليست أولى بالخلافة من قومه .

لا تُتَكْرَنَ قُرَيْشٌ فَضْلَ صَاحِبِنَا	سَعْدٍ وَمَا فِي مَقَالِي الْيَوْمَ مِنْ أَوْدٍ
قَالَتْ قُرَيْشٌ لَنَا السُّلْطَانُ دُونَكُمْ	لَا يَطْمَعَنَّ بِهَذَا الْأَمْرَ مِنْ أَحَدٍ
قُلْنَا لَهُمْ : تَوَرَّوْا حَقًّا فَتَتَّبِعُوهُ	لَسْنَا تُرِيدُ سِوَاهُ آخِرَ الْأَبَدِ
لَسْتُمْ بِأُولَى بِهِ مِنَّا لِأَنَّ لَنَا	وَسَطَ الْمَدِينَةِ فَضْلَ الْعِزِّ وَالْعَدَدِ <sup>(١)</sup>

وتتجلى العصبية القبلية الممقوتة في بيت حسان الأخير حين يرى لقومه تفوقا في العدد والمنعة على المهاجرين ، لأنهم أهل المدينة وأربابها ، وهذه نظرة ترتد بحسان إلى عمق العصبية الجاهلية حين كان يرى للعدد والقوة فضل الغلبة وأحقية السلطة .

وتعلو أصوات شعراء الأنصار رويدا رويدا ، حتى نرى من يهجو بعض قومه الذين تهيبوا الحرب التي أثارها هو لانتزاع أمر الخلافة من قريش ، ويوضح أن قريشا قد انتزعت شؤون الخلافة من أيديهم حتى صارت إلى أفرادها ولم تدع لهم إمارة ولا وزارة :

وخبَّرْتمونا أنما الأمرُ بيننا	خلافَ رسولِ الله يومَ التشاَجُرِ
فهلا وزيراً واحداً تحسبونَه	إذا ما عَدَدْنَا مِنْكُمْ أَلْفَ أَمْرٍ
سقى الله سعداً يوم ذاك ولا سقى	عَراجِلَه هَابِتْ صُدُورَ الْبَوَائِرِ <sup>(٢)</sup>

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٦٣ ، والأود : العوج والميل ، وتَوَرَّوْا حَقًّا : أظهروه (لسان العرب ، مادة تَوَرَّ) .

(٢) نَشِوان الحميري ، الحور العين ، ص ٢١٥ ، وهذا الشعر لبعض الأنصار ، لم يُسَمَّ صاحبه . وخلاف رسول الله : بعده ، ويوم التشاَجُر : يوم السقيفة ، وقوله " وخبَّرْتمونا..." ، إشارة إلى قول أبي بكر رضي الله عنه للأنصار : نحن الأمراء وأنتم الوزراء (انظر هذا القول في صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ٢٩١) ، وسعد : هو سعد بن عبادة سيد الخزرج الذي أراد الخلافة لنفسه ، وعراجلة : جمع عَرَجَلَة ، وهي القطعة من الخيل أو الجماعة من الناس الذين يمشون على أقدامهم (انظر لسان العرب ، مادة "عرجل") .

ويذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك حين يثير نعرات جاهلية منتنة بين المهاجرين والأنصار ، فيرى أن قريشا قد حرمت الأنصار من حقهم في الخلافة بسبب ما لحق القرشيين من قتل وهزيمة في غزوة بدر على يد الأوس والخزرج ، وهذا غاية الشطط ومنتهى العصبية:

دعاها إلى حرماننا وجفائنا      تذكّر قتل في القلب تكبّوا  
فإن يغضب الأبناء من قتل من مضى      فوالله ما جننا قبيحا فتعّبوا<sup>(١)</sup>

وفي هذا القول مبالغة كبيرة غذاها الغضب والعصبية ، فالقرشيون شهدوا بدرا جنبا إلى جنب مع الأنصار ، ولم يكونوا يحفلون بما أشار إليه الشاعر يوما ، بل لقد قتل الأب منهم ابنه والابن أباه نصره لدين الله ، ولم يثتم عن نصره رسوله ﷺ والد ولا ولد . وقول الأنصاري السابق ليس بشيء ، إذ لا ترى في مطالعتك لمجريات الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ من ذهب ذلك المذهب من الشعراء غير من دكر ، وإخال أن ذلك لم يكن يصدر إلا عن قلة قليلة من الأنصار

<sup>(١)</sup>نشوان الحميري ، الحور العين ، ص ٢١٥ ، وهذا الشعر لبعض الأنصار ، لم يسم صاحبه أيضا . والقلب : قلب بدر الذي ألقي فيه القتلى من مشركي قريش ، وتكبّوا : ألقي بعضهم فوق بعض . وانظر أشعارا أخرى للأنصار في هذه المعاني ممن لم يسم أصحابها عند نشوان الحميري ، الحور العين ، ص ٢١٥-٢٢٠ .

## ب - موقفهم من فتنة عثمان بن عفان ومقتله

يطول الحديث في فتنة عثمان والأسباب التي أدت إلى حصره في داره ثم مقتله<sup>(١)</sup> ، غير أن ما يهمنا في ذلك هو موقف شعراء الأنصار من هذا الحدث الجلل الذي انقسم الناس فيه أيما انقسام ، فمن محرض على قتله ، ومن معتزل الفتنة ، ومن ساكت منخل عن نصرته ، ومن مدافع عنه . ولم يكن عثمان حين حصر في داره وحيدا ، بل كان في الدار معه من المهاجرين والأنصار قريب من سبعمائة رجل ، لكنه منعهم من القتال ولو تركهم لمنعوه<sup>(٢)</sup> .

وقد كان حسان بن ثابت وكعب بن مالك ممن بقي من شعراء الأنصار الذين شهدوا هذه الفتنة وأدلووا بدلائلها فيها تعبيرا عما كان يعتل في نفوسهما من مشاعر مخلصة لهذا الإمام المظلوم . والمستقرى لديواني هذين الشاعرين يجد قدرا غير قليل من الشعر الذي عبر عن هذا الحدث ، وهو ما نستطيع أن نتعرف به موقف الأنصار عامة من هذه الفتنة التي أشعلتها جماعات الثائرين المصريين على عثمان ، وانتهت بقتل الخليفة في معقل الخلافة .

ونجد لحسان بن ثابت في هذه الحادثة إحدى عشرة قصيدة ومقطعة<sup>(٣)</sup> ، مجموع أبياتها ستة وستون بيتا ، كما نجد لكعب بن مالك ثمان قصائد<sup>(٤)</sup> ومقطعات مجموع أبياتها ثمانية وسبعون بيتا . وإذا نحن عدنا إلى ما قاله الشعراء من غير الأنصار في هذه الحادثة لا نجد عندهم مجتمعين ما وجدنا عند حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وهذا يدل على أن شعر هذين الشاعرين في هذه الحادثة ربما يكون قد وصل إلينا غير منقوص . لقد كان حسان وكعب يمثل كل منهما - وهو يعبر عن هذه الحادثة - ضمير الأمة المسلمة الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، فافتقده الشاعران في هذه الفتنة ، فهما لم يكونا يمثلان أية فئة لها أطماع أو غايات في الدولة ، ولا كانا يمثلان الأنصار في ذلك أو يتحدثان باسمهما ، فقد وقف الأنصار من هذه الفتنة موقفا لم يرضه لهما الشاعران سنتعرفه لاحقا . وهذا الموقف منهما أو من غيرهما من شعراء الأنصار منسجم تماما مع دور الأنصار عامة في تقوية دعائم الإسلام ، والمحافظة على وحدة المسلمين .

وأظهر معنى نجده في شعر حسان وكعب الذي قيل في رثاء عثمان هو الحديث عن خذلانه والتخلي عنه وإسلامه لقاتليه . وقد بلغ الأمر بحسان أن ذم رهطه الأذنين بني النجار الذين تلوثت أيديهم بالغدر حين أسلموا عثمان ، وتخاذلوا عنه ، ولم يحولوا دونه ودون

(١) انظر تفصيل القول في الفتنة وأسبابها عند عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣١٦، ٢٩٢-٣٦٣ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

(٣) انظرها في ديوانه ، ج ١ ، ص : ٩٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٤٧٧ ، ٥١١ ، ٥١٥ .

(٤) انظرها في ديوانه ، ص : ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٠ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠٧ .

محاصريه ، فأخرجهم من دائرة الأخيار بما فرطوا في جنب إمامهم صهر رسول الله ﷺ الذي أوصاهم به ، فأحلوا أمتهم الهلاك ، وأطمعوا بها الأمم بفعلهم ذاك وعجزهم عن حماية رأس أمرهم ، ثم مدح آخرين من الخزرج هم بنو عمرو بن عوف الذين وقفوا إلى جانب الخليفة في حصاره:

أَوْفَتْ بَنُو عَمْرٍو بَنَ عَوْفٍ نَذْرَهَا      وَتَلَوَّتْ غَدْرًا بَنُو النَّجَّارِ  
وَتَخَاذَلَتْ يَوْمَ الْحَفِظَةِ إِنَّهُمْ      لَيْسُوا هُنَالِكُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ  
وَنَسُوا وَصَاةَ مُحَمَّدٍ فِي صِهْرِهِ      وَتَبَدَّلُوا بِالْعِزِّ دَارَ بَوَارِ<sup>(١)</sup>

ويوبخ حسان قومه وهو يصور عثمان محصورا وحيدا مُضِيْعًا ينادي على أنصاره ، وأصحاب الأهواء المغرضون يختلفون إليه في داره لا يمنعونهم مانع ، ثم يذكر أن جيرانه القريبى قد غدروا به ، فكيف بغيرهم؟ ويعيب حسان على قومه مطاوعتهم أعداء الخليفة من أهل الأمصار في ما رموا به عثمان من الفرية ، وخوضهم في ما خاض فيه المرجفون :

أَتَرْكَنُموهُ مُفْرَدًا بِمَضِيعَةٍ      تَتَنَابُهُ الْغَوَاةُ فِي الْأَمْصَارِ؟  
لَهْفَانٍ يَدْعُو غَائِبًا أَنْصَارَهُ      يَا وَيْحَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ  
جِيرَانُهُ الْأَدْنَوْنَ حَوْلَ بَيْوتِهِ      غَدَرُوا وَرَبَّ الْبَيْتِ ذِي الْأَسْتَارِ  
طَاوَعْتُمْ فِيهِ الْعَدُوَّ وَكُنْتُمْ      لَوْ شِئْتُمْ فِي مَعَزِلٍ وَقَرَارِ<sup>(٢)</sup>

ولا يقف حسان عند ذم قومه وحدهم ، فلقد ذم الأنصار قاطبة الذين أعانوا على قتل الخليفة بخذلانه ، وكانوا من قبل أنصاره ، ثم ألحق بالأنصار قوما من المهاجرين سماهم ، من هؤلاء : الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، ومحمد بن أبي بكر ، وعمار بن ياسر ، ليبين بذلك أن أكثر الناس كانوا سواء في خذلان الخليفة :

خَذَلْتَهُ الْأَنْصَارُ إِذْ حَضَرَ الْمَوْتُ وَكَانَتْ      وَلَاتُهُ الْأَنْصَارُ  
مَنْ عَذِيرِي مِنَ الزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ إِذْ جَا أَمْرٌ لَهُ مِقْدَارُ  
فَتَوَلَّى مُحَمَّدٌ بَنُ أَبِي بَكْرٍ عَيْنًا      وَخَلَفَهُ عَمَارُ<sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣١١. وبنو عمرو بن عوف : هم بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس(انظر ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٣٢) ، والحفيظة : الذب والمحاماة عن المحارم والعورات والمنع لها عند الحروب، والمحافظة على العهد وعلى الحرم ومنعها من العدو(انظر لسان العرب ، مادة "حفظ") ، ودار البوار : دار الهلاك .

<sup>(٢)</sup>ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٣١١ ومضيعة : كمعيشة، أي بدار ضياع(انظر لسان العرب ، مادة "ضيع").

<sup>(٣)</sup>ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٤٧٧. وقوله : "مَنْ عَذِيرِي..." قال الزمخشري : ويقال : مَنْ عَذِيرِي مَنْ فُلَانٍ وَعَذِيرَكَ مِنْ فُلَانٍ(بالنصب). قال عمرو بن معدي كرب : أريد حيائه ويريد قتلي عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مَرَادٍ (والحباء : العطية ، ويروى : حياته).

ومعناه هَلَمْ مِنْ يَعْذِرَكَ مِنْهُ إِنْ أَوْقَعْتُ بِهِ ، يعني أنه أهل للإيقاع به ، فإن أوقعته به كنت معذورا(الزمخشري ، أساس البلاغة ، مادة "عذر") ، وجا : جاء ، حذفت الهمزة ضرورة .



ونحن إذ نستبعد أن يكون لهؤلاء الذين ذكرهم يد في قتل عثمان - خلا محمد بن أبي بكر<sup>(١)</sup> - أو المظاهرة عليه ، أو التواطؤ على قتله ، لنستنبط من ذلك أن حسانا إنما أراد من ذكرهم الإشارة إلى تقاعسهم عن نصره الخليفة مما أدى إلى قتله شر قتلة .

وكما ذم حسان قومه بني النّجّار خاصة والأنصار عامة ، ذم كعب الأنصار أيضا ، وفعلتهم الشنيعة المتمثلة في التخلي عن عثمان في أشد محنته وأعداؤه يحيطون به من كل حذب وصوب . ويشير كعب إلى أن الخليفة قد علق آماله على الأنصار، وهو يتفقدهم من حوله ، لكنهم خيبوا هذه الآمال فلم يُوجدوا معه ، وهو أمر لا يرضاه الشاعر لقومه الذين كانوا سدنة الإسلام وحماة المسلمين :

رُسُلًا تَقْصُّ عَلَيْهِمُ النَّبِيَانَا	مَنْ مُبْلَغُ الْأَنْصَارِ عَنِّي آيَةً
أَنَّ الْبَلَاءَ يُكْشِفُ الْإِنْسَانَا	رُسُلًا تُخْبِرُكُمْ بِمَا أُولِيْتُمْ
كَسَتِ الْفُضُوحَ وَأَبْدَتِ الشَّنَانَا	أَنْ قَدْ فَعَلْتُمْ فِعْلَةً مُذْكَورَةً
تُحْشَى ضَوَاحِي دَارِهِ النَّيْرَانَا	بِقُعُودِكُمْ فِي دَارِكُمْ وَأَمِيرِكُمْ
مُلِيتَ حَرِيْقًا كَايِبًا وَدُخَانَا	بَيْنَا يَرْجِي دَفْعَكُمْ عَنْ دَارِهِ
نَقْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ لِي أَعْوَانَا	يَا لَهْفَ نَفْسِي إِذْ يَقُولُ أَلَا أَرَى
لَكُمْ صَنِيعًا يَوْمَ ذَاكَ وَشَانَا <sup>(٢)</sup>	اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَرْضَهُ

ويؤنب كعب قومه أنهم لم يوفوا بعهدهم لخليفته الذي بايعوه ، ولو أنهم فعلوا ما ينبغي عليهم ما وصل إليه عدوه وتمكن من قتله ، ثم يبين لهم أنه كان عليهم أن ينصروا الخليفة كما كانوا قد نصروا النبي ﷺ ، لأن الخليفة إنما يمثل شرع الله ورسوله ﷺ على أرضه :

فَوَدِدْتُ لَوْ كُنْتُمْ بَدَلْتُمْ عَهْدَكُمْ	لَبَقِيَ أَمِيرُكُمْ عَلَى مَا كَانَا
وَكَرَرْتُمْ كَرًّا الْمُحَافِظِ إِنَّمَا	يَسْعَى الْحَلِيمُ لِمِثْلِهِ أَحْيَانَا
فَمَنْعْتُمُوهُ أَوْ قَتَلْتُمْ حَوْلَهُ	مُتَلَبِّينَ الْبَيْضَ وَالْأَبْدَانَا
فَلَوْ أَنَّكُمْ مَعَ نَصْرِكُمْ لَنَبِيَّكُمْ	يَوْمَ اللَّقَاءِ نَصَرْتُمْ عُثْمَانَا <sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> ذكرت كثير من المصادر أن محمد بن أبي بكر قد دخل على عثمان وهو محصور فسيه ، ووثب على صدره ، وقبض على لحيته ، ووجأه في نحره بمشاقص كانت معه ، وهم أن يقتله (انظر الطبراني ، المعجم الكبير ، ج ١، ص ٨٣، وابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ج ١، ص ٣٢١، وابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٣، ص ٧٣ ، والمزي ، تهذيب الكمال ، ج ١٩، ص ٤٥٥ ، وابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٩، ص ٢٥٤ ، ٤٠٣-٤١٠).

<sup>(٢)</sup> ديوان كعب بن مالك ، ص ٩٧-٩٨، والشنآن: البغض والكراهية ، وكابيا: عظيم الجمر والرماد (انظر لسان العرب ، مادة "كبا").

<sup>(٣)</sup> ديوان كعب بن مالك ، ص ٩٨-١٠٠. والمحافظ: المحامي عن المحارم والعورات المانع لها عند الحرب ، ومتلبين: مشمرين ولايسين الحزام استعدادا للقتال ، والبيض: السيوف ، والأبدان: الدروع التي تغطي البدن كاملا .

ومن المعاني التي ترد في هذا السياق تصوير كعب بن مالك لهول الحدث ، فمقتل عثمان خليفة الأمة أمر في منتهى الفظاعة ، تتخلع لذكره القلوب ، وتسيل لأجله العبرات ، و تكاد تخر له الجبال هداً ، وتتضاعف لفضاعته النجوم ، وتكسف لمسمعه الشمس :

يا للرجال للبك المخطوف  
ولدمعك المترقرق المنزوف  
ويح لأمر قد أتاني رائع  
هد الجبال فانقضت برجوف  
قتل الخليفة كان أمراً مفضعا  
قامت لذلك بليّة التخويف  
قتل الإمام له النجوم خواضع  
والشمس بازغة له بكسوف<sup>(١)</sup>

ويهجو حسان قاتلي عثمان من أهل الأمصار ناعيا عليهم جهلهم وضلالتهم باتباع الأغوياء الذين تركوا الفتوحات وقتال المشركين ثم جاؤوا لقتال أصحاب رسول الله ﷺ عند قبره ، وأنحنوا فيهم فكأنهم ذبائح تتحر عند مسجده :

أترككم غزو الدروب وجئتم  
لقتال قوم عند قبر محمد  
فلبئس هدي الصالحين هديتم  
ولبئس فعل الجاهل المتعمد  
وكان أصحاب النبي عشيّة  
بذن تخر عند باب المسجد<sup>(٢)</sup>

ويبشرهم كعب بالنار لقتلهم غيلة وغدرا هذا الإمام الطاهر العفيف:

النار موعدهم بقتل إمامهم  
عثمان ظهراً في البلاد عفيف<sup>(٣)</sup>

ويبرئ حسان الخليفة مما اتهمه به قتلته ، مبينا أن قتله كان على غير ذنب اقترفه ، لذلك فإن قتلته قد جاؤوا ظلما وزورا :

يا قاتل الله قوماً كان شأنهم  
قتل الإمام الأمين المسلم الفطن

(١) ديوان كعب بن مالك ، ص ٧٠-٧١. واللب : العقل ، والمخطوف : المأخوذ الذي ذهب رشده ، والمترقرق : من ترقرق الدمع ، إذا لمع وتلألأ في العين دون أن يسيل ، والمنزوف : الذي ذهب دمعته ، والرجوف : الحركة والاضطراب ، والبليّة : المصيبة . قلت: كذا ورد قوله : " هدّ الجبال فانقضت برجوف " في ديوان كعب بن مالك جمع مجيد طراد ( ص ٧٩ ) ، وكذا في جمع سامي مكّي العاني ( ص ٢٣٨ ) ، وكلاهما نقل عن الطبري في تاريخه ( ج ٢ ، ص ٦٩٥ ) . ويشعر قارئ عجز هذا البيت باختلال الوزن في حشوّه ( التفعيلة الثانية ) ، لكن الأمر ليس على ظاهره ، فقد دخل التفعيلة الثانية منه الوقص ، وهو من الزحاف الصالح الذي يدخل الكامل ( انظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ ) ، وجعله بعضهم عيبا ( أبو يعلى التنوخي ، القوافي ، تحقيق : عمر الأسعد ومحي الدين رمضان ، دار الإرشاد ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٠ ، ص ٧٠ ) ، والوقص : إسكان الثاني من متفاعلين فيبقى متفاعلا ، وهذا بناء غير منقول فيصرف عنه إلى بناء مستعمل مقول منقول ، وهو قولهم مستغلان ، ثم تحذف السين فيبقى متغّلان فينقل في التقطيع إلى مفاعلا ؛ سمي بذلك لأنه بمنزلة الذي اندقت عنقه ( لسان العرب ، مادة " وقص " ) .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٣) ديوان كعب بن مالك ، ص ٧١ . وظهر ( بفتح الظاء ) : غيلة ( لسان العرب ، مادة " ظهر " ) . قلت : والبيت من قصيدة مكسورة الفاء ذكرنا مطلعها في الصفحة السابقة ، وعليه فإن في قوله " عفيف " بكسر الفاء إقواء . والحقيقة أنني لم أجد للجر هنا أي وجه إعرابي ، إذ لا تصلح " عفيف " صفة لـ " إمامهم " ، ولا لـ " عثمان " لعدم المطابقة في التعريف والتذكير . ومع أن عبد المجيد طراد محقق الديوان قد أثبتها مجرورة ، إلا أنه لم يعلق عليها لما رأى أن ليس للجر وجه هنا ، ولو كان له وجه لذكره . وأنا أجد أن النصب على الحال من " عثمان " أو بالرفع هو الوجه في ذلك . ومع أن للنصب وجهها إلا أنني أرى أن إثباتها بالرفع هو الأصوب والأقرب لسببين : الأول : أن له وجهها مسوغا ، إذ " عفيف " في قوله : " في البلاد عفيف " مبتدأ مؤخر ، والجار المجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ، والثاني : أن الشاعر قد أقوى في هذه القصيدة في أربعة مواضع ( البيت ٦ ، ٨ ، ١٣ ، ١٤ ) ، وكلها جاءت بالرفع ، فالرفع أقرب إلى الجر في الرسم من النصب .

ما قَتَلُوهُ عَلَى ذَنْبٍ أَلَمَ بِهِ إِلَّا الَّذِي نَطَقُوا زوراً وَلَمْ يَكُنْ<sup>(١)</sup>

وقد كان من نتيجة فتنة مقتل عثمان أن افترقت الأمة لمقتله بعد أن كانت على قلب رجل واحد قبل ذلك ، فظهرت الشيعة وصارت أشبه بهيئة غير خفية معترف بها من الأمة ، وقام في مقابلتها الناصبة أو العثمانية في الشام وأقليات في الأمصار ، وهم الذين ينزعون إلى تأنيث علي في شأن عثمان ، ويحملونه تبعة قتله . وأقلهم طعنا عليه من يقول إنه تهاون في شأن قتله فلم يتناولهم بالقصاص الواجب شرعا<sup>(٢)</sup>، حتى وجدنا حسانا يذهب هذا المذهب حين يقول معرضا بعلي بن أبي طالب ونبرة الحزن الشديد على عثمان تتساب من شعره :

بَلْ لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ الطَّيْرَ تُخْبِرُنِي      مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَابْنِ عَفَانَا  
صَحَّحُوا بِأَشْمَطِ عُنوانِ السُّجُودِ بِهِ      يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا  
وَقَرَأْنَا<sup>(٣)</sup>

ويبين حسان ما آل إليه أمر الأمة بمقتل الخليفة من العداوة بعد المودة ، وإدبار الخير بعد إقباله ، وكان ذلك عقاب لها :

فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ أَلْقَى عَلَيْهِمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَعْدَ التَّوَاصُلِ  
وَكَيْفَ رَأَيْتَ الْخَيْرَ أَدْبَرَ بَعْدَهُ      عَلَى النَّاسِ إِدْبَارَ السَّحَابِ الْحَوَافِلِ<sup>(٤)</sup>  
ومع أن كعبا وحسانا قد صورا لنا في ما مضى أن عثمان كان وحيدا قد أسلمه جل الأقارب والأباعد ، إلا أنهما يعودان فيعترفان بأنه لم يكن كذلك ، وأن ناسا كثيرين كانوا معه ، وأن عثمان أغلق عليه بابه ، وأوكل أمره إلى الله ، وطلب من أنصاره أن يلقوا سيوفهم ولا يقاتلوا لئلا يتسبب ذلك في إراقة الدماء التي حقنها عثمان بإراقة دمه هو ، وهذا معنى فيه حكمة وبعد نظر من عثمان نقله لنا حسان قائلا :

فَكَفَّ يَدَيْهِ ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ      وَأَيَّقَنَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ  
وَقَالَ لِأَهْلِ الدَّارِ لَا تَقْتُلُوهُمْ      عَفَا اللَّهُ عَن ذَنْبِ امْرِئٍ لَمْ يُقَاتِلْ<sup>(٥)</sup>  
وآخر معنى تنبيهه في فتنة عثمان هو الدعوة إلى الأخذ بثأره من قتله ، فحسان يتهدد القنلة بالانتقام منهم ، وكان حسانا لم يجد من يشفي غليله ويذهب غيظ قلبه من المهاجرين

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣١٩ .

(٢) انظر عبد الوهاب النجَّار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣٧٢ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٩٦ . وأشمت : شائب الرأس

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١١ . والسحاب الحوافل : الغزيرة المطر . ويروى البيهتان أيضا لكعب بن مالك أيضا وهما من قطعة مكونة من أربعة أبيات ، انظر ديوان كعب بن مالك ، ص ٩٢ .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٥١١ . ويروى البيهتان والقطعة التي هما منها لكعب بن مالك أيضا ، انظر ديوان كعب بن مالك ، ص ٩١-٩٢ .

والأنصار من أهل المدينة ، فوجدناه قد لجأ إلى جند الشام وأميرهم معاوية بن أبي سفيان يتوعد بهم المارقين الذين سفكوا دم أمير المؤمنين :

لَتَسْمَعَنَّ وَشَيْكاً فِي دِيَارِكُمْ      اللَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَا  
وَقَدْ رَضِيَتْ بِأَهْلِ الشَّامِ زَافِرَةً      وَبِالْأَمِيرِ وَبِالْإِخْوَانِ إِخْوَاناً<sup>(١)</sup>  
ويضم حسان نفسه إلى أهل الشام الساعين إلى النيل من القتلة ، ويصرح بأنه واحد منهم حتى يُقْتَصَّ من القاتل أو يموت دون ذلك :

إِنِّي لَمِنْهُمْ وَإِنْ غَابُوا وَإِنْ شَهِدُوا      حَتَّى الْمَمَاتِ وَمَا سُمِّيْتُ حَسَانَا  
وَيَهَا فِدَى لَكُمْ أُمِّي وَمَا وَلَدَتْ      قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي الْمَكْرُوهِ أحياناً<sup>(٢)</sup>

ويدعو حسان دعوة صريحة إلى الحرب وإعداد العدة لها ، ولو كلف ذلك فناء النفوس حتى تعود الهيبة للخلافة ، فلا يتجرأ عليها أحد من بعد :

شُدُّوا السُّيُوفَ بِيْثِي فِي مَنَاطِقِكُمْ      حَتَّى يَحِينَ بِهَا فِي الْمَوْتِ مَنْ حَانَا  
لَعَلَّكُمْ أَنْ تَرَوْا يَوْمًا بِمَغْبَطَةٍ      خَلِيفَةُ اللَّهِ فِيكُمْ كَالَّذِي كَانَ<sup>(٣)</sup>  
وليس المرجفون في مقتل عثمان ومقتل أهل الدار بأقل ذنبا من قتلته ، ولن يكونوا بمنجاة من المطالبة بدمه ، فهم فيه سواء :

لَا يَحْسَبَنَّ الْمُرْجِفُونَ بِأَنَّهُمْ      لَنْ يُطْلَبُوا بِدِمَاءِ أَهْلِ الدَّارِ<sup>(٤)</sup>

تلك هي أهم المعاني التي نجدها في موقف حسان وكعب من الفتنة ، وفي شعرهما معان أخرى كثيرة مدارها مدح عثمان بن عفان وذكر صفاته الحسنة ومنزلته عند رسول الله ﷺ وما تعلق بذلك .

<sup>(١)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٩٦ . ووشيكاً : قريباً ، ويعني بالأمير : معاوية بن أبي سفيان والي الشام لعثمان بن عفان آنذاك .

<sup>(٢)</sup>المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩٦ . وويها : قال صاحب اللسان : وَيَهَا : إغراء ، ومنهم من يُنُونُ فيقول وَيَهَا ، الواحد والاثنتان والجمع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء ، وإذا أَغْرَيْتَهُ بالشئِ قُلْتَ : وَيَهَا يَا فُلَانٌ ، وهو تُخْرِضُ كَمَا يُقَالُ : دُونَكَ يَا فُلَانٌ (لسان العرب ، مادة "ويه") .

<sup>(٣)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٩٦ . وَالتَّيِّي : القوة والطاقة ، وجمعه أثناء ومثاني (انظر لسان العرب ، مادة تئى) ، والمناطق : جمع منطوق : وهو ما تشد به وسطك (لسان العرب ، مادة "نطق") ، ومغبطة : سرور .

<sup>(٤)</sup>ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٩١ . والمرجفون : من أرجف القوم : إذا خاضوا في الأخبار السيئة من أمر الفتنة ونحوها .

ولعل هذا الحب الشديد لعثمان الذي نلاحظه في شعر كعب وحسان يعود إلى أن كليهما كان يتعصب لعثمان. فقد ذكر محمد بن حبيب وهو يورد بعض قصائد حسان في رثاء عثمان أن حسان بن ثابت كان عثمانيا منصرفا عن غيره ، وكان عثمان محسنا إليه<sup>(١)</sup>. أما كعب بن مالك فقد كان موضع ثقة عثمان ، إذ جعله على صدقات مُزَيَّنة<sup>(٢)</sup> ، فرأينا كعبا قد وقف إلى جانب عثمان ، فواكب الفتنة من أولها إلى آخرها ، وكان ممن دافع عن عثمان وبقي إلى جانبه حتى الرمق الأخير<sup>(٣)</sup>، وقد قُتِلَ حفيده عبدالله بن عبد الرحمن يوم الدار<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر متن ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٧٧ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

(٣) انظر البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ج ٤ ، ص ٣٣ .

### ج - موقفهم من حرب علي ومعاوية

كانت الفتن التي حدثت في خلافة علي بن أبي طالب نتيجة لفتنة عثمان ومقتله ، فقد أشرنا إلى أن الناس قد انقسمت فرقا وشيعا ، ففضلا عن الشيعة أنصار علي ، والناصبية <sup>(١)</sup> أعداء علي أنصار عثمان المطالبين بدمه ، ظهرت فرقة أخرى هي الخوارج ، وهؤلاء حرب على علي ومعاوية ، إذ يرون أنهم هم الذين فرقوا أمر المسلمين ، لذلك خططوا لقتلها معا ، ومعهما عمرو بن العاص حليف معاوية ، وكان ما كان من قتل علي بن أبي طالب ونجاة الآخرين <sup>(٢)</sup> .

وقد بويع علي بالخلافة بعد مقتل عثمان ، فبايعه جميع من كان بها من الصحابة رضي الله عنهم ، إلا جمعا من الأنصار منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وزيد بن ثابت ، والنعمان بن بشير وغيرهم ، نهم كانوا عثمانية يميلون إلى عثمان ، كما لم يبايعه عامة بني أمية الذين هربوا إلى الشام <sup>(٣)</sup> .

ولا نجد لحسان وكعب شيئا من الشعر في حرب علي ومعاوية ، وقد ذكر ابن حجر أن البخاري اقتصر في ذكر وفاة كعب بن مالك على أنه رثى عثمان ، وأنه لم يوجد له في حرب علي ومعاوية خبر <sup>(٤)</sup> . كما ذكر ابن حجر <sup>(٥)</sup> نقلا عن صاحب الأغاني أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير دخلوا على علي فناظروه في شأن عثمان وأنشده كعب شعرا في رثاء عثمان ثم خرجوا من عنده فتوجهوا إلى معاوية فأكرمهم <sup>(٦)</sup> .

ومن النظر في كتب تراجم الصحابة نجد خلافا في وفاة هذين الشاعرين ، لكن عامة هذه التراجم قد ذكرت أن الشاعرين كعبا وحسانا قد توفيا في خلافة علي بن أبي طالب ، وأنهما كان حيين عند بيعته ، وإخال أنهما لم يشهدا ما حدث بين علي ومعاوية ، وإلا لكان لهما شعر يذكر كما رأينا من شأنهما في الأحداث عامة ، ولعل هذا يعلل لنا سبب انعدام شعرهما في تلك الأحداث . أما الشاعر الوحيد الذي نجد له شعرا في الأحداث التي جرت بين علي ومعاوية فهو

(١) التَّوَّاصِبُ والتَّاصِيَّةُ وأهل النَّصَبِ: الْمُتَدَبِّعُونَ بِيَغْضَةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ نَصَبُوا لَهُ أَيْ : عَادَوْهُ ( انظر القاموس المحيط ، مادة "نصب") .

(٢) انظر الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ( تاريخ الطبري ) ، ج ٣ ، ١٥٩ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٩٨ .

(٤) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ٥ ، ص ٦١١ ، لكنني لم أجد هذا الخبر في صحيح البخاري .

(٥) انظر المرجع نفسه ، ج ٥ ، ص ٦١١ .

(٦) انظر الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٢ ، ص ١٦٧ .

الشاعر خُزَيْمة بن ثابت الأنصاري<sup>(١)</sup> . وقد وقفت من شعره على بضعة وثلاثين بيتا كلها قالها في علي بن أبي طالب في حربه مع ومعاوية .

ونجد أصداء في شعره لببيعة علي بن أبي طالب يؤيد فيه هذه البيعة ، فقد قال لما بويج

علي بن أبي طالب على منبر رسول الله ﷺ وهو واقف بين يدي المنبر :

إذا نحنُ بايعنا عليًّا فحسبنا أبو حسن مما نخاف منَ الفتنِ  
وجدناه أولى الناس بالناس إنَّه أطبُّ قريش بالكتاب وبالسُّننِ  
وإن قريشًا ما تَشقُّ غِبَارَهُ إذا ما جرى يوما على الضُّمَرِ البُدنِ  
وفيه الذي فيهم من الخير كُلِّهِ وما فيهم كلُّ الذي فيه من حسن<sup>(٢)</sup>

فخزيمة يرى في عليٍّ الإمام الجدير بالخلافة ، القادر على قمع الفتن ، وهو أعلم الناس بالقرآن والسنة ، وهو الشجاع المتمرس في الحرب ، وهو الذي ليس في أحد ما فيه من خصال الخير . ويتابع خزيمة الثناء على علي بن أبي طالب معددا ما فيه من خصال تجعله جديرا بالخلافة ، فهو وصي النبي ﷺ<sup>(٣)</sup> ، وهو فارس الإسلام الذي يتصدر لمبارزة أشجع الأعداء في كل وقعة ، وأول من صلى بالناس من الرجال<sup>(٤)</sup> ، من أجل ذلك كله يقدمه خزيمة على غيره ما عاش دون أن يرى من يضاهيه في خصاله :

وصيُّ رسول الله من دون أهله وفارسُه قد كان في سالفِ الزمَنِ  
وأولُ من صلَّى من الناس كُلِّهم سوى خيرة النَّسوانِ والله ذو مِنَّنٍ  
و صاحبُ كبشِ القوم في كلِّ وقعة تكون لها نفسُ الشجاع لدى الدَّقْنِ

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة بن عامر بن بن عامر بن خُثَمة بن جُثَمة بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي ، من السابقين الأولين شهد بدرا وما بعدها ، وقد لقب بذي الشهادتين لأن النبي ﷺ أجاز شهادته بشهادتين ، حين قال يهودي : يا محمد ، اقضني ديني . فقال رسول الله ﷺ : أولم أقضك دينك؟ قال : لا ، إن كان لك بينة فهايتها . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : أيكم يشهد أني قضيت اليهودي ماله؟ فقال خزيمة : أنا أشهد يا رسول الله . فقال له : وكيف تشهد بذلك وأنت لم تحضرنا ولم تعلم ذلك؟ فقال : يا رسول الله ، نحن نصدقك في الوحي من السماء ، أفلا نصدقك في قضاء دين يهودي ؟ فأنفذ شهادته وسمَّاه ذا الشهادتين . وقد شهد خزيمة بن ثابت وقعة الجمل وهو لا يسل سيفاً ، وشهد صفين وقال : أنا لا أقاتل أبداً حتى يقتل عمار ، فأنظر من يقتله ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية ، فلما قتل عمار قال : قد بانئت لي الضلالة ثم اقترب فقاتل حتى قتل ، وذلك سنة ٣٧هـ (انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ، وابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ١ ، ص ١٣٣) .

(٢) انظر الأبيات عند الحاكم ، المستدرک ، ج ٣ ، ص ١٢٤ . وأطب قريش : أعلمها ، والضمير البدن : النوق المهضمة البطن اللطيفة الجسم .

(٣) وهذا إشارة إلى قول رسول الله ﷺ لعلي : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي . قال القاضي عياض : وهذا الحديث مما تعلقت به الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة في أن الخلافة كانت حقاً لعلي وأنه وصي بها . قال : ثم اختلف هؤلاء ، فكفرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره ، وزاد بعضهم ، فكفر علياً لأنه لم يقم في طلب حقه بزعمهم ، وهؤلاء أسخف مذاهب وأفسد عقلا من أن يرد على قولهم أو يناظروا (انظر الحديث والتعليق عليه في صحيح مسلم ، ج ٤ ، ص ١٨٦٧) .

(٤) قيل إن علي بن أبي طالب أول من صلى مع النبي ﷺ (روى ذلك الحاكم في المستدرک ، ج ٣ ، ص ٥٧١) ، وقيل إن أول من صلى معه أبو بكر الصديق (الطبراني ، المعجم الأوسط ، ج ٢ ، ص ٢٩٠) ، وقد تناولنا شعرا شبيها بهذا لخزيمة بن ثابت عند الحديث عن موقفه من خلافة أبي بكر . انظر ص ١٨٩ من هذه الدراسة .

فذاك الذي تُثْنِي الخناصرُ بِاسْمِهِ إِمَامُهُمْ حَتَّى أُغَيَّبَ فِي الْكَفَنِ<sup>(١)</sup>

ولم يقتصر خزيمة بن ثابت على تأييد علي بالقول ، بل لقد شفع ذلك بالفعل كما قدمنا في ترجمته ، فهو قد شهد وقعة الجمل ولم يسلم سيفه ، وهذا يدلنا على أن خزيمة كان في قرارة نفسه مترددا في قتال خصوم علي من المسلمين ، فهو حائر لا يدري ما يفعل ، لكنه حين رأى تحقق نبوءة الرسول ﷺ الذي أخبر بمقتل عمار على يد الفئة الباغية<sup>(٢)</sup> ، استيقن أن فئة معاوية هي الباغية ، فخاض حرب صفين إلى جانب علي ضد تلك الفئة . ويصف لنا خزيمة جانبنا من هذه الحرب التي دخلت يومها الثالث، فيقول مرتجزا وهو يحمل على القوم :

قد مرَّ يومان وهذا الثالثُ

هذا الذي يلهثُ فيه اللاهثُ

هذا الذي يبحث فيه الباحثُ

كم ذا يُرَجِّي أَنْ يَعِيشَ الماكثُ

الناسُ موروثٌ ومنهم وارثُ

هذا عليٌّ من عصاه ناكثُ<sup>(٣)</sup>

فهو يبين لنا أن الوقوف إلى جانب علي هو ما يرمي إليه ، وأن من يقف إلى جانب خصومه قد نقض البيعة وخان عهد الإمام . ويبدو لنا أن خزيمة قد اكتفى في وقعة الجمل بقرظ الشعر والتحريض على القتال ، والفخر بقومه من الأوس والخزرج الذين وقفوا مع علي في حربه ، وذنم أهل الشام الذين خرجوا على الإمام ، وبدت منهم البغضاء ، فيقول مشيرا إلى هزيمة أهل الشام بقيادة معاوية ، وخلص علي وأنصاره إلى جمل عائشة رضي الله عنها وردها إلى المدينة سالمة :

ليس بين الأنصار في جَحْمَةِ الحربِ وَبَيْنَ الْعُدَاةِ الا الطَّعَانُ

<sup>(١)</sup> هذه الأبيات تنتمي للأبيات السابقة . انظرها عند ابن شهر آشوب (أبي عبد الله رشيد الدين المازندراني) ، مناقب آل أبي طالب ، ص ٢٩٣ .

وخيرة النسوان : أراد خديجة ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن جعفر قال : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : "خير نسائها - أي الدنيا - مريم ابنة عمران ، وخير نسائها خديجة" . انظر صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ١٢٦٥ ، ومن : جمع مئة ، وهي العطية ، وكبش القوم : سيدهم ورئيسهم ، وقوله : "تكون لها نفسُ الشجاع لدى الدَّقْنِ" كناية عن شدة الخوف ، والدَّقْنُ : بفتح الذال والقاف ، ولم أجدها بسكون القاف كما هو شائع بين العامة ، وقوله : " تُثْنِي الخناصرُ بِاسْمِهِ" : قال صاحب اللسان : يقال للرجل الذي يُبْدَأُ بذكره في مَسْعَاةٍ أو مَحْمَدَةٍ أو عِلْمٍ : فلان به تُثْنِي الخناصر أي تُحْتَى في أول من يُعَدَّ ويُذَكَر (انظر لسان العرب ، مادة "ثنى") .

<sup>(٢)</sup> روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : " ويح عمار ، تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " . انظر الحديث وتنتميه عند البخاري في صحيحه ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

<sup>(٣)</sup> انظر الأبيات عند نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٣٨٢ .

والماكث : من المكث ، وهو البقاء ، وناكث : أي ناقض العهد والبيعة ( انظر لسان العرب ، مادة "نكث" ) .



فادْعُهَا تَسْتَجِبُ فَلَيْسَ مِنَ الْخَرْجِ وَالْأَوْسُ يَا عَلِيُّ جَبَانُ  
 يَا وَصِيَّ النَّبِيِّ قَدْ أَجَلَّتِ الْحَرْبُ الْأَعَادِي وَسَارَتْ الْأَطْعَانُ  
 وَاسْتَقَامَتْ لَكَ الْأُمُورُ سِوَى الشَّامِ وَفِي الشَّامِ تَظْهَرُ الْأَضْغَانُ  
 حَسْبُهُمْ مَا رَأَوْا وَحَسْبُكَ مِثًّا هَكَذَا نَحْنُ حَيْثُ كُنَّا وَكَانُوا<sup>(١)</sup>

تلك أهم الأحداث التي تناولها شعر خزيمة بن ثابت في حرب علي ومعاوية ، تبينا موقف الشاعر منها ، ولخزيمة عدا ذلك غير قصيدة اقتصر فيها على مدح الإمام علي وبيان فضائله وخصاله<sup>(٢)</sup> .

وبعد ، فنختم الحديث عن عهد الخلفاء الراشدين بالقول إنه من تناولنا للعصبية القبلية في عصر الرسول ﷺ تبين لنا بوضوح بأنها كانت أو هن من بيت العنكبوت ، حتى إذا جاء العصر الراشدي بدأت تطل برأسها بدءا من عصر عثمان رضي الله عنها ، أما أبو الصديق وعمر رضي الله عنهما فقد قمعا كل ما قرب إلى عصبية أو فتنة حتى لم يختلف عصرهما كثيرا عن عصر صاحبها ﷺ ، وأما عثمان فقد أطمع لينه به الناس ، فكان عهده خصبا لنمو العصبيات ، وحوك الدسائس ، وما رافق ذلك من انفلات في أطراف الدولة الإسلامية وكثرة المرجفين . ولم يكن عهد علي بن أبي طالب بأكثر استقرارا من عهد عثمان رضي الله عنه ، فقد تفاقمت فيه الأمور ، وشرأب أصحاب الأهواء ، وخرج الأمر عن سيطرته ، وطمع الأمويون في الخلافة حتى كان لهم ما أرادوا ، وبذلك بدأ عصر جديد كانت العصبية فيه هي السمة الغالبة عليه .

<sup>(١)</sup> انظر الأبيات عند نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ، ص ٣٨٤ ، وانظر أشعارا أخرى لخزيمة بن ثابت يوم الجمل في المصدر نفسه ، ص ٣٨٤-٣٨٥ . وجمة الحرب : توقدها (لسان العرب، مادة "جـم") ، وأجلت الحرب : انكشفت ، والأطعان : جمع طعينة ، وهي اليهودج الذي تكون فيه المرأة ، وأظنه يريد هنا اليهودج الذي كانت فيه عائشة يوم الجمل .

<sup>(٢)</sup> انظرها عند البيهقي ، المحاسن والمساوئ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٩٣ .

### الفصل الثالث

#### الدراسة الفنية

١ - بناء القصيدة

٢ - الوزن والقافية

٣ - الألفاظ والتراكيب

٤ - المعاني :

أ. معانيهم الجاهلية

ب. معانيهم الإسلامية

تشكل المقطعات في شعر الأوس والخزرج الجاهلي والإسلامي نسبة كبيرة من هذا الشعر ، ولعل ذلك يعود إلى أمرين :

**الأول:** أن عددا كبيرا من القصائد التي أوردتها المصادر المختلفة قد وصلت إلينا مبتورة ، إذ إن كثيرا منها جاءت في تلك المصادر شاهدا على أمر ما ، فاكثفي منها بإيراد الأبيات التي هي موطن تلك الشواهد ، ولا أعني بذلك الشواهد النحوية التي تقتصر في الغالب على أبيات مفردة ، بل الشواهد اللغوية والأدبية والتاريخية التي تتضمن قصة أو معنى أو حادثة أو غير ذلك.

**الثاني :** أن ذلك قد يعود إلى طبيعة الظروف التي قيل فيها شعرهم ، فقد كانت في معظمها ظروف حرب ونزاع مستمر ، سواء في الجاهلية أو في الإسلام ، وهي ظروف تستدعي - في الأغلب - الارتجال وعدم الإطالة.

وعلى ذلك فإننا سوف نستبعد هذه المقطعات من حديثنا عن بناء القصيدة أخذا بالرأي القائل إن الأبيات إذا بلغت سبعة فهي قصيدة <sup>(١)</sup>. ولعله يجمل بنا ونحن نطرق هذا الموضوع أن نقدم بين يديه بعض المعلومات الإحصائية التي تساعدنا في الوقوف بوضوح على بناء القصيدة في شعرهم .

ومن استقرائي شعر الأوس والخزرج جاهليا وإسلاميا صنعت الجدول الآتي الذي يبين عدد القصائد في شعرهم ، ومعدل عدد الأبيات في هذه القصائد :

(١) يتبنى ابن رشيق هذا الرأي قائلا : "لهذا كان الإبطاء بعد سبعة أبيات غير معيب عند أحد من الناس". ويذكر ابن رشيق أيضا أن من الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزه ولو ببيت واحد . انظر كل ذلك عند ابن رشيق ، العمدة ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

جدول (١٠): عدد القصائد في شعر الأوس والخزرج ومعدل عدد الأبيات فيها

عدد القصائد	معدل عدد الأبيات فيها	
<b>الشعر الجاهلي</b>		
حسان بن ثابت	٣٠	٤٤-٧
قيس بن الخطيم	١٨	٣٨-٨
أبو قيس بن الأسلت	٦	٣٥-٧
عبدالله بن رواحة	٣	٣٦-٧
أحيحة بن الجلاح	٣	٢٤-٧
كعب بن مالك	-	-
ماجمعه داود غطاشة	٢١	٢٧-٨
ما غفل عنه داود غطاشة	٢	٣١ ، ٩
<b>مجموع قصائد الأوس والخزرج الجاهلية</b>	<b>٨٣</b>	<b>٤٤-٧</b>
<b>الشعر الإسلامي</b>		
حسان بن ثابت	٩١	٤٤-٧
كعب بن مالك	٢٩	٤٩-٧
عبدالله بن رواحة	٥	١٦-٨
في غير الدواوين	٣	١٧-١٠
<b>مجموع قصائد الأوس والخزرج الإسلامية</b>	<b>١٢٨</b>	<b>٤٩-٥</b>

ذاك هو كل ما للأوس والخزرج من قصائد جاهلية وإسلامية ، وأما ما عدا ذلك فمقطعات صغيرة . وبإنعام النظر في تلك القصائد نجد أنها قد تباينت في بنائها الفني ، سواء القصائد الجاهلية أم الإسلامية ، غير أن التقليد العام في الشعر الجاهلي اقتضى أن يكون للقائدة الجاهلية مقدمة يجعلها الشاعر بين يدي الموضوع الذي هو بصدده ، لكن شعراء الجاهلية - ومنهم شعراء الأوس والخزرج - لم يلتزموا هذا النهج من البناء في كل قصائدهم ، فدخلوا في عدد كبير منها إلى موضوعات شعرهم دون تمهيد ، وغالبا ما كان ذلك في مواقف انفعالية طارئة تقتضي العجلة في النظم ، ولا تحتل مثل تلك المقدمات .

ولم يغفل النقاد القدامى ظاهرة ترك المقدمات والشروع في القصيدة دون تمهيد ، فقد أشار إليها ابن رشيق فقال : "ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب، بل يهجم على ما يريد مكافحة ، ويتناول مصادفة، وذلك عندهم هو: الوثب، والبتر، والقطع، والكسع، والاقتضاب، كل ذلك يقال.. والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء ، كالخطبة البتراء والقطعاء ، وهي التي لا يُبتدأ فيها بحمد الله عز وجل على عادتهم في الخطب"<sup>(١)</sup> .

وفضلاً عن حديث النقاد عن القصائد البتراء ، وذكرهم أن الأصل والغالب في القصيدة أن يكون لها مقدمة ، وأن خلوها من المقدمة جاء على غير الأصل ، فقد تناولوا أيضاً - وهم يدرسون تلك المقدمات - ظاهرة أخرى ، وهي خلو قصائد الرثاء خاصة من المقدمات ، فيقول ابن رشيق في ذلك : "ليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون في المدح والهجاء"<sup>(٢)</sup> . ويروي ابن رشيق عن ابن السائب الكلبي أنه قال: لا أعلم مَرثيةً أولها نسيب إلا قصيدة دُرَيْد بن الصَّمَّة :

أَرَتْ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدٍ      بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدٍ<sup>(٣)</sup>

ويعلل ابن رشيق خلو قصائد الرثاء من المقدمات فيقول : لأنَّ الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة ، وإنما تغزل دُرَيْدُ بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره ، وأدرك طليئته<sup>(٤)</sup> .

**ويرجّح** حسين عطوان أن هذه الظاهرة لا ترجع إلى تمرد بعض الشعراء على التقاليد الفنية الثابتة ، ويرى أنها ترجع - في بعض جوانبها - إلى ضياع المقدمات من تلك القصائد الطويلة ، ويطمئن إلى ذلك في تعليل هذه الظاهرة مؤيداً ما ذهب إليه بقصيدة النابغة الذبياني التي رواها الأصمعي خالية من المقدمة ، ومطلعها:

لَقَدْ نَهَيْتُ بَنِي ذُبْيَانَ عَنْ أَقْرِ      وَعَنْ تَرْبُعِهِمْ فِي كُلِّ أَصْقَارٍ

ورواها أبو زيد القرشي بمقدمة تبلغ خمسين بيتاً ، ومطلعها :

عُوجُوا فَحَيُّوا لِنُعْمِ دِمْنَةَ الدَّارِ      مَاذَا تُحْيُونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْجَارٍ<sup>(٥)</sup>

ومن المثال الذي أورده حسين عطوان يذهب إلى أن كثيراً من القصائد سقطت مقدماتها

(١) ابن رشيق ، العمدة ، ص ١٩٥-١٩٦ .

(٢) ابن رشيق ، العمدة ، ص ٤٣٠ . قال حسين عطوان معقياً على قول ابن رشيق هذا : "وهي ملاحظة دقيقة حقاً ، فليس في الشعر الجاهلي مراث استهلها الشعراء بالنسيب إلا قليلاً" ، ثم ذكر لذلك أربعة أمثلة (انظر الدكتور حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية الشعر الجاهلي ، ص ١١١) .

(٣) ابن رشيق ، العمدة ، ص ٤٣١ .

(٤) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

(٥) انظر كلام حسين عطوان في ذلك في كتابه ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، ص ١٠٩ .

، ويعقب قائلا : ليس في ذلك شك<sup>(١)</sup>.

ويُرجع حسين عطوان هذه الظاهرة - في جانب آخر من جوانبها - إلى أن الشعراء كانوا يُضْطَرُّونَ اضطرارا إلى أن يستعجلوا القول ، ولا يبطئوا فيه ، خوفا من ضياع الوقت ، وفوات المناسبة التي تتطلب الرد السريع الحاسم على غير المعهود منهم في سائر قصائدهم<sup>(٢)</sup> . وفي شعر الأوس والخزرج مظاهر أخرى تدل على ما ذهب إليه حسين عطوان ، فقد وجدنا في شعر الأوس والخزرج الجاهلي قصائد مكونة من تسعة أبيات أو ثمانية أو سبعة ، وهي مع ذلك صدرت بمقدمة وصلت أحيانا إلى أربعة أبيات<sup>(٣)</sup> ، فهل يعقل أن ينظم الشاعر قصيدة مكونة من سبعة أبيات مثلا ثم يجعل مقدمتها في ثلاثة أبيات أو أربعة؟ والوجه في ذلك أن يقال إن مثل هذه القصائد ، إما أنها لم تصل إلينا كاملة ، فضاع منها جزءٌ ووصلت إلينا مقدمتها ، أو ضاع جزء من مقدمتها ، أو ضاعت مقدمتها كاملة ، بل إن منها قصائد ضاعت كلها ولم يصل إلينا إلا مقدمتها<sup>(٤)</sup>.

وبالرجوع إلى شعر الأوس والخزرج ، والنظر في قصائدهم الجاهلية والإسلامية المبينة في جدول (١٠) نثبت الجدول الآتي الذي يظهر لنا القصائد ذوات المقدمة الطللية في شعرهم ومعدل عدد أبيات هذه المقدمات:

(١) الدكتور حسين عطوان في ذلك في كتابه ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، ص ١٠٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٠ .

(٣) لمزيد من الأمثلة على ذلك انظر :ديوان حسان ج ١ ، ص ١٩٧ ، وداود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ص ٢٠٧، ٢١٧ ، وحسن محمد باجودة ، ديوان أبي قيس بن الأسلت ، ص ٦٣ ، وصالح البكاري والطيب العشاش ، شعر أحيحة بن الجلاح ، ص ٣١ ، وديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٣٤ .

(٤) في شعر الأوس والخزرج ما يمثل هذا الضرب الأخير . انظر قصيدة لبشير بن سعد عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ص ١٢٤ ، فقد جاءت القصيدة في تسعة أبيات كانت كلها مقدمة دون أي ذكر للموضوع الذي نظمت من أجله .

جدول (١١): قصائد شعراء الأوس والخزرج ذوات المقدمات الطللية ومعدل عدد أبيات هذه المقدمات

الشاعر / الشعر	مجموع القصائد	مجموع القصائد ذوات المقدمة الطللية	معدل عدد أبيات المقدمة
الشعر الجاهلي			
حسان بن ثابت	٣٠	١٩	١٦-٢
قيس بن الخطيم	١٨	١١	١٨-١
أبو قيس بن الأسلت	٦	١	٣
عبدالله بن رواحة	٣	٢	٧ ، ٤
أحيحة بن الجلاح	٣	١	٤
كعب بن مالك	-	-	-
ما جمعه داود غطاشة	21	9	1-7
ما غفل عنه داود غطاشة	٢	-	-
المجموع	٨٣	٤٣	١٨-١
الشعر الإسلامي			
حسان بن ثابت	٩١	٩	١٠-٣
كعب بن مالك	٢٩	١	٤
عبدالله بن رواحة	٥	-	-
في غير الدواوين	٣	-	-
المجموع	١٢٨	١٠	١٠-٣

مما سبق كله نخلص إلى أن قصائد الأوس والخزرج الجاهلية - وهي ثلاث وثمانون قصيدة - قد جاء منها ثلاث وأربعون قصيدة فيها مقدمة ، أي أن نسبة شعرهم الجاهلي الذي جاء بمقدمات هو ٥١،٨ % ، وأن قصائدهم الإسلامية - وهي مئة وثمان وعشرون قصيدة - قد جاء منها تسع قصائد لحسان بن ثابت فيها مقدمة ، وقصيدة واحدة لكعب بن مالك، أي أن نسبة شعرهم الإسلامي الذي جاء بمقدمات هو ٧،٨١ % فقط .

كما يتبين لنا أن مجموع القصائد الجاهلية والإسلامية التي جاءت بمقدمات هي ثلاث وخمسون قصيدة من أصل مجموع قصائدهم الذي هو مئتان وإحدى عشرة قصيدة ، أي أن نسبة قصائدهم الجاهلية والإسلامية التي جاءت بمقدمات هي : ٢٥,١ % من هذا المجموع .

وقد تنوعت صور المقدمة في شعر الأوس والخزرج الجاهلي كما هو الحال في الشعر الجاهلي عامة ، ومن أشهر صور المقدمات<sup>(١)</sup> في شعرهم المقدمة الطللية<sup>(٢)</sup> ، وتعد أبرز المقدمات وأكثرها شيوعاً في الشعر الجاهلي ، ذلك لأنها وجدت هوى شديداً في نفوس الشعراء الجاهليين لارتباطها ببيئتهم المادية ، وطبيعة حياتهم الاجتماعية<sup>(٣)</sup> ، وتمثل هذه الصورة من المقدمات قصيدة حسان التي مطلعها:

أَسَأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تُسَأَلْ      بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبُضِيعِ فَحَوْمَلِ<sup>(٤)</sup>

وتقع المقدمة الطللية هنا في ستة أبيات من أصل ثلاثة وثلاثين بيتاً ، وقف فيها الشاعر على الأطلال التي درست آثارها ، وعفت رسومها بين الجوابي ، فالبضيع ، فحومل ، فمرج الصقر ، فجاسم ، فثبني ، وجميعها من منازل الغساسنة في الشام ، فسألها عن أهلها الظاعنين ، وتحسر على إقفارها من أحبته الذين كانوا يحلون بها ، ووصف تعاقب الرياح في عرصاتهما ، وانهمار الأمطار في ساحاتها ، وكيف طمست معالمها ، وغيرت ما كان يعرفه منها ، ثم يرسل حسان دمه الهتان لِمَا أثارته تلك المنازل الدارسة والديار الموحشة في نفسه من أشجان بعد أن كانت عامرة بأهلها ذوي العز الشامخ والمجد الباذخ ، ثم بعد ذلك كله ينتقل إلى المدح:

فَالْمَرْجُ مَرْجُ الصُّقْرَيْنِ فَجَاسِمٌ      فِدْيَارُ ثُبْنَى دُرْسَالِمْ تُحْلَلُ  
أَقْوَى وَعُطِّلَ مِنْهُمْ فَكَأَنَّهُ      بَعْدَ الْبَلَى أَيْ الْكِتَابِ الْمُجْمَلِ  
دِمْنٌ تَعَاقَبَهَا الرِّيحُ دَوَارِسٌ      وَالْمُدْحِجَاتُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَعَزَلِ  
فَالْعَيْنُ عَانِيَةٌ تَفِيضُ دُمُوعَهَا      لِمَنَازِلِ دَرَسَتْ كَأَنَّ لَمْ تُؤْهَلِ

(١) انظر صور هذه المقدمات عند حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، ص ١١٤-١٧٤ ، ويوسف خليف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ١٢٣-١٦٩ .

(٢) انظر الدكتور حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، ص ١١٦ ، ويوسف خليف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ص ١٢٣ .

(٣) يوسف خليف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ص ١٢٣ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٧٤ . والجوابي : جمع جابية ( بكسر الباء وياء مخففة ) ، وأصله في اللغة الحوض الذي يجبي فيه الماء للابل ، والمراد هنا : قرية من أعمال دمشق من عمل الجيود من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران (انظر ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "الجابية") ، والبضيع ( مصغر ، ويروى بالفتح في هذا البيت ) : جبل بالشام أسود (انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة "البضيع") ، وحومل: اسم موضع ، وذكر البكري أنه اسم رملة بأطراف الشقيق وناحية الحزن لبني يربوع وبني أسد ، وساق بيت حسان شاهداً على ذلك . (انظر البكري ، معجم ما استعجم ، مادة "حومل") .



دارٌ لقومٍ قد أراهم مرةً فوق الأعزّة عزّهم لم يُنقل<sup>(١)</sup>  
وعلى الرغم من أن حسناً لم يكن من سكان البوادي ، وإنما من أهل المدن إلا أنه لم يستطع  
أن يتخلص من التقاليد الفنية البدوية أو الخروج عليها بحيث يبتدع نظاماً جديداً لمقدمات  
قصائده ، أو يخالف كل المخالفة نظامها عند شعراء البوادي<sup>(٢)</sup> ، يستوي في ذلك الشعراء الذين  
أمضوا حياتهم فيها أو رحلوا إليها أو وفدوا على قصور الملوك التي كانت تزخر بالألوان  
الحضارة<sup>(٣)</sup> ، غير أن الصورة العامة للمقدمة الطللية كانت تختلف من شاعر إلى آخر في  
التفاصيل والجزئيات ، أو في طريقة العرض ، أو اختيار الألوان والزوايا ، أو في توزيع  
الظلال والأضواء ، فمثل هذا الاختلاف طبيعي في كل عمل فني أصيل<sup>(٤)</sup>.

ومن صور المقدمة الأخرى التي نجدها في شعرهم المقدمة الغزلية<sup>(٥)</sup>. ويمكن القول  
إنّ المقدمة الغزلية قد انتشرت في الشعر الجاهلي انتشاراً لا يقل عن انتشار المقدمة الطللية<sup>(٦)</sup> ،  
وإلى جانب سعة انتشار المقدمات الغزلية في الشعر الجاهلي ، فهي أقرب المقدمات نسباً إلى  
المقدمة الطللية<sup>(٧)</sup> ، ففي المقدمة الطللية كانت ديار الحبيبة هي مدار حديث الشاعر واهتمامه ،  
وفي المقدمة الغزلية كانت الحبيبة نفسها هي محور اهتمامه . وتتناول المقدمة الغزلية عند  
الجاهلي غالباً شيئين :

الأول : وصف الحبيبة وصفاً مادياً أو معنوياً . ويلاحظ أن التغني بالجمال الحسي الجسدي  
هو الغالب في معظم هذه المقدمات ، ويعلل هذا الأمر حسين عطوان ، ويذكر أن السبب في  
ذلك هو أن الوصف الجسدي " يتلاءم مع صورة الحياة الجاهلية الوثنية ، فقد كان العرب لا  
يزالون ماديين لم ترتق أذواقهم ، ولم تتبل مشاعرهم ، ولذلك يكون هذا الضرب من الغزل

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٧٤. ومرج الصقر (بالضم وتشديد الفاء) : موضع بدمشق ، أو على أربعة فراسخ منها)  
انظر معجم البلدان ، مادة "حومل" ، ومادة "مرج الصفر" ، وجاسم : قرية بطرف الجولان ، بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ على  
يمين الطريق إلى طبرية (معجم البلدان ، مادة "جاسم" ) ، وتبنى (بالضم ثم السكون وفتح النون والقصر ) : بلدة بحوران من  
أعمال دمشق (معجم البلدان ، مادة "تبنى" ) ، قلت : وهي اليوم قرية معروفة من قرى محافظة إربد في الأردن ، والمدجنات :  
الأمطار الغزيرة ، والسماك : نجم معروف ، وهما سماكان : رامج وأعزل (انظر لسان العرب ، مادة "سمك") ، وعانية : سائلة بالدمع  
قلت : ولا أدري لِمَ نثى الشاعر "الصقر" فقال : الصفرين ، فلعل ذلك كان لضرورة الشعر كما قال في "الجابية" الجوابي في  
البيت السابق ، ذاك أني لم أجد من أورد هذا اللفظ مثني ، لا في كتب البلدان ، ولا في المعاجم اللغوية ولا في كتب الأدب ،  
فضلاً عن أني لم أجد هذه التثنية وقعت شعراً ونثراً إلا في بيت حسان هذا ، والمصادر التي أوردت البيت - وعلى رأسها  
ديوان حسان - لم تشر إلى تثنية هذا اللفظ .

(٢) د.حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، ص ١١٧.

(٣) المرجع نفسه ، ص ١١٧.

(٤) يوسف خليف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ص ١٢٥.

(٥) انظر المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، والدكتور حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، ص ١٢٨ .

(٦) انظر د.حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، ص ١٣٦.

(٧) يوسف خليف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ص ١٤٧.

الصق بنفوسهم" (١).

وكلام حسين عطوان السابق ينسحب على جانب كبير من الشعر الجاهلي ، لكننا لا يمكن أن نعممه على الشعر الجاهلي كافة ، إذ لم تكن الأوصاف الحسية للمرأة في الشعر الجاهلي هي الوحيدة ، ولا كانت نظرة الشعراء الجاهليين للمرأة واحدة ، فثمة قصائد جاهلية كثيرة اشتملت على الأوصاف المعنوية للمرأة دون الحسية ، وأخرى جمعت بين الأمرين ، وهذا يدل على أن الشعر الجاهلي قد ارتقى في جانب غير قليل منه في نظرته إلى المرأة ، فلم تعد مجرد جسد يوصف ، ولا جمال يتغنى به . ولم يقتصر ورود الأوصاف الحسية للمرأة على جانب كبير من الشعر الجاهلي ، فوصف المرأة حسيا ومعنويا هو مدار حديث الشعراء قديما وحديثا ، وحتى في الغزل العذري نجد وصفا حسيا ، لكنه قليل بالقياس إلى غيره من الشعر .

**الثاني :** تصوير عواطفه ومشاعره تجاهها ، والحديث عن الصد والهجر ، والحنين والهيام ، والوصل والفراق ، وما يتصل بذلك من موضوعات . ومن هذه المقدمات المقدمة التي نجدها عند عبدالله بن رَوَاحَة في قصيدة له مكونة من ستة وعشرين بيتا ، يقول في مقدمتها التي جاءت في سبعة أبيات :

تَذَكَّرَ بَعْدَمَا شَطَّتْ نَجُودَا	وَكَانَتْ تَيَّمَتْ قَلْبِي وَلَيْدَا
كَذِي دَاءٍ يُرَى فِي النَّاسِ يَمْشِي	وَيَكُنُّ دَاءَهُ زَمَنَا عَمِيدَا
تَصِيدُ عَوْرَةَ الْفَتَيَانِ حَتَّى	تَصِيدَهُمْ وَتَشْنَأُ أَنْ تَصِيدَا
فَقَدْ صَادَتْ فُؤَادَكَ يَوْمَ أَبَدَتْ	أَسِيلَا خَذَهَا صَلَّتَا وَجِيدَا
تَزِينُ مَعَاقِدَ اللَّبَاتِ مِنْهَا	شَنُوفًا فِي الْقَلَائِدِ وَالْفَرِيدَا
فَإِنْ تَضُنَّنَ عَلَيْكَ بِمَا لَدَيْهَا	وَتَقْلِبَ وَصَلَ نَائِلَهَا جَدِيدَا
لَعَمْرُكَ مَا يُؤَافِقُنِي خَلِيلٌ	إِذَا مَا كَانَ ذَا خُفِّ كُنُودَا (٢)

فهو يقتصر هنا على ذكر المحبوبة : رحيلها ، وعلوق حبها بقلبه وتنتييمها له ، وجانب من صفاتها الجسدية وزينتها ، وتغيرها عليه وضئها بالوصال ، ونلاحظ أن الشاعر هنا لم يذكر شيئا من ديار المحبوبة .

(١) د.حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، ص ١٣٦ .

(٢) ديوان عبدالله بن رَوَاحَة ، ص ١١٧ . وشطت : بعدت ، ونجود : اسم امرأة . قلت : وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، والألف في آخرها ألف الإطلاق ، وقد وقع هنا مفعولا به للفعل "تذكر" ، وفصل بينه وبين عامله بجملة "بعدها شطت" ، وفاعل "شطت" ضمير مستتر تقديره هي ، والعميد : المريض لا يستطيع الجلوس من مرضه ، حتى يُعَمَدَ من جوانبه بالوسائد ، أي يُقَامُ (تاج العروس ، مادة "عمد") ، والعورة هنا : موطن الضعف ، وتشنأ : تكره وتبأى ، والمعنى : أنها تصيدهم عن غير عمد منها كراهة لذلك ، والأسيل : الخد الأملس الطويل ، والصلت : الجبين الأبيض الواضح ، ومعقد اللبّات ، العنق ، واللثة : وسط الصدر والعنق ، والشنوف : جمع شَنَفَ ، وهو الفُرط ، والفريد : جمع فريدة ، وهي الشذرة من الفضة أو الجوهرة النفيسة ، والمعنى أن منحراها وعنقها يضيفان على الحلي جمالا ، والكنود : الجود (انظر تفسير الأبيات كلها في ديوان عبدالله بن رَوَاحَة ، ص ١١٧-١١٨).

وقد يجمع الشاعر بين المقدمة الطللية والغزلية ، وهو كثير في شعر الأوس والخزرج ، وهذه هي الصورة الثالثة من صور المقدمات في شعرهم الجاهلي ، ومن هذا الضرب قصيدة قيس بن الخطيم التي جاءت مقدمتها في خمسة أبيات ، وفيها يذكر ديار الحبيبة في بيتين ، ثم يتغزل بجمال المحبوبة في ثلاثة أبيات ، وفي البيت السادس يدلّف إلى الموضوع الذي هو بصدده ، وهو الحديث عن حرب حاطب :

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كَأَطْرَادِ الْمَذَاهِبِ      لَعَمْرَءٍ وَحْشًا غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبِ  
 دِيَارَ الَّتِي كَادَتْ وَنَحْنُ عَلَى مَنَى      تَحُلُّ بِنَا لَوْلَا نَجَاءُ الرَّاكِبِ  
 تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ      بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنَّتْ بِحَاجِبِ  
 وَلَمْ أَرَهَا إِلَّا ثَلَاثًا عَلَى مَنَى      وَعَهْدِي بِهَا عَذْرَاءَ ذَاتِ ذَوَائِبِ  
 وَمِثْلُكَ قَدْ أَصْبَيْتُ لَيْسَتْ بِكَنَّةٍ      وَلَا جَارَةَ وَلَا حَلِيلَةَ صَاحِبِ<sup>(١)</sup>

وهناك صور أخرى من مقدمات القصائد الجاهلية قليلة التكرار نجدها في شعر حسان بن ثابت خاصة ، منها المقدمة الظعن الغزلية<sup>(٢)</sup> ، والمقدمة الطللية الظعن الغزلية<sup>(٣)</sup> ، ومقدمة الطيف والرحلة<sup>(٤)</sup> ، ومقدمة وصف الليل والظعن<sup>(٥)</sup> ، والمقدمة الطللية الغزلية الوصفية التي تتضمن وصف الناقة والخمر<sup>(٦)</sup> .

وإذا نظرنا في مقدمات القصائد الإسلامية التي وردت في شعر حسان بن ثابت وفي شعر كعب بن مالك وجدنا أنها لا تمثل حقيقة المقدمة التي نعرفها في الشعر الجاهلي ، ولا تسير على منوالها . ومقدمة قصيدة حسان بن ثابت قبيل فتح مكة لا تمثل مقدمات القصائد الإسلامية ، وذلك لوقوع الخلاف في زمنها الذي يرجح أنه كان في الجاهلية<sup>(٧)</sup> .

(١) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٧٦-٨٠ ، وأطراد : تتابع ، والمذاهب : جمع مذهب ، وهو جلد يجعل فيه خطوط مذهبية بعضها في إثر بعض ، فكانها متتابعة ، والمعنى : يلوح رسمها كما يلوح هذا المذهب ، ووحشا : قفرا ، وقوله : "غير موقف راكب" ، يعني نفسه ، والمعنى أن الدار مقفرة ، وليس فيها سواه هو (انظر تفسير البيت والأقوال الأخرى في ذلك في متن ديوان قيس بن الخطيم وحواشيه ، ص ٧٦-٧٧) ، ومعنى البيت الثاني : أنها غلبت على قلوبنا واتصل ذكرها بيننا حتى كادت تحل بنا لقربتها من قلوبنا لولا أن ركائبنا أسرعت ومضت بنا من هذا الموضع (انظر هذا التفسير وتفسيرات أخرى للبيت في متن ديوان قيس بن الخطيم وحواشيه ، ص ٧٨) . وقوله : "بدا حاجبٌ منها وضُنَّتْ بحاجبٍ" : أراد أنها أظهرت له بعض وجهها ، وحاجب : جانب (انظر متن ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٧٩) ، والبيت الأخير عرجنا على معناه عند الحديث عن موقف شعراء الأوس والخزرج الجاهليين من المرأة (انظر ص ٩٦ من هذه الدراسة) .

(٢) قصيدة حسان التي مطلعها : انظرْ خَلِيلِي بَيْطَنَ جَلَقَ هَلْ      تُؤْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ (ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٢٧٩) .

(٣) قصيدة حسان التي مطلعها : أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبَّ الْجَدِيدَ التَّكْلُمَا      بِمَدْفَعِ أَشْدَاخِ فَبُرْقَةِ أَظْلَمَا (ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٣) .

(٤) قصيدة حسان التي مطلعها : إِنَّ النَّصِيرَةَ رَبَّةَ الْخَدْرِ      أَسْرَتْ إِلَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ تُسْرِي (ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٥٢) .

(٥) قصيدة حسان التي مطلعها : نَطَاوَلَ بِالْحَمَانِ لَيْلِي فَلَمْ تَكْد      تَهْمُ هَوَادِي نَجْمِهِ أَنْ تَصَوَّبَا (ديوان حسان ، ج ١ ، ص ١١٦) .

(٦) قصيدة حسان التي مطلعها : مَا هَاجَ حَسَانَ رُسُومُ الْمَقَامِ      وَمَظْعَنَ الْحَيِّ وَمَبْنَى الْخِيَامِ (ديوان حسان ، ج ١ ، ص ١٠٦) .

(٧) انظر تفصيل الكلام في ذلك عند وليد عرفات ، ديوان حسان ج ١ ، ص ١٩ ، و ج ٢ ، ص ٥ .

وإذا تأملنا مقدمات قصائد حسان الإسلامية الثماني الباقية ومقدمة قصيدة كعب بن مالك وجدنا أن جل العناصر والتقاليد المرعية في مقدمات قصائد العصر الجاهلي قد افتقدت في هذه القصائد .

وتتميز مقدمة القصيدة الإسلامية هنا بالإيجاز بالنظر إلى مقدمات قصائد حسان وكعب الجاهلية ، فالشاعر فيها لا يلبث بعد بضعة أبيات أن ينتقل على عجل إلى موضوعه الذي نظم القصيدة من أجله. ونلاحظ في تلك المقدمات وجود أبيات الغزل ، والأوصاف الحسية للمحوبة ، غير أنه غزل مقتصد موجز في الغالب لا يعد في الفحش من القول ، فنجد اثنتين من قصائد حسان اشتملت كل منها على بيت واحد في الغزل الحسي ، فقال من الأولى التي تبلغ أبياتها ثمانية وعشرين بيتا :

لَهَا عَيْنٌ كَحَلَاءِ الْمَدَامِ مَطْفُولٌ      تُرَاعِي نَعَامًا يَرْتَعِي بِالْخَمَائِلِ<sup>(١)</sup>  
فشبه عينها في اتساعها بعين البقرة الوحشية التي تكثر التلفت إلى ولدها . وقال من الثانية التي تبلغ ثلاثة عشر بيتا :

وَجَدَا يَشْعَثَاءِ إِذْ شَعَثَاءُ بِهِكَّةٌ      هَيْفَاءُ لَا دَنْسٌ فِيهَا وَلَا خَوَرٌ<sup>(٢)</sup>  
فوصفها بأنها غضة ، ذات شباب ، رقيقة الخصر ، ضامرة البطن ، عفيفة . كما نجد له قصيدتين أخريين اشتملت الأولى على ثلاثة أبيات في الغزل الحسي ، والثانية على خمسة أبيات ، فقال من القصيدة الأولى التي بلغت أبياتها أربعة وعشرين بيتا :

هَمُّهَا الْعِطْرُ وَالْفِرَاشُ وَيَعْلُوها لُجَيْنٌ وَلَوْ لَوْ مَنْظُومٌ  
لَوْ يَدْبُ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الدَّرِّ عَلَيْهَا لَأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ  
لَمْ تَفْقَهَا شَمْسُ النَّهَارِ بِشَيْءٍ      غَيْرَ أَنَّ الشَّبَابَ لَيْسَ يَدُومُ<sup>(٣)</sup>  
فوصفها بأنها منعمة ، رقيقة الجلد ، جميلة كالشمس . وقال في الثانية التي بلغت أبياتها ثمانية وعشرين بيتا :

تَبَلَّتْ فُؤَادَكَ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةٌ      تَشْفِي الضَّجِيعَ بِيَارِدٍ بَسَامٌ

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٨٨ . ومطفول : ذات طفل ، وخص المطفول لأنها تحنو على ولدها ، وتخشى عليه الفئاض والسباع ، فتكثر التلفت والتشوف ؛ فذلك أحسن لها في المنظر ، وأصح في تشبيه المرأة بها ، لأنه أراد أنها حذرة من الرقباء ، فهي متشوفة كتشوف هذه البقرة (انظر البغدادي ، خزائن الأدب ، ج ١٠ ، ص ١٢٨) ، وتراعي نعاما : تشاركه الرعي .

(٢) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٢٦٥ . وشعثاء : اسم امرأة ، والبهكنة : المرأة الغضة الخفيفة الروح الطيبة الرائحة المليحة الحلوة (لسان العرب ، مادة "بهكن") ، والهيفاء : المرأة الرقيقة الخصر ، والدنس : أن يفعل الإنسان ما يشين عرضه ، والخور : الضعف .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٠ . واللجين : الفضة ، والحولي : الأصل فيه ما أتى عليه حول أي عام ، لكن المراد هنا ليس ما أتى عليه العام من النمل ، بل المراد صغار النمل تشبيها لها بصغار ذوات الأربع (انظر في ذلك قول الجاحظ ، الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٧ ، والذر : النمل الأحمر الصغير ، واحدتها ذرة ، وأندبتها الكلوم : أثرت فيها الجروح (تاج العروس ، مادة "ندب")

كَالْمِسْكِ تَخْلُطُهُ يَمَاءُ سَحَابَةٍ      أَوْ عَاتِقِ كَدَمِ الدَّبِيحِ مُدَامٍ  
نُفْجُ الْحَقِيبَةِ بُوصُهَا مُتَنَزِّدٌ      بِلَهَاءِ غَيْرِ وَشِيكَةِ الْأَقْسَامِ  
بُنِيَتْ عَلَى قَطْنٍ أَجَمٍّ كَأَنَّهُ      فَضْلاً إِذَا قَعَدَتْ مَدَاكُ رُخَامٍ  
وَتَكَادُ تَكْسِلُ أَنْ تَجِيءَ فِرَاشُهَا      فِي لَيْنِ خَرَعْبَةٍ وَحُسْنِ قِوَامٍ<sup>(١)</sup>

فشبهه ريقها بالخمير ، ووصف عجيزتها بالالتساق والعظم ، وبأنها غيرٌ لا دهاءَ لها ، وبأنها طويلة القامة ، كما وصف قعودها وقيامها وحسن قوامها . وأما قصيدة كعب بن مالك الإسلامية ذات المقدمة ، فكانت في رثاء حمزة بن عبد المطلب ، وقد صدرها بببيتين من الغزل التقليدي قال فيهما :

طَرَقَتْ هُمُومُكَ فَالْرقَادُ مَسْهُدٌ      وَجَزَعْتَ أَنْ سَلِخَ الشَّبَابُ الْأَغْيَدُ  
وَدَعَتْ فُؤَادَكَ لِلْهُوَى ضَمِيرِيَّةٌ      فَهَوَاكَ غُورِيٌّ وَصَحْبُكَ مُنْجِدٌ<sup>(٢)</sup>

وبعد ، فلم يكن الغزل في مقدمات القصائد الإسلامية في شعر الأنصار بدعا من القول ما دام الرسول ﷺ قد سمع جانباً منه من الشعراء ، ولم ينكره عليهم ، ويبين هذا الأمر الوشَاء<sup>(٣)</sup> فيقول وقد ساق أبيات حسان الأنفة :

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢٩ . وتبليت من التبل ، وهو أن يسقم الهوى الإنسان (لسان العرب ، مادة "تبل" ) ، وهو من المجاز ، إذ أصل التبل الثأر ، والخريدة من النساء : البكر التي لم تمس قط (لسان العرب ، مادة "خرد" ) ، والعاتق : المعتق من الخمر ، ونفج الحقيبة : عظيمة العجز (انظر لسان العرب ن مادة نفج" ) ، وبوصها : عجيزتها ، ومتنزد : متسق ، وبلهاء : غريرة لا دهاء عندها (انظر لسان العرب ، مادة "بله" ) ، وغير وشيكة الأقسام : لعله يريد أن أعضاء جسمها غير متقاربة ، أي أنها طويلة ، والقطن : ما بين الوركين (أساس البلاغة ولسان العرب ، مادة "قطن" ) ، وقد ساق الزمخشري بيت حسان هذا شاهداً على "قطن" ، وأجم : عظيم ، وفضل : هي المرأة المختالة التي تفضل من ذيل ثيابها (لسان العرب ، مادة "فضل" ) ، والمداك : حجر يسحق عليه الطيب (تاج العروس ، مادة "دوك" ) : وقوله : "وتكادُ تكسلُ أن تجيءَ فراشها" ، أي أنها مكسال ، وهو نعتٌ للجارية المُتَنَعِّمة التي لا تكادُ تَبْرَحُ من مجلسها ، وهو مدخٌ لها مثل : نُؤُوم الضحى (انظر تاج العروس ، مادة "كسل" ) ، وامرأةٌ خَرَعْبَةٌ وخَرَعُوبَةٌ : رقيقة العظم ، كثيرة اللحم ناعمة ، وقيل : الجارية اللينة القصب ، وقيل : هي الشابة الحسناء القوام (انظر لسان العرب ، مادة "خرعب" ) .

(٢) ديوان كعب بن مالك ، ص ٣٥-٣٦ . وطرق : زار ليلاً ، والمسهد : المؤرق ، وسلخ الشباب : انقضى وذهب ، والأغيد : اللين الناعم ، وضمرية : امرأة من قبيلة ضمرة ، وهم بنو ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة (انظر نسب بني ضمرة عند ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ١٨٥) ، وغوري : نسبة إلى الغور ، وهو المكان المنخفض من الأرض ، ومنجد : من أنجد ، إذا طلع النجد ، وهو المكان المرتفع الغليظ ، كأنه يريد من قوله "فهوأك غوريٌّ وصحبك منجدٌ" بيان بعد دياره عن ديار المحبوبة .

(٣) الوشَاء : هو أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحق بن يحيى ، عالم بالأدب من أهل بغداد ، كان يحترف التعليم ، له تصانيف في اللغة والأدب والموشحات ، توفي سنة ٣٢٥ هـ (انظر الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ١٠ ، ص ٢٧٣) .

"وما رأينا أحداً من العرب المتقدمين والشعراء المفضلين صمدوا في أشعارهم إلى غير ذكر النساء ولا صدروا قصائدهم إلا بالتشبيب بوصف النساء ، هذا حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول الله ﷺ يقول:

ياقومي هل يقتلُ المرءَ مثلي واهنُ البطش والعظام سؤومُ  
لو يدبُ الحوليُّ من ولدِ الذرِّ عليها لأثدبَها الكلومُ  
لم نَقفها شمسُ النهارِ بشيءٍ غيرَ أنَّ الشبابَ ليسَ يدومُ

وقد كان النبي ﷺ ينصب له منبراً في مسجده ، ويدعو الناس إلى استماع شعره ، وهو يشبب في قصائده بهذا وما أشبهه من ذكر النساء ، وهذا كعب بن زهير ينشد النبي ﷺ في مسجده:

بانت سعادُ قلبي اليومَ متبولُ متيمٌ إثرها لم يُقدَ مَكبولُ

ويمدح النبي ﷺ في قصيدته هذه، فيقول فيها:

إنَّ الرِّسولَ لنورٌ يُستضاءُ بهِ مُهتَدٌ مِنْ سُيوفِ الله مَسلولُ

والنبي ﷺ يومئ إلى الناس في مسجده أن اسمعوا شعره، ولو كان ذكر النساء في الشعر منكراً، لكان النبي ﷺ أول من أنكره... ولو كان أيضاً في الشعر ذكر النساء من الرفث والفحش والخنى لكان ما قيل في رسول الله ﷺ من المديح أحق بأن يسقط منه ذكر القبيح (١).

وإذا كانت مقدمات القصائد الإسلامية عند حسان وكعب قد تضمنت جانباً من الغزل المباح الذي كان شائعاً في مقدمات القصائد الجاهلية قبل الإسلام ، فإن تلك المقدمات قد خلت من ذكر المقدمة الخمرية المشتملة على وصف الخمر وشربها وأثرها في الشارب وغير ذلك .

أما قصيدة حسان قبيل فتح مكة فهي مستثناة من هذا الحكم لما كنا قد أعلنا إليه في تعليل ورود المقدمة الخمرية فيها (٢) ، وأما قصيدة حسان السابقة التي ورد فيها ذكر الخمر فلم يكن الغرض منها وصف الخمر لذاتها شأن قصائده الجاهلية ، بل كان مقصد الحديث هو الغزل بالمحبة بتشبيه ريقها بتلك الخمر التي استثمر الشاعر معرفته السابقة بها - حين كان يشربها قبل الإسلام - لغرض الغزل حسب ، فهو بعد تشبيه ريقها بالخمر في بيت واحد فقط عاد إلى الغزل مباشرة ، فأخذ في وصف المحبة دون أن يستطرد في معاني الخمر الأخرى.

وقد يُظن من قول حسان بن ثابت السابق أنه عاقر الخمر بعد أن حرمها الإسلام كما فعل ذلك قلة من الصحابة الذين حذوا في شربها ، وليس كذلك ، فقد تركها حسان - وكان مدمناً

(١) الوشاء ، الظرف والظرفاء ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٨٥.

(٢) انظر ص ١٦٤ من هذه الدراسة .

عليها وصافا لها - مذ حُرِّمَتْ ، بل إنه كان ينهى عن شربها ، فقد ذكر البغدادي أن حسانا مر بفتية يشربون الخمر في الإسلام فنهاهم ، فقالوا: والله لقد هممنا بتركها، فزيَّنها لنا قولاك : ونشربها فتتركنا ملوكا... البيت ، فقال: والله لقد قلَّتها في الجاهلية ، وما شربتها منذ أسلمت<sup>(١)</sup>.

من كل ما قدمنا من قول في المقدمة الطللية في شعر الأوس والخزرج ، نركن إلى القول بأن هذه المقدمة قد اختفت من شعرهم الإسلامي الذي وصل إلينا إلا من شعر حسان وكعب ، وأنها لم تعد تقليدا متبعا كما كان الحال في العصر الجاهلي ، ونكاد نطمئن إلى أن شعراء صدر الإسلام من الأوس والخزرج - غير حسان - قد تعمدوا إسقاط مثل تلك المقدمات من شعرهم وإهمالها أو التقليل منها ، إذ ليس من المعقول أن يكون محض صدفة اختفاء تلك المقدمات من جل شعرهم الإسلامي . ولعل مرد ذلك وسببه هو ظهور الدين الجديد وتغير الظروف التي كانت تقال فيها تلك المقدمات التي غالبا ما كانت تتضمن الغزل بالمرأة ، وذكر أوصافها الجسدية والمعنوية ، والحديث عن الخمر ، مما يتأثم منه شعراء مثل كعب بن مالك وعبدالله بن رَوَاحَة .

ويلخص حسين عطوان أسباب قلة اهتمام شعراء هذا العصر بالتقاليد الفنية الجاهلية في ما ينظمون من شعر إسلامي بقوله : ولكن حالهم تبدلت بعد إسلامهم ، فقد فارقوا حياة الجاهلية ، وآمنوا بالإسلام ، وانصاعوا له ، وانقطعوا لنصرته وتأييده ، وأعرضوا عن الخوض في معظم الموضوعات القديمة ، وأخذوا ينظمون في موضوعات جديدة ، فأدى ذلك إلى أن تضعف عنايتهم بالتقاليد الفنية الجاهلية في كثير من قصائدهم الإسلامية<sup>(٢)</sup> .

(١) البغدادي ، خزنة الأدب ، ج ٩ ، ص ٢٣٥ .

(٢) الدكتور حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ص ٣٩ .

## ٢ - الوزن والقافية

شعر الأوس والخزرج كغيره من الشعر العربي ، نجد فيه أوزانا -أو بحورا - وحروفَ رَوِيَّ بنى الشعراء عليها قصائدهم ومقطعاتهم ، وتَغَيَّب منه أخرى تركها الشعراء . وحتى نقف على ما تداوله شعراء هاتين القبيلتين من أوزان وحروف روي قمت باستقراء شعرهم كاملا ، ثم أعددت جدولين إحصائيين في ذلك ، أولهما كان في بحور الشعر التي استخدموها في أشعارهم ، والثاني كان في حروف الروي التي جاءت عليها تلك الأشعار . وقد تضمن كلُّ جدول شعراءهم أصحابَ الدواوين ، والشعرَ الذي جمعه داود غطاشة . ويظهر في الجدولين عددُ القطع (القصائد أو المقطعات) والبحرُ أو الروي الذي بنيت عليه ، ومجموعُ أبيات كل قطعة ، كما يُظهر الجدولُ المجموعَ العام لقطع البحر أو الروي ، والمجموع العام لأبيات البحر أو الروي .

وقد استخدمت في الجدولين وفي أثناء الدرس تعبيرَ "قطعة" وجمعها (قطعا) للتعبير عن القصيدة والمقطعة معا كما هو الشائع في تعبيرات المحققين وجامعي الدواوين ، مع أن هذا التعبير قد يكون له مفهوم مختلف في معاجم التراث<sup>(١)</sup> .

وفي ما يأتي أثبت هذين الجدولين لننظر فيهما ونقرأهما قراءة فاحصة ، لعلنا نثبت ما يتهيا لنا عليهما من ملاحظات ، أو نخرج -مما ورد فيهما من إحصاءات - بما يكون ذا دلالة ، أو ما قد يشكل في شعرهم ظاهرة في الوزن والقافية .

(١) قال ابنُ جني: والذي في العادة أن يُسمَّى ما كانَ على ثلاثة أبياتٍ أو عَشْرَةٍ أو خَمْسَةَ عَشَرَ: قِطْعَةً ، فأما ما زاد على ذلك فإنما تُسميه العربُ قصيدة (لسان العرب ، مادة "قصد") .



## جدول (١٢): بحور الشعر التي نظم عليها شعراء الأوس والخزرج

١ - ٢ - ٣ - البحر	قيس بن الخطيم		أبو قيس بن الأسلت		أحيحة بن الجلاح
	١٣ - عدد	مجموع	١٢ - عدد	مجموع	١٠ - عدد
	القطع	أبياتها	القطع	أبياتها	القطع
طويل	١٩	١٣٣	٤	٤٧	١
كامل	٦	٣٦	١	٥	١
بسيط	٢	١٠	٣	١٤	٢
وافر	٧	٦٠	١٢	٣٦	٥
متقارب	٣	٣٧	١	٦	١
رمل			١	١	١
خفيف	١	٤	١	١٥	٢
منسرح	٤	٦٦	١	١	٢
سريع	١	٢	٢	٢٥	١
رجز	١	٢			٢
مديد					
مجموع الشعر	٤٤	٣٥٠	٢٦	١٥٠	١٨

أحيحة بن الجلاح	أبو قيس بن الأسلت		قيس بن الخطيم		١٤ -
٢٣ - عدد	مجموع	٢٥ - عدد	مجموع	٢٦ - عدد	١٥ -
٢٤ - القطع	أبياتها	القطع	أبياتها	القطع	١٦ - الروي
			٣٨	٤	أ
١	٤٥	٣	٨٩	٨	ب
٢	٢	١	٢	١	ت
					ج
			٤	١	ح
	٢	١	٤٨	٤	د
١					ذ
١	٢٢	٦	٣٥	٧	ر
					ز
١			٢	١	س
			١	١	ش
					ط
					ظ
١	٢٤	١	٧	٣	ع
٣	١	١	٥٧	٤	ف
					ق
	١	١			ك
٦	٣١	٤	٩	٢	ل
	١٦	٤	١٩	٢	م
١	٦	٤	٣٦	٥	ن
			٣	١	هـ
١					ي
					الألف اللينة
١٨	١٥٠	٢٦	٣٥٠	٤٤	المجموع

وقبل أن نبدأ بقراءة الجدولين نشير إلى أننا تعمدنا أن نسقط من هاتين الإحصائيتين ما كنا قد أشرنا إليه من شعر غَفَلَ عنه داود غطاشة ، وكذا شعرهم الإسلامي والمخضرم في غير الدواوين ، فإننا - وإن كنا استشهدنا بجانب منه في ما سلف من موضوعات هذه الدراسة - إلا أنه لم يكن من منهجنا جمعه ، وما أوردنا من إشارات إلى ذلك الشعر إنما كانت إشارات أولية . ومن جانب آخر فذاك الشعر لم يكن بتلك الكثرة التي يمكن أن تشكل فرقا إحصائيا يعول عليه ، ولعل ما أوردنا في الجدولين السابقين يشكل أكثر من ٩٥% من شعر هاتين القبيلتين ، وهو ما سيدلل تدليلا واضحا على ما تعلق بالوزن والقافية في شعر هاتين القبيلتين .

وبقراءة الجدول الأول الخاص بالبحور يمكننا أن نرتب البحور التي نظم عليها شعراء الأوس والخزرج تنازليا بالنظر إلى عدد الأبيات كما يأتي :

جدول (١٤): البحور التي نظم عليها شعراء الأوس والخزرج مرتبة تنازليا بالنظر إلى عدد الأبيات

الأول : الطويل = (١٦٨١ بيتا)	الثاني : الكامل = (٧٣٨ بيتا)
الثالث : البسيط = (٦٣١ بيتا)	الرابع : الوافر = (٦٢٣ بيتا)
الخامس : المنسرح = (٢١٨ بيتا)	السادس : المتقارب = (١٩٦ بيتا)
السابع : الخفيف = (١٥٤ بيتا)	الثامن : الرجز = (١١٠ أشطار)
التاسع : السريع = (٩٤ بيتا)	العاشر : الرمل = (٨١ بيتا)
الحادي عشر : المديد = (٢٢ بيتا)	

وأول ما يسترعي انتباهنا ونحن نقرأ الجدول الأول هو غياب عدد من بحور الشعر التي تعودنا غيابها في معظم المجموعات الشعرية والدواوين التي نطالعها ، نعني تلك البحور القليلة الاستعمال ، وهي : المَجْتَثُ والمُضَارِع والمُقْتَضَب والمتدارك ، كما نلاحظ غياب

بحر آخر ليس قليلا في الشعر قلة تلك الأربعة هو بحر الهزج ، فهذه البحور الخمسة لا نجد ما يمثلها البتة في شعر الأوس والخزرج .

ومع أن حسان بن ثابت كان صاحب أكبر مجموع شعري في الأوس والخزرج ( ٢٥٤٠ بيتا ) إلا أننا لا نجد في شعره شيئا على هذه البحور ، وليس ذلك بأمر غريب ، فقد سار شعراء الأوس والخزرج في الجاهلية وصدر الإسلام على المؤلف من بحور الشعر المتداولة ، وتركوا مغمورها ومالم يؤلف منها ، فالمجتث بحر لم يسمع إلا في العصر الأموي على قلة ، ولا شواهد له من شعر الجاهلية<sup>(١)</sup> ، وكذا بحرا المضارع والمقتضب ، فقد أنكر رجال الأدب والعروض أن يكونا من الشعر الذي عرفته العرب في جاهليتها ، فنقل عن الأخفش أنه أنكر المضارع والمقتضب ، وقال : إنهما ليسا من شعر العرب ، ولم يسمع منهم شيء منهما<sup>(٢)</sup> . وأما بحر المتدارك فله جذور جاهلية قليلة نسبت إلى المنسرح خطأ ، وهي تقتقر إلى الرنة الموسيقية والجرس الإيقاعي الشعري<sup>(٣)</sup> ، ولم يرد عن العرب في العصور اللاحقة إلا مخبونا (فعلن) أو مقطوعا (فعلن)<sup>(٤)</sup> .

وأما الهزج فمع جمال جرسه ، ومجىء تسميته من أغاني العرب وإنشادهم ، ووجود شواهد له من الجاهلية إلا أننا نفتقده في مجموع شعري ضخم مثل شعر الأوس .

ولعلي أجتهد فأقول : إنه ليس غريبا أن نفتقد هذا البحر وأضرابه في شعر قبيلتي الأوس والخزرج الجاهلي ، فغنائية هذا البحر وجرسه الراقص لا يتناسب وحياة القوم التي سلخوا معظمها في الحرب وما استتبعته ظروفها من حزن ، فكيف لنا أن نجد لهم سبيلا إلى هذا البحر الذي كأنما منشده يغني من غير آلة ، وحياتهم حرب لم تتوقف؟ حتى لحظات السرور القليلة التي نجمت في حياتهم وقالوا فيها شعرا لا نجد فيها مثل هذا البحر ولا ما يدانيه .

وفي عصر صدر الإسلام لم يكن هذا البحر ولا شبيهه مما يتناسب أيضا والحياة الدينية التي عاشتها هاتان القبيلتان . ولا يعني هذا الحكم أننا لا نجد في شعر الجاهلية أو صدر الإسلام عامة ما نظم على بحر الهزج أو مما هو قريب منه ، بل المقصود أن مثل تلك الأوزان قليلة في هذين العصرين ، ولا غرابة أن نفتقدها عند قبائل فيهما ، وأن مثل هذه البحور قد كثرت باشتهاار الغناء وانتشاره في بيئة الحجاز خاصة في العصر الأموي ، ثم أخذنا نلاحظ كثرتها الكثرة في العصر العباسي في شعر أبي نواس وأبي العتاهية وغيرهما .

(١) انظر الشيخ جلال الحنفي ، العروض : تهذيب وإعادة تدوينه ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط ٣ ، ١٩٩١ ، ص ٧٩ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في المرجع نفسه ، ص ١٠٣ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٧٦ .

(٤) انظر : الزمخشري ، القسطاس في علم العروض ، ص ٨٩ .

وأما بحر المنسرح فله شواهد كثيرة في أشعار الجاهليين وأشعار شعراء صدر الإسلام ومن جاء بعدهم ، غير أنه يعد بحرا قليل الاستعمال بالنظر إلى البحور الأخرى .ولو أخذنا - مثلا - ما جاء على بحر المنسرح عند جميع شعراء قبيلة أسد الجاهليين والمخضرمين لما وجدنا سوى خمس قطع مجموع أبياتها ستة وعشرون بيتا<sup>(١)</sup> ، وكذا الأمر في معظم أشعار الجاهليين والمخضرمين .

ونلاحظ عند شعراء الأوس والخزرج ظاهرة غريبة بشأن هذا البحر ، إذ جاء ترتيب هذا البحر في شعرهم خامسا من حيث عدد الأبيات ، فوجدنا لهم عليه عشرين قطعة ، مجموع أبياتها مئتان وثمانية عشر بيتا . ولعلنا لا نجد هذا القدر من الشعر على المنسرح في شعر شاعر أو قبيلة ، فلقد استعرضت شعر غير شاعر من لدن الجاهلية حتى العصر الحديث فلم أجد كثير شعر قيل على هذا البحر تجعله يحتل هذه المنزلة من حيث عدد الأبيات ، فكيف كان ذلك في شعر الأوس والخزرج ؟

لقد كان للنقائض التي اشتهرت كثيرا في المدينة (يثرب) في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام دور كبير في ذلك ، حتى أمكننا أن نقول إنها قد أدت إلى هذه الكثرة في عدد الأشعار التي قرظت على هذا البحر ، إذ إن أصل جل شعر الأوس والخزرج الذي قيل على بحر المنسرح وروي الفاء كان قصيدة واحدة<sup>(٢)</sup> لعمر بن امرئ القيس الخزرجي جاءت في سبعة عشر بيتا ، قالها في حرب سُمَيْر التي كانت بين الأوس والخزرج حين رفض مالك بن العَجَلان الخزرجي أحد قومه النزول على حكمه في الصلح بين القبيلتين وحقق دمائهما<sup>(٣)</sup> ، فقام مالك بن العَجَلان الخزرجي بنقض قصيدة عمرو بن امرئ القيس الخزرجي بقصيدة من من البحر نفسه والروي نفسه جاءت في واحد وعشرين بيتا<sup>(٤)</sup> ، ثم قام يرهم بن زيد الأوسي أخو سُمَيْر القَتِيل بالرد على مالك بن العجلان بنقيضتين من البحر والروي نفسيهما<sup>(٥)</sup> ، جاءت الأولى في ثلاثة عشر بيتا ، وجاءت الثانية في ثمانية أبيات .

ومع أن المناقضات تكون في الأعم الأغلب بين شاعرين متعاصرين ، إلا أننا نجد لحرب سُمَيْر هذه تداعيات وذكرىات في نفس قيس بن الخطيم - وهو لم يشهد هذه الحرب ولا

(١) انظر محمد علي دقة، ديوان بني أسد (أشعار الجاهليين والمخضرمين) دار صادر، بيروت، ط ١٩٩٩، ج ٢، ص ٧٠١-٧١٧ (فهرس الأشعار) .

(٢) انظر قصيدة عمرو بن امرئ القيس الخزرجي عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ص ١٧٦ .

(٣) سبق الحديث مفصلا عن هذه الحرب في هذه الدراسة ، ص ٣٢ .

(٤) انظر قصيدة مالك بن العجلان عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٩٨ .

(٥) انظر قصيدتي درهم بن زيد في الدراسة السابقة ، ملحق (١) ، ص ٢٣٩ ، وص ٢٤١ .

كانت في عصره<sup>(١)</sup> - تدفعه إلى رجوع القول في تلك الحرب والنظم على البحر نفسه (المنسرح) والروي نفسه (الفاء) الذي نظمت عليهما نقائض حرب سُمَيْر. ويبدأ قيس بن الخطيم ذلك بقصيدتين : الأولى مكونة من ثمانية وعشرين بيتاً<sup>(٢)</sup> ، والثانية من عشرة أبيات<sup>(٣)</sup> ، فيرد عليه حسان بن ثابت بنقيضة من تسعة عشر بيتاً يذكر فيها حرب بُعَاث وحرب سُمَيْر<sup>(٤)</sup>.

ونلاحظ أن الأبيات التي نظمت على بحر المنسرح ولم يكن لها شأن بنقائض حرب سُمَيْر ، كانت أقل في مجموعها من الأبيات التي كان سببها تلك النقيضة ، إذ إن مجموع ما قيل في شعر الأوس والخزرج على بحر المنسرح كان مئتين وثمانية عشر بيتاً ، منها مئة وستة عشر بيتاً سببها نقائض حرب سُمَيْر ، ومئة وبيتان كانت خارج تلك الحرب .

مما سبق كله نخلص إلى القول بأن ثمة علاقة قوية بين النقائض وعدد الأبيات المنظومة على بحر معين ، إذ لا تدع النقائض للشاعر المناقض - في الغالب - خياراً في اختيار البحر الذي يريد ، فهو مرتبط إلى حد كبير بالبحر الذي ينظم عليه خصمه ، لكننا قد نجد نقائض تخالف في البحر والروي ، وهذا قليل ليس بأصل في النقائض .

وبحر المديد يأتي في الترتيب آخراً في شعر الأوس والخزرج ، فهو أيضاً بحر قل المنظوم منه ونذر<sup>(٥)</sup> . وبالنظر في الجدول السابق لا نجد منه سوى ثلاث قطع ، واحدة لحسان بن ثابت ، واثنان مما جمع داود غطاشة . وأما بحر الرجز فبحر ذو تفعيلة واحدة متكررة تتلاءم وتتوافق مع التصفيق باليد ، أو النقر بالعصا ، أو ركل الأرض بالأقدام ، أو ترقيص الأطفال ، ونحو ذلك ... وبهذا أمكن التحكم بالنوق والإبل في تحديد سيرها ، إن أريد له أن يكون بطيئاً أو أن يكون سريعاً . وقد ساعد ذلك على تركيز المعاني في الأسماع عند الاستتفار وتجميع الأنصار ، والتعبير عن حالات الفرح والحزن ، ففي كل حالة من هذه الحالات يكون للرجز مذاق خاص مقبول ، فهو في البطء ذو لذعات وحوافز عظيمة التأثير في النفوس ، وفي التعجيل والتدفق يصلح الرجز للتعبير عن انفعالات النفس ، واهتزازات الجسم المنفعل ، لذا

(١) انظر في ذلك كلام الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٠١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٤) نظر القصيدة في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٨٧ .

(٥) انظر الشيخ جلال الحنفي ، العروض : تهذيبه وإعادة تدوينه ، ص ٣٦٣ (المتن والحاشية).

استعمله المحاربون خاصة<sup>(١)</sup>. قال ابن بري التازي : وللعرب تصرف واتساع في الرجز لكثرتهم في كلامهم في مواطن الحرب ومقامات الفخر والملاقة<sup>(٢)</sup>.

غير أننا لا نجد ما يؤيد ذلك في شعر الأوس والخزرج ، فقد كان معظم شعر هاتين القبيلتين في الجاهلية والإسلام في الحرب وما تعلق بها من فخر ، ومع ذلك لا نجد عند شاعر كبير مثل حسان سوى أربعة عشر شطرا ، وعند كعب بن مالك ثلاثة عشر شطرا ، وتسعة أشطر عند أحيحة بن الجلاح ، وشطرين عند قيس بن الخطيم ، وتسعة أشطر في كل ما جمعه داود غطاشة من شعرهم الجاهلي الذي كان في معظمه شعرا حربيا .

ولعل السبب في ذلك أن الرجز كان يكثر في الجاهلية عند من هم في طور البداوة ، لأن الرجز كما يرى بعض العروضيين كان في الجاهلية نموذجا للشعر الشعبي ، فقد كان من أوائل ما يعمد إلى النظم فيه المبتدئون من الشعراء<sup>(٣)</sup> ، أما البيئة التي عاش فيها الأوس والخزرج وهي يثرب أو المدينة فتعد حاضرة ، فمن الطبيعي أن يقل فيها هذا النوع من الشعر الذي يناسب كثيرا حياة البداوة وظروفها أكثر مما يناسب حياة الحضر ، لذا قل في الحواضر وكثر في البوادي.

وإخال أننا لو أعدنا إحصائية لهذا البحر في الشعر العربي لوجدنا ذلك قد انسحب على معظمه ، فعلى سبيل المثال لا نجد عند شاعر حضري مثل الفرزدق ذي مجموع شعري كبير ( ٧٢٣٥ بيتا) على بحر الرجز سوى قطعتين تضمان سبعة أشطار ، ونجد عند ذي الرمة - وهو بدوي مقيم في البادية ويتردد كثيرا على الحواضر - اثنتين وعشرين قطعة ، مجموع أبياتها مئة وأربعة وتسعون شطرا ، من أصل مجموع الشعري البالغ ٣١٥٣ بيتا الذي هو أقل من نصف مجموع شعر الفرزدق .

ومن جانب آخر فإننا نجد عند عبدالله بن رَوَاحَة واحدا وستين شطرا على بحر الرجز ، وهذا العدد يشكل أكثر مما نظمه شعراء الأوس والخزرج مجتمعين على الرجز ، وهذا يجعلنا نقف عنده ملياً محاولين تعليل ذلك . فنحن لو استعرضنا ما قيل على الرجز عند غير ابن رَوَاحَة لوجدنا أن الظروف التي قيل فيها ذلك الرجز كانت مواقف تستدعي السرعة ، ولم يكن من مناسبات تلك الأرجاز ما يستدعي التريث ، فقيس بن الخطيم قال شطريه من الرجز وهو يفخر بنفسه في الحرب<sup>(٤)</sup>، وليس من شيء يستدعي السرعة مثل الحرب ، وليس من بحر يناسب

(١) المرجع نفسه ، ص ٦٤٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٤٤ .

(٣) انظر الشيخ جلال الحنفي ، العروض : تهذيبه وإعادة تدوينه ، ص ٦٤ .

(٤) انظر الشطرين ومناسبتهما في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٣٣ .

التصرف فيه بسرعة مثل بحر الرجز . وأحيحة بن الجلاح قال أربعة أشطر يفخر بأظمه "الضحّيان" عند الانتهاء من بنائه<sup>(١)</sup> ، وهو موقف قد يكون استدعى منه الارتجال ، وقال خمسة أشطر يخاطب فيها نخله العزيز على قلبه وهو ينظر إليه<sup>(٢)</sup> ، وكأنما يرقص له وليدا .

وأما حسان فقد قال شطرين يخاطب فيهما امرأته حين أعرضت عنه بعد اشتعال رأسه شيبا<sup>(٣)</sup> ، وقال شطرين يرتجز فيهما بقبيلة هذيل يتحدى شعراءها وهو يمر بأحياء العرب<sup>(٤)</sup> ، وهما أمران لا يحتملان الأناة ، وقال خمسة أشطر يمدح فيها سعد بن زيد الأشهلي ويسترضيه حين بلغه غضبه منه في قصة كانت بينهما<sup>(٥)</sup> ، وهذا أمر أيضا ينبغي له السرعة ، لأن سعد بن زيد حلف ألا يكلم حسانا، وكان حسان هو المخطيء . كما نسب إلى حسان خمسة أشطر نهى فيهما عن أكل ما ذبح على النصب<sup>(٦)</sup> ، وشطرين يصف فيهما السيل<sup>(٧)</sup> ، وشطرين يمدح فيهما أحد الصحابة حين جاز بخالد بن الوليد صحراء السماوة، وكان هذا الصحابي دليلا<sup>(٨)</sup> .

وأما رجز كعب بن مالك فكان له سبعة أشطر يرد فيها على مرحّب اليهودي يوم خيبر<sup>(٩)</sup> ، وشطران لا تُدرى لهما مناسبة يفخر فيهما بقومه<sup>(١٠)</sup> ، وأربعة أشطر يرد فيها على سلمة بن الأكوع مباشرة حين عرض بالأنصار<sup>(١١)</sup> .

وأما الأرجاز في الشعر الذي جمعه داود غطاشة فهي شطران لأبي صرمة الخزرجي يرتجز فيهما بنوق له<sup>(١٢)</sup> ، وشطران لمالك بن العجلان قالهما حين قطع سيفه ونبا سيف ثابت بن المنذر حرام وكانا تخاطرا أيهما أقطع سيفًا<sup>(١٣)</sup> ، وشطران لمالك بن العجلان أيضا يفخر

(١) صالح البكاري والطيب العشّاش ، أحيحة بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، ص ٤٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٤٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٥٤ .

(٥) انظر الأشتار والقصة في المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

(٧) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢٢ .

(٨) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢٣ .

(٩) ديوان كعب بن مالك ، ص ٢٣ .

(١٠) وينسبان إلى علي بن أبي طالب . انظر المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(١٢) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ص ١٤٢ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ .



فيهما ببناء أطمه المزدلف ويصف هذا الأطم الذي أعده للحرب<sup>(١)</sup> ، وثلاثة أشطار لحُضَيْرِ الكتائب الأشلهي يحرض قومه من الأوس على قتال الخزرج يوم بُعَاث<sup>(٢)</sup> .

وبالْعَوْدُ إلى رجز عبدالله بن رَوَاحَةَ نجده قد قال رجزه كله في الإسلام ، فقال قطعة واحدة وهو منهمك مع المسلمين في بناء مسجد قُبَاء فور وصول الرسول ﷺ المدينة<sup>(٣)</sup> ، وقال ثلاث قطع وهو يحفر الخندق حول المدينة مع المسلمين في غزوة الخندق<sup>(٤)</sup> ، وقال قطعتين في عمرة القضاء وهو آخذ بخطام ناقة الرسول ﷺ ويخاطب كفار قريش ، والمسلمون حول الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت ويستلم الرُّكْنَ<sup>(٥)</sup> ،

وقال ثلاث قطع في غزوة مؤتة التي اسْتُشْهِدَ فيها<sup>(٦)</sup> ، وقال ثلاثة أشطر في الاستعداد للسير إلى الحرب<sup>(٧)</sup> ، وشطرين في الصبر على مقاساة الأمور والجد في طلب الحاجة وعدم التفريط فيها<sup>(٨)</sup> .

وعلى ما سبق من مناسبات بحر الرجز في شعر عبدالله بن رَوَاحَةَ فإننا نجد أن كل الظروف التي أحاطت برجزه كانت ظروفًا عصيبة تستدعي عدم الإطالة ، وأحيانًا الارتجال ، خاصة ظروفَ استشهاده في مؤتة ، من أجل ذلك رأيناه قد نزع أكثر من غيره إلى هذا البحر فكان له منه الحظُّ الأوفرُ .

وينضاف إلى أسباب ما سبق من قلة الرجز عند شعراء الأوس والخزرج استعدادُ الشاعر وموهبته وتمرسه ، حتى قال الجاحظ : "وفي الشعراء مَنْ لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرَّجَز ، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرَّجَز إلى القصيد ، ومنهم من يجمعهما ...."<sup>(٩)</sup> ، كذلك فإن الرجز أقل منزلة من القصيد ، لذلك رأينا عامة ما مدح به الملوك والخلفاء من القصيد ، وإن الرجز عند العرب لا يقوم للقصيد لدنو منزلته عنه ، حتى عد بعضهم الرجز ليس بشعر لارتجاز الرسول ﷺ به ، والله تعالى يقول : "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .

(٣) ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص ١٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ .

(٦) ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .

(٩) انظر كلام الجاحظ في ذلك في البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

وَقَرَّانٌ مُبِينٌ<sup>(١)</sup>. ويؤيد ذلك - أي دنو منزلة الرجز عن القصيد - أننا لانجده إلا على قلة عند فحولة الشعراء كما مرىء القيس والنابغة الذبياني وطرفة وغيرهم ، وقد يخلو ديوان أحدهم من هذا البحر ، كما نرى في ديوان زهير بن أبي سلمى وأوس بن حجر التميمي .

وبعد ، فلعل كل ما قدمنا من أسباب مجتمعة أو متفرقة هي التي قد أدت إلى قلة الرجز عند شعراء الأوس والخزرج عامة ، وكثرته عند عبدالله بن رَوَاحَةَ خاصة . وقد كان جميع ماجاء في دواوين الأوس والخزرج من بحر الرجز وما جمع داود غطاشة من شعرهما على المشطور من هذا البحر (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) ، كما هو الغالب الكثير في استخدام هذا البحر في الشعر العربي، ولم يرد منه شيء على المجزوء (مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن) ولا على المنهوك (مستفعلن مستفعلن) . وبالنظر إلى بقية البحور في الجدول المرفق - غير ما ألمعنا إليه - لا نجد فيها ما يمكن أن يكون له دلالة خاصة ، فهي كثيرة في شعر الأوس والخزرج ، وهي في عدد تكراراتها ضمن المستوى الطبيعي الذي نراه في معظم الشعر العربي. هذا ، ويغلب على شعر الأوس والخزرج في غير الرجز النظم على التام من الأبيات ، وأما المنهوك ( وهو في الرجز والمنسرح فقط) فلا وجود له في أرجازهم كما سبق ، وأما في القصيد فليس في مجاميعهم الشعرية شيء على منهوك المنسرح ، غير أنني وجدت له مثالا خارج تلك المجاميع ، وهو قول كَبَيْشَةَ بنت رافع أم سيد الأوس سعد بن معاذ الأوسي حين قالت ترثيه من منهوك المنسرح :

وَيْلٌ أَمْ سَعْدٍ سَعْدًا

صرامة وحدًا

وسؤددًا ومجدًا

وفارساً مُعَدًّا

سَدَّ بِهِ مَسَدًا

يَقْدُ هَامًا قَدًّا<sup>(٢)</sup>

وأما المشطور فلا نجده عندهم إلا في الرجز على ما قدمنا ، وأما المجزوء فلا نجد له أمثلة عند قيس بن الخطيم ولا كعب بن مالك<sup>(٣)</sup> ، ولا عند عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ولا عند أبي قيس

(١) سورة يس، الآية ٦٩ . وانظر ما يؤيد هذه الأقوال عند الأصفيهاني ، الأغاني ، ج ٨ ، ص ٦٠ ، ج ١٨ ، ص ١٨ ، ج ٢٠ ، ص ٣٩٢ ، وأبي العلاء المعري ، رسالة الصاهل والشاحج ، ص : ١٨٨ ، ٢٢٩ ، ورسالة الغفران ، ص : ٣٧ ، ٤٨٦ ، ٥٣٠ .

(٢) انظر هذه القطعة عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ١٠٦٣ .

(٣) أورد مجيد طراد نقلا عن لسان العرب وتاج العروس ، مادة "رضح" قول كعب بن مالك : "وترعى الرَضْحَ والوَرقَا" في قطعة مستقلة هي القطعة (رقم ٤٦ ، ص ٧٣) ، وجعل قوله ذلك من مجزوء الوافر ، لكنني أرى أن قول كعب بن مالك هذا جزء

بن الأسلت ، لكننا نجد عند أحيحة قطعة من ثلاثة أبيات<sup>(١)</sup> جاءت على مجزوء الكامل ، وكان سببها مناقضة أحيحة بن الجلاح لأبيات عاصم بن عمرو النجاري ، ونجد عند حسان بن ثابت ثلاث قطع على مجزوء الكامل أيضا<sup>(٢)</sup> .

أما في الشعر الذي جمعه داود غطاشة ، فلعمرو بن الإطنابة أحد عشر بيتا على مجزوء الكامل<sup>(٣)</sup> ، ولعاصم بن عمرو النجاري ثلاثة أبيات<sup>(٤)</sup> .

ومن الجدير بالذكر أن ما وجدنا من المجزوء في شعر الأوس والخزرج كان كله على مجزوء الكامل . ويلاحظ في مجزوء الكامل أنه يأتي في الغالب عندهم مُرَقَّل الضرب<sup>(٥)</sup> ، وأنه لم يأت غير مُرَقَّل الضرب إلا في قطعة من ستة أبيات لحسان بن ثابت<sup>(٦)</sup> .

ولعل قلة النظم على المجزوء والمنهوك من الشعر يعود إلى أن الأبيات المجزوءة أو المنهوكية تتحول إلى أبيات ذات جرس موسيقى غنائي ، وقد بينا أن هذا اللون من الشعر لم يكن يناسب حياة القوم الحربية ، وإن وجد عندهم فإنه يوجد على قلة قياسا إلى الأبيات التامة .

بعد أن انتهينا من الحديث عن البحور في الجدول الأول ننتقل إلى الحديث عن الروي في الجدول الثاني . وفي ما يأتي جدول يبين ترتيبا تنازليا لحروف الروي التي نظم عليها شعراء الأوس والخزرج بالنظر إلى عدد الأبيات ، يظهر فيه حرف الروي وترتيبه ومجموع الأبيات التي نظمت عليه :

---

من عَجَزَ بيت من البسيط ، ويؤيد هذا أن القطعة السابقة لهذا الشطر (رقم ٤٥ ، ص ٧٣) كانت على قافية القاف أيضا ، وهي مكونة من بيت واحد فقط هو قوله :

إِنَّ الْخَيْالَ مِنَ الْحَسَنَاءِ قَدْ طَرَقَا      فَبِتْ مُرْتَفَقًا مِنْ حَيْثُهَا أَرْقَا

وكما نرى فالبيت مصرع ، لعله مطلع لقصيدة لم تصل إلينا ، وهو من بحر البسيط ، والشطر السابق أشبه ما يكون بهذا البيت ، ومن المرجح في نظري أن يكون المطلع والشطر من قطعة واحدة .

(١) صالح البكاري والطيب العشاش ، أحيحة بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، ص ٤١ .

(٢) انظر هذه القطع في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص : ٣٣٩ ، ٤٥٠ ، ٤٧٨ .

(٣) انظرها عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ملحق (١) ، ص ١٥٢ .

(٥) الترفيل : أن يزداد (ثِنْ) على مُتفاعلن فيصير مُتفاعلاتين ( انظر لسان العرب ، مادة "رقل" ) . ومثال المرفل قول أحيحة بن الجلاح الأوسي : (بُنِنْتُ أَنْكَ جِئْتُ تَسْـ /ـري بَيْنَ دَارِي وَالْقِيَابَةِ) ، ومثال غير المرفل قول حسان بن ثابت من قطعة منسوبة إليه : (مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيُمُتْ      فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ) .

(٦) انظر ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .

جدول (١٥): حروف الروي التي نظم عليها شعراء الأوس والخزرج مرتبة تنازليا بالنظر إلى عدد أبيات

الأول : الراء = ٧٣٧ بيتا	الثاني : حرف اللام = ٦٨٩ بيتا
الثالث : الباء = ٥٠١ بيت	الرابع : الدال = ٤٨٤ بيتا
الخامس : الميم = ٤٨٣ بيتا	السادس : النون = ٣٠٧ أبيات
السابع : العين = ٢٩٨ بيتا	الثامن : الفاء = ٢٣٣ بيتا
التاسع : الهمزة = ١٢٢ بيتا	العاشر : الحاء = ١١٨ بيتا
الحادي عشر : القاف = ٨٣ بيتا	الثاني عشر : الياء = ٧٥ بيتا
الثالث عشر : التاء = ٥٥ بيتا	الرابع عشر : الجيم = ٤٠ بيتا
الخامس عشر : الكاف = ٣٧ بيتا	السادس عشر : الطاء = ٣٠ بيتا
السابع عشر : الهاء والسين = ٢٩ بيتا (لكل حرف)	الثامن عشر : الألف اللينة = ١٠ بيتا
التاسع عشر : الذال = ٤ أبيات	العشرون : الزاي = ٣ أبيات
العشرون : الظاء = ٣ أبيات	الحادي والعشرون : الشين = ١ بيتا

ومن جدول حروف الروي السابق يمكننا أن نميز أربع مجموعات من هذه الحروف في

شعر الأوس والخزرج :

**المجموعة الأولى :** حروف أهملها شعراء هاتين القبيلتين ، فلم يبنوا عليها قصائدهم

: وهذه الحروف هي : التاء ، والحاء ، والصاد ، والضاد ، والغين ، والواو . وهذه الحروف في الغالب حروف مهملة منكّرة في معظم الشعر العربي ، أو أنها يندر كثيرا بناء الروي عليها ، وليس ذلك خاصا بشعر الأوس والخزرج ، وسبب ذلك هو قلة الكلمات المنتهية بها أو غرابتها ، وصعوبة ركوب رويها ، مما يؤدي إلى تعذر التعبير الواضح بها عن المراد ، والتعسف في الوصول إلى الروي في آخر البيت ، فهي للأعراب أنسب من أهل الحواضر ، لذلك رأينا هذه الحروف في رجز الأعراب ممن أولعوا بغريب اللفظ من الرجاز خاصة، والشعراء مثل : العجاج بن رؤبة التميمي وابنه رؤبة بن العجاج وأبي النجم العجلي وذوي الرمة وغيرهم .

**المجموعة الثانية :** حروف يكثر النظم عليها في الشعر العربي ، وهي الحروف السبعة الأولى التي احتلت أكبر مجموع من الأبيات في الجدول ، وهذه الحروف هي : الراء ، اللام ، الباء ، الدال ، الميم ، النون ، العين .

وتكاد هذه الحروف تطرد في كثرتها في معظم ما وصل إلينا من شعر عربي عامة ، ذاك أن مادة اللغة المنتهية بهذه الحروف كثيرة جدا ، فالكلمات المنتهية بحرف الزاي أو الفاء أو الشين مثلا في المعجم العربي أقل بكثير من تلك المنتهية بحرف اللام أو الميم أو الباء ، فنشأ من هذه الكثرة والوفرة في الكلمات كثرة في النظم عليها نراها في كل ما نقرأ في الشعر العربي ، وعليه ، فكثرة النظم على هذه الحروف في شعر هاتين القبيلتين طبيعية تسير مع المتوسط العام لتكرار هذه الحروف في الشعر العربي ، مما لا يمكننا أن نخرج منها بدلالة خاصة . وكما نلاحظ من الجدول فقد شكلت هذه الحروف السبعة جل شعر هاتين القبيلتين.

**المجموعة الثالثة :** حروف قل النظم عليها عندهم كما قل عند غيرهم ، وهي : التاء ، الذال ، الزاي ، السين ، الشين ، الكاف ، الهاء ، الياء ، الألف اللينة . ومجموع الأبيات التي نظمت على هذه الحروف التسعة في شعرهم هو ١٤٨ بيتا فقط ، وهو عدد قليل إذا قورن مجتمعاً مع ما نظم على حرف واحد مثل حرف الراء أو اللام .

**المجموعة الرابعة :** حروف يقل النظم عليها في العادة ، وجاء النظم عليها كثيرا نسبيا في شعر الأوس والخزرج . وهذه المجموعة هي التي تشكل ظاهرة في شعرهم ، لذلك سنقف عندها طويلا محاولين تحليل ذلك . وهذه الحروف هي بقية الحروف الواردة في الجدول الثاني الخاص بحروف الروي وتضم :

الفاء = (٢٣٣ بيتا) ، الهمزة = (١٢٢ بيتا) ، الحاء = (١١٨) ، القاف = (٨٤ بيتا) ، الياء = (٧٥ بيتا) ، الجيم = (٤٠ بيتا) ، الطاء = (٣٠ بيتا) .

ولعل الذي كثر النظم على هذه الحروف في شعرهم مجموعة من العوامل التي قد نجدها في ذلك الشعر مجتمعة أو متفرقة ، قليلة أو كثيرة . ومن هذه الأمور النقائص ، والمعارضات ، وموضوع القصيدة الذي يستدعي رويا دون غيره ، والألفاظ التي يبني عليها الشاعر روي بعض الأبيات التي قد تكون هي بيت القصيد عند الشاعر ، وكثيرا ما تكون هذه الألفاظ أعلاما لأشخاص أو أماكن أو غيرها .

وقد كان للعامل الأخير الأثر الأكبر في بناء الروي على هذه الحروف في شعر الأوس والخزرج. وفي ما يأتي وقوف متأن على كل حرف من هذه الحروف لتبين ما تضمنه من العوامل السابقة .

## حرف الفاء :

وجاء في ترتيبه ثامنا (٢٣٣ بيتا) في شعر الأوس والخزرج . ومع أن النظم عليه قليل نوعا ما في الشعر العربي ، إلا أننا نجد له كثرة ملحوظة في شعر هاتين القبيلتين . وقد وقفنا قبلا على أثر النقائص في ازدياد الشعر المنظوم على بحر المنسرح ، ونقول هنا ما قلناه هناك ، فكما كان للنقائص أثر في النظم على البحر كان لها أثر في الروي أيضا ، فالنقائص - كما هو معلوم - تتفق في الغالب قافية وبحرا ، وهكذا ، فإنه كما لم يكن للشاعر - في أحيان كثيرة - الخيار في اختيار البحر ، لم يكن له كذلك خيار في اختيار الروي . وإذا علمنا أن النقيضة التي كان يقولها شاعر قد تتقضى بأكثر من قصيدة تبينا سر الكثرة في النظم على بحر معين أو روي .

وحرف الفاء نظمت عليه وبسببه عدة نقائص فصلنا القول فيها عند الحديث عن قصيدة عمرو بن امرئء الخزرجي الفائية في الجدول الأول ، وبينا النقائص الفائية التي نشأت عن هذه القصيدة .

وكثيرا ما يكون للأعلام المنتهية بأحرف معينة دور في كثرة النظم على هذا الحرف ، إذ كثيرا ما تكون مثل هذه الأعلام هي السبب في اختيار روي دون آخر ، ويكون الشاعر قبل نظم قصيدته قد جرى في حسابه وضع العلم المراد في نهاية البيت ليكون رويا .

وقد ازداد النظم على حرف الفاء في شعر هاتين القبيلتين بسبب عدد من الأعلام التي كانت هي المسبب في قول القصيدة والدافع إليه ، فوجدنا مثل ذلك في عدد من القصائد الطوال والمقطوعات في شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، والشعر الذي جمعه داود غطاشة ، مما أفرز لنا هذه الزيادة الملحوظة في النظم على حرف الفاء ، وهذه الأعلام هي:

◀ كعب بن الأشرف : ومن أجله نظم حسان قطعة من أربعة أبيات ذكر فيها مقتله <sup>(١)</sup>، وورد اسمه في البيت الأول منها .

◀ أبرق العزاف <sup>(٢)</sup> : ولحسان فيه قطعة من ثلاثة أبيات <sup>(٣)</sup> ، وورد في البيت الأول منها .

◀ ثقيف : ويأتي الحديث عن علم هذه القبيلة عادة عند ذكر غزوة حنين وغزوة الطائف .

ولحسان في هذه اللفظة (ثقيف) قطعتان : الأولى يذكر فيها امرأة من هذه القبيلة ، وجاءت في بيتين <sup>(١)</sup> ، وقعت لفظة ثقيف في الثاني منهما ، والثانية يهجو فيها قبيلة ثقيف ، وجاءت في

(١) انظرها في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٢١١ .

(٢) هو ماء لبني أسد بن خزيمة بن مذكاة مشهور ، ذكر في أخبارهم ، وهو في طريق القاصد إلى المدينة من البصرة ( انظر : معجم البلدان ، مادة " أبرق العزاف " ) .

(٣) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

ثلاثة أبيات <sup>(٢)</sup> ، وقعت لفظة **ثَقِيف** في البيت الأول منها . ولكعب بن مالك في هذه اللفظة (ثَقِيف) قطعة من خمسة وعشرين بيتاً <sup>(٣)</sup> ، جاءت اللفظة في البيت الثاني منها .

◀ **الأَجْرَاف** <sup>(٤)</sup> : وهو اسم موضع ، وفيه قطعة من تسعة أبيات لقيس بن الخطيم يمدح فيها خِذَاش بن زهير العامري الذي جعله فارس هذا الموضع ، وورد هذا العلم في مطلع القطعة <sup>(٥)</sup> .

◀ **السَّقِيف** : وهو الموضع الذي قتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ولكعب بن مالك قطعة في مقتل عثمان من سبعة عشر بيتاً ، وقد جاء هذا العلم في أثناء القصيدة ، وليس في مطلعها ، ولعله هو الذي دفع الشاعر لركوب هذا الروي <sup>(٦)</sup> .

◀ **المُزْدَلَف** : وهو اسم أطم لمالك بن العجلان ، وله فيه قطعة من شطرين على بحر الرجز يفخر فيهما ببناء هذا الأطم ويصفه <sup>(٧)</sup> ، ووقع هذا الاسم في الشطر الأول منهما .

وبالرجوع إلى ديوان عبدالله بن رَوَاحَة نجد أنه لم يكن له شعر في غزوة الطائف ولا في غزوة حنين ، ولا في مقتل كعب بن الأشرف ، ولا في مقتل عثمان لأنه لم يدركه ، فلم نجد له شيئاً على روي الفاء ، ولو وجد له شعر في هذه المناسبات فربما وجدنا له شعراً على هذا الروي .

### حرف الهمزة :

ونجد في القصائد الهمزية - كما في الفائية - كلمات بنيت عليها القصيدة أصلاً ، ثم التزم الشاعر الهمزة في بقيتها ، مثل قصيدة حسان قبيل فتح مكة <sup>(٨)</sup> ، وعدتها (٣١ بيتاً) . فقد بنى حسان همزيته هذه على لفظتين مهموزتين : الأولى لفظة "الجواء" ، وهو اسم موضع للغساسنة في الشام ، وجاءت هذه اللفظة في صدر مطلع القصيدة المصروع ، وروي الصدر المصروع هنا مثل روي القصيدة ، واللفظة الثانية : لفظة "كداء" ، وهو الموضع الذي دخلت منه خيل المسلمين يوم فتح مكة بأمر الرسول ﷺ .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٢ .

(٣) ديوان كعب بن مالك ، ص ٦٦ .

(٤) قال ياقوت الحموي : أجراف كأنه جمع جرف ، وهو جانب الوادي المنتصب ، موضع . وقد ذكر له شاهداً شعرياً غير أنه لم يحدد موقعه ولا حدد القبيلة التي تسكنه . انظر : معجم البلدان ، مادة "أجراف" .

(٥) ديوان لقيس بن الخطيم ، ص ١٩٠ .

(٦) ديوان كعب بن مالك ، ص ٧٢ .

(٧) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٢٠٢ . وانظر "المزدلف" عند الحديث عن أطام يثرب ، ص ٢٣ من هذه الدراسة .

(٨) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٧ .

وكذلك نجد لفظة "كداء" رويًا في قطعتين لكعب بن مالك يستلزم موضوعهما هذه اللفظة ، واحدة من سبعة أبيات يوم بدر يبشر فيها المسلمين بفتح مكة<sup>(١)</sup> ، وثانية من ثلاثة أبيات يوم فتح مكة<sup>(٢)</sup> .

كما نرى كعب بن مالك قد بنى قصيدة من تسعة أبيات على الهمزة<sup>(٣)</sup> في قصة بئر معونة<sup>(٤)</sup> ، وهي أرض لبني عامر بن صعصعة ، لأن أبا براء عامر بن مالك الكلابي العامري كان أجار أربعين من المسلمين، فقتلهم عامر بن الطفيل الكلابي بمعونة بني سليم ، فقال كعب قصيدته يعرض بأبي براء لعدم وفائه بعهده لرسول الله ﷺ ، وقد جاءت كلمة "براء" في مطلع القطعة ، لأن أبا براء كان موضوع الكلام .

### حرف الحاء

وقد كان للألفاظ التي بنيت عليها القطع الشعرية الأثر في ازدياد الشعر الذي بني على حرف الحاء ، فقد بنى عبدالله بن رَوَاحَة على لفظ "مِسْطَح"<sup>(٥)</sup> قطعة مكونة من أربعة أبيات<sup>(٦)</sup> يهجو فيها هذا الرجل ومن شاركه في قذف عائشة رضي الله عنها ، وجاء لفظ "مِسْطَح" في البيت الأول منها ، كما بنى قيس بن الخطيم أيضا قطعة من أربعة أبيات<sup>(٧)</sup> على لفظ "الرُّمَّاح"<sup>(٨)</sup> يذكر فيها امرأة ، وجاء هذا اللفظ في البيت الثاني منها ، وهو كما نرى لفظ غريب لا يجيء في الشعر مصادفة .

وبنى حسان على "مَوْهَب بن رَبَاح"<sup>(٩)</sup> قطعة من أربعة أبيات يهجو فيها<sup>(١٠)</sup> ، وجاء هذا العلم في البيت الأول منها ، كما بنى على كلمة "أبطح" - وهو موضع في مكة - قطعة

(١) ديوان كعب بن مالك ، ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٤) بئر معونة : ماء بين مكة والمدينة لبني عامر بن صعصعة (انظر :معجم ما استعجم ، ومعجم البلدان ، مادة "بئر معونة").

(٥) مِسْطَح : أحد الذين قذفوا عائشة ، سبقت ترجمته ص ١٥١ من هذه الدراسة .

(٦) ديوان عبدالله بن رَوَاحَة ، ص ١٤٣ .

(٧) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٢٨ .

(٨) الرُّمَّاحُ : طائر ، قيل إنه كان يخطف الصبي من مهده ، وقيل غير ذلك (انظر لسان العرب وتاج العروس ، مادة "رمح") . وقد ضرب بهذا الطائر المثل في الشؤم ، فقيل : "أشأم من الرُّمَّاح" ، وهو مثل من أمثال المدينة ، ذكر ذلك الميداني وأورد المثل (انظر الميداني ، مجمع الأمثال ، ج ١ ، ص ٣٩٠) .

(٩) هو مَوْهَب بن رباح الأشعري حليف بني زُهرة ، وهو شاعر ، ذكره المرزباني ، وساق أبيات حسان في هجائه (انظر المرزباني ، معجم الشعراء ، ص ٢٧٩) .

(١٠) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤١٣ .



من ستة أبيات<sup>(١)</sup> يذكر فيها رجلا قتله أهل مكة<sup>(٢)</sup>، وجاء هذا الموضع في آخر بيت منها ،  
وبنى على الموضع نفسه قطعة أخرى من عشرة أبيات<sup>(٣)</sup> في هجاء ربيعة ونوفل ابني الحارث  
بن عبد المطلب ، وهما من أهل الأبطح ، وجاء هذا اللفظ في البيت الخامس منها .

وقد يحدد موضوع القصيدة الحرف الذي يختاره الشاعر ، فقد أراد حسان أن يهجو بني  
العوّام ، لأن عبد الرحمن بن العوام كان يؤذي رسول الله ﷺ قبل أن يسلم ، فهجاه حسان ،  
وجعل له خلق التماسيح التي يضرب بظلمها وأذيتها المثل ، فبنى قطعة من ثلاثة أبيات على لفظ  
"التماسيح"<sup>(٤)</sup> ، فكان من المرجح أن موضوع القصيدة ، وهو وسم المهجو بالغدر والأذية ، هو  
الذي جعل الشاعر يختار هذا اللفظ . ولحسان قصيدة حائية من ثلاثة وأربعين بيتا<sup>(٥)</sup> في رثاء  
شهداء أحد من المسلمين ، لكنها ليس فيها من ألفاظ تصلح أن نقول إن الشاعر قد اختار روي  
الحاء من أجلها ، ولعل بناءها على روي الحاء يعود إلى أن القصيدة أشبه ما تكون بمعارضة  
لقصيدة أمية بن أبي الصلت الثقفي ، فقد كانت قصيدة أمية في رثاء قتلى بدر من المشركين ،  
فجاءت قصيدة حسان معارضة لها وزنا وقافية وموضوعا في رثاء شهداء أحد من المسلمين ،  
وهكذا فإننا نرى أن المعارضة سبب آخر يؤدي إلى ازدياد النظم على البحر والروي .

### حرف القاف

ونجد على هذا الحرف عند كعب بن مالك لفظا كان له الأثر الكبير في اختيار القاف  
رويا ، وهو لفظ "الخنديق" الذي سميت به الغزوة ، وبنى كعب بن مالك على موضوعه قصيدة  
من ثلاثة وعشرين بيتا<sup>(٦)</sup> ، وجاء هذا اللفظ في مطلع القصيدة رويا لها . أما عند حسان فنجد  
قطعة من تسعة عشر بيتا<sup>(٧)</sup> ، يفخر فيها بقبائل قحطان وملوكها وصولا إلى الفخر بنصرة قومه  
لرسول الله ﷺ . وقد كان للفظين من تلك القطعة أثر كبير في اختيار حسان روي القاف : الأول

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٢ .

(٢) هو أبو أزيهر الدؤسي ، وكان مسلما ، وصهرا لأبي سفيان نازلا في حماه ، قتله هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، فقال  
حسان الأبيات يعير أبا سفيان جبنه عن حماية حليفه (انظر الخبر مفصلا عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ ) .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٥٣ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٧٥ . والتماسيح : جمع تمساح ، والقياس تماسيح ، ولم أجد في أي من المعجمات اللغوية  
"تماسيح" جمعا لتمساح ، كما في مفاتيح ومفاتيح جمعا لمفتاح ، ولعل الضرورة هي التي ألجأت الشاعر إلى هذا الجمع .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٥٠ .

(٦) ديوان كعب بن مالك ، ص ٤٥ .

(٧) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

لفظ "محرّق"<sup>(١)</sup>، وجاء في البيت السادس من القصيدة ، والثاني : لفظ "الخَوَرَنَق"<sup>(٢)</sup> ، وجاء في البيت السابع منها ، وكلا اللفظين له علاقة بملوك قحطان الذين يفخر بهم .

### حرف الياء

وتعود الكثرة فيه إلى موضوع القصيدة الذي يؤدي إلى كثرة ضمير المتكلم المجرور بالإضافة الملحق بألف الإطلاق (يا) ، إذ إن موضوع مثل هذه القصائد يتضمن غالباً الحديث عن الذات وما يختص بها ، وقل أن تجد قصيدة مكتملة رويها الياء وبعدها ألف الإطلاق ولا يكون فيها حديث عن الذات ، كما في قصيدة مالك بن الربيع الياثية التي يرثي فيها نفسه ، فقد تضمنت هذا الضمير كثيراً . وفي الشعر الذي جمعه داود غطاشة قصيدة يائية<sup>(٣)</sup> تضمنت سبعة وعشرين بيتاً لأبي قيس صيرمة بن أبي أنس بن رفاعة ، وتضمن روي مطلعها ياء الضمير (ما بدا ليا) ، ثم تكرر في أربعة أبيات آخر منها . ومن ذلك أيضاً قطعة لأحيحة بن الجلاح<sup>(٤)</sup> من بيتين ، جاء ضمير المتكلم رويًا في بيت منها .

ومن ذلك أيضاً قطعة لعمر بن الإطنابة الخزرجي<sup>(٥)</sup> من اثني عشر بيتاً جاءت ياء المتكلم وما أدغم فيها في بيتين منها (صاحبياً ، علياً) . ولياء النسب دور أيضاً في تزايد النظم على هذا الروي ، إذ جاء في قصيدة عمرو بن الإطنابة السابقة ثلاث ألفاظ منسوبة لحقتها ألف الإطلاق، وهي قوله : فارسياً ، خزرجياً ، مشرفياً .

### حرف الجيم

إن الذي زاد النظم على هذا الروي لفظ واحد هو لفظ "الخزرج" اسم القبيلة . ونلاحظ أن حرف الجيم كاملاً قد بني على هذا اللفظ ، فلكعب بن مالك قطعة من ستة عشر بيتاً<sup>(٦)</sup> جاء لفظ الخزرج في السادس منها مقترناً مع لفظ الأوس . ولحسان بن ثابت أربع قطع بنيت على

(١) محرّق: المراد هنا هو ملك الشام من آل جفنة ، وهو الحرث بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . ولقب بذلك لأنه أول من حرق العرب في ديارهم . انظر الاشتقاق ، ابن دريد ، ص ٤٣٥ ، وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٢٩-٣٣٢ ، ولسان العرب ، مادة "حرق" .

(٢) الخورنق: فارسي معرب مأخوذ من كلمة "خرنقاه" أو "خرنكاه" الفارسية ، وأصله الموضع الذي يأكل فيه الملك ويشرب ، وهو هنا قصر النعمان بن المنذر بظهر الحيرة (انظر البكري ، معجم ما استعجم ، مادة "الخورنق" ، ولسان العرب ، مادة "خرنق" ، والحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، مادة "الخورنق" ) .

(٣) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ص ١٤٩ .

(٤) صالح البكاري والطيب العشّاش ، أحيحة بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، ص ٤٣ .

(٥) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٧٣ .

(٦) ديوان كعب بن مالك ، ص ٣٢ .

هذا اللفظ يفخر في كلها بقومه : الأولى من تسعة أبيات <sup>(١)</sup> ، جاء لفظ "الخزرج" في الثالث منها مقترنا مع لفظ الأوس ، والثانية : من تسعة أبيات <sup>(٢)</sup> ، جاء هذا اللفظ في البيت الثالث منها من دون لفظ "الأوس" ، والثالثة من بيت واحد <sup>(٣)</sup> ، جاء هذا اللفظ رويًا لها ، والرابعة من خمسة أبيات <sup>(٤)</sup> ، جاء هذا اللفظ في البيت الأول منها من دون لفظ الأوس .

### حرف الطاء

وهو حرف ينذر مجيئه رويًا ، ومما جاء على هذا الروي قصيدة خمزية مصرّعة لحسان بن ثابت من أربعة وعشرين بيتًا <sup>(٥)</sup> ، وكان سبب اختيار الطاء رويًا لها علمان : الأول "بَواط" <sup>(٦)</sup> الذي جاء في نهاية صدرها المصرّع ، والثاني "صالح بن غُلاظ" ، وهو صاحب مجلس الخمر الذي ناداه حسان ، وجاء هذا العلم في البيت الثامن من القصيدة رويًا .

وبعد ، فقد استقصينا الحديث عن حروف المجموعة الرابعة التي يقل مجيئها رويًا في الشعر العربي ، وجاءت في شعر الأوس والخزرج كثيرة كثرة يحسن الوقوف عليها. وقد رأينا أن مجيء ألفاظ بأعيانها كان له الأثر الكبير في ازدياد النظم على هذه الحروف ، كما لوحظ أن هذه الألفاظ قد جاء قسم غير قليل منها في مطلع القطع الشعرية .

ونرى أن الشاعر كان يستطيع أن يجعل مثل هذه الألفاظ في ثنايا القطعة الشعرية ، وهو كثير ، لكنه أثر في بعض قصائده أن يظهر أهمية اللفظ الذي هو بصده مما كان محور القصيدة ، فجعله رويًا تقوم عليه القصيدة ، وهذا أبين في إظهار أهمية تلك الألفاظ وخصوصيتها ، وخاصة أن كثيرًا منها قد جاء موضوعًا في الفخر والمدح .

ومما يتعلق بالروى الحديث عن مجيء الحروف المشددة رويًا في القافية المطلقة ، وهو قليل في الشعر العربي عامة ، أما في شعر الأوس والخزرج فلا نجد له مثالا إلا قصيدة عمرو بن الإطنابة اليائية التي تناولها الحديث أنفاً ، وقد جاءت على روي الياء المشددة . وتعود القلة في اختيار الحروف المشددة رويًا إلى ثقل النطق بالروى المشدد في آخر البيت ، وصعوبة الاستمرار بالقصيدة على مثل هذا الروى ، ويؤيد هذا ما روي عن حسان بن ثابت أنه قال : قدم

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٤٩ .

(٥) دراسة داود بن غطاشة ، ص ١٧٣ .

(٦) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٩١ .

النابعة المدينة فدخل السوق فنزل عن راحلته، ثم جثا على ركبتيه، ثم اعتمد على عصاه، ثم أنشأ يقول:

عرفتُ منازلًا بعُرِيَّتَاتٍ فَأَعْلَى الْجَزْعِ لِلْحَيِّ الْمُبْنِ

فقلت: هلك الشيخ، ورأيت أنه قد تبع قافية منكراً<sup>(١)</sup>. وفي هذا الخبر دليل قوي على أن القوافي المشددة، وإن يكن البناء عليها غير متعذر عند فحولة الشعراء، إلا أنه مركب صعب قد استعظمه شاعر فحل مثل حسان بن ثابت.

أما الروي المشدد في القافية المقيدة فليس بداخل في هذا الضرب من الروي، ذلك أن مثل هذا الروي يخفف في النطق عند الوقوف عليه، فيتحول إلى حرف واحد، لتعذر النطق بمثلين ساكنين، فلا يعتد في التقطيع الشعري في مثل ذلك إلا بحرف واحد ساكن، لذلك نرى الشاعر يجمع في القصيدة الواحدة المقيدة القافية بين الحرف المشدد وغير المشدد، لأن حكمهما واحد في الوزن العروضي. ومثل هذا الأمر أيضاً قليل جداً في شعرهم، لا نجده إلا عند حسان بن ثابت فقط في ثلاث قطع شعرية<sup>(٢)</sup>. وفي ما يأتي نورد لتوضيح هذا الأمر مجموعة أبيات من قصيدة واحدة لحسان على بحر الرمل، وهي:

أَجْمَعْتُ عَمْرَةً صُرْمًا فَابْتَكِرُ      إِنَّمَا يُدْهِنُ لِلْقَلْبِ الْحَصِرُ  
لَا يَكُنْ حُبُّكَ هَذَا ظَاهِرًا      لَيْسَ هَذَا مِنْكَ يَا عَمْرَ بَسِرُ  
عِنْدَ هَذَا الْبَابِ إِذْ سَاكِنُهُ      كُلُّ وَجْهِ حَسَنِ الثُّقْبَةِ حُرُ  
يُوقِدُ النَّارَ إِذَا مَا أُطْفِئَتْ      يُعْمَلُ الْقَدَرُ بِأَثْبَاجِ الْجُرُ<sup>(٣)</sup>

وبتقطيع البيت الأول والثاني يتضح ما قلنا:

• أَجْمَعْتُ عَمْرَةً صُرْمًا فَابْتَكِرُ      إِنَّمَا يُدْهِنُ لِلْقَلْبِ الْحَصِرُ  
- ب - / - ب ب - / - ب -      - ب - / - ب ب - / - ب -  
فاعلاتن / فَعِلَاتْنِ / فاعلا      فاعلاتن / فَعِلَاتْنِ / فاعلا

• لَا يَكُنْ حُبُّكَ هَذَا ظَاهِرًا      لَيْسَ هَذَا مِنْكَ يَا عَمْرَ بَسِرُ  
- ب - / - ب ب - / - ب -      - ب - / - ب ب - / - ب -

(١) انظر الخبر عند الأصفهاني، الأغاني، ج ٣، ص ٨. ويروى: غشيت بدلا من عرفت.

(٢) انظر ديوان حسان بن ثابت، ج ١، ص: ٥٧، ٦٧، ٣٠٧.

(٣) ديوان حسان بن ثابت، ج ١، ص ٣٠٧-٣٠٨.

فاعلاتن / فَعِلَاتْن / فاعلا فاعلاتن / فاعلاتن / فعلا

فالراء في كلمة "الحصر" مخففة ، والراء من كلمة "سير" مشددة ، ومع ذلك جاء حكمهما في التقطيع واحدا .

### ٣ - الألفاظ والتراكيب

تتشابه الألفاظ والتراكيب في الشعر الجاهلي تشابها كبيرا مما يضيف على هذا الشعر سمات محددة تميزه عن غيره من شعر العصور اللاحقة . ولا يعني هذا أن الشعر الجاهلي قد سار في ألفاظه وتراكيبه على وتيرة واحدة ، بل المراد أن هناك سمات معينة قد غلبت على جلّه دون أن تتسحب عليه كله . فإذا كانت ألفاظه وتراكيبه قد تميزت بالقوة والجزالة ، أو الغرابة أحيانا فإن قسما من هذا الشعر قد خلا من هذه السمات كالشعر الديني المتمثل كثيرا في شعر الحنفاء من الجاهليين ، وشعر الوعظ والحكم .

ويتحدث الدكتور شوقي ضيف - رحمه الله - عن الخصائص اللفظية للشعر الجاهلي فيقول : من أهم ما يميز الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائما رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهي في الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفي أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقيا لغويا ، وهو رقي لم يحدث عفوا ، فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدي معانيها بدون اضطراب<sup>(١)</sup> .

ويرد الدكتور شوقي ضيف ذلك إلى أن الشعراء كانوا يرددون معان بعينها ، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقا مرسوما ، يسرون فيه كما تسير قوافلهم سيرا رتيبا ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعورا دقيقا مما جعل زهير يقول ببيتة المأثور - إن صح أنه له - :

ما أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَارًا      أَوْ مُعَادًا مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُورًا

فهو يَشْعُرُ أنهم يُدَيِّنُون ويعيدون في ألفاظ ومعان واحدة ، ويجزّون على طراز واحد ، طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهديب ، فكل شاعر ينقح فيه ويهذب ويصفي جهده حتى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة في الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتي نادرا ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ،

(١) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، دارا المعارف ، القاهرة ، ط٧ ، د . ت ، ص ٢٢٦ .

وبالغوا في ذلك حتى كان منهم من كان يخرج قصيدته في عام كامل ، يردد نظره في صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستوية في بنائها<sup>(١)</sup>.

ويمكننا أن نتحدث في شعر الأوس والخزرج الجاهلي عن ثلاثة أضراب من الشعراء الذين تباينت الألفاظ والتراكيب عندهم تباينا ملحوظا:

### الضرب الأول : قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت

تميزت ألفاظ قيس بن الخطيم عامة بالجزالة والقوة والوضوح كما هو الحال في جانب كبير من شعر هذا العصر ، غير أنه لجأ في أحيان كثيرة إلى غريب اللفظ وإلى التراكيب غير المتداولة في عصره التي اقتصر إيرادها على شعره خاصة ، فكان موردا فريدا ثرا لمعاجم اللغة ، لذلك رأينا هذه المعاجم قد أكثرت من الاستشهاد بشعر قيس بن الخطيم ، فعلى سبيل المثال استشهد صاحب اللسان بشعر قيس بن الخطيم تسعا وخمسين مرة ، واستشهد صاحب تاج العروس بشعره ثلاثا وستين مرة .

وفضلا عن ذلك فقد كان شعر قيس بن الخطيم مصدرا لكتب الغريب تستشهد به في تفسير غريب الحديث والأثر ، فاستشهد بشعره ابن سلام الهروي ثلاث مرات في كتابه "غريب الحديث" ، وابن قتيبة الدينوري أربع مرات في كتابه "غريب الحديث" ، والخطابي عشر مرات في كتابه "غريب الحديث" ، والزمخشري مرتين في كتابه "الفائق في غريب الحديث". ولسنا هنا بصدد استقصاء ذلك في شعره ، لكننا نذكر أمثلة يتضح بها ما قصدنا ، فمن التراكيب الغريبة في شعره قوله : "أَفْضَتْ إِلَيَّ حَيَاءَهَا" حين قال:

وَمِثْلِكَ قَدْ أَصْبَيْتُ لَيْسَتْ بِكُنَّةٍ      وَلَا جَارَةَ أَفْضَتْ إِلَيَّ حَيَاءَهَا<sup>(٢)</sup>

قال ابن السكيت: أي لم يكن بيني وبينها ستر ، وقال أبو عمرو : أخبرتني بما تكتن وتستر<sup>(٣)</sup>. وهذا التركيب لا يكاد يوجد في شعر غير قيس بن الخطيم .

ومن التراكيب غير المتداولة في الشعر العربي قول قيس بن الخطيم ، وهو يتحدث عن الحرب : "أَلْقَتْ رِداءَهَا" ، أي تجردت ، فقال:

وَقَدْ جَرَبْتُ مَيِّ لَدَى كُلِّ مَاقِطٍ      دُحْيٍ إِذَا مَا الْحَرْبُ أَلْقَتْ رِداءَهَا<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> المرجع نفسه ، ص ٢٢٦. وقد أحال الدكتور شوقي ضيف في الجزء الأخير من كلامه إلى كلام الجاحظ في ذلك. انظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٩ .

<sup>(٢)</sup> انظر البيت في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤١ .

<sup>(٣)</sup> انظر البيت وتفسيره والأقوال في ذلك: ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٢ .

ويكرر قيس بن الخطيم هذا المعنى بتركيب آخر مشابه لتركيب "ألقت رداءها" في قصيدة أخرى مستخدماً الفعل "تجردت" ، وهو معنى "ألقت رداءها" ، غير أنه أكثر مبالغة وتبياناً ، فيقول :

فَلَمَّا رَأَيْتُ الْحَرْبَ حَرْباً تَجَرَّدَتْ      لَيْسَتْ مَعَ الْبُرْدَيْنِ ثَوْبَ الْمُحَارِبِ<sup>(٢)</sup>

وقد طوّقت في عامة الشعر العربي وموسوعات التراث الأدبية عن طريق الموسوعات التراثية الإلكترونية فما وجدت من استخدم هذين التركيبين في شعره قبل قيس بن الخطيم ، نعم ، لقد استخدمت العرب في كلامها عن الحرب وتأجج جذوتها تعبير "شمرت عن ساقها" ، لكنها لم تستخدم "تجردت" ، وهو أبلغ في التعبير والإبانة ، لأن التشمير عن الساق إنما هو جزء من التجرد ، وتجرد الحرب استوائها للعيان ماثلة على أكمل صورة . ومما يستغلق على القارئ من تراكيب قول قيس بن الخطيم :

إِذَا هُمْ جَمَعَ بَانَصِرَافٍ تَعَطَّقُوا      تَعَطَّفَ وَرَدَ الْخِمْسَ أَطَّتْ رِبَاعُهَا<sup>(٣)</sup>

أما الألفاظ فكثيراً ما نجد في شعر قيس بن الخطيم ألفاظاً غريبة تُدَوَّلَت في الشعر الجاهلي على قلة نحو : ممترو الحرب<sup>(٤)</sup> ، بلّحوا<sup>(٥)</sup> ، أسباد<sup>(٦)</sup> ، نُلقِهَا مَبْسُورَةً<sup>(٧)</sup> ، ضَرَزَيَّة

(١) انظر البيت وتفسيره في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٠ . والمأقط : المضيق في الحرب والمأزق ، ودُحَيّ : اسم قبيلة ، وهم بطن من بني الحُدَّان ، من بني غالب بن عثمان من زهران بن كعب بن الحارث بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد ( انظر ابن دريد ، الاشتقاق ، ص ٥١٠-٥١١ ، وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٥٧-٣٦٢ ) .

(٢) انظر البيت وتفسيره في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٢ .

(٣) انظر البيت وتفسير مفرداته في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٤٣ . وقد فسرنا هذا البيت وتناولنا المقصود منه ص ٨٣ من هذه الدراسة .

(٤) انظر ديوانه ، ص ٥٠ . وممترو الحرب : الذين يستدرونها ويسعون في إضرارها .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٠ . وبلّحوا : أعيوا وتعبوا .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٠ . وأسباد : جمع سيّد : وهو الذئب والداهية .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٥١ . ومبسورة : من بسر الفحل الناقة ، إذا ضربها على غير شهوة منها له .

(١) ، تُعَبِّطُهَا<sup>(٢)</sup>، تَخْذِيم<sup>(٣)</sup>، دِينَارًا نَقِيدًا<sup>(٤)</sup> ، الْفَغَايَا<sup>(٥)</sup> ، عِيَاج<sup>(٦)</sup> ، اَنْتَوَاء<sup>(٧)</sup> ، نَقِيلَةً<sup>(٨)</sup> ، وَزَمَاء<sup>(٩)</sup> ، وغيرها كثير .

وأما حسان بن ثابت فله من قوة اللفظ وجودته ، وسمو التركيب ومثانته ما لقيس بن الخطيم أو أكثر . وقد عَجَّت المعاجم اللغوية بشعره شاهدا على ما أوردت من ألفاظ ، فاستشهد بشعره صاحب اللسان زهاء مئة وثلاثين مرة ، وصاحب تاج العروس مئة مرة ونيفا . كما حفلت كتب الغريب بأوابد شعره ، فاستشهد ابن الجَزْري بشعره عشر مرات في كتابة "النهاية في غريب الحديث والأثر" ، وابن سلام الهروي سبع مرات في كتابه "غريب الحديث" ، وابن قتيبة مرة واحدة في كتابه "غريب الحديث" ، والحري مرتين في كتابه "غريب الحديث" ، والخطابي اثنتي عشرة مرة في كتابه "غريب الحديث" ، والزمخشري تسع مرات في كتابة "الفائق في غريب الحديث" . ومن التراكيب النادرة التي نجدها عنده قوله : بنو أستاذها<sup>(١٠)</sup> ، إذا ما الكلب أجحره الضَّريب<sup>(١١)</sup> ، إذا ما الحرب حُلَّ صرارها<sup>(١٢)</sup> ، هلا لله<sup>(١٣)</sup> ، ما السيد الجبار... على أرماحنا بمحرَّم<sup>(١٤)</sup> ، الضاريين بموطن الرعب<sup>(١٥)</sup> ، قَلَبْتُ من ذاك أظْهرا وبطونا<sup>(١٦)</sup> ، أحلام العصافير<sup>(١٧)</sup> ، صرَّتْ جناديه من

(١) المصدر نفسه ، ص ٥١ . وضرزنية : عاصية .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦١ . وتعبطها : من عبط الذبيحة ، أي نحرها من غير داء ولا كسر وهي فتية سميئة .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ . وتخذيم : هو السرعة في التقطيع .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ . ديناراً نقيداً : خالياً من الزيف .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٨ . والفغايا : جمع الفَغَى ، وهو التمر الذي يغلط ويصير فيه مثل أجنحة الجراد .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٥١ . وعياج : من قولهم : فلان لا يعاج بقوله ، أي لا يلتفت إليه .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ . وانتواء : هو القصد إلى بلد غير البلد الذي أنت في مقيم .

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٩١ . ونقيلة : ناقة عظيمة .

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٩١ . ووزماء : كثيرة اللحم .

(١٠) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٦٨ . وبنو أستاذها : يهجو قوما بأنهم لم يولدوا ، وإنما خرجوا من الاست كما تخرج العذرة . انظر تعليق المرزوقي على هذا التركيب والبيت الذي أورده في شرح ديوان الحماسة ، ج ٣ ، ص ١٣٧٥ . وهذا التركيب لم أجده عند شاعر معروف غير حسان ، والبيت الذي أورده المرزوقي لم يسم صاحبه .

(١١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٧٥ . وأجحره الضريب : ألجأه إلى جحره الجليد . وهذا التركيب لم أجده إلا عند حسان أيضاً ، وأورد في معناه أمية بن أبي الصلت حين قال : "إذا ما الكلب أجحره الشتاء" ، ولا تجد عند غير هذين الشاعرين مثل هذا التركيب في الشعر الجاهلي .

(١٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٣ . والصرار : خيط يشد على ضرع الناقة لئلا يرضعها ولدها (انظر لسان العرب ، مادة صرر) ، والتركيب كناية عن ابتداء الحرب .

(١٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٣ . ولم أجد هذا التركيب عند غير حسان ، ولا وجنته في معجم ، ولعله يقصد به التعجب .

(١٤) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٦٣ . وهو تركيب قليل الاستخدام عند شعراء الجاهلية .

(١٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣٠ . وموطن الرعب كناية عن القلب ، ولم أجد هذا التركيب عند غير حسان بن ثابت .

(١٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣٦ . والتركيب كناية عن التدبير والتمرس في الأمور .

(١٧) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٩ . وأحلام العصافير : كناية عن السخف ، والعرب تضرب المثل بذلك .



الظهر<sup>(١)</sup>. ومع وجود التراكيب السابقة عند غير حسان بن ثابت إلا أنها وجدت على قلة لا تكاد تذكر . ومن الألفاظ الغربية التي نجدها في شعره : عَسَجَن<sup>(٢)</sup> ، الدَّرَقَل<sup>(٣)</sup> ، حَشَك<sup>(٤)</sup> ، المِقَاط<sup>(٥)</sup> ، وئوانها<sup>(٦)</sup> ، دعداع<sup>(٧)</sup> ، متطَف<sup>(٨)</sup> ، دِفْقَة<sup>(٩)</sup> ، خياويل<sup>(١٠)</sup> ، تضطعف<sup>(١١)</sup> .

ويلاحظ في شعر حسان أن الألفاظ الجزلة والتراكيب الفريدة تكثر عنده في القصائد الطوال دون القطع الشعرية القصيرة ، وهو أمر طبيعي ، ذاك أن القطع الصغيرة كثيرا ما تستدعي الارتجال خلافا للمطولات التي تستدعي إعمال الفكر ورَجْع النظر في القصيدة وتنقيحها وتهذيبها .

ونجد لكارل بروكلمان رأيا في ألفاظ حسان بن ثابت يذهب فيه إلى "أن أكثر شعر حسان قريب الألفاظ إلى حد الابتذال ، ولا يصل إلى مستوى حد رفيع ، وإنما يرجع فضل انتشاره والتعلق به في الأزمنة المتأخرة إلى غرضه العظيم الأهمية وهو مدح النبي ﷺ"<sup>(١٢)</sup> ، لكن آراء كبار الرواة والنقاد في شعر حسان الجاهلي مثل : الأصمعي<sup>(١٣)</sup> ، والأصفهاني<sup>(١٤)</sup> ، وابن سلام الجمحي<sup>(١٥)</sup> تدحض ما ذهب إليه بروكلمان ومن ذهب مذهبه . وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالنظر والاهتمام في شعر حسان الجاهلي ، وهي إكثاره من المعاني والألفاظ

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢ . وصرت جنابيه : هو مثل يضرب للأمر الشديد يقلق صاحبه ، وذاك أن الجندب إذا رمض في شدة الحر لم يقرّ على الأرض وطار ، فتسمع لرجليه صريرا . انظر لسان العرب ، مادة "جندب" .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤ . وعسجن ، من العسج ، وهو مد العنق في المشي .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤ . و الدَّرَقَل : ضرب من الثياب .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩٢ . والحَشَكُ : شدة الدَّرّة في الضرع .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩٢ . والمِقَاط : الحبل الشديد القتل .

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٠ . وئوانها : جمع ئوء ( انظر ديوان حسان ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ) ، وهو النجم الذي ينسب إليه المطر ، فيقال : مطرنا بنوء كذا .

(٧) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٠٢ . والدَّعْدَاع : الرجل القصير .

(٨) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٥ ، ومتطَف ومنطَف : الغلام الذي يلبس النّطقة ، وهي القُرط .

(٩) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٧ . ودِفْقَة : الناقة التي تتدفق في مشيها وتسرع .

(١٠) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٢ . وخياويل : جمع خَيْل على غير القياس ، وقياس جمعه : خيايل ، وهو القميص الذي لا كمّ له .

(١١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٨٧ . وتضطعف : تستضعف وتمتهن .

(١٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبدالحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

(١٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ١ ، ص ٣١١ ، وانظر : المرزباني ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص ٦٣ - ٦٥ .

(١٤) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

(١٥) ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص ١٦٦ .

المقذعة حين يهجو<sup>(١)</sup> ، وهو ما لا نكاد نجد له مثالا في شعر بقية شعراء الأوس والخزرج ، وهذه سمة لازمت حسان بن ثابت في عصر صدر الإسلام أيضا .

### الضرب الثاني : كعب بن مالك وعبدالله بن رَوَاحَة وأبو قيس بن الأسَلْت

أما كعب بن مالك فنجد أبياته الجاهلية<sup>(٢)</sup> سهلة الألفاظ قياسا بألفاظ العصر الجاهلي ، فهي خالية من الغرابة في اللفظ والتركيب اللذين نجدها في شعر قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت . وكذا الأمر عند عبدالله بن رَوَاحَة في شعره الجاهلي الذي بين أيدينا ، فهو ينساب فيه على سجيته دون أن يتكلف في انتقاء ألفاظه وتراكيبه حتى نرى معظم شعره لا يشاكل ما عرفنا من الشعر الجاهلي .

وأما أبو قيس بن الأسَلْت فعلى الراجح أنه لم يسلم<sup>(٣)</sup> ، لذلك وجدنا محقق ديوانه حسن محمد باجودة يرفض معظم القصائد التي نسبت إليه لاختلاطها بشعر شاعر آخر<sup>(٤)</sup> . وقد غلب على الشعر الذي نسب إليه وجاء في ديوانه الحكمة والمواعظ والجانب الديني ، ومثل هذه الموضوعات نجد عادة فيها قرب اللفظ وسهولته .

وأما الشعر الجاهلي الذي أثبتته له محقق ديوانه فنجدته قريبا في ألفاظه وتراكيبه من شعر كعب بن مالك وعبدالله بن رَوَاحَة ، غير أن له قصيدة حربية انتشحت بسمات الجاهلية في ألفاظها وتراكيبها ، وهي التي مطلعها:

قالتْ وَلَمْ تَقْصِدِ لِقَوْلِ الْخَنَاءِ مَهْلًا فَقَدْ أَبْلَغْتَ أَسْمَاعِي<sup>(٥)</sup>

ففي هذه القصيدة نجد متانة في اللفظ وغرابة أحيانا ، ورصانة في الأسلوب والتراكيب ، إذ استخدم ألفاظا مثل : جَعَجَاع ، مَوْضُونَة ، مُجْنَأ ، الْفَكَّة ، الْهَاع ، هُلَوَاع ، أَهَاسِيَج ، وَلَيَّاتَهَا ، حَصَاء ، غير مِظْلَاع<sup>(٦)</sup> ، وغيرها كثير ، لذلك كانت هذه القصيدة موردا غني المفردات لأصحاب المعاجم اللغوية الذين نراهم يكادون يوردون كل بيت من أبياتها شاهدا على ما

<sup>(١)</sup> انظر أمثلة لذلك في ديوان حسان بن ثابت ، ج ٢ ، ص : ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١٦ ، ٣٥١ ، ٣٩١ ، ٤١٨ . وقد تناولنا ذلك أيضا عند حديثنا عن معاني حسان الإسلامية ، وما فيها من إقذاع . انظر ص ٢٨٢ من هذه الدراسة .

<sup>(٢)</sup> وعددها ثلاثة عشر بيتا . انظرها في ديوانه ، ص : ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٢ ، ٦٥ ، ٧٣ .

<sup>(٣)</sup> انظر تحقيق ذلك عند محقق ديوانه حسن محمد باجودة ، ديوان أبي قيس بن الأسَلْت ، ص ٦-٨ .

<sup>(٤)</sup> انظر بيان ذلك : المرجع نفسه ، ص ٩-١٠ .

<sup>(٥)</sup> المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

<sup>(٦)</sup> الجعجاع : الموضع الضيق الخشن ، وموضونة : الدرع التي نسجت حلفتين حلفتين ، أو المضاعفة النسج ، ومُجْنَأ : الترس ، والفَكَّة : اللحم والاسترخاء في الرأي ، والهاع : سوء الحرص مع الضعف والجبن ، وهُلَوَاع : الناقة السريعة الحديدية المذعان ، وَلَيَّاتَهَا ، جمع وَلَيَّة ، وهي البرذعة أو ما تحتها ، وَحَصَاء : هي من الرياح الصافية بلا غبار فيها ، وغير مِظْلَاع : غير متأخرة وغير منقطعة ، وأهاسيج : ضروب من السير ( انظر الديوان ص ٨١ ) ، وهذه اللفظة (أهاسيج) لم أجد في أي من المعاجم اللغوية الكبرى ولا وجدت مآدتها (هسج) .

يفسرون من ألفاظ. ومن التراكيب التي لا نكاد تجد لها شاهدا عند غير أبي قيس بن الأسلت قوله: "قد حصت البيضة رأسي"<sup>(١)</sup>، وقوله يصف السيف: "وإدق حده"<sup>(٢)</sup>.

### الضرب الثالث : طائفة الشعراء الجاهليين الذي جمع داود غطاشة شعرهم

لما كان معظم الشعر الذي جمعه داود غطاشة مقطعات شعرية يغلب الظن على كثير منها أنها مرتجلة ، وجدنا أن ألفاظها وتراكيبها تميزت غالبا بالوضوح وحسن التأليف ، ولا يعني هذا أن شعرهم هذا قد خلا تماما من الألفاظ الجزلة أو الغريبة ، أو أن تراكيبه وألفاظه كانت في متناول كل قارئ ، بل المقصود أن ما يستغلق من شعرهم على القارئ لفظا وتركيبا لا يشكل إلا نسبة قليلة من هذا الشعر ، وليس على النحو الذي نجد عند شاعري الضرب الأول . وإذا انتقلنا إلى ألفاظ شعرهم وتراكيبه في العصر الإسلامي وجدنا أشعارهم غير شعر حسان قد أخذت ألفاظها وتراكيبها تليين حتى استحالت سلسلة قريبة المعنى ، خاصة بعد أن تخلصت من كثير من تقاليد العصر الجاهلي ومقدماته الطللية التي عادة ما تتضمن الكثير من غريب اللفظ والتركيب ، فسادت معظم قصائدهم روح الإسلام وألفاظه الجديدة ومصطلحاته ، حتى لا نجد إلا القليل من قصائدهم الإسلامية التي خلت من لفظ إسلامي ، وبذلك تحولت ألفاظ كثيرة عن معناها اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي الذي جاء به الإسلام . وحتى نقف على هذه الألفاظ على نحو أوضح فإننا اخترنا ديواني كعب بن مالك وعبدالله بن رَوَاحَةَ نموذجاً لهذه الألفاظ لوضوح هذه الألفاظ فيهما وكثرتها . وقد تركنا الحديث عن ألفاظ حسان الإسلامية لأننا سنتناول أمثلة من هذا الديوان من بعد توضيح لنا قوة اللفظ وأسر التركيب اللذين تميز بهما شعره الإسلامي . وقد استقصينا في هذين الديوانين - ديوان كعب وابن رَوَاحَةَ - الألفاظ والتراكيب المتأثرة بالقرآن وأسلوبه ، وتلك التي كان للإسلام فيها أثر . وفي ما يأتي مجموعتان من الألفاظ والتراكيب الإسلامية نجدها في شعر كعب بن مالك وعبدالله بن رَوَاحَةَ أثبتتاها تباعاً كما وردت في ديوان كل منهما:

### المجموعة الأولى : الألفاظ والتراكيب الإسلامية في شعر كعب بن مالك

نورالله/روح القدس/ميكال/سيرته/فمن يجب إليه ينج/معصية/فاتبعناه/نصدقه/كذبوه/فدعا ربه/جياذ الله/نصر الله/يفيء النهب/حزب الإله/الشرك/ربنا الوهاب/مواعظ/نهدي بها

<sup>(١)</sup> حصت البيضة رأسي : الحص حلق الشعر ، والبيضة الخوذة ، والتركيب كناية عن كثرة خوض الحروب .

<sup>(٢)</sup> وإدق حده : الودق المطر ، وهذا مجاز ، فكان حد السيف يمطر الضرب أو الموت على الأعداء .

لملة الله مليك/الثَّصْبُ/ لاتأكلوا مالا باثم/ أحمد/ رضوان/ ذي العرش والعزة /ذو الألباب  
الحق/ جنان النعيم/ درك النار/ رب البرية/ نور/التقى/ النبوة/ المجرمون/ فاهدنا سبل الرشاد  
الجهاد/ توكلنا على رب العباد/ جهنم/ جبريل/ شهادة/ دينك/ المستشهد/ المؤمنين/ في الجنان  
مخلد/ فوز/ الغيب/ المشركون/ أمته/ كفروا برب عزيز/ وجاءهم من الله النذير/ آيات مبينات  
/فمن يتبعه يهد لكل رشد/ ومن يكفر به يجز الكفور/ نعم النصير/ ليس لله قاهر/ رسول الله/  
مجاهد/ شهدنا بأن الله/ وقود النار/ كل كفور في جهنم صائر/ زُبُر الحديد والحجارة ساجر/ إنما  
أنت ساحر/ بعث إيماننا بكفر/ منكر/ إمامهم/ المنكرات/ أجابوا ولبوا دعوة الله /ولم تفتنهم الدنيا/  
الفاروق/ الأجر/ نصرنا رسول الله/ كتاب الله /هدى الله /نقض عهودنا/ ديننا /تدلى عليه الروح/  
وتوكلوا على الله/ إن الأمر لله أجمع /بحول الله/ والرحمن راء وسامع /الحمد لله /نطيع نبينا  
ونطيع ربا هو الرحمن كان بنا رؤوفا /فإن تلقوا إلينا السلم نقبل وإن تأبوا نجاهدكم ونصبر/  
نجالد ما بقينا أو تنبئوا إلى الإسلام/ اللات/ العزى/ الخليفة/ النار موعدهم/ معروف/ نبي أتى  
بالحق عف مصدق/ الخندق/ لو كان بعبد ذا مرفق /فتلكم مع التقوى تكون لباسنا/ أمر الإله  
بربطها لعدوه/ ويعيننا الله العزيز / يكذبون محمدا /كفروا وضلوا / سبيل المتقي / ميكال  
وجبريل / فطرتنا / وأمر الله مفعول/ إثم/ صلى الإله /نزل الكتاب/ رضي الإله/ وأيقن أن الله  
ليس بغافل/ عفا الله /لأننا عبدنا الله لم نرج غيره /موسى كلم الله جهرة / نمل البر كلمت سليمان  
ذا الملك /نبي الله أحمد /سبحت صغار الحصى في كفه/ الأنصار/ رسلا /صائما/ رضوانا/  
مُزَفِينا/ قاتلك الله /تقيا أمينا /متوكلينا/ ليس له شريك/ وأن الله مولى المؤمنين/ للصالحينا/  
خزايا لم تتالوا ثم خيرا /وأصحاب أصحابه التابعينا /وأصحاب النبي /لم نبل بالفتن/ الخلافة/  
فإنما هذه الدنيا وزينتها / الحسنات/ الله يشكرها /والشر بالشر عند الله سيان / أنفق وأخلف/  
خير البرية/ المصطفى/ بشيرا منذرا /جند الله/ أئمة الكفر/ طواغيها .

### المجموعة الثانية : الألفاظ والتراكيب الإسلامية في شعر عبدالله بن رَوَاحَة

المساجد/يقرأ القرآن /الكفر/سجود/ثسلم/خالد/جهنم/المسلمون/رسول/الجهاد/ اهتدينا//تصدقنا  
صالحينا/فاغفر/فتنة/بغوا/صابر/ صادق/فاغفر/فائماواقعا/نعيم/ جنان/ ثَبَّتْ الأقدام/ سكينه/ الآخرة/  
الأنصار/ المهاجرة/ ذي العرش/ الرحمن/باسم الإله/نبيهم /رجم الغيب/صحف تتلى/القتل في  
سبيله/مؤمن/تنزيل/الحق/ الشهيد مغفرة/ أرشده الله/ الإخاء/هديت/سبيل الله/ شقيت/ تبئلي قضاء الله  
/شفاعته /يوم الحساب/ أووا/ نصروا/ السور/ آيات مبينة/القدر/يتلو كتابه/الهدى /يجافي جنبه/  
محشور/أعلم علما ليس بالظن/ إلى الله راجع /يشربون الرحيق والسلسبيلا/رب العالمين/ملائكة/عليك

سلام ربك /ثواب الجهاد/ رحم الله/فبعدا/عصيتم/ أف لدينكم/سخطه ذي العرش /حق الله/ صليت/  
عوفيت/موقنات/وعد الله حق /مثنوى الكافرين/ العرش/ فوق الماء طاف/ وتحمله ملائكة كرام.

والناظر في المجموعتين السابقتين من الألفاظ يجد تشابها كبيرا بينهما عند الشاعرين ، فهما  
يمتحان من معين واحد هو الإسلام وكتابه العظيم ، فأنت تستطيع أن ترد معظم تلك الألفاظ والتراكيب  
التي وردت في المجموعتين إلى آية من القرآن تمثلها الشاعر وهو يقرظ شعره .

وقد تكررت معظم الألفاظ والتراكيب السابقة في شعر ذينك الشاعرين غير مرة حتى إننا لا  
نكاد نجد إلا القليل من القطع التي لم يدخلها لفظ أو تركيب إسلامي ، وهكذا فقد كان للإسلام وكتابه  
الكريم دور كبير في شيوخ ألفاظ كثيرة جدا لم تعرفها العرب بمعناها الاصطلاحي ولا عرفها غير  
المسلمين ، وهذا زاد كثيرا في معجم الشاعر وحصيلته المعرفية التي اكتسبها بالإسلام وما جاء به من  
ألفاظ وتراكيب أغنت شعره .

ولم تكن هذه الألفاظ والتراكيب التي انتشرت بين الشعراء بانتشار الإسلام بغريبة كثيرا عن  
لغة عرب الجاهلية ، بل لقد كان بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي دائما رابط ، فالصلاة مثلا في  
اللغة هي الدعاء ، وقد عرفها شعراء الجاهلية ، خاصة الحنفاء منهم ، لكن ليس بالهيئة التي جاء بها  
الإسلام ، وكذا كثير من الألفاظ ، غير أن ثمة ألفاظا - مما أثبتنا ومما لم نثبت - لم يعرفها العرب قبل  
الإسلام ، ولم ترد في لغتهم نحو : جهنم ، عليون ، سجين ، سلسيل ، سقر ، وغيرها الكثير .

أما حسان بن ثابت ، فقد تتبعنا ألفاظه وتراكيبه الإسلامية فوجدت أن ما جاء في  
المجموعتين السابقتين قد تكرر عنده على نحو مشابه مع زيادة في مقدار تلك الألفاظ والتراكيب منشؤها  
كثرة شعره الذي وصل إلينا ، مما يجعل استقصاء تلك الألفاظ والتراكيب وتكراراتها ودراستها أمرا  
يستغرق هذه الدراسة بسبب كثرتها الكثيرة . وأما ألفاظه وتراكيبه الأخرى غير المتأثرة بالإسلام فنجد  
فيها من القوة والصلابة والجزالة على نحو قريب مما وجدناه في ألفاظه الجاهلية ، وإنما نجد تلك  
السلاسة والوضوح في شعره حين تكثر فيه الألفاظ الإسلامية ، فشعره الإسلامي لم يكن يجري على سنن  
واحد في لفظه وتركيبه كما ادعى أولئك الذين احتجوا بقول الأصمعي<sup>(١)</sup> ، بل لقد كان شعر حسان  
الإسلامي على ثلاثة أضرب تتفاوت بينها قلة وكثرة :

— ضرب وجدناه يجري فيها على سنن الجاهليين لفظا وتركيبا حتى ليكاد يختلط شعر هذا

الضرب بشعره الجاهلي لشدة شبهه به. وفي مثل هذا الشعر لا نكاد نجد أي لفظ أو تركيب متأثر بالإسلام

<sup>(١)</sup>حين قال : الشعر نكدٌ بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحلّ من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره ، وقال مرة أخرى: شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر، فقطع منته في الإسلام ، لحال النبي ﷺ ( انظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص ٣٠٥ .

، أو أننا نجد ذلك على قلة لا تكاد تذكر. ومن أمثلة هذا الضرب قصيدة يهجو فيها أمية بن خلف الجُمحي مطلعها :

أَتَانِي عَنْ أُمِّي نَنَّا كَلَامٍ      وَمَا هُوَ فِي الْمَغِيبِ بِذِي حِفَافٍ<sup>(١)</sup>

ومن القصيدة السابقة يقول :

سَأَنْشُرُ إِنْ بَقِيَتْ لَهُ كَلَامًا      يُسِيرُ فِي الْمَجَامِعِ مِنْ عُكَاطٍ  
قَوَافِي كَالسَّلَامِ إِذَا اسْتَمَرَّتْ      إِلَى الصَّمِّ الْمُعْجَرَفَةِ الْغِلَاطِ  
بَنَيْتُ لَهُنَّ أَبْيَاتًا صِلَابًا      كَأَسْرِ الْوَسْقِ قُعْصَ الشُّطَاطِ  
تَزُورُكَ إِنْ شَتَوْتَ بِكُلِّ أَرْضٍ      وَتَرْضَخُ فِي مَحَلِّكَ بِالْمَقَاطِ  
سَتَعْلَمُ إِنْ جَرَيْتَ لَدَى رَهَانٍ      بِخَيْلٍ مِنْ هَجَوْتِ وَمَنْ ثُلَاطِي  
إِذَا جِئْنَا عَلَى جُرْدٍ عِتَاقٍ      بِسُمْرٍ فِي عَوَالِيهَا خَوَاطِي  
تَغْضُ الطَّرْفَ أَنْ أَلْفَاكَ دُونِي      وَتَرْمِي حِينَ أُدِيرُ بِاللَّحَاطِ<sup>(٢)</sup>

وأول ما يلاحظ على هذه القصيدة ركوب حسان قافية الظاء التي تتميز الألفاظ المنتهية بها بالقوة والجزالة ، والغرابة أحيانا مثل : الشطاط ، المقاط ، تلاطي ، خواطي خاطي ، اللحاط ، وفضلا عن ذلك فالقصيدة ضمت في أثنائها عددا من الألفاظ التي هي أقرب إلى ألفاظ الجاهلية من مثل : السَّلام ، الْمُعْجَرَفَةُ ، شَنَارَا ، الْوَسْقُ ، قُعْصَ . ولا نلاحظ في القصيدة السابقة أية ألفاظ أو تراكييب متأثرة بالقرآن أو بالإسلام وأحداثه ، ولولا سياق القصيدة التاريخي الذي دل على مناسبتها لقلنا إنها بالعصر الجاهلي أشبه . وليست هذه القصيدة هي الوحيدة التي جرى فيها حسان هذا المجرى ، بل إن في ديوانه قطعا شعرية كثيرة جدا نجد فيها هذا السمت من النظم<sup>(٣)</sup> .

— ضرب جمع فيه بين سمات العصرين الجاهلي والإسلامي في اللفظ والتركيب .

وأكثر ما يكون هذا الضرب في القصائد الإسلامية ذات المقدمة ، فنراه في جزئها المتعلق

بالمقدمة - الذي غالبا ما يكون قصيرا - قد سلك مسلك الجاهليين من حيث قوة اللفظ والتركيب ، وجرى

(١)نظر القصيدة كاملة - وهي ثلاثة عشر بيتا - في ديوان حسان ، ج ٢ ، ١٥٣ . والنثا : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ .

(٢)ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٥٣ . والسَّلام : الحجارة ، واحدها سَلَمَةٌ ، والمعجرفة : النوق التي لا تقصد في سيرها من نشاطها (لسان العرب ، مادة "عجرف") ، والأسر : الخلق ، والوسق : مكيّلة معلومة ، وقيل : هو حمل بعير ، وهو ستون صاعا (لسان العرب ، مادة : وسق ) ، وقُعْصَ : شد أو طعن ، والشُّطَاطُ : خشبة عَقَاءُ يشد بها الوعاء الذي يحمل على البعير (نظر : لسان العرب ، مادة "شطط") ، والمقاط : لم أجدها في المعاجم ، ولعله يريد المكان الذي يُقْضَى فيه وقت القبط وهو الحر ، وتلاطي : من اللطي وهو اللهب الخالص ، ولم أجدها هذا الفعل (تلاطي) في المعاجم ، فكأنه جعل المهاجة كالنار ، والخواطي : جمع خاطٍ ، وهو اللحم الكثير .

(٣)انظر نماذج أخرى من هذا الضرب في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص : ٣٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٧ .

في جزئها المتعلق بموضوع القصيدة مجرى لنا سلسا متضمنا قدرا كبيرا من المفردات الإسلامية .  
وأظهر مثال على هذا الضرب قصيدته **المعروفة** قبيل فتح مكة<sup>(١)</sup> التي ضمنها جزءا جاهليا خالصا<sup>(٢)</sup>  
تمثلت في تلك المقدمة الطللية الغزلية الخمرية التي تصدرت القصيدة وجاءت في عشرة أبيات من أصل  
واحد وثلاثين بيتا . ومن تلك المقدمة يقول :

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ قَالِجَوَاءُ	إِلَى عِزَاءٍ مَنَزَلُهَا خَلَاءُ
دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسَّاسِ قَفَرٌ	تُعْقِيهَا الرِّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ
كَأَنَّ خَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ	يَكُونُ مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ
عَلَى أَنْيَابِهَا أَوْ طَعْمُ غَضٍّ	مِنَ الثَّقَاجِ هَصْرُهُ اجْتِنَاءُ
إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا	فَهُنَّ لِطَيْبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ
تُؤَلِّيهَا الْمَلَامَةُ إِنْ أَلْمَنَّا	إِذَا مَا كَانَ مَعَثٌ أَوْ لِحَاءُ <sup>(٣)</sup>

وبمقارنة الألفاظ والتراكيب بين مقدمة القصيدة وما بقي من أبياتها المتعلقة بفتح مكة نلاحظ  
تغايرا ظاهرا في أسلوب الشاعر ، فالجزء المتعلق بفتح مكة تكثر فيه الألفاظ والتراكيب الإسلامية مما  
جعله سهلا ، وهو لا يشاكل ما جاء في مقدمة القصيدة من تلك الألفاظ والتراكيب .

#### — ضرب غلبت فيه على القصيدة الألفاظ والتراكيب الإسلامية

وفي هذا الضرب نجد شعر حسان أشبه ما يكون بالشعر الديني لسهولة وكثرة مفرداته  
الإسلامية ، وقربه إلى القارئ ، حتى لا يكاد يمتاز عن شعر عامة الشعراء . ويكثر هذا الضرب في  
الشعر الذي مدح به حسان الرسول ﷺ أو رثاه ، وفي مرثيات حسان ومدائحه في الصحابة . ومن ذلك  
قوله في مدح الرسول ﷺ :

وَاللَّهِ رَبِّي لَا تُفَارِقُ مَا جَدَا	عَفَّ الْخَلِيقَةَ مَا جَدَّ الْأَجْدَادُ
مُتَّكِرًا يَدْعُو إِلَى رَبِّ الْعُلَا	بَدَلَ النَّصِيحَةِ رَافِعَ الْأَعْمَادِ
مِثْلَ الْهَالِ مُبَارَكًا ذَا رَحْمَةٍ	سَمَحَ الْخَلِيقَةَ طَيِّبَ الْأَعْوَادِ
إِنْ تَتْرُكُوهُ فَإِنَّ رَبِّي قَادِرٌ	أَمْسَى يَعُودُ بِفَضْلِهِ الْعَوَادِ
وَاللَّهِ رَبِّي لَا تُفَارِقُ أَمْرَهُ	مَا كَانَ عَيْشٌ يُرْتَجَى لِمَعَادِ
لَا نَبْتَغِي رَبًّا سِوَاهُ نَاصِرًا	حَتَّى تُوَافِيَ ضَحْوَةَ الْمِعَادِ <sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر قصيدته قبيل فتح مكة في ديوانه ، ج ١ ، ص ١٩ . وانظر نماذج أخرى من هذا الضرب في ديوانه ، ج ٢ ، ص : ٨٢، ٨٠، ٢٦٥، ٢٦٧، ٣٢١، ٣٣٧ .

<sup>(٢)</sup> انظر تفصيل الكلام في ذلك عند وليد عرفات ، ديوان حسان ج ١ ، ١٩ ، وج ٢ ، ص ٥ .

<sup>(٣)</sup> انديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ١٧ . والروامس : الرياح ، والسماء : المطر ، وهصره : من هصر الغصن إذا أماله إليه ،  
والألمنا : فعلنا ما نلام عليه ، والمعث : الضرب باليد ، واللحاء : الملاحة باللسان .

ولسنا في حاجة إلى بيان ذلك في النص ، فهو واضح . وبعد ، فشعر الأوس والخزرج الجاهلي لم يخرج معظمه في خصائصه اللفظية عما كان عليه عامة الشعر الجاهلي ، غير أننا وجدنا في بعضه تلك البراعة والجدة التي تحدث عنها الدكتور شوقي ضيف - رحمه الله - ووقفنا على جانب منها بما أوردنا من أمثلة عليها .

#### ٤ - المعاني

وقفنا في تناولنا موضوعات الشعر عند الأوس والخزرج على جانب كبير من معاني هذا الشعر والصور الفنية فيه ، وفي هذا الموضوع سنبحث في جانب فني هام في شعرهم الجاهلي والإسلامي ، وهو بيان مظاهر التقليد والتجديد في هذا الشعر ، أما في شعرهم الإسلامي فسنعرف على مظاهر تأثر معانيهم بمعاني القرآن الكريم خاصة .

#### أ - معانيهم الجاهلية

يتحدث الدكتور شوقي ضيف - رحمه الله - عن معاني الشعر الجاهلي عامة على نحو موجز فيقول: لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ، ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال ، سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في الطبيعة ، فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ولا المبالغة التي تخرج به عن الحدود المعتدلة<sup>(١)</sup>. ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الشاعر الجاهلي لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء ، بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً ، يُبقي فيه على

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٠٥ . وانظر أمثلة أخرى لهذا الضرب في الديوان ، ج ١ ، ص ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١٣ .

(٢) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٧ ، (د.ت) ، ص ٢١٩ .



صورها الحقيقية دون أن يدخل عليها تعديلا من شأنه أن يمس جواهرها ، ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته .

وما ذكره الدكتور شوقي ضيف ينطبق على معظم أشعار الجاهلية ، ولا يمنع أن تكون هناك بعض أبيات فيها ضرب من المبالغة ، لكن ذلك يأتي شاذا ونادرا<sup>(١)</sup>.

وقد غلب على معاني الشعر الجاهلي الجانب الحسي ، حتى كانت معانيهم منتزعة من عالمهم المادي الذي يعيشونه ، وقد جعل هذا الأمر الجاهليين يدورون في دائرة ضيقة من المعاني ، لكنهم تباينوا في النفوذ إلى دقائق تلك المعاني وتفصيلاتها والتعبير عنها، ويوضح ذلك الدكتور شوقي ضيف فيقول :

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم ، بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة ، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها ... ومن ثم تبدو في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد ، وجنى عليهم ذلك ضيقا واضحا في معانيهم ، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء ، وقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد دائما المعاني نفسها ، وستجد براعة نادرة في إعادتها وصوغها صوغا جديدا ، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئا من شخصيته ... ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة في معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ إلى دقائق كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيرا من الخواطر والصور الطريفة<sup>(٢)</sup>.

وشعر الأوس والخزرج الجاهلي لا يخرج في معانيه عما تقدم ، فهو يدور في معظمه حول معان مكرورة نجدها عند عامة الشعراء الجاهليين ، غير أننا نجد عندهم معاني مبتكرة سبقوا إليها حتى كانت موضوع حديث النقاد . ونحن هنا لن نتناول المعاني المكرورة التي اشتركوا فيها مع غيرهم ، فهي معان معروفة عليها عامة شعراء الجاهلية ، تبيّن جانباً كبيراً منها حين تحدثنا عن موضوعات شعرهم الجاهلي ، لكننا هنا سنحاول الوقوف عند مظاهر التقليد والتجديد في هذه المعاني ، من حيث تعرف مظاهر الجدة والأوليّة فيها، بالإشارة إلى المعاني التي كانوا هم الأصل فيها، وأثرت في الشعراء فأخذوا منها ، كما سنتعرف جانباً من المعاني التي تأثروا بها فأخذوها ، لتبيّن جوانب التفوق أو القصور فيها . والناظر في المصادر الأدبية والنقدية يلاحظ وجود مئات الإشارات إلى معاني شعر الأوس والخزرج

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ٢١٩ .

(٢) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٢٢١-٢٢٣ .

الجاهلي ، وعليه فلن نزع أننا سنستقصي كل ما قيل في معانيهم عن آخره ، فنكلف أنفسنا شططا ، لكننا سنذكر على كل ما نقول أمثلة من شعرهم تركن إليها النفس.

### التجديد والتقليد في معاني شعرهم الجاهلي

لا نقصد بالتجديد في المعاني الحديث عن المعاني التي ابتدعها شعراء الأوس والخزرج أو سبقوا إليها حسب ، بل نريد به أيضا المعاني التي أخذوها من غيرهم ، وطوروا فيها فأحسنوا في إخراج المعنى حتى أصبح شعرهم في ذلك شاهدا على المعنى المراد . وقد كانت لشعر الأوس والخزرج مكانة خاصة في مصادر التراث عامة ، وكتب النقد خاصة ، وفي كتب المختارات الشعرية كذلك ، وما ذلك إلا بسبب ما تميز به هذا الشعر من جودة في اللفظ والمعنى على حد سواء . وأظهر ما نشير إليه في هذا الصدد أن أبا زيد القرشي قد جعل القصائد

**المُذَهَّبَات**<sup>(١)</sup> كلها في جمهرته للأوس والخزرج فقال : وأما المُذَهَّبَات فللأوس والخزرج خاصة، وهن لحسان بن ثابت ، وعبدالله بن رَوَاحَة ، ومالك بن العَجَلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة بن الجلاح، وأبي قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرئ القيس. وفي ما يأتي سنخرج على أشهر شعراء الأوس لتعرف ما ورد عندهم من معان، جلتها لنا المصادر الأدبية والنقدية .

### قيس بن الخطيم

سبق قيس بن الخطيم إلى معان بأعيانها ، وأخذ عن غيره فأجاد في إخراج المعنى بأجمل حلة ، فجاء بأحسن ما قيل من هذه المعاني . فمن المعاني التي سبق إليها ذكره الطيف وطروق الخيال الذي كان فاتحة للشعراء في هذا المعنى ، حتى قال البكري : والذي فتح للشعراء القول في طروق الخيال بأحسن عبارة وأحلى إشارة قيس بن الخطيم بقوله :

أَنْى سَرَبَتْ وَكُنْتُ غَيْرَ سَرُوبٍ      وَتَقَرَّبُ الْأَحْلَامُ غَيْرَ قَرِيبٍ

(١) قسم أبو زيد القرشي جمهرته سبعة أقسام هي - على التوالي - : المُعْلَقَات ، المُجْمَعَات ، المُنْتَقِيَات ، المُذَهَّبَات ، المراثي ، المَشْتُوبَات ، المُلْحَمَات . والمُذَهَّبَات : مفردتها مُذَهَبَة ، والمُذَهَب في الأصل الشيء المموء أو المطلي بالذهب (انظر لسان العرب ، مادة "ذهب") ، وقد أطلق اسم المذهبات على المعلقة ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت بماء الذهب وعلقت على الكعبة ؛ فلذلك يقال : مُذَهَبَة فلان ، إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء (انظر ابن رشيق ، العمدة ص ٨٣ ، والبغادي ، خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ١٢٦) . ولم يذكر القرشي سبب تسميته المذهبات هذا الاسم ، فلهذا أراد من هذه التسمية تشبيهها في جودتها بالمعلقة التي هي أجود الشعر العربي .

ما تَمْنَعِي يَقْطِي فَقَدْ تُؤْتِيَنَّهُ      فِي التَّوَمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوبٍ  
فَرَأَيْتُ مِثْلَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا      فِي الْحُسْنِ أَوْ كَدُّوْهَا لِغُرُوبِ<sup>(١)</sup>

قال الشريف المرتضى : فأما أبيات قيس هذه في الطيف فقد سبق فيها إلى كل معنى غريب عجيب ، وهو قدوة في هذا المعنى لكل من تبع أثره <sup>(٢)</sup> . وقد تبع قيس بن الخطيم في ذلك كثير من الشعراء مثل البحتري<sup>(٣)</sup> ، وأبي تمام ، وعلي بن الجهم<sup>(٤)</sup> ، كما شهد له بهذا المعنى كبار الشعراء من بعد ، منهم جرير بن عطية الخطمي<sup>(٥)</sup> .

ومن المعاني الجديدة كذلك في شعر قيس بن الخطيم قوله يصف الكتيبة وتراص صفوها :

لَوْ أَنَّكَ تُلْقِي حَنْظَلًا فَوْقَ بَيْضِنَا      تَدَحْرَجُ عَنْ ذِي سَامِهِ الْمُتْقَارِبِ<sup>(٦)</sup>

وعلى أولية قيس بن الخطيم وسبقه إلى هذا المعنى إلا أن البطلاني قد عدّه من الإغراق والمحال<sup>(٧)</sup>. ومع احترامنا للنظر الذي صدر عنه البطلاني في رؤيته الأنفة لمعنى هذا البيت ، إلا أن معنى قيس ابن الخطيم في بيته السابق يعد مبالغة مقبولة . وتكمن تلك المبالغة في أن الشاعر قد جعل أطوال المحاربين متساوية بحيث لا يزل عنها الحنظل لو ألقى فوق خوذاتهم ، أو لعله قصد بيان كثرتهم وتراصهم ، حتى لا تكاد تجد فراغا في صفوفهم . ولا نستغرب هذا التنظيم والتناسق في جيش قوم تمرسوا بالحرب أكثر مئة عام. ولو قيل بيت قيس بن الخطيم اليوم في جيش أي دولة لكان مقبولا ، إذ تعتمد صفوف الجيوش اليوم على التنظيم والتناسق ، إذ يجعل الجنود ذو الأطوال المتساوية في صف واحد ، ويسيرون على نسق واحد حتى لكانهم جسد واحد ، فإذا كان هذا متحققا في جيوشنا اليوم ، فلم لا يكون مبالغة مقبولة في جيوش الأمس ؟

ومن المعاني التي أجاد فيها قيس بن الخطيم ، قوله في الفرار :

<sup>(١)</sup> البكري ، سيمط اللآلي ، تحقيق عبدالعزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٥٢٤ . وانظر الأبيات في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٥-٥٧ . وقد كنا تناولنا تفسير هذه الأبيات والتعليق عليها ص ١٣١-١٣٢ من هذه الدراسة .

<sup>(٢)</sup> الشريف المرتضى ، طيف الخيال ، ص ٤٥ .

<sup>(٣)</sup> ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

<sup>(٤)</sup> البكري ، سيمط اللآلي ، ص ٥٢٥ .

<sup>(٥)</sup> انظر خبر ذلك في القصة التي رواها أبو علي القالي ، الأمالي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

<sup>(٦)</sup> انظر البيت وتفسيره في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٦ . وقد تناولنا هذا البيت وفسرنا مفرداته ص ٩٨ من هذه الدراسة .

<sup>(٧)</sup> البطلاني ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٤٤٢-٤٤٣ .

إِذَا مَا قَرَرْنَا كَانَ أَسْوَأَ فِرَارِنَا      صُدُودَ الْخُدُودِ وَأَزْوَارَ الْمَنَاقِبِ  
صُدُودَ الْخُدُودِ وَالْقَنَا مُتَشَاجِرٌ      وَلَا تَبْرَحُ الْأَقْدَامُ عِنْدَ النَّضَارِبِ

قال الخالديان يذکران قيس بن الخطيم وأوردا بيتيه هذين : ثم قال في ذكر الفرار مالم يقله أحد جودة وحسن لفظ وصحة معنى<sup>(١)</sup>.

ومن المعاني التي أخذها قيس بن الخطيم وجود فيها قوله في الوجه :

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ      بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنْتُ بِحَاجِبِ<sup>(٢)</sup>  
وهو مأخوذ من قول النمر بن تولب :

فَصَدَّتْ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَحْتَ قَنَاعِهَا      بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنْتُ بِحَاجِبِ<sup>(٣)</sup>

ومع جمال هذا البيت فإن كتب النقد والأدب التي ذكرت هذا البيت - على كثرتها - لم تبين لنا موضع الجمال فيه ، وربما يعود ذلك إلى وضوح الصورة فيه ، لكني أرى أن ما ميز بيت قيس عن بيت النمر ابن تولب هو قوله "تحت غمامة" ، ولو قال : "تبدت لنا كالشمس" لكان كلاما عاديا ، بل كلاما مبتذلا يقوله أي قائل ، وعلى ذلك فإن ظهور المحبوبة بوجهها لم يكن كاملا ، لأنها خفيرة ، فقد ظهرت كما تظهر الشمس التي يبدو منها جزء ، وتكن السحابة جزءا آخر منها ، وهي صورة هادئة جميلة ، ثم جاء بعد ذلك قوله : "بدا حاجب منها وضنت بحاجب" ليؤكد المعنى الذي ذهب إليه الشاعر .

وأرى أن قيس بن الخطيم مع استفادته من قول النمر بن تولب المذكور في شعره ، ومع أخذه عجز البيت كاملا منه ، إلا أنه قد وظف هذا العجز توظيفا مختلفا ليتناسب مع قوله : "تحت غمامة" وليصل منه إلى وصف الوجه ، على حين وظفه النمر بن تولب ليتناسب مع قوله : "تحت قناعها" ، والقناع غطاء الرأس خاصة ، وقال قيس "تبدت" ، وهو أظهر في بيان جمال الوجه ، في حين قال النمر بن تولب "قصت" ، وهو أظهر في بيان إعراض المحبوبة ، وبذلك نرى أن الموضوع المحوري في بيت قيس بن الخطيم وبيت النمر بن تولب كانا مختلفين ، فقد كان قيس يصف وجه المحبوبة فجاء بأحسن ما قيل ، في حين كان النمر بن تولب يصف إعراضها ، فجاء بأحسن ما قيل في الإعراض ، ويؤيد هذا أن أبا هلال العسكري جعل بيت قيس بن الخطيم أحسن ما قيل في الوجه ، وجعل بيت النمر بن تولب أحسن ما قيل في

(١) انظر الخالدين ، الأشياء والنظائر ، ص ١٤ ، و ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، وابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، ج ٢ ، ص ٢٩١ . وانظر البيهقي وتفسيرهما والتعليق عليهما في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٧ ، وص ٨٤ من هذه الدراسة .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٧٩ .

(٣) أبو هلال العسكري ، ديوان المعاني ، ص ٢٢٩ .

إعراض المرأة<sup>(١)</sup>. ومن المبالغات النادرة التي أشار الدكتور شوقي ضيف إلى وجودها في الشعر الجاهلي في مستهل هذا الموضوع ، ووجدناها في شعر قيس بن الخطيم - غير ما ذكرنا آنفا<sup>(٢)</sup> - قوله يصف قتله قاتل أبيه :

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرَةً      لَهَا نَفْدٌ لَوْلَا الشُّعَاعُ أَضَاءَهَا  
مَلَكَتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَنَقَّهَا      يَرَى قَائِمًا مِنْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءَهَا<sup>(٣)</sup>

وقد جعل البكري<sup>(٤)</sup> وابن طباطبا<sup>(٥)</sup> قول قيس هذا من الإفراط والغلو في صفة الطعنة ، غير أن ابن أبي الإصبع يرى أن قول قيس من جيد المبالغة ، وفي ذلك يقول : وما يعاب من المبالغة إلا ما خرج به الكلام عن حد الإمكان إلى الاستحالة ، وأما إذا كان كقول قيس بن الخطيم (وذكر البيتين) ، فإن ذلك من جيد المبالغة إذا لم يكن خارجاً مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف الطعنة<sup>(٦)</sup>. وأرى أن وصف البكري وابن طباطبا لقول قيس بالغلو والمبالغة أقرب إلى النفس ، فالمبالغة في وصف الطعنة عند قيس قد بلغت حد الاستحالة ، فأى طعنة هذه التي أمكنها أن تخرق في الجسم هذا القدر من الخرق ، فتصبح كالقوة التي يرى من خَلَلِهَا ؟

### عبدالله بن رَوَاحَةَ

شهد لابن رَوَاحَةَ بحسن الشعر وجودته عدد من العلماء والرواة<sup>(٧)</sup> ، غير أننا لا نجد له في ما وصل إلينا من شعره الجاهلي معنى سبق إليه كما وجدنا لقيس بن الخطيم الأوسي ، مما يدل على أن جانباً كبيراً من شعره الجاهلي قد ضاع . ونجد عبدالله بن رَوَاحَةَ قد تتبع في معانيه خطى غيره من شعراء الجاهلية على نحو حرفي أحياناً ، خاصة قيس بن الخطيم ، إذ نلاحظ أن

(١) أبو هلال العسكري ، ديوان المعاني ، ص ٢٢٩ .

(٢) عند قوله : لَوْ أَنَّكَ تَلَقَى حَنْظَلًا فَوْقَ بَيْضِنَا... البيت ، ص ٢٥٠ من هذه الدراسة .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٦ . والنقد : النفوذ ، والشعاع بضم الشين : ضوء الدم وحمرة وتقرقه ، ويروى بفتح الشين وهو تفرق الدم وغيره وقوله : لَهَا نَفْدٌ ... التقدير : لَهَا نَفْدٌ أَضَاءَهَا لَوْلَا وجود الشعاع ، والمعنى على ما قال الأزهرى : لَوْلَا انتشار الدم لأضاءها الشعاع حتى تستبين ( انظر لسان العرب ، مادة "شع" ، وديوان قيس ص ٤٦ ، حاشية (١) ) ، وملكت : شددت ، وأنهرت : أجريت ، وفنقها : خرقتها . قال المرزوقي : شددت بهذه الطعنة كفي ووسعت خرقتها حتى يرى القائم من دونها الشيء الذي وراءها (المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة) ، وانظر روايات أخرى للبيت وبيان ذلك في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٦-٤٧ ، حاشية (٣) .

(٤) انظر البكري ، سمط اللآلى ، ص ٨٩٤ .

(٥) انظر ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق : طه الحاجري ومحمود زغلول ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٤٧ .

(٦) ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير في صناعة الشعر و النثر ، تحقيق : محمد حقني شرف ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٧٣ .

(٧) انظر تفصيل ذلك عند وليد قصاب ، ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص ٤٩ .

قيس بن الخطيم كان أقدر على إنشاء المعاني من عبدالله بن رَوَاحَة ، تشهد لنا بذلك بعض النقائض التي دارت بينهما ، فقد كان قيس بن الخطيم يقول المعنى ابتداءً ، وكان عبدالله بن رَوَاحَة يأخذ من معاني قيس بن الخطيم وألفاظه وهو ينقض قصائده . إن المتتبع لفن النقائض يجد أن الشاعر كان كثيراً ما يتأثر بمعنى خصمه ، فهو مضطر في أحيان كثيرة إلى أن ينقل بعض المعاني كي يستطيع نقضها ، لكن الأفضلية كانت في الغالب لمن يقول المعنى ابتداءً ، وقد كان عبدالله بن رَوَاحَة في معظم شعره الجاهلي يقف موقف المدافع ، خاصة في مناقضاته مع قيس بن الخطيم ، فأخذ بعض المعاني من قيس بن الخطيم الذي قال ابتداءً كل قصائده التي نقضها عبدالله بن رَوَاحَة ، ففي قول قيس بن الخطيم :

رجالٌ متى يُدْعَوْا إلى الموتِ يُرْقِلُوا  
إليه كإِرقالِ الجِمالِ المَصاعِبِ<sup>(١)</sup>

نجد ابن رَوَاحَة يقول في نقيضته لهذه القصيدة :

وَمُعْتَرِكٍ ضَنْكَ تَرَى الْمَوْتَ وَسَطُهُ  
مَشِينًا لَهُ مَشْيَ الْجِمالِ المَصاعِبِ<sup>(٢)</sup>

فقد وصف كلاهما هيئة المشي إلى الحرب ، ومع أن كليهما قد أخذ هذا المعنى من

قول النابغة الذبياني :

إذا اسْتُئْزِلُوا عَنْهُمْ لِلطَّعْنِ أَرْقِلُوا  
إلى الموتِ إِرْقَالَ الجِمالِ المَصاعِبِ<sup>(٣)</sup>

فإن قيس بن الخطيم هو من أوحى لابن رَوَاحَة ذلك ، لأنه قال قصيدته قبله ، وتمثلها ابن رَوَاحَة وهو ينقضها. وقد أبقى قيس قول النابغة : "أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب" كما هو ، وهو الأجود ، لأن فيه بيان السرعة في الإقدام على الموت ، في حين نرى ابن رَوَاحَة قد حوّر في لفظه فقال : "مشينا" ، وفيه تباطؤ عن الإقدام على الموت .

ومما أخذه ابن رَوَاحَة من قيس بن الخطيم أيضاً قوله يشبه صفاء البَيض (الخَوْدَ) بلون الكواكب :

بُخْرَس تَرَى الْمَازِيَّ فَوْقَ جُلُودِهِمْ  
وَبَيضاً نِقَاءً مِثْلَ لَوْنِ الْكَواكِبِ<sup>(٤)</sup>

أخذه من قول قيس بن الخطيم :

صَبَحْنَا بِهَا الْأَطَامَ حَوْلَ مُزَاحِمٍ  
قَوَانِسُ أُولَى بَيْضِنَا كَالْكَواكِبِ<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٤ . والإرقال : أن ينفذ البعير رأسه ويسرع .

(٢) ديوان عبدالله بن رَوَاحَة ، ص ١٢٤ .

(٣) عباس عبد الساتر ، ديوان النابغة الذبياني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٣١ .

(٤) ديوان عبدالله بن رَوَاحَة ، ص ١٢٤ ، وخرس : جمع خرساء ، وهي الكتيبة التي صمّنت من كثرة الدُّرُوع ، أي لم يكن لها قعاقع ، وقيل : هي التي لا تسمع لها صوتاً من وقارهم في الحرب (لسان العرب ، مادة "خرس") ، والمادي : السلاح كله (تاج العروس ، مادة "مود").

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٨٦ . ومزاحم : أطم ، والقوانس : جمع قونس ، وهو الناتئ في أعلى البيضة

وقد جعل ابن رَوَاحَةَ البَيَّضَ كلها نقيّة من الغبار في أثناء السير ، وجعل قيس النقاء في أولى هذه البَيَّضِ . وفي رأيي أن قول قيس هو الأجود ، ذلك أن نقاء البيض كلها يدل على أن الجيش كله ساكن لا يتحرك ، فليس ثمة غبار مثار ، أما نقاء أولى البيض فأمر طبيعي ، "لأن الرؤية عليها تقع أولا ، ولأن ما وراءها يستتره الغبار" <sup>(١)</sup> . ورأيت أن من المعاني الأخرى التي أخذها ابن رَوَاحَةَ من النابغة الذبياني وأوردها في نقيضته السابقة قوله يصف البكاء على أطلال الحبيبة :

بَكَى إِثْرَ مَنْ شَطَّتْ نَوَاهُ وَلَمْ يَقِفْ      لِحَاجَةِ مَحْزُونٍ شَكَا الحُبَّ نَاصِبِ  
لَدُنْ غُدُوَةٍ حَتَّى إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ      وَرَاحَ لَهُ مِنْ هَمِّهِ كُلِّ عَازِبِ <sup>(٢)</sup>  
فَعَجَزَ الْبَيْتَ الثَّانِي مَأْخُودَ مِنْ صَدْرِ قَوْلِ النَابِغَةِ :  
وَصَدَرَ أَرَا حَ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ      تَضَاعَفَ فِيهِ الحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

ويوضح لنا أبو هلال العسكري الصورة التي رسمها النابغة وأوليته في ذلك فيقول :  
جعل الهمَّ يأوي إلى قلبه بالليل كالنَّعَمِ العازبة، تُريحها الرعاة مع الليل إلى أماكنها، وهو أول من ذكر أن الهموم تتزايد بالليل <sup>(٣)</sup>. وجعل ابن رَوَاحَةَ البكاء والحزن على المحبوبة من لدن الفجر مروراً باستواء الشمس ، إلى أن دخل الليل وأوى الهم إلى قلبه.  
ومن القصائد التي أوحى لعبده بن رَوَاحَةَ بعض المعاني قصيدة خِدَاش بن زهير العامري التي مطلعها :

صَبَا قَلْبِي وَكَلَّفَنِي كُنُودَا      وَعَاوَدَ دَاءَهُ مِنْهَا التَّلِيدَا <sup>(٤)</sup>  
فَقَدْ قَالَ خِدَاشُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي مِنْهَا :  
وَلَمْ يَكْ حُبُّهَا عَرَضًا وَلَكِنْ      تَعَلَّقَ دَاءَهُ مِنْهَا وَلِيدَا <sup>(٥)</sup>  
فَجَعَلَ هَذَا الْمَعْنَى ابْنَ رَوَاحَةَ فِي عَجْزٍ مَطْلَعٍ نَقِيضُهُ رَدُّهَا عَلَى قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ فَقَالَ :  
تَذَكَّرَ بَعْدَمَا شَطَّتْ نَجُودَا      وَكَانَتْ تَيَمَّتْ قَلْبِي وَلِيدَا <sup>(٦)</sup>

<sup>(١)</sup> أبو منصور الجواليقي ، شرح أدب الكاتب ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ ، ص ٣٦٤ .

<sup>(٢)</sup> ديوان عبده بن رَوَاحَةَ ، ص ١٢٣ . والغدوة والغداة : الفجر ، وقوله : "الشمس عارضت" ، أي ارتفعت حتى صارت في حبال الرأس ، وعازب : بعيد ، وقوله : "وراح له من همِّه كلِّ عازب" ، أرى أن ذلك كناية عن دخول الليل ، ولعل تقدير الكلام : وحتى راح له من همه كل عازب" ، لأنه ذكر أن بكاءه وحزنه على فراق المحبوبة كان مستمرا ، فذكر وقت الغداة ، ثم وقت استواء الشمس ، ثم دخول الليل .

<sup>(٣)</sup> أبو هلال العسكري ، ديوان المعاني ، ص ٢٤٥-٢٤٧ .

<sup>(٤)</sup> انظر القصيدة كاملة عند ابن المبارك ، منتهى الطلب من أشعار العرب ، تحقيق : محمد نبيل طريفي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ج ٨ ، ص ٣٥٨ .

<sup>(٥)</sup> ابن المبارك ، منتهى الطلب ، ج ٨ ، ص ٣٥٨ .

ومع أن الشاعرين كانا متعاصرين إلا أن ابن رَوَاحَةَ هو الذي أخذ من خدّاش ، ذاك أن خدّاشا قال قصيدته التي منها البيت المذكور يوم شَمْطَة ، أحد أيام الفَجَار التي كانت قبل الإسلام ببضع وعشرين سنة ، وكان لهوازن على كنانة وقريش ، أما عبدالله بن رَوَاحَةَ فقال قصيدته يوم الفَضَاء الذي كان بعد ذلك <sup>(٢)</sup> . ولم أجد هذا المعنى عند جاهلي غير خدّاش العامري وابن رَوَاحَةَ ، ووجدته من بعدُ عند جميل بثينة وكثير عزة ومجنون ليلي . ومن المعاني التي استوحاها ابن رَوَاحَةَ من قصيدة خدّاش الآنفة قوله :

وَرَهْطُ أَبِي أُمَيَّةٍ قَدْ أَبْحَنَّا وَأَوْسَ اللَّهِ أَتْبَعْنَا ثُمُودًا <sup>(٣)</sup>

أخذه من قول خدّاش :

تَرَكْنَا عَامِرِيَهُمْ مِثْلَ عَادٍ وَمَرْءَهُ أَهْلِكُوا إِلَّا الشَّرِيدًا <sup>(٤)</sup>

فقد جعل خدّاش هلاك بني عامر القرشيين كهلاك قبيلة عاد ، وجعل ابن رَوَاحَةَ هلاك أوس الله كهلاك قبيلة ثمود ، ولا يخفى ما بين المعنيين من تشابه ، إذ إن قبيلة عاد وقبيلة ثمود كثيرا ما تذكران معا ، وهما من العرب البائدة . ومع أن هلاك عاد وثمود معنى مشترك متداول بين الجاهليين بحكم اتصالهم بأهل الكتاب ، فإن تشابه قصيدتي الشاعرين بحرا ورويا وموضوعا يدل على أن هذا البيت أيضا كان مما استفاده ابن رَوَاحَةَ من خدّاش بن زهير .

### أبو قيس بن الأسَلْت

ذكر الصفدي في ترجمة أبي قيس بن الأسَلْت أنه كان يُعَدُّ بقيس بن الخَطِيم في الشعر والشجاعة <sup>(٥)</sup> ، وقال عنه ابن سلام إنه شاعر مجيد <sup>(٦)</sup> ، غير أننا لا نجد في شعره ما يضاهي شعر قيس بن الخَطِيم لفظا ومعنى سوى قصيدته التي مطلعها :

<sup>(١)</sup> ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص ١١٧ .

<sup>(٢)</sup> انظر خبر يوم الفضاء في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٨٣ ، وص ٣٣ من هذه الدراسة ، وانظر يوم شمطة عند ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٦ ، ص ٩٢ .

<sup>(٣)</sup> ديوان عبدالله بن رَوَاحَةَ ، ص ١١٩ ، ورهط أبي أمية : هم بنو زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس (انظر ص ١٢ من هذه الدراسة) ، وأوس الله : هم الجعادرة (انظر ص ١٢ من هذه الدراسة) .

<sup>(٤)</sup> قوله : "عامريهم" ، هم بنو عامر القرشيون ، وهم بنو عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة (انظر الزبيري نسب قریش ، تحقيق : بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٢٤٣ ، ومرة هم بنو مرة بن لؤي بن غالب ، والشريد قوم منهم .

<sup>(٥)</sup> الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ١٩٢ .

<sup>(٦)</sup> ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .



قالت ولم تقصِدْ لِقَوْلِ الْخَنَا مَهْلًا فَقَدْ أبلغَتْ أَسْمَاعِي<sup>(١)</sup>

لذا فإننا في حديثنا عن معاني هذا الشاعر سنقف غير مرة عند قصيدته هذه التي عدها أبو زيد القرشي في المذهبات من شعر الأوس والخزرج ، وهي أحسن ما قال . والقصيدة مكونة من أربعة وعشرين بيتا ، تميزت بجودة معانيها عامة ، حتى قال ابن طباطبأ فيها وفي غيرها : من الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني ، الحسنه الرصف ، السلسة الألفاظ ، التي قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاماً ، فلا استكراه في قوافيها ، ولا تكلف في معانيها ، ولا داعي لأصحابها ... ثم ذكر مجموعة من القصائد منها قصيدة ابن الأسلت هذه<sup>(٢)</sup> . لكننا من جانب آخر نرى من ذم بعض معاني هذه القصيدة وجعلها من الإسراف والإفراط ، فقد عقد الجاحظ باباً بعنوان : الإفراط في صفة الضرب والطعن ، ثم قال : وإذ قد ذكرنا شيئاً من الشعر في صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف من أسرف ، واقتصاد من اقتصد ، فأما من أقرط ... ثم ذكر مجموعة من الأبيات لعدة شعراء منهم أبو قيس بن الأسلت في قوله :

قد حصت البيضة رأسي فما أطعمُ نوماً غير تهجاع<sup>(٣)</sup>

وقد يُظن أن قوله : "حصت البيضة" لا يوحي لأول وهلة بما ذهب إليه الجاحظ من الإفراط في صفة الضرب والطعن ، إذ المقصود من التركيب أن الخوذة التي يلبسها الشاعر في الحرب قد حفت شعر رأسه لطول لبسه لها ، فكأنه لا يضعها عن رأسه لكثرة خوضه الحروب ، إلا أن الجاحظ قد دخل إلى المعنى مدخلا آخر لطيفا فجعل ذلك من الإفراط في الضرب ، وهو مدخل يحتمله التركيب ، فيكون المراد فضلا عن بيان كثرة خوض الحرب ، المبالغة في كثرة تلقى هذه الخوذة للضرب الذي تصده عن رأس لابسها مما يسبب حركتها المستمرة فوق الرأس ، فتؤدي إلى حف الشعر عن الرأس .

وقد رأيت أن المعنى الذي ذكره الجاحظ لا يدخل في باب الإفراط في صفة الضرب والطعن ، فقد كان الأوس والخزرج في حرب مستمرة لم تتوقف حتى جاء الإسلام كما تبيننا سابقا ، فضلا عن أن أبا قيس بن الأسلت كان أحد فرسان الأوس المعدودين ، بل كان في بعض حروب الأوس رئيسها في المعركة ، وعليه فإن هذه الخوذة التي ذكرها الشاعر قد تلقت

(١) انظر القصيدة في ديوان أبي قيس بن الأسلت ، ص ٧٨ .

(٢) ابن طباطبأ ، عيار الشعر ، ص ٥١-٥٢ .

(٣) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢١٨ . وانظر البيت في ديوان أبي قيس بن الأسلت ، ص ٧٨ . وحصت البيضة رأسي : الحصّ حلق الشعر وانجراده وتناثره ، والبيضة الخوذة ، والتركيب كناية عن كثرة خوض الحروب ، وأطعم : أنوق ، وتهجاع : النومة الخفيفة .

آلاف الضربات طوال هذه الحروب والسنين ، أفليس ذلك كفيلا بأن يحف شعر رأسه ؟ وجعل الجاحظ من نواذر الشعر قول أبي قيس بن الأسلت :

بَزْ امرئ مُسْتَبْسِلٍ حَادِرٍ      لِلدَّهْرِ جِلْدٌ غَيْرُ مِجْزَاعٍ  
الحزْمُ والقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الإِدْهَانِ      وَالْفَكَّةِ وَالْهَاعِ<sup>(١)</sup>

ويروى أن عمر بن الخطاب أنشد قصيدة أبي قيس بن الأسلت هذه وهو ساكت، فلما انتهى المنشد إلى قوله: الحزْمُ والقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الإِدْهَانِ وَالْفَكَّةِ وَالْهَاعِ أعاد عمر البيت وقال: الحزْمُ والقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الإِدْهَانِ وَالْفَكَّةِ وَالْهَاعِ وجعل يردده ويتعجب منه<sup>(٢)</sup> ، وفي هذا دلالة واضحة على جمال معنى البيت. والذي أضفى على البيت السابق هذه الجمالية هو اشتماله على أحد المحسنات المعنوية ، وهي المقابلة ، "فقابل الحزم بالإدهان ، والقوة بالفكة وهي الضعف ويروي الفهة وهي العي، وزاد الهاع، وهو الجبن والخفة فزاد في المقابلة قسماً؛ لأنه قابل اثنين بثلاثة"<sup>(٣)</sup>.

وقد قالت العرب كلاماً جرى مجرى المثل كان الأصل فيه قول أبي قيس بن الأسلت ،كقولهم : "كل امرئ في شأنه ساع" ، قال الزمخشري : هو من قول أبي قيس بن الأسلت :  
أَسْعَى عَلَى جُلِّ بَنِي مَالِكٍ      كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي  
يُضْرَبُ فِي اعْتِنَاءِ الرَّجُلِ بِأَمْرِ نَفْسِهِ<sup>(٤)</sup> . ومن ذلك أيضاً قولهم في المثل : ليسَ قَطَا مِثْلَ قُطَيٍّ . قال أبو هلال العسكري : معناه ليس الصغير مثل الكبير ، وهو من قول أبي قيس بن الأسلت :  
ليسَ قَطَا مِثْلَ قُطَيٍّ وَلَا أَلْ مَرْعِيٌّ فِي الْأَقْوَامِ كَالرَّاعِي<sup>(٥)</sup>

ويضرب هذا المثل لخطأ القياس . ومن المعاني الطريفة التي أجاد فيها أبو قيس بن الأسلت في غير القصيدة السابقة قوله يشبه الثريا بعنقود عنب :

<sup>(١)</sup> الجاحظ ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٤٦-٤٧. وانظر البيهقي في ديوان أبي قيس بن الأسلت ، ص ٧٩ ، مع بعض الاختلاف في الرواية .

<sup>(٢)</sup> الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

<sup>(٣)</sup> ابن رشيق ، العمدة ، ص ٣٠٨ .

<sup>(٤)</sup> انظر الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب ، تحقيق : محمد عبدالرحمن خان ، دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٩٦٢ ، ج ٢ ، ص ٤١٢ .

وانظر البيت في ديوان أبي قيس بالأسلت ، ص ٧٨ . وبنو مالك : قوم الشاعر ، وهم بنو مالك بن الأوس ، انظر ص ١٠ من هذه الدراسة .

<sup>(٥)</sup> أبو هلال العسكري ، جمهرة الأمثال ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطايش ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٣ م ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ . والقطا : جمع قطاة ، وهي طائر معروف ، وقُطَيٌّ : تصغير للفظ .

وَقَدْ لَاحَ فِي الصُّبْحِ الثَّرِيًّا لِمَنْ رَأَى كَعُتْقُودٍ مُلَاحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرَا<sup>(١)</sup>

وقد روي من الأخبار ما يدل على أن هذا البيت هو أحسن بيت قيل في وصف الثريا<sup>(٢)</sup> ، حتى تبع أبا قيس بن الأسلت في ذلك عدد من الشعراء منهم إبراهيم بن المهدي<sup>(٣)</sup> . وفي مصادر التراث إشارات كثيرة إلى قصيدة أبي قيس بن الأسلت المذهبة ، وإشارات قليلة إلى أبيات أخرى من شعره ، غير أنه يصعب تناول ذلك كله في هذا المقام .

### أَحِيَّةُ بْنُ الْجَنَاحِ

وهو صاحب المذهبة التي مطلعها:

صَحَوْتُ عَنِ الصَّبَا وَالذَّهْرِ غَوْلٌ وَنَفْسُ الْمَرْءِ أَمِنَةٌ قَتُولٌ<sup>(٤)</sup>

إن المتأمل في أبيات قصيدة أَحِيَّةُ هذه لا يجد فيها معنى غير مألوف ، فأكثر أبياتها كانت يسيرة على الفهم ، لكنني أجد أن ما رفع من مكانة هذه القصيدة هو اشتمالها على أبيات ذات معان قريبة إلى كل نفس ، لصيقة بها ، تنطق بالحكمة التي تتخطى الأزمنة ، حتى ليشعر كل من قرأ هذه القصيدة أن تلك الأبيات هي مسلمات وقواعد ثابتة في الحياة لا يمكن لأحد إنكارها ، فالشاعر في تلك الأبيات قد أتى على ما في نفس القارئ ، وناب عنه في ما لم يستطع التعبير عنه . والشاعر يَجَبُّه القارئ بداية ببعض هذه القواعد فيقول : "والدهر غول " ، أي الدهر هو الموت ، وهذا حق ، فمرور الأيام يقرب المرء من الموت ، ثم نراه يقول : ونفس المرء أمانة قتول ، فكيف تكون أمانة ، وتكون قاتلة في الوقت نفسه؟ إن النفس حين تركز إلى الأمن والدعة حتى يطرق بابها الموت تكون بذلك قد قتلت صاحبها ، وأوردته المهالك ، وهذا أيضا مما نتفق عليه جميعنا لكننا نغفل عنه . وفي القصيدة إشارات كثيرة إلى مثل هذه المعاني التي تلج القلب بيسر وتباشر شغافه<sup>(٥)</sup> . وثمة معان في شعر أَحِيَّةُ سبق إليها ، وكان فيها أصلا ، من ذلك قوله في الصمت الذي استشهد به الجاحظ :

(١) انظر البيت في ديوان أبي قيس بن الأسلت ، ص ٧٣ . والملحي ، بالضم وتشديد اللام : ضرب من العنب أبيض في حبه طول (انظر لسان العرب ، مادة "ملح") .

(٢) انظر الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٧ ، ص ١٣٤ ، والمرزوقي ، الأزمنة والأمكنة ، مطبعة مجلس دائرة المعارف ، حيدر آباد ، ١٩١٢ ، ج ١ ، ص ٥١٤ ، والبغادي ، خزنة الأدب ، ج ٣ ، ٤١٣ .

(٣) ابن أبي عون ، التشبيهات ، تحقيق : محمد معين خان ، جامعة كمبرج ، كمبرج ، ١٩٥٠ ، ص ٣٤ .

(٤) انظر القصيدة كاملة عند صالح البكري والطيب العشاش ، أَحِيَّةُ بْنُ الْجَنَاحِ : أخباره وأشعاره ، ص ٣٧ .

(٥) انظر من تلك الإشارات في القصيدة الأبيات : ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ .

وَالصَّمْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى      ما لم يَكُنْ عِيٌّ يَشِيئُهُ  
وَالْقَوْلُ ذُو خَطَلٍ إِذَا      ما لم يَكُنْ لُبٌّ يُعِينُهُ<sup>(١)</sup>

ولم أجد من ذكر فضل الصمت في أشعار الجاهليين غيرَ أُحِيحَةَ ، لكن هذا المعنى قد كثر في الشعر من بعدُ ، ففعل الشعراء قد أخذوا هذا المعنى من بيتي أُحِيحَةَ السابقين مع أنني لم أجد من أشار إلى ذلك ، فوجدنا أبا العتاهية قد أخذ صدر بيت أُحِيحَةَ الأول ، وجعله في صدر قوله :

وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالْفَتَى      من مَنطِق في غير حينه<sup>(٢)</sup>  
والذي يؤيد ما ذهب إليه من أخذ أبي العتاهية هذا المعنى من أُحِيحَةَ ، فضلا عن تشابه البيتين في المعنى ، أن البيتين متشابهان وزنا وقافية ، غير أن حركة الروي عند أُحِيحَةَ الضم ، وعند أبي العتاهية الكسر . ونجد هذا المعنى عند بشار بن برد أيضا في قوله :

وَعِيُّ الْفِعَالِ كَعِيِّ الْمَقَالِ      وَفِي الصَّمْتِ عِيٌّ كَعِيِّ الْكَلَمِ<sup>(٣)</sup>  
فأخذ معنى عَجَزَ بيته من معنى بيت أُحِيحَةَ الأول ، ذاك أن أُحِيحَةَ جعل الصمت خيرا ما لم يكن الدافع إلى هذا الصمت عدم القدرة على البيان والإفصاح ، وكأنه يريد أن يقول إن الصمت يجمل إن كان الصامت متكلمًا ، وهو عَجَزَ إذا كان الصامت عيبًا ، وهذا عينه قول بشار : "وفي الصَّمْتِ عِيٌّ " .

### عمرو بن الإطنابة

شهد لابن الإطنابة بجودة الشعر حسان بن ثابت ، وعده أشعر الناس في قوله:

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا انْتَدَوْا      بدأوا بِيَرِّ اللَّهِ ثُمَّ النَّائِلِ<sup>(٤)</sup>

غير أن أشهر أبيات هذا الشاعر التي تداولتها المصادر بكثرة قوله :

أَبَتْ لِي عِقَّتِي وَأَبَى بَلَائِي      وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالْثَمَنِ الرِّيْحِ  
وَإِعْطَائِي عَلَى الْمَكْرُوهِ مَالِي      وَضَرْبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمُشِيحِ  
وَقَوْلِي كَلِّمَا جَشَّاتُ وَجَاشَتْ      مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرْجِي<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup>صالح البكري والطيب العشاش ، أُحِيحَةَ بن الجلاح : أخباره وأشعاره ، ص ٤٤ ، وانظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ١٧٩ .

<sup>(٢)</sup>شكري فيصل ، أبو العتاهية: أشعاره وأخباره ، جامعة دمشق ، دمشق ، ١٩٦٥ ، ص ٥٢٣ .

<sup>(٣)</sup>محمد الطاهر بن عاشور ، ديوان بشار بن برد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ( د .ت ) ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

<sup>(٤)</sup>انظر المرزبانسي ، معجم الشعراء ، ص ١٧ . وانظر البيت والقصيدة التي هو منها دأود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ص ١٦٧ .

وقد كان لمعنى البيت الثالث صدى في أقوال النقاد ، اختلف باختلاف نظرتهن إلى المعنى ، فجعله ابن قتيبة <sup>(٢)</sup> من الحض على الصبر ، وجعل الجاحظ ابن الإطنابة ممن صدق على نفسه في هذا البيت <sup>(٣)</sup> ، لكن هذا البيت كان موضع نقد لاذع عند بعضهم الآخر ، فقال الخالديان : أما قوله يخاطب نفسه: "وقولي كلما جشأت وجاشت" فعليه فيه متعلق ، لأنه ذكر نفسه بالجبن، وأنها تدعوه إلى الفرار، وأنه يقهرها بصبره <sup>(٤)</sup> . كما أخذ عبد الملك بن مروان على ابن الإطنابة قوله ذاك ، فلم يعدّه أشجع الناس بهذا القول ، وعد أشجع الناس ثلاثة ، أحدهم قيس بن الخطيم حين قال :

وإني في الحرب الضروس مؤكّل  
بإقدام نفس ما أريدُ بقاءها <sup>(٥)</sup>

وإن يكن قول ابن الإطنابة السابق قد عيب من الجانب الذي ذكره الخالديان ، فإن في رأي الجاحظ الأنف جانباً آخر يجعل هذا البيت من الأبيات الصادقة التي اعترف فيها صاحبها ، لا على نفسه فحسب ، بل على النفس الإنسانية عامة ، فمن طبيعة النفس الخوف من الموت حين معانيته ، والتردد في مباشرته ، وهذه سمة عامة في البشر لا ينكرها أحد ، فالشاعر صادق مع نفسه حين وصف ترددها وجزعها من الموت ، فكل يجزع من المنية ولو رأيناه يزعم غير ذلك ، لكن الشاعر بعد أن وصف حاله ، وأبان دخيلة نفسه استطاع أن يتخلص من هذا الجزع بتصبير هذه النفس وتعليلها بما يكون نتيجة الإقدام .

وأما رأي ابن قتيبة فهو يصب أيضاً في ما قاله الجاحظ ، فالشاعر في قوله ذلك لم يصبر نفسه فحسب ، بل كان سبباً في تصبير غيره ممن بلغه قوله ، حتى صار قوله ذاك دليلاً ومرشداً لغيره ممن تعرض لموقف مشابه ، فروي عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم؛ فإن فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم، فلقد رأيتني يوم الهَرِير <sup>(٦)</sup> وقد عزمت على الفرار، فما يردني إلا قول ابن الإطنابة... وذكر الأبيات السابقة <sup>(٧)</sup> .

<sup>(١)</sup> انظر الأبيات والقصيدة في دراسة داو غطاشة ، ص ١٥٥ . والمشيخ : المتكبر والمجد في الأمر ، وجشأت النفس وجاشت بمعنى ، أي ثارت خوفاً (انظر لسان العرب ، مادة "ثور" ، ومادة "جيش" ) .

<sup>(٢)</sup> ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، دار الكتاب العربي ، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ) ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

<sup>(٣)</sup> الجاحظ ، الحيوان ، ج ٦ ، ص ٤٢٥ .

<sup>(٤)</sup> الخالديان ، الأشباه والنظائر ، ج ١ ، ص ٣١ ، وانظر نحو هذا القول عند العسكري ، ديوان المعاني ، ج ١ ، ص ١١٤ .

<sup>(٥)</sup> البغدادي ، خزنة الأدب ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ ، وانظر البيت في ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٩ .

<sup>(٦)</sup> يوم الهَرِير : يقال ليلة الهَرِير ، وهي ليلة من حرب صفين بين علي ومعاوية (انظر النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ص ٧٣ ) .

<sup>(٧)</sup> المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج ٤ ، ص ٢٧٩ .

وقد ذكر الخالديان أن قول قطريّ بن الفجاءة:

أَقُولُ لَهَا إِذَا جَاشَتْ حَيَاءً      مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي

شبيه بقول ابن الإطنابة:

أَقُولُ لَهَا إِذَا جَشَّاتُ وَجَاشْتُ      مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي<sup>(١)</sup>

وبتَرْكنا الاختلافَ في رواية البيتين جانباً ونَظَرنا في مَعْنِيَّتهما نجد أن معنى قطريّ مستفاد من معنى ابن الإطنابة ، ذاك أن كلا المعنيين فيه حض على الصبر بأسلوب متشابه ، فكلاهما يخاطب نفسه الخائفة من الموت ، يعلّلها ويصبرها ، وكلاهما استخدم بحر الوافر ، والرووي المكسور مع اختلاف هذا الروي.

ومن جانب آخر نرى ابن قتيبة قد جعل قولَ قطريّ أحسنَ من قول ابن الإطنابة ، فقال وهو يذكر أحسن الأبيات في الصبر : ...وبيت ابن الإطنابة في الصبر :

وقُولِي كُلَّمَا جَشَّاتُ وَجَاشْتُ      مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

وأحسن من هذا عندي قول قطريّ:

وقُولِي كُلَّمَا جَشَّاتُ لِنَفْسِي      مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَا تُرَاعِي

فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يوم      على الأجل الذي لكِ لم تُطَاعِي<sup>(٢)</sup>

ولعل الزيادة التي جاء بها قطري في المعنى ولم نجدها في أبيات ابن الإطنابة هي التي جعلت ابن قتيبة يفضل بيته ، أعني ما جاء في البيت الثاني ، فقد نطق فيه بالحق الذي يزهد الباطل ، إذ ضمن بيته الثاني معنى آية قرآنية<sup>(٣)</sup> لم تبلغ ابن الإطنابة الذي لم يدرك الإسلام .  
ومن الجديد الذي نجده في معاني ابن الإطنابة قوله :

فإنَّكُمْ وما تُرْجُونَ نحوي      مِنْ الْقَوْلِ الْمُرْغَى وَالصَّرِيحِ<sup>(٤)</sup>

والمرغى أصله في اللبن ، وهو الذي عليه الرغوة، والصريح الخالص ، جعلهما مثلاً للقول المستور المعرض به، والقول الظاهر المكشوف<sup>(٥)</sup>.

(١) الخالديان ، الأشباه والنظائر ، ج ١ ، ص ٢٧٩ . وثمة روايات مختلفة لبيت ابن الإطنابة وبيت قطريّ في ما رواه الخالديان وفي ما سيورده ابن قتيبة لاحقاً .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

(٣) هي قوله تعالى : " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ " (سورة الأعراف ، الآية ٣٤) .

(٤) انظر البيت والقصيدة عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٥٥ .

(٥) ابن قتيبة ، المعاني الكبير ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٩٤٩ ، ص ٤١٧ .

وقد استعير لفظ "الرغوة" ، و"الصريح" لمعان أخرى في الشعر العربي ، فاستعارهما أبو مِجَنِّ الثَّقَفِي للقوة الكامنة في الشخص الذي تزدريه العين ، وعدم الحكم على الإنسان من مظهره قبل معرفة مخبره وجوهره ، فقال:

رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ وَهُوَ خَرَقٌ      وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ الرَّجُلُ الْقَبِيحُ  
فَلَمْ يَخْشَوْا مَصَالَتَهُ عَلَيْهِمْ      وَتَحْتَ الرِّغْوَةِ اللَّبْنُ الصَّرِيحُ<sup>(١)</sup>

لكنني لم أجد من استعار لفظ "الرغوة" ، و"الصريح" للقول غير ابن الإطنابة ، ويغلب على ظني أن قول أبي مجنن الثقفي مستفاد من قول ابن الإطنابة ، خاصة أن الشاعرين كليهما قد نظما على بحر الوافر واتبعا القافية نفسها ، لكن حركة الروي قد اختلفت عندهما .  
وقد أخذ ابن الإطنابة بعض المعاني وألفاظها من غيره وضمنها في شعره ، فقال يصف شجاعته :

دُلِّلْ رَكَابِي حَيْثُ شِئْتُ مُشَايَعِي      أَتِي أَرْوُعُ قَطَا الْمَكَانِ الْغَافِلِ<sup>(٢)</sup>  
أخذه من قول عنتره :

دُلِّلْ رَكَابِي حَيْثُ شِئْتُ مُشَايَعِي      لُبِّي وَأَحْفِزُهُ بِأَمْرِ مُبْرَمٍ<sup>(٣)</sup>

قال الخالديان عن بيت ابن الإطنابة : وهذا البيت بأسره لعنتره<sup>(٤)</sup> . ولست أدري معنى لقولهما : "بأسره" هنا التي تعني "كله" ، فما أخذه ابن الإطنابة هو صدر البيت ، لا البيت كله ، أما العجز فمختلف اللفظ ، إلا أن يكون القصد من قولهما : "بأسره" أنه أخذ المعنى كله ، فصدر البيتين متشابه لفظا ومعنى ، وعجزهما مختلف لفظا ، متشابه معنى ، إذ المقصود من العجز في كليهما بيان مدى الشجاعة .

ومن المعاني التي أخذها ابن الإطنابة من غيره قوله :

قَدْ بَتُّ مَالَكْهَا وَشَارِبَ قَهْوَةٍ      دَرِيَاقَةٍ رَوَيْتُ مِنْهَا وَاعْلَى<sup>(٥)</sup>  
أخذه من قول لبيد :

قَدْ بَتُّ سَامِرَها ، وَغَايَةَ تَاجِرٍ      وَأَقَيْتُ ، إِذْ رُفِعَتْ ، وَعَزَّ مَدَامُهَا<sup>(٦)</sup>

(١) صلاح الدين المنجد ، ديوان أبي مجنن الثقفي ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٧٩ . والخرقُ من الفثان: الطريف في سَمَاحَةِ وَنَجْدَةِ ، وقيل: هو الفتى الكريم الخليفة، والجمع أخراقٌ (لسان العرب ، مادة "خرق") ، ومَصَالَتُهُ : سطوته وحمله عليهم .

(٢) انظر البيت والقصيدة عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٦٧ .

(٣) انظر البيت والقصيدة عند عبدالمنعم شلبي ، شرح ديوان عنتره ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠ ، ص ١٥٤ .

(٤) الخالديان ، الأشباه والنظائر ، ج ١ ، ص ٣٤ .

(٥) انظر البيت والقصيدة عند داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ١٦٧ . وقد مر تفسير هذا البيت ص ١٩ من هذه الدراسة .

قال الخالديان عن عمرو بن الإطنابة : وأخذ : "قد بت مالکها وشارب قهوة" ، وهذا البيت بأسره للبيد ، وكلاهما في عصر واحد فلا ندري من أخذ من صاحبه <sup>(٢)</sup> .

وأنا أرى أن يقال : إن كلا المعنيين في بيت ابن الإطنابة وبيت لبيد مستفادان من قول المرقش الأكبر - وهو أقدم منهما - :

قد بت مالکها وشارب ريّة قبل الصّباح كريمةً بسياها <sup>(٣)</sup>

غير أنه من الراجح أن ابن الإطنابة قد أخذ صدر بيته من صدر بيت المرقش الأكبر لشدة الشبه بين اللفظ والمعنى في كل .

### حسان بن ثابت

وهو أشعر الأوس والخزرج لفظاً ومعنى ، وقد فضل قوم قيس بن الخطيم عليه ، لكن ابن سلام رفض ذلك <sup>(٤)</sup> ، وجعله البكري : أشعر أهل يثرب <sup>(٥)</sup> ، وأما صاحب الأغاني فروى أنه أشعر أهل المدر <sup>(٦)</sup> . قال ابن رشيق : وأشعر أهل المدر بإجماع من الناس واتفاق حسان بن ثابت <sup>(٧)</sup> .

وقد وجدنا لحسان بن ثابت معاني جديدة أخذها منه الشعراء وكان هو فيها أصلاً ، ومعاني أخرى أخذها هو من شعراء الأوس والخزرج ومن غيرهم ، كما وجدنا في بعض شعره جوانب أخذت عليه ، وأخرى أجاد فيها وتفوق . فمن المعاني التي جود فيها حسان قوله يمدح آل جفنة :

يُغَشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَن السَّوَادِ الْمُقْبِلِ <sup>(٨)</sup>

فقد وصفهم بالكرم حين جعل كلابهم لا تهر على الضيف لكثرة ما تُغشى منازلهم . وقد أخذ هذا المعنى منه أبو نواس فجعله في وصف الخمارة فقال :

إلى بَيْتِ حَانَ لَا تَهَرُّ كِلَابُهُ عَلَيَّ وَلَا يَنْكِرْنَ طُولَ ثَوَائِي <sup>(٩)</sup>

<sup>(١)</sup> انظر البيت - وهو من معلقته - عند د. إحسان عباس ، ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٢ ، ص ٣١٤ . وغاية تاجر : هي رأيته التي ينصبها ليعرفها طالبو الخمر ، وعز مدامها : ارتفع ثمنها .

<sup>(٢)</sup> الخالديان ، الأشباه والنظائر ، ج ١ ، ص ٣٣ .

<sup>(٣)</sup> انظر البيت والقصيدة عند المفضل الضبي ، المفضليات ، ص ٢٢٤ . والرية : الشربة من الماء تروي ، والمراد هنا الخمر ، والسباء : شراء الخمر .

<sup>(٤)</sup> ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٢٨ .

<sup>(٥)</sup> البكري ، سمط اللآلي ، ص ١٧١ .

<sup>(٦)</sup> الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٤ ، ص ١٣٦ .

<sup>(٧)</sup> ابن رشيق ، العمدة ، ص ٧٧ .

<sup>(٨)</sup> ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٧٤ .

<sup>(٩)</sup> عمر فاروق الطباع ، ديوان أبي نواس ، شركة دار الأرقم ، بيروت ، ١٩٩٨ م ، ص ٤٩ .



وقد قيل في بيت حسان السابق إنه أمدح بيت قالته العرب<sup>(١)</sup> ، إذ جمع فيه بين الكرم والشجاعة بأوجز عبارة ، وألطف كناية . وقد جعل أسامة بن منقذ لحسان فضل سبق إلى هذا المعنى على أبي نواس<sup>(٢)</sup> ، لكنه لم يشر إلى قول حاتم الطائي في هذا المعنى ، وهو أقدم منهما :

إذا ما بَخِيلُ الناس هَرَّتْ كِلَابُهُ      وَشَقَّ عَلَى الضَّيْفِ الضَّعِيفِ عَقُورُهَا  
فَأَيُّ جَبَانُ الكَلْبِ بَيْتِي مُوَطَّأً      أَجُودُ إِذَا مَا النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيرُهَا  
وَإِنَّ كِلَابِي قَدْ أَهَرَّتْ وَعَوَّدَتْ      قَلِيلٌ عَلَى مَنْ يَعْتَرِينِي هَرِيرُهَا<sup>(٣)</sup>

وأرى أن قول حسان مستفاد من قول حاتم الطائي الآنف ، لأن حسانا ، على الرغم من أنه مخضرم عاش زمنا طويلا في الجاهلية ، إلا أنه متأخر عن حاتم الطائي . وإذا ما نظرنا إلى بيت حسان السابق وقارناه بأبيات حاتم الطائي تبين لنا أن حسان قد جمع في بيت واحد ما فرقه حاتم الطائي في ثلاثة أبيات ، فأبياته الثلاثة لا يخرج جلُّ معناها عن قول حسان : "يعشون حتى ما تهر كلابهم" ، ومن جانب آخر فقد جعل حاتم هريز الكلاب قليلا على من يزوره ، أما حسان فنفي أن يكون للكلاب هريرا أصلا ، وهذا أوكد للمعنى الذي أراده . ومن التشبيهات المبتكرة الدقيقة التي جاءت في شعر حسان بن ثابت قوله يصف حُبَابَ الخمر :

بزجاجةٍ رَقَصَتْ بما في قعرها      رَقَصَ القُلُوصُ بِرَاكِبٍ مُسْتَعِجِلٍ<sup>(٤)</sup>  
وقد أخذ أبو نواس هذا المعنى من بيت حسان السابق وجعله في عَجْزِ بيته فقال :  
وَكأنَّ فِيهَا مِنْ جَنَادِبِهَا      قَرَساً إِذَا سَكَّثَتْهُ جَمَحاً<sup>(٥)</sup>  
ومن المعاني الجديدة التي طرقها حسان قوله يقارن بين سيفه ولسانه في القوة :  
لِسَانِي وَسَيْفِي صَارَ مَانُ كِلَاهُمَا      وَيَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السِّيفُ مِثْوَدِي<sup>(٦)</sup>  
وقد أخذ جرير لفظ حسان ومعناه<sup>(٧)</sup> فقال :

(١) انظر العسكري ، ديوان المعاني ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) أسامة بن منقذ ، البديع في البديع في نقد الشعر ، تحقيق : عبد أ. مهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ص ٣٤١ .

(٣) كرم البستاني ، ديوان حاتم الطائي ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨٢ م ، ص ٧٨ .

(٤) انظر البيت في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٧٥ . وقد مر تفسيره والتعليق عليه ص ١١٧ من هذه الدراسة .

(٥) انظر : ابن أبي عون ، التشبيهات ، ص ٣٨٩ ، وابن حمدون ، التذكرة الحمونية ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ . قلت : وتشبيه أبي نواس (١٤٦- ١٩٨ هـ) لحباب الخمر بالجنادب التي تقفز - في صدر بيته - مأخوذ أيضا من قول أبي الهندي (١٠٠-١٨٠ هـ) :

فَصَبَّ لَنَا حَمَاءَ يَنْزُو حُبَابُهَا      إِذَا شَعَشَعَتْ بِالذَّنِّ نَزْوَ الْجَنَادِبِ

(٦) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٢٥ . والمِثْوَدُ : اللسان ، لأنه يذاد به عن العرض (لسان العرب ، مادة "ثود") .

(٧) انظر : ابن حمدون ، التذكرة الحمونية ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ ، وانظر أيضا : العسكري ، ديوان المعاني ، ج ١ ، ص ٨٩ .

لِسَانِي وَسَيْفِي صَارْمَانِ كِلَاهُمَا وَللْسَيْفِ أَشْوَى وَقَعَةٍ مِنْ لِسَانِي<sup>(١)</sup>

ومن أطرف المعاني التي وجدتها في شعر حسان ولم أجد من نص عليها تشبيهه السمن وهو يبرق وسط الثريد بنجوم الثريا وعيون السنانير، وهو معنى لم أجده عند أحد قبله ولا بعده :

ثَرِيدٌ كَأَنَّ السَّمْنَ فِي حَجَرَاتِهِ نُجُومُ الثَّرِيَّا أَوْ عُيُونُ الضِّيَّانِ<sup>(٢)</sup>

هذا ، وكما أخذت من حسان معان سبق إليها أخذ حسان معاني من الجاهليين ، فمن المعاني التي أخذها حسان قوله :

وَالْخَالِطُونَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ وَالْمُنْعِمُونَ عَلَى الضَّعِيفِ الْمُرْمِلِ<sup>(٣)</sup>

أخذه من قول عمرو بن الإطنابة

وَالْخَالِطِينَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ وَبِالْبَازِلِينَ عَطَاءَهُمْ لِلْسَّائِلِ<sup>(٤)</sup>

وقد عيب على حسان أخذه معنى ابن الإطنابة على هذا النحو ، فقد ذكر الخالديان أن حسانا أخذه مصالطة من قول عمرو بن الإطنابة ، ثم قالوا : وهذا أقبح ما يكون من الأخذ ، وليس هو من التوارد الذي يذكرونه ... وكان ابن الإطنابة أقدم من حسان ، فلذلك قلنا أخذه منه أخذا<sup>(٥)</sup>.

ومما أخذه حسان أيضا قوله :

لَوْ يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الدَّرِّ عَلَيْهَا لَأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ<sup>(٦)</sup>

أخذه من قول امرئ القيس :

مِنْ الْقَاصِرَاتِ الطَّرَفِ لَوْ دَبَّ مُحُولٌ مِنْ الدَّرِّ فَوْقَ الْإِثْبِ مِنْهَا لَأَثَرَا<sup>(٧)</sup>

غير أن بيت حسان أشهر من بيت امرئ القيس في هذا المعنى ، ذلك أنه زاد على معنى امرئ القيس ، وفصل فيه على نحو واسع . وفي ذلك يقول أسامة بن منقذ في "باب السابق واللاحق" : اعلم أن السابق واللاحق: هو أن يأخذ البيت فيُنْقِصَ من لفظه، أو يزيد في معناه، أو

(١) روي هذا البيت بأكثر من رواية . انظره عند نعمان محمد طه ، ديوان جرير ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٣٨ . وأشوى : أهون (انظر لسان العرب ، مادة شوى) .

(٢) انظر البيت في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٥١٩ . وحجرات الثريد : نواحيه ، جمع حجرة ، وحجرة القوم : ناحية دارهم (انظر لسان العرب ، مادة "حجر") ، والضيان : جمع ضيئون ، وهو السثور الذكر أو الهر (انظر لسان العرب ، مادة "ضون")

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٤) داود غطاشة ، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الأخيرة ، ملحق (١) ، ص ٧٤ .

(٥) الخالديان ، الأشباه والنظائر ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٦) انظر البيت في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٤٠ . وقد سبق تفسيره ص ٢١٣ من هذه الدراسة .

(٧) انظر البيت في ديوان امرئ القيس ، تحقيق : جماعة من الأدباء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣ ، ص ٦٥ . انظر تفسير مفردات هذا البيت في الصفحة الآتية .

يحرره، فيكون أولى به من قائله، لكن الأول سابق والآخر لاحق<sup>(١)</sup>. ثم ذكر أسامة بن منقذ أمثلة لذلك منه قول حسان وقول امرئ القيس السابقين .

ولبيان المعنى في قول امرئ القيس لِنَتَأَمَّلَ السياق الذي جاء فيه قوله ، فقد قال :

نَشِيمُ بُرُوقِ الْمُزْنِ أَيْنَ مَصَابُهُ      وَلَا شَيْءَ يَشْفِي مِنْكِ يَا ابْنَةَ عَقْزَرَا

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحُولٌ      مِّنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَرَا

لَهُ الْوَيْلُ إِنْ أَمْسَى وَلَا أُمُّ هَاشِمٍ      قَرِيبٌ وَلَا الْبَسْبَاسَةُ ابْنَةُ يَشْكُرَا<sup>(٢)</sup>

نلاحظ أن امرأ القيس قد اكتفى وهو يصف المحبوبة ببيت واحد ، قدم له ببيت وصف فيه شدة تمكن حبها من قلبه ، ثم انتقل إلى معنى جديد ، فكأن بيته ذاك مُنَبِّتٌ عما بعده ، لكن حسانا زاد على معنى امرئ القيس ، وفصل فيه ، فوصف المحبوبة وصفا مقنعا ، شاكيا من لوعة الحب ، ثم وصف عيش المحبوبة الرغد ، ثم وصف نعومة جلد المحبوبة مستعيرا له تلك الصورة ، وهو وصف في محله ، إذ إن نعومة الجلد نتيجة طبيعية لحياة الترف التي تعيشها المحبوبة ، ثم خلص حسان إلى وصف المحبوبة وصفا يلخص كل مقال فيها ، وفي ذلك كله يقول :

يَا لَقَوْمِي هَلْ يَقْتُلُ الْمَرْءَ مِثْلِي      وَاهِنُ الْبَطْشِ وَالْعِظَامِ سَوْوُمُ

لَوْ يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ مِمَّنْ وَلَدَ الذَّرَّ عَلَيْهَا      لَأَنْدَبَتْهَا الْكَلُومُ

لَمْ تَفْقَهَا شَمْسُ النَّهَارِ بِشَيْءٍ      غَيْرَ أَنَّ الشَّبَابَ لَيْسَ يَدُومُ

(٣)

ومن معاني حسان السائرة قوله في الخمر :

إِنَّ الَّتِي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا      قَتَلْتُ قَتَلْتُ فَهَاتَهَا لَمْ تُقَتِّلْ<sup>(٤)</sup>

وهذا المعنى من المعاني التي أحسب أن حسانا أخذها من قول ربيعة بن مقروم الضبي<sup>(٥)</sup> :

(١) أسامة بن منقذ ، البديع في البديع في نقد الشعر ، ص ٣١٩ .

(٢) ديوان امرئ القيس ، ص ٦٥ . ونشيم : من شام البرق إذا نظر إلى سحابته أين تمطر ، ومصابه : مكان سقوط مطره ، وعقزرا : اسم رجل ، والمحول : الذي أتى عليه الحول ، وقد بينا المقصود بالحوالي ، ص ٢١٣ من هذه الدراسة ، والإتب : بُرْدٌ أو ثوب يُؤْخَذُ فَيُشَقُّ فِي وَسْطِهِ ، ثم تُلقِيهِ الْمَرْأَةُ فِي عُنُقِهَا مِنْ غَيْرِ جَيْبٍ وَلَا كُمَيْنِ (لسان العرب ، مادة ، "إتب") ، والبسباسة هنا : اسم امرأة .

(٣) انظر الأبيات في ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٤٠ . وانظر الأبيات وتفسيرها أيضا ص ٢١٣ من هذه الدراسة .

(٤) ديوان حسان ، ج ١ ، ص ٧٥ . وقَتَلْتُ : مزجت بالماء .

(٥) ربيعة بن مقروم الضبي: من شعراء الحماسة، ومن مخضرمي الجاهلية والإسلام. وفد على كسرى في الجاهلية، وشهد بعض الفتوح في الإسلام وحضر وقعة القادسية. انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ٢ ، ص ١٣ .

فَأَتَيْتُ حَانُوتًا بِهِ فَصَبَحْتُهُ مِنْ عَاتِقٍ بِمَزَاجِهَا لَمْ تُقْتَلْ<sup>(١)</sup>

وعلى الرغم من أن كلا الشاعرين مخضرم ، وأن المصادر لم تتصَّ على أخذ حسان هذا المعنى من ربيعة بن مقروم الضبي ، إلا أنني أرى أن قول ربيعة أقدم من قول حسان ، فمع أن حسانا قد عاش ستين عاما في الجاهلية كما ذكرت المصادر<sup>(٢)</sup> ، فإن ربيعة قد عاش زمنا أكثر منه ، فقد توفي ربيعة بعد أن شهد القادسية<sup>(٣)</sup> ، أي بعد سنة ١٤ هـ ، وتوفي حسان سنة ٥٤ هـ تقريبا في خلافة معاوية ، وقد قال ربيعة قصيدته التي منها البيت السابق وعمره مئة سنة ، يشهد لنا بذلك قوله منها :

وَلَقَدْ أَتَيْتُ مَائَةً عَلَيَّ أَعْدَهَا حَوْلًا فَحَوْلًا إِنْ بَلَاهَا مُبْتَلٍ<sup>(٤)</sup>

أي أنه قال قصيدته قبل الإسلام بمئة سنة ، وقصيدة حسان التي منها بيته السابق في الخمر لا تصل بحال إلى هذا التاريخ ، فقد قالها حسان قبيل الإسلام يمدح فيها آل جفنة ومليكهم جبلة بن الأيهم الذي ارتد عن الإسلام زمن عمر بن الخطاب .

والحق أن المعاني التي أخذها حسان من غيره مما نص عليه النقاد قليل إذا ما قيست بالمعاني التي أخذت منه ، وكل ما أوردنا له من معانٍ أخذت منه إنما هي نماذج قليلة من ذلك ، وما زال هناك الكثير من تلك المعاني مما لم يمكن أن نستقصيه في هذه الدراسة .

وقد أخذت على حسان في معانيه الجاهلية أمور ، أظهرها ما روي لنا في القصة المشهورة<sup>(٥)</sup> في سوق عكاظ بينه وبين النابغة الذبياني الذي أخذ عليه هَنَاتٍ في قوله :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَرَّقٍ فَأَكْرَمُ بَنِي خَالَا وَأَكْرَمُ بَنِي ابْنِمَا<sup>(٦)</sup>

وقصة هذين البيتين ومواقع النقد فيهما أشهر من أن نذكرها ، فقد أوردتها معظم المصادر الأدبية والنقدية ، غير أننا نشير هنا إلى أن عددا من النقاد قد ردوا كل ما أخذه النابغة على حسان في معانيها وخطأوه في مذهبه الذي انطلق منه في الطعن على حسان ، وصوبوا معاني حسان كلها .

(١) انظر البيت والقصيدة عند الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ١٠٤ .

(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

(٣) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٤) انظر البيت عند الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ١٠٤ .

(٥) انظر القصة ومواقع النقد في الأبيات عند الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٩ ، ص ٣٨٤ .

(٦) انظر البيتين والقصيدة في ديوان حسان بن ثابت ، ج ١ ، ص ٣٥ .

ومن المفيد أن نتعرف مذهب هؤلاء النقاد في ذلك ، إذ ما يزال يستقر في أذهان معظم الدارسين أن حسانا قد جانب الصواب في بيتيه السابقين . وإن يكن حسان قد عجز عن الرد على النابغة وقتها ، فإن تطور النظرة النقدية من بعد ، ومجاوزتها النقد الانطباعي الجزئي الذي تميز به النقد في بداياته ، قد أتحفتنا بتعليلات مقنعة في بيتي حسان السابقين .

وبشأن مآخذ النابغة على حسان يقول ابن رشيق في "باب المبالغة" :

وهي ضروب كثيرة ، والناس فيها مختلفون: منهم من يؤثرها، ويقول بتفضيلها، ويرأها الغاية القصوى في الجودة، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان، وهو القائل: "أشعر الناس من استجيد كذبُه، وضُحِك من رديئه..."<sup>(١)</sup>.

ويتابع ابن رشيق قائلاً : وروى قوم من حديث النابغة ومطالبته حسان بن ثابت بالمبالغة ونسبته إياه إلى التقصير في قوله (وذكر البيتين) ما هو مشهور عندهم ، مشهور في كتبهم ، ومنهم من يعيبها وينكرها، ويرأها عيباً وهجنة في الكلام ، قال بعض الحذاق بنقد الشعر: المبالغة ربما أحات المعنى، ولبسته على السامع؛ فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره، لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه ؛ لأنه ينبغي أن يكون من أهم أغراض الشاعر والمتكلم أيضاً الإبانة والإفصاح، وتقريب المعنى على السامع؛ فإن العرب إنما فضلت بالبيان والفصاحة، وحلا منطقها في الصدور وقبلته النفوس لأساليب حسنة، وإشارات لطيفة، تكسبه بياناً وتصوره في القلوب تصويراً، ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء، وقد رأيناهم احتالوا للكلام حتى قربوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التي استعملوها<sup>(٢)</sup> .

وفي ذلك أيضاً يقول قدامة بن جعفر: فإن النابغة - على ما حكى عنه - لم يرد من حسان إلا الإفراط والغلو بتصويره مكان كل معنى وضعه ما هو فوقه وزائد عليه، وعلى أن من أنعم النظر علم أن هذا الرد على حسان - من النابغة كان أو من غيره - خطأ بيّن ، وأن حسانا مصيب، إذ كانت مطابقة المعنى بالحق في يده ، وكان الراؤ عليه عادلاً عن الصواب إلى غيره<sup>(٣)</sup> .

(١) ابن رشيق ، العمدة ، ص ٣٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٠ .

(٣) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص ٦١ .

وقد أخذ قدامة بعد كل ما ذكر يستعرض مأخذ النابغة على حسان ، ويردها مأخذا مأخذا ، ليصل من ذلك كله إلى أن المبالغة التي طالب بها النابغة حسانا ليست موضع اتفاق بين النقاد ، ولا هي مذهب الشعراء جميعهم <sup>(١)</sup> .

#### ب - معانيهم الإسلامية

غلبت المعاني الإسلامية والتأثر بالقرآن الكريم وأسلوبه على معظم شعر الأوس والخزرج في عصر صدر الإسلام ، غير أننا وجدنا تباينا في ذلك بين شعرائهم الثلاثة المشهورين في هذا العصر : : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رَوَاحَة ، فوجدنا أكثرهم تأثرا بكعب بن مالك ، ثم عبدالله بن رَوَاحَة ، ثم حسان بن ثابت ، يشهد لكل منه ما نراه في ديوانه من معان جديدة لم تعهد في شعر الجاهلية . وقد أوجد تحول هؤلاء الشعراء عن كثير من معاني الجاهلية إلى معاني الإسلام قدرا كبيرا من المعاني المشتركة التي تمثلوها وهم ينشئون شعرهم ، فقد كان دينهم واحدا هو الإسلام ، وكتابتهم واحدا هو القرآن ، ورسولهم ﷺ الذي يأمرهم وينهاهم واحدا هو النبي ﷺ ، فمن الطبيعي إذن أن نجد بينهم - وقد هجروا معا كثيرا من معاني الجاهلية - هذه النمطية في المعاني التي نلاحظها في شعرهم ، كما وجدناها بينهم حين تحدثنا عن ألفاظهم وتراكيبهم في الإسلام .

وعلى الرغم من التشابه في المعاني الذي نجده في شعرهم الإسلامي ، إلا أنه لا يفهم من ذلك أن كل معنى ورد في شعرهم الذي قالوه في الإسلام كان مصدره الإسلام أو القرآن ، أو أنهم قد انسلخوا من معاني الجاهلية ، وتحولوا عنها تحولا كاملا ، فثمة معان كثيرة انتقلت معهم من الجاهلية تتوافق وروح الإسلام ، إلا أن مصدرها المباشر ليس هو الإسلام أو القرآن

<sup>(١)</sup> انظر تعليقات قدامة لما ورد في بيتي حسان وتصويبه لها في نقد الشعر ، ص ٢١٣ ، وانظر أيضا أسامة بن منقذ ، البديع في البديع في نقد الشعر ، ص ٦٢ .

الكريم ، بل هي معان متمثلة من وحي الإسلام وما أحدثه في أنفسهم من أثر ، أو أنها معان لا تتعارض مع مبادئ الإسلام وقيمه ، أعني أنها معان مباحة لا تدخل في ما نهى عنه الإسلام ، ولا في ما حض عليه .

وإذا كان شعراء الأنصار في الجاهلية قد أخذوا من معاني غيرهم ووظفوها في شعرهم ، أو أخذت منهم معان وُظِّفَتْ في أشعار غيرهم ، فإنهم في الإسلام - فضلا عن ذلك كله - قد أصبحوا هم وغيرهم يأخذون من معاني القرآن الكريم ، ويصوغونها صياغة لم يُمكنها أن تصل في كل حال إلى مستوى الصياغة القرآنية التي أعيت العرب العرباء قاطبة .

وقد كان القرآن الكريم - ولن يزال - المعين الذي ظل يمتح منه الشعراء والأدباء في العصور الإسلامية معاني وأساليب ، بعد أن بهتت فصاحتهم ، وجدة أسلوبه . وفي مقام الحديث عن المعاني عند شعراء الأوس والخزرج في صدر الإسلام تكثر الجوانب التي يمكن

تناولها وتتفرع حتى لا يمكن لدراسة واحدة أن تستقصى البحث فيها كلها وتعطي كل جانب حقه من النظر والدرس ، بسبب كبر حجم الشعر الإسلامي الكبير في هاتين القبيلتين . من أجل ذلك ، فإننا سنتحدث عن تأثير معاني الشعر بالقرآن الكريم ، وسنتخذ شعر كعب بن مالك مثلاً لذلك من شعر الأنصار ، وهو مثل كاد يحتضيه كافة شعراء المسلمين في هذا العصر . وفضلاً عن ذلك فإننا سنقف عند أحد جوانب المعنى عند حسان بن ثابت ، وهي وجود المعاني المقذعة في هجائه في الإسلام ، لنحاول تحليل هذه الظاهرة عنده ، وكنا أشرنا إلى وجودها في شعره الجاهلي من قبل .

### أثر القرآن الكريم في معاني الشعر عن عند كعب بن مالك

كان كعب بن مالك أشد الشعراء تأثراً بأفكار الإسلام وتعاليمه وكتابه المبين ، لذلك فإن معاني هذا الشاعر جاءت مفعمة بالروح الدينية التي نلاحظها في معظم قصائده . والمتصفح على عجل ديوان كعب بن مالك يجد ذلك القدر الكبير من المعاني الإسلامية عنده ، حتى ليظن أنه شاعر نبغ في الإسلام ، وأنه لم يشهد من الجاهلية أدنى مدة . والذي أطمعنا أن ندرس معاني كعب بن مالك من حيث تأثرها بالقرآن الكريم هو وجود قدر ليس يسيراً من شعره الذي كان

صدى مباشرا أو غير مباشر لآيات قرآنية ، في معانيها حيناً ، وفي معانيها وألفاظها أحياناً كثيرة .

وفي هذا الشأن فإننا سنحاول رصد الأبيات الشعرية المتأثرة معانيها بالقرآن الكريم في ديوان كعب ، وبيان الآيات التي تمثلها الشاعر وهو ينشئ تلك المعاني . وحتى لا يستغرقنا البحث فإننا سنختار أولاً بعض قصائد كعب فنحللها من الجانب الذي نُصَّ عليه ، ثم نحيل ثانياً إلى ديوانه في ما بقي من تلك الأبيات . أما القصيدة التي سنختارها فلعلها أكثر قصيدة متأثرة بالمعاني القرآنية التي أوشكت أن تعم كل بيت فيها . وهي قصيدة مكونة من عشرين بيتاً ، قالها كعب سنة أربع من الهجرة يذكر فيها إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف . قال كعب بن مالك :

١٠. لَقَدْ خَزَيْتَ بَعْدَ رَيْتِهَا الْحُبُورُ      كَذَاكَ الدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ يَدُورُ<sup>(١)</sup>

عَجَزَ البيت متوافق مع معنى قوله تعالى : " وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... " <sup>(٢)</sup> ، إلا أن هذا المعنى كان متداولاً قبل نزول القرآن بكثرة ، ومن ذلك قول الخنساء ترثي أخاها صخرًا قبل الإسلام :

لَا بُدَّ مِنْ مَيِّتَةٍ فِي صَرْفِهَا عِبْرٌ      وَالْدَّهْرُ فِي صَرْفِهِ حَوْلٌ وَأَطْوَارُ<sup>(٣)</sup>

ومعنى هذا البيت أشبه ما يكون بمعنى بيت كعب السابق .

٢٠. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرَبِّ      عَزِيزٍ أَمْرُهُ أَمْرٌ كَبِيرٌ

وقد تأثر هذا البيت في مجمل معانيه بعدد من الآيات القرآنية منها قوله عز وجل : " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " <sup>(٤)</sup> ، وقوله : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ " <sup>(٥)</sup> . وأما قول كعب في عجز البيت : " أَمْرُهُ أَمْرٌ كَبِيرٌ " ، ففيه تعظيم لأمر الله تعالى وشأنه ، ولعل فيه إشارة صريحة إلى قوله تعالى : " إِنَّمَا

<sup>(١)</sup> انظر القصيدة كاملة في ديوان كعب بن مالك ، ص ٤٤ . وانظرها مع اختلاف في رواية بعض الأبيات عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٠٠٤ . والحبور : جمع حَبْر : وهو العالم من علماء اليهود .

<sup>(٢)</sup> سورة آل عمران ، الآية ١٤٠ .

<sup>(٣)</sup> البيت من قصيدة جاهلية للخنساء ، وهي التي أشدتها النابغة الذبياني في سوق عكاظ . انظر البيت والقصيدة : الخنساء ، ديوانها ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ( د . ب . ت ) ، ص ٤٣ .

<sup>(٤)</sup> سورة التوبة ، الآية ٨٠ .

<sup>(٥)</sup> سورة آل عمران ، الآية ٤ .



أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (١) .

٣٠ وقد أوثوا معاً فهماً وعِلماً وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ النَّذِيرُ

الشطر الأول مأخوذ معناه من غير آية اشتملت هذا المعنى أقربها إلى معنى كعب ولفظه قوله تعالى: "وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ" (٢) . وأما عجز البيت فأقرب ما يكون إلى قوله تعالى : "وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ" (٣) ، وقوله تعالى : "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُؤْتِيَنَّكُمْ نَذِيرًا وَلَكِنَّهُمْ يُكْفِرُونَ" (٤) .

٤٠ نَذِيرٌ صَادِقٌ أَدَّى كِتَابًا وَآيَاتٍ مَبِينَةٍ تَنْذِيرُ

وهذا البيت يرتد جزء من معناه إلى الآيتين اللتين ذكرناهما في البيت السابق ، والجزء الآخر يعود معناه إلى أكثر من آية قرآنية ، لكنه أقرب في معناه إلى قوله تعالى : "رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" (٤) (٥) . ويلجأ كعب في البيتين (٥-٦) الآيتين إلى إيصال المعنى بأسلوب الحوار الذي عرف به القرآن الكريم في خطابه الكفار ، ونجد أن المعاني التي وردت في هذا الأسلوب أيضا لم تخرج عن معاني القرآن الكريم ، وفي ذلك يقول كعب حاكيا مجادلة اليهود الرسول ﷺ ورده عليهم :

٥٠ فَقَالُوا مَا أَتَيْتَ بِأَمْرِ صِدْقٍ وَأَنْتَ بِمُنْكَرٍ مِمَّا جَدِيرُ

٦٠ فَقَالَ : بَلَى لَقَدْ أَتَيْتُ حَقًّا يُصَدِّقُنِي بِهِ الْفَهْمُ الْخَبِيرُ

فالببيت الخامس مأخوذ معناه من قوله تعالى : " قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ... " (٦) ، والبيت السادس متأثر صدره في معناه بقوله تعالى : "وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي" (٧) ، لأن المقصود بتأدية الحق في البيت هو تبليغ رسالة الله إلى عباده التي صدق بها ذوو الألباب .

(١) سورة يس ، الآية ٨٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩ .

(٣) سورة فاطر ، الآية ٤٣ .

(٤) سورة فاطر ، الآية ٤٢ .

(٥) سورة الطلاق ، الآية ١١ .

(٦) سورة هود ، الآية ٥٣ .

(٧) سورة الأعراف ، الآية ٩٣ .

٥٧. فَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَهْدَ لِكُلِّ رُشْدٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يُجْزَ الْكُفُورُ

صدر البيت مأخوذ من قوله تعالى : وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ <sup>(١)</sup> ، وأشبه ذلك من الآيات ، وعجزه مأخوذ من قوله تعالى : ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ <sup>(٢)</sup> .

٥٨. فَلَمَّا أَشْرَبُوا غَدَرُوا وَكَفَرُوا وَحَادَ بِهِمْ عَنِ الْحَقِّ النَّفُورُ

فقوله : "أشربوا...." مأخوذ من قوله تعالى في حق اليهود من قوم موسى : "وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ" <sup>(٣)</sup> . وأما معنى النفور الذي استخدمه الشاعر في عجز البيت للإعراض عن الدين فقد ورد في القرآن الكريم بهذا المعنى غير مرة ، ومن ذلك قوله تعالى : "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا" <sup>(٤)</sup> .

٥٩. أَرَى اللَّهَ النَّبِيَّ بِرَأْيٍ صِدْقٍ وَكَانَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا يَجُورُ

عجز البيت يتفق في معناه مع عدد كبير من الآيات التي تنفي الظلم عن الله تعالى ، منها قوله تعالى : "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" <sup>(٥)</sup> .

٦٠. فَأَيَّدَهُ وَسَلَّقَهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ نَصِيرَهُ ، نَعَمَ النَّصِيرُ <sup>(٦)</sup>

فصدر البيت في معنى قوله تعالى : "وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ" <sup>(٧)</sup> ، وأما العجز فمن قوله تعالى : "وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ" <sup>(٨)</sup> .

<sup>(١)</sup> سورة النور ، الآية ٥٤ .

<sup>(٢)</sup> سورة سبأ ، الآية ١٧ .

<sup>(٣)</sup> سورة البقرة ، الآية ٩٣ .

<sup>(٤)</sup> سورة الإسراء ، الآية ٤١ .

<sup>(٥)</sup> سورة يونس ، الآية ٤٤ .

<sup>(٦)</sup> سلقه عليهم : قدمه عليهم وأظهره . جاء في ديوان كعب بتحقيق مجيد طراد قول كعب "وكان نصيره" برفع "نصيره" . ومع أن الرفع له وجه مقبول ، إلا أن المحقق قد أخطأ في نقل البيت من مصدره ، وهما : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ١٠٠٣ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٧٧ ، فقد جاءت هذه اللفظة منصوبة في المصدرين السابقين خبراً لـ "كان" ، واسمها مستتر يعود على لفظ الجلالة . أما بالرفع ، فتكون اسماً لـ "كان" ، و تكون جملة المدح "نعم النصير" خبراً لها .

<sup>(٧)</sup> سورة الأنفال ، الآية ٤٠ .

<sup>(٨)</sup> سورة الأنفال ، الآية ٦٢ .

١١. فَعُودِرَ مِنْهُمْ كَعْبٌ صَرِيحاً      قَذَلْتُ بَعْدَ مَصْرَعِهِ النَّصِيرُ  
١٢. عَلَى الْكَفَيْنِ ثُمَّ وَقَدْ عَلَنَهُ      بِأَيْدِينَا مَشَهَّرَةٌ ذُكُورُ  
١٣. بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ إِذْ دَسَّ لَيْلَا      إِلَى كَعْبٍ أَخَا كَعْبٍ يَسِيرُ<sup>(١)</sup>

١٤. فَمَاكَرَهُ فَأَنْزَلَهُ بِمَكْرٍ      وَمَحْمُودٌ أَخُو ثِقَةٍ جَسُورُ  
صدر البيت مأخوذ من قوله تعالى : "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"<sup>(٢)</sup>.

١٥. فَتِلْكَ بَنُو النَّصِيرِ بِدَارِ سَوْءٍ      أَبَارَهُمْ بِمَا اجْتَرَمُوا الْمُبِيرُ<sup>(٣)</sup>  
صدر البيت ينزع في معناه إلى قوله تعالى : "فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا" إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"<sup>(٤)</sup>، في حين ينزع عجز البيت إلى قوله عز وجل : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْراً وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ"<sup>(٥)</sup>.

١٦. غَدَاةً أَتَاهُمْ فِي الزَّحْفِ رَهْوَاً      رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ بِهِمْ بَصِيرُ  
١٧. وَغَسَّانُ الْحُمَاءِ مُوَازِرُوهُ      عَلَى الْأَعْدَاءِ وَهُوَ لَهُمْ وَزِيرُ  
فقد جاء في القرآن الكريم لفظ "وزير" فقال تعالى : "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً"<sup>(٦)</sup> ، وقال عز من قائل أيضاً : "وَأَجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي"<sup>(٧)</sup> .  
ولفظ وزير وإن كان معروفاً قبل الإسلام ، إلا أننا لا نكاد نجده في شعر جاهلي ، غير أنا نجده كثيراً في أشعار الإسلاميين .

<sup>(١)</sup> في الثلاثة الأبيات إشارة إلى الاحتياط في قتل كعب بن الأشرف اليهودي ، وكان شبيب بنسأ المسلمين وأذاهم ، فانتدب الرسول ﷺ من يقتله ، فاجتمع في قتله عدد من الصحابة منهم أخو كعب بن الأشرف من الرضاة أبو نائلة سليمان بن سلامة بن وقش الأشهلي ( انظر خبر ذلك مفصلاً عند ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٨٣٧ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الأنفال ، الآية ٣٠ .

<sup>(٣)</sup> أبارهم : أهلكهم ، والمبير : المهلك ، ويريد به هنا الله تعالى .

<sup>(٤)</sup> سورة النمل ، الآية ٥٢ .

<sup>(٥)</sup> سورة إبراهيم ، الأيتان ٢٨ - ٢٩ .

<sup>(٦)</sup> سورة الفرقان ، الآية ٣٥ .

<sup>(٧)</sup> سورة طه ، الآية ٢٩ .

١٨. فَقَالَ السَّلَامُ وَيَحْكُمُ قَصْدُكُمْ وَحَالَفَ أَمْرَهُمْ كَذِبٌ وَزُورٌ

يشير كعب هنا إلى عَرْض الرسول ﷺ والسلم والمهادنة على اليهود ، وأنهم غدروا به وأرادوا قتله ﷺ. وعَرْض السلم مأخوذ من قوله تعالى في بني قريظة : "وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (١) .

١٩. فَذَاقُوا غَبَّ أَمْرِهِمْ وَبَالَاً لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرٌ (٢)

صدر البيت مأخوذ معناه من قوله تعالى : "كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (٣). ونلاحظ هنا التوافق الكبير بين البيت والآية ، فقد أخذ كعب معنى الآية ولفظها أولاً ، ثم كان التوافق بين البيت والآية في المناسبة ثانياً ، فهذه الآية قد نزلت أيضاً في أمر إجلاء بني النضير .

٢٠. فَأَجْلَوْا عَامِدِينَ لِقَيْنَقَاعٍ وَعَوْدِرَ مِنْهُمْ نَحْلٌ وَدُورٌ (٤)

وبعد ، فلعلنا بعد هذه التَّطَوُّفِ في أبيات قصيدة كعب السابقة تبيناً بجلاء أثر القرآن الكريم في معاني هذه الشاعر ، وإن تكن هذه القصيدة قد تشبعت بكثير من المعاني القرآنية ، فإن هناك قصائد لكعب لم تبلغ هذا المبلغ من التأثير بمعاني القرآن ، لكن شعره على الجملة قد غلبت عليه تلك المعاني .

لعلي بما أسلفت من مقابلة معاني أبيات كعب بالآيات القرآنية أكون قد أبنت على نحو أوضح أثر القرآن الكريم في معاني هذا الشاعر ، إذ إن كل من درسوا كعباً لم يشيروا إلا على عجل إلى هذا الجانب ، واكتفوا بمثالين أو أكثر لذلك ، وإني لأمل أن تكون مستقبلاً دراسات تتناول شعر كعب من هذه الناحية .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦١ .

(٢) غب الأمر : عقابه ، والوبال : الشر والفساد .

(٣) سورة الحشر ، الآية ١٥ .

(٤) ضبط مجيد طراد محقق ديوان كعب بن مالك لفظة "قَيْنَقَاع" - وهم حي من اليهود - بفتح العين (ديوان كعب ، ص ٤٦) ، والصواب "قَيْنَقَاع" بضم العين كما هو ثابت في المصادر كافة .

والحق أن ديوان كعب يعج بمثل تلك المقابلات التي أجريناها بين أبياته وآيات القرآن الكريم المتأثرة بها ، وحتى تكتمل لنا الصورة فإنني أثبت في ما يأتي جدولاً يشير إلى الأبيات المتأثرة في ديوان كعب بمعاني القرآن الكريم خاصة في غير القصيدة السابقة ، مع ملاحظة أن هناك معاني إسلامية تأثر بها الشاعر لم أثبتها في هذا الجدول لكثرتها .

جدول ( ١٦ ) :القطع الشعرية المتأثرة في معانيها بآيات من القرآن الكريم وأرقام أبياتها  
(في ديوان كعب بن مالك ، تحقيق : مجيد طراد)

رقم القطعة	رقم البيت/الأبيات	رقم القطعة	رقم البيت/الأبيات
١	٣	٣٨	١
٣	٧+٤+٣	٤١	١
٤	٨	٤٢	١٨+١٧+١٦+١٥+١٤
٧	١٠+٩+٥+٤	٤٤	١٢
٨	٢١+١	٤٧	٥
١٠	٣+١	٤٩	٢٣+٢١+١٩+١٨+١٦+٨+٤
١٣	٤	٥٣	٩+٤+٣
١٤	١٦+٩	٥٦	١٩+١٣+٦
١٦	٢١+٤	٦٠	٢+١
١٧	٢٤+١٦	٦٣	٣
١٨	٧+٦	٦٥	٣+١
٢٤	١٦+١٥+١٤+١٣+٨+٥+١	٦٩	٢٨

٢٥	٢	٧١	١٧+١٦+١٤+١٢+٢
٢٩	٦+٤+٣	٧٤	٤+١
٣٥	٥+٣	٧٥	١
٣٦	٤٩+٢٠+١٩+١٧+١٦	٧٧	٨+٧
٣٧	٦+٣	٧٨	٣

### المعاني المقذعة في شعر حسان بن ثابت الإسلامي<sup>(١)</sup>

قال رحمه الله: "من قال في الإسلام شعرا مقذعا فلسانه هدر"<sup>(٢)</sup>. وقد أوشك أول تطبيق لهذا الحديث أن يكون في خلافة عمر بن الخطاب حين هم أن يقطع لسان الحطيئة، ثم اكتفى بسجنه، حين هجا الزُّبْرَقان بن بدر، فشبهه بالمرأة التي تأكل وتلبس في القصة المشتهرة بينهما<sup>(٣)</sup>.

ويُروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبُح بمثلها. قال خلف الأحمر: أشد الهجاء أعفه وأصدق، وقال مرة أخرى: ما عف لفظه وصدق معناه، ومن كلام صاحب الوساطة: فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه، وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب

<sup>(١)</sup> أرى أن الإقذاع ليس خاصا باللفظ، بل يكون في اللفظ والمعنى معا، لأن اللفظ وعاء للمعنى، وإذا كان اللفظ مقذعا، كان المعنى المراد منه مقذعا كذلك. وقد كنا أشرنا إلى وجود ألفاظ مقذعة في شعر حسان الجاهلي وأحلنا إلى بعضها ص ٢٤٢ من هذه الدراسة، وهنا تناولنا الإقذاع في المعنى وليس اللفظ. وقد رميت من هذا التناول أن أبين أن الإقذاع في الجاهلية عند حسان وغيره كان مقصودا لذات اللفظ ووقع هذا اللفظ على أذن المهجو، أما في شعره الإسلامي، فذكر اللفظ لم يكن يقصد لذاته، بل المراد ما يشتمله هذا اللفظ من معنى يغيب الكفار. وفي وجود مثل هذه الألفاظ في بعض الأحاديث الشريفة، وبعض أقوال الخلفاء الراشدين - وخاصة عن عند النهي عن أمور الجاهلية - دليل واضح على أنها ليست مقصودة لذاتها (انظر ما أورده ابن قتيبة من تلك الألفاظ، وما قاله في ذلك، في مقدمة كتابه، عيون الأخبار، ج ١، ص: ل، م).

<sup>(٢)</sup> البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ج ٤، ص ٢٧٦.

<sup>(٣)</sup> انظر خبر هذه القصة عند ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص ١١٤، وابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ٣٣٧، والأصفهاني، الأغاني، ج ٢، ص ١٨٤، والبغدادى، خزانة الأدب، ج ٣، ص ٣٢١.

ولصوقه بالنفس، فأما القذف والإفحاش فسياب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن<sup>(١)</sup>. مما سبق يتبين لنا بإيجاز موقف الإسلام والنقاد من الإقذاع في الشعر، فقد تشدد فيه الإسلام، وذم النقاد المقذع من الشعراء، حتى أخرجه بعضهم من دائرة الشعراء، وجعله مجرد سبب يقيم الوزن.

وينبغي لنا أن نفرق ونحن نطرق هذا الموضوع بين ثلاث طوائف من الشعراء : طائفة كان السبب وقول الهجر والفحش، وتخير المعاني المقذعة ديدنهم وطبيعتهم التي لم يستطيعوا التخلص منها لا في الجاهلية ولا في الإسلام، حتى وصفوا بالهجائين، وعلى رأس هؤلاء في صدر الإسلام الحطيئة، وطائفة أخرى لم تكن تلك فيهم طبيعة مستحكمة، بل كانت سمة عارضة وجدت في مواضع من شعرهم قد تكون كثيرة، غير أنها لم تغلب على صاحبها فيعرف بذلك، ومن هذه الطائفة حسان بن ثابت، أما الطائفة الثالثة فهي تلك التي اجتنبت مثل تلك المعاني اجتنابا تاما، وكان هجاؤها عفا صادقا، ليس فيه فحش ولا ذكر عورة ولا طعن في عرض، ومن هؤلاء : عبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك .

وقد بلغ حسان بن ثابت في مهاجته المشركين مبلغا كبيرا، حتى كان أشد شعراء الأنصار على أعداء الدعوة وشعرائهم. وقد كان في هجائه يدخل مداخل يعجز عنها الشعراء حتى بلغ الأمر بالحارث بن عوف المري أحد قادة غطفان أن يستجير بالرسول ﷺ من شعر حسان، فقد روى ابن سلام وغيره أن الحارث بن عوف المري قبل أن يسلم جاء إلى الرسول ﷺ فقال : يا محمد أجرتني من شعر حسان، فوالله لو مزج به البحر لمزجه، وكان حسان قال في هجائه :

وأمانة المري حيث لقيته  
مثل الزجاجة صدعها لم يجبر<sup>(٢)</sup>

ولقد أثنى حسان في المشركين هجاء حتى كان الرسول ﷺ يقول في وصفه : لهو أسرع فيهم من السهم في غلس الظلام<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن رشيقي، العمدة، ص ٤٤٨.

(٢) انظر الشعر وخبره في ديوان حسان بن ثابت ج ١، ص ١٣٧، وانظر أيضا : ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٢١، والأصفهاني، الأغاني، ج ٤، ص ١٥٥.

(٣) ذكر هذا القول إبراهيم البيهقي (المحاسن والمساويء، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ج ٢، ص ٨٣)، غير أنني لم أجد هذا الحديث في أي من مصادر الحديث، ولا وجدته في كتب السير.

وقد اقتضى ذلك من حسان بن ثابت أن يلجأ إلى طرق عدة في البحث عن معانيه التي تغيظ أعداء الدعوة ، وتشتد عليهم ، فاستخدم في صياغة تلك المعاني ألفاظا بلغت الغاية أحيانا من الفحش والإقذاع ، كما لجأ في ذلك إلى معان لم تطرق من قبل ، تفنن في ابتكارها ، وأوحى لها غضبته على هؤلاء القوم الذين وقفوا في وجه الدعوة . وقد كانت معاني حسان المقذعة في غير المسلمين ، لكنك إن وجدت هجوا لمسلم - وهو قليل جدا - فلن تجده مقذعا على نحو ما ترى في هجائه المشركين .

ولم تكن المعاني المقذعة في هجاء حسان للمشركين هي الطريقة الوحيدة التي اتبعها ، بل لقد خلا قدر كبير من هجائه من تلك المعاني فوجدناه يلجأ إلى أساليب أخرى في صياغة معاني الهجاء ، كذم المهجو ببعض الصفات المعنوية الممقوتة كالبلخل والجبن والغدر ، أو التعبير بالكفر وغير ذلك من المعاني ، لكن ما يسترعي الانتباه هو ازدياد المعاني المقذعة في شعره الإسلامي عما كانت في شعره الجاهلي مع ما قدمنا من نهى الإسلام عن الفحش والإقذاع في القول .

وقد تضمنت معاني الإقذاع عند حسان كثيرا من الجوانب التي نجد لها شبيها في نقائص العصر الأموي ، فكان أن وجدنا من تلك المعاني في شعره ذكر الفروج والعورات ، والمعاني المتعلقة بمعاشرة الرجل للمرأة ، والنيل من الزوجات والأمهات ، وقذف رجال الكفار ونسائهم بالزنا ووسمهم بالفجور ، وغير ذلك من المعاني التي تدور في هذا الفلك .

ونحن في هذه الدراسة لن نقوم بالخوض في تلك المعاني ولا التصريح بها ، لكننا قمنا باستقصائها في ديوان حسان بن ثابت ، وأحلنا إليها هناك عن طريق الجدول الآتي الذي يوضح العمود الأول منه رقم الصفحة التي وردت فيها القصيدة ، ويوضح العمود الثاني رقم/ أرقام الأبيات التي وردت فيها المعاني المقذعة :



جدول (١٧) : المعاني المقذعة في شعر حسان بن ثابت في الإسلام

الصفحة	رقم البيت/الأبيات	الصفحة	رقم البيت/الأبيات
٣٠	٢٥	٣٣٦	٨
٤٠	١٥	٣٤٢	٣+٢
٦٨	٢٢	٣٤٦	١٣+٨+٧
١٣٥	٥	٣٤٨	٩+٨+٧
١٤٥	٣+٢	٣٥١	٣+٢+١
١٤٩	٢	٣٥٣	٩+٥
١٥٥	٣+٢+١	٣٥٧	٨+٥+٣+٢
١٥٧	٢+١	٣٥٨	٢+١
١٦٣	٣+٢+١	٣٦٢	٥+٣
١٧٠	٤+٣+٢+١	٣٦٤	٤+٢+٢
١٧١	٢+١	٣٧٥	٣+٢
١٧١	٣+٢+١	٣٨٠	٣+٢+١

١٧٣	٧+٦	٣٨١	٣+٢
١٨٧	٩	٣٨٤	٦+٥+٢
١٨٩	٤	٣٩٦	٦+٥+٤+٣+٢+١
٢١٦	٥	٣٩٧	٥+٤+٣+٢+١
٢٢٩	٣+٢+١	٤٠٠	٢+١
٢٥٨	٦+٥	٤٠٢	٦
٢٦١	٣	٤٠٨	٢+١
٢٦٢	٤	٤٠٩	٢+١
٢٦٣	٥+٤+٣	٤١٩	٣+٢+١
٢٨٧	١	٤٤٠	٤
٢٩٧	٢+١	٤٤٤	٤
٣٣٥	٣	٥١٩	١

وقد مر بنا أن الرسول ﷺ كان يسمع أقوال شعراء المشركين ورد شعراء المسلمين عليه ، لكننا نظن أنه عليه السلام لم يكن يسمع مثل تلك الأشعار المقذعة التي أشرنا إلى معانيها ، ولا كان أحد من الصحابة يتجرأ على أن ينشد مثل تلك الأشعار بين يديه هيبه وإجلالا ، ولا يعني اهتمامه بالشعر وتشجيعه عليه أنه كان لا يغادر بيتا شعريا قيل إلا سمعه ، فلعل اهتمامه ذلك كان على نحو عام ، أي أنه يهتم بالشعر الذي قيل في الأحداث العامة الكبيرة كشعر الغزوات ، وأما المناوشات الصغيرة بين الشعراء والمهاجرة المقذعة ، فمن المستبعد جدا أنه كان عليه السلام يسمعها .

لكن من المؤكد أنه ﷺ كان قد نُميَ إليه خبر مثل تلك الأشعار ، لذلك رأيناه يقول مرشدا للشعراء عامة : " إن أخوا لكم لا يقولُ الرِّفَثَ ، يعني بذلك عبد الله بن رَوَاحَةَ ... " <sup>(١)</sup> . وقد كان يعلم حسان بغض الرسول ﷺ لهذا النوع من الهجاء ، ومع كثرة تلك الإشارات التي أثبتناها من شعره كان حسان يرى نفسه مقتصدا في كل ما أقذع ، وليس يمنعه من التزيد في تلك المعاني إلا الرسول ﷺ ، وفي ذلك يقول بعد أن أقذع إقذاعا شديدا في ثلاثة أبيات من قصيدة هجا فيها مشركي قريش :

لولا النَّبِيُّ وَقَوْلُ الْحَقِّ مَعْصِبَةٌ      لما تَرَكْتُ لَكُمْ أُنْثَى وَلَا ذَكَرًا<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> رواه البخاري ، ج ٤ ، ص ٧٤ . والرفث : الباطل والفاحش من القول .

وبعدّنا إلى الجدول الذي أثبتناه يتبين لنا قدر كبير من القطع الشعرية التي اشتملت على معانٍ مقذعة في شعر حسان ، فقد بلغ عدد تلك القطع ثمانيا وأربعين قطعة ، ضمت مئة وبيتين شعريين . ويمكن - من وجهة نظري - أن نعد مثل هذا الأمر ظاهرة في شعر حسان جديرة بالدراسة ، غير أنني لم أجد - في ما علمت - أحدا ممن درس شعر حسان قد بحث في ذلك . ولنا بعد كل ما سبق بيانه أن نسأل : كيف يُفسّر وجود كل تلك المعاني المقذعة والألفاظ في شعر شاعر الرسول ﷺ ولسان دعوته الذائد عنها ؟

وأنا أقدم لذلك مجموعة من التعليقات تُفسّر - منفردة أو مجتمعة - هذه الظاهرة في شعر حسان فأقول :

— إن حسان بن ثابت على ما بلغه من مكانة كبيرة في الإسلام ، وفي نفس رسول الله ﷺ حتى بشره في بعض الأثر بالجنة ، هو قبل كل شيء شاعر يعرض له ما يعرض للشعراء عامة من المعاني مقذعة وغير مقذعة ، وإذا كان الجدول السابق قد أظهر قدرا من المعاني المقذعة ، فإن جل شعره في الهجاء قد خلا من تلك المعاني ، فنسبة القطع الشعرية التي اشتملت على تلك المعاني قد بلغت تقريبا ١٣% من مجموع تلك القطع البالغ ثلاثمائة واثنين وسبعين قطعة ، وهي نسبة - وإن عدت كثيرة - في شعر شاعر مثل حسان إلا أنها لم تغلب على شعره كله على الرغم من أنها تعد ظاهرة في شعره .

— إن حسان بن ثابت كان من مدمني الشراب ومجالس اللهو في الجاهلية ومن الوصافين لذلك ، وقد أثرت تلك المجالس على نحو ما في معانيه الجاهلية ، فوجدنا فيها قدرا من الإقذاع في المعاني ، وإن هذه المعاني قد انتقلت - على الرغم من إسلامه - إلى شعره الإسلامي ، فغلبه لسائه عليها ، خاصة أنه قال كل تلك المعاني المقذعة في أثناء هجائه ، وهو أمر يمتلك الشاعر فيه الغضب ، ولا يملك نفسه معه .

— نلاحظ أن معظم القطع الشعرية المتضمنة تلك المعاني كانت في ديوان حسان بن ثابت وزيادات هذا الديوان الملحقة به ، ومع أن كثيرا من تلك المعاني قد قيلت في هجاء أعداء الإسلام ، وفي المواجهات بين الطرفين في زمن الرسول ﷺ فإن كتب السيرة النبوية لم تورد إلا قلة قليلة من تلك المعاني .

(١) انظر البيت والقصيدة وخبرها في ديوان حسان، ج١، ص٢٤٦، وانظر نحو المعنى الذي ورد في هذا البيت أبياتا أخر في ديوانه، ج١، ص٣٤٩.

وإذا كان ذلك يعود في بعض جوانبه إلى أن كُتِّبَت السيرة قد أُسْقِطُوا كثيراً من أشعار المهاجرين والأنصار التي قيلت في تلك المعاني تأثماً من نقلها ، بسبب ما فيها من الإقذاع ، فإن هؤلاء الكتاب من جانب آخر قد أنكروا نسبة بعض قطع شعرية لحسان وغير حسان مما تضمنت معاني مقذعة أو لم تتضمن ، وهذا يشي بأن هناك قطعاً شعرية كثيرة منحوالة على حسان بن ثابت . ويؤكد هذا الأمر ابن سلام الجمحي حين يقول في حسان : "وهو كثير الشعر جيدة ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش واستبَّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنْقَى" (١) .

ومن غير المستبعد - والأمر كذلك - أن يكون قد حُمِلَ على حسان قطعٌ شعرية تضمنت معاني مقذعة . ويوهم قول ابن سلام الأنف أن قريشاً هي التي حملت على حسان تلك الأشعار ، وليس كذلك ، فكثير من أشعاره ومعانيه المقذعة هي في هجاء قريش حين كانت على الكفر ، وقد تكون الأوس والخزرج هي التي حملت على شعره ما ليس منه ، وهذا يتوافق مع قول ابن سلام الجمحي : فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا في الأشعار التي قيلت (٢) .

(١) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٢١٥ . وتعاضهت ، من العضه والعضيهه ، قال الخليل : العضيهه : الإفك والبُهتان والقول الزور . وأعضهت إعضاهها أي أتيت بمُنكر ( انظر الخليل بن أحمد ، كتاب العين ( مرتباً هجائياً ) ، مادة "عضه" ) ، واستبَّت : من السب ، وهو الشتم والملاحاة ، أي أنها سبَّت غيرها وسبَّت .

(٢) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٤٦ .

## خاتمة

وبعد ، فقد تناولت هذه الأطروحة بالدرس شعر قبيلتي الأوس والخزرج في الجاهلية وصدر الإسلام. وهو تناول كشف عن نسب هاتين القبيلتين بشيء من التفصيل ، وبين أماكن سُكناهما وتحركهما ، والأحداث التي شاركتا فيها مما كان له صدى واسع في الشعر على ما رأينا.

وقد أثبتت هذه الدراسة ثلاثة جداول تلخص نسب هاتين القبيلتين ، كما أثبتت خمس خرائط تبين موقع هاتين القبيلتين في الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده . وفي موضوع " الشعر في الأوس والخزرج " ألقت هذه الدراسة الضوء على حال الشعر في هاتين القبيلتين مفصلة القول في مصادر شعرهما جاهليا وإسلاميا ، داخل الدواوين وخارجها ، موضحة ذلك كله بستة من الجداول الإحصائية ، كما عقدت الدراسة مقارنة بينهما في مقدار الشعر ، وبيّنت القيمة التاريخية لهذا الشعر .

وفي مضمون هذا الشعر بحثت الدراسة في موضوعات الشعر الجاهلي عند شعراء هاتين القبيلتين: في القضايا القبلية التي تشكل جل أشعارهم وتعبّر عن هموم القبيلة، وروح الجماعة، وفي القضايا الفردية التي تتناول هموم الأفراد الخاصة بمعزل عن تلك العصبية، وهي

نظرات خاصة لشعرائهم تعبر عما يعتل في نفوسهم تجاه بعض الموضوعات ، كموقفهم من المرأة والخمر والميسر والموت. كما بينت الدراسة على نحو مفصل علاقة الأوس والخزرج بيهود يثرب ، وصدى ذلك في أشعارهما .

أما مضمون شعرهما في صدر الإسلام فكثير ، غير أن هذه الدراسة قد اختارت أظهر موضوعات هذا العصر وأخطرها وأكثرها دورانا في شعر القوم . وقد تناولت الدراسة مضمون الشعر في هذا العصر على مرحلتين : الأولى عصر الرسول ﷺ ، وفيه تناولت دور شعراء الأوس والخزرج في الدفاع عن الرسول ﷺ ودعوته ، ووصف غزواته . أما المرحلة الثانية فهي عصر الخلفاء الراشدين ، وفيه تناولت موقفهم من الخلافة ، وموقفهم من عثمان ومقتله ، وموقفهم من حرب علي ومعاوية .

أما الدراسة الفنية فتناولت أربعة موضوعات فصل القول فيها على نحو استقصائي غالبا ، فتناولت بناء القصيدة في شعرهم ، والوزن والقافية ، والألفاظ والتراكيب ، والمعاني . وقد دعت هذه الدراسة القول في ذلك كله بسبعة جداول إحصائية تفصيلية ، خرجت من قراءاتها بعدد من النتائج .

والحق أن هذه الدراسة لم تكن لتستوعب كل الجوانب في شعر هاتين القبيلتين ، ولا أن تقف على كل ما قالوه وتتناوله بالدرس المتأن ، ففي كثير من مضامين هذا الشعر وفنياته مجالات خصبة تصلح لدراسات مستقلة .

وقد تناولت هذه الدراسة بالدرس شعر الأوس والخزرج تناولاً تمثل في ما يلي :

- تفصيل القول في مصادر شعر القبيلتين .
- بيان علاقة الأوس والخزرج بيهود يثرب من خلال شعر هاتين القبيلتين ، مع بيان نظرة شعراء الأوس والخزرج إلى يهود ، وموقفهم العام منهم .
- بيان موقف الشعراء من بعض أحداث عصر صدر الإسلام كالخلافة وفتنة عثمان وحرب علي ومعاوية . وهي موضوعات ثنوت تاريخيا قديما وحديثا ، غير أن هذه الدراسة قد سلطت الضوء على تلك الأحداث عن طريق قراءة أشعار الأنصار خاصة .
- وصف عدد من الظواهر في شعر الأوس والخزرج وتحليلها وتقديم تعليقات لها ، مثل وجود المعاني والألفاظ المقذعة في شعر حسان بن ثابت الإسلامي ، وقلة المنظوم على المنهوك والمجزوء في شعر القوم ، وكثرة النظم على بحر المنسرح خاصة ، وقلة النظم على بحر الرجز عند عامة شعرائهم وكثرته عند عبدالله بن رواحة خاصة .

- دخلت هذه الدراسة مدخلا طريفا في تناول حروف الروي في شعر الأوس والخزرج ، حين تناولت الأسباب التي أدت إلى كثرة النظم على روي دون آخر مدعمة كل ما ذهبت إليه بالمثل الشعري .
- المقابلة بين معاني كعب بن مالك الإسلامية والآيات القرآنية المتأثرة بها هذه المعاني ، وهو مدخل طريف يصلح أن يجعل التناول فيه على هذا النحو نواة لدراسات مستقلة في شعر الأوس والخزرج وغيرهم من الشعراء الإسلاميين .
- لعل موضوع " التقليد والتجديد في شعرهم الجاهلي " يكون قد فتح المجال لدراسات مستقبلية حداثية في "التنصص" تناول شعر الأوس والخزرج ، وهو ما لم تقم به هذه الدراسة لاختلاف منهج التناول فيها .
- إن استخدام المنهج الإحصائي في الدرس إلى جانب المناهج الأخرى التي نصصنا عليها في مقدمة هذه الدراسة ، وما أثبتته الدراسة من قراءات لجداول إحصائية بلغت أربعة عشر جدولا قد أغنى البحث ، وقدم صورة أوضح للقضية المطروقة
- استخدمت الدراسة الطرائق الحديثة في البحث عن المعلومة ، فقد استعانت بشبكة الإنترنت وما تضم من مقدار هائل من المعلومات المتمثلة في أمهات الكتب الإلكترونية التي تعدها مواقع موثوقة ، كما استعانت بأقراص الكتب الإلكترونية الصادرة عن دور متخصصة في هذا المجال . ومثل تلك الكتب قد ساعدت هذه الدراسة في الوصول السريع إلى المعلومة المطلوبة ، إذ إن ثمة موضوعات كان من الصعب إنجازها دون ذلك النوع من البحث مثل موضوع " التقليد والتجديد في شعرهم الجاهلي " . كما ساعدت المواقع الإلكترونية على الشبكة هذه الدراسة في الحصول على أحدث الخرائط لقبيلتي الأوس والخزرج ، أعدتها جهات متخصصة في المملكة العربية السعودية . هذا ، وقد كان الكتاب المطبوع هو المونل الذي يصار إليه في كل ذلك النوع من البحث ، لنقابل فيه المعلومة المستخرجة .
- وأخيرا ، فلم تكن هذه الدراسة بدعا من الدراسات ، غير أنني أرجو تكون قد قدمت جديدا في منهجية تناولها ، وفي أوردت من موضوعات ، وأن تكون أضافت ولو قليلا إلى ما سبقها من دراسات .

## المصادر والمراجع

الآمدى، أبو القاسم الحسن بن بشر، (ت٣٧٠هـ). **المؤتلف والمختلف**، ١م، (تحقيق عبدالستار فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١م .

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد، (ت٦٣٣هـ) :

- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ٨م، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩م.
- **الكامل**، ط١، ٤م، (تحقيق: خليل مأمون شيجا)، دار المعرفة، بيروت، ، ٢٠٠٢م.
- **النهاية في غريب الحديث**، ٢م، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٢٣هـ .

أحمد بن حنبل، **المسند**، ٦م، (تحقيق أحمد محمد شاكر)، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٥م.

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، (ت٣٧٠هـ). **تهذيب اللغة**، ٨م، (تحقيق عبد السلام هارون)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.

أسامة بن منقذ، **البديع في البديع في نقد الشعر**، (تحقيق عبد علي مهنا)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

الأسد، ناصر الدين (١٩٦٢). **مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية**. ط٢. القاهرة : دار المعارف .

الأسود الغندجاني، (ت٤٢٨هـ). **فرحة الأديب**، ٢م، (تحقيق محمد علي سلطاني)، دار النبراس، دمشق، ١٩٨١.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، (ت٣٥٦). **الأغاني** (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية)، ٢٥م، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٣٨٣ هـ .



الأعشى، (ت ٧ هـ) . ديوانه، ط ٧ ، ام ، (تحقيق محمد محمد حسين)، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٨٣ م .

امرؤ القيس، (ت ؟؟) . ديوانه ، ط ١ ، ام ، (تحقيق جماعة من الأدباء) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣ .

بابتى ، عزيزة فوال ، (١٩٩٨) . معجم الشعراء الجاهليين . ط ١ . بيروت : دار صادر .

باجودة ، حسن محمد ، (١٩٧٣) . ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي . القاهرة : مكتبة دار التراث .

البحثري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد ، (ت ٢٨٤) . ديوانه ، ط ٢ ، ٤م ، (تحقيق : حسن كامل الصيرفي)، دار المعارف ، القاهرة ، ، ١٩٧٧ م .

البخاري ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل ، (ت ٢٥٦) . صحيح البخاري ، ٤م ، دار المعرفة ، بيروت .

بروكلمان، كارل، (١٩٦٩) . تاريخ الأدب العربي . ترجمة عبد الحليم النجار . ط ٤ . القاهرة : دار المعارف .

البطلْيوسى ، أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد ، (ت ٥٢١ هـ) . الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، ام ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣ م

البطلْيوسى ، أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد ، (ت ٥٢١ هـ) . الحل في إصلاح الخل من كتاب الجمل ، ام ، (تحقيق سعيد عبد الكريم السعودي) ، وزارة الثقافة و الإعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ م .

البغدادي ، إسماعيل باشا الباباني ، (ت ١٩٢٠). **هدية العارفين** ، ٢م ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٥١م.

البغدادي ، عبد القادر ، (ت ١٠٩٣هـ) . **خزانة الأدب** ، ط ٣ ، ١٣م ، (تحقيق عبدالسلام هارون) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ، ١٩٨٩م.

البكري ، صالح والعشاش ، الطيّب ، (١٩٨٧) . **أحيحة بن الجلاح** : أخباره وأشعاره . **حوليات الجامعة التونسية** ، (٢٦) ، ١٣-٤٢.

البكري ، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز ، (ت ٤٨٧هـ)  
- **سيمط اللآلى** ، ٢م ، (تحقيق عبدالعزيز الميمني) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦م.

- **معجم ما استعجم** ، ط ٣ ، ٢م ، (تحقيق مصطفى السقا) ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٣م.

البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر ، (٢٧٩هـ) . **أنساب الأشراف** ، ٢م ، (تحقيق: إحسان عباس) ، فرانكس شتايز بفيسبادن ، بيروت ، ١٩٧٩م.

البيهقي ، إبراهيم بن محمد ، (ت ٣٢٠هـ) . **المحاسن والمساوى** ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، (د.ت).

البيهقي ، أبو بكر أحمد بن حسين ، (٤٥٨هـ) **شُعَب الإيمان** ، تحقيق بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .

الترمذي ، أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر (ت ٢٩٥هـ) . **سنن الترمذي** ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

التتوخي ، أبو يعلى ، القوافي ، تحقيق: عمر الأسعد ومحي الدين رمضان ، دار الإرشاد ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٠ .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، (ت ٢٥٥هـ)

- الأمل والمأمول ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٨م
- الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون ، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٦٩م .
- البيان والتبيين ،ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥م.
- البُرْصَان والعُرجَان والعُميَان والحُولَان، تحقيق محمدمرسي الخولي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢م .
- رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ١٩٧٩م .
- المحاسن و الأضداد ،تحقيق عاصم عيتاني ، دار إحياء العلوم ،بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٦م .

الجرجاني ،علي بن عبدالعزيز، (ت ٣٩٢هـ) . الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار القلم ، بيروت، ١٩٦٦م .

جرير بن عطية الخطفى،(ت ١١٠هـ). ديوانه ، تحقيق : عمر فاروق الطباع ، شركة دار الأرقم بيروت، ١٩٩٧م.

جاءد المولى ، محمد والبجاوي ، علي وإبراهيم ، محم أبو الفضل ،(د .ت). أيام العرب في الجاهلية . القاهرة : المكتبة الإسلامية .

الجواليقي ، شرح أدب الكاتب ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ .

ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن أبي الحسن ، (ت ٦٥٣هـ) . زاد المسير في علم التفسير ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ .

الجوهري ، أبو نصر إسماعيل بن حماد ، (ت٣٩٣) .الصحاح ( تاج اللغة و صحاح العربية) ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٨٤ .

حاتم الطائي ،(ت ؟؟) . ديوانه ، تحقيق: كرم البستاني ، دار المسيرة ، بيروت، ١٩٨٢ م .

حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون ، مكتبة المثنى، بغداد ، ١٩٠٠م.

حافظ وهبة ،(١٩٦١) . جزيرة العرب في القرن العشرين . ط٤ . مكتبة النهضة المصرية : القاهرة .

الحاكم، محمد بن عبدالله،(ت٤٠٥هـ) . المستدرک علی الصحیحین ، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب ، ١٩٧٠م.

ابن حجر العسقلاني ، ابو الفضل أحمد بن علي ، (ت ٨٥٢):

- فتح الباري ،دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩هـ .
- الإصابة ، تحقيق : علي محمد البحاوي ، دار الجيل بيروت ، ١٤١٢هـ .

ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد،(٤٥٦هـ) .جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٩٨٣ م .

الحديثي ، بهجة ، (١٩٩١) . أمية بن أبي الصلت :حياته وشعره . ط٢ . بغداد :دار الشؤون الثقافية العامة.

حسان بن ثابت ،(ت٥٤هـ) .ديوانه ، تحقيق : وليد عرفات ،دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤م.

حسين عطوان :

- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٧٠م.

- مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧م.

ابن حمدون ، أبو المعالي محمد بن أبي سعد ، (ت ٥٦٢ هـ) . التذكرة الحمدونية ، تحقيق: إحسان عباس ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣م

الحموي ، ياقوت بن عبدالله ، (ت ٦٢٦ هـ) . معجم الأدباء ، تحقيق عمر فاروق الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩م.

حميد آدم ثويني ، (١٩٨٥) . عمرو بن الإطنابة الخزرجي: حياته وما تبقى من شعره . مجلة المورد . ١٤ (٢) ، ص ٨١-١٠٤ .

الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، (ت ٩٠٠ هـ) . الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٤م .

الحنفي ، جلال ، (١٩٩١) . العروض : تهذيبه وإعادة تدوينه . ط ٣ . بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة.

الحوفي ، أحمد ، (د.ت) . الحياة العربية من الشعر الجاهلي . ط ٣ . القاهرة : مكتبة نهضة مصر

الخالديان ، سعيد ومحمد ابنا هاشم ابنا وعلة . الأشباه و النظائر من أشعار المتقدمين و الجاهليين و المخضرمين ، لجنة التأليف و الترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

الخرائطي ، محمد بن جعفر ، (ت ٣٢٧ هـ) . هواتف الجنان ، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز ، بيروت ، ١٩٨٩م .

الخطراوي ، محمد العيد ، (١٤٠٠ هـ) . شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج . بيروت : مؤسسة علوم القرآن .

ابن خلّكان ، أحمد بن محمد ، (ت ٧٨١هـ). **وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ** ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨م .

خليف ، يوسف ، ( ١٩٨١ ) . **دراسات في الشعر الجاهلي** . القاهرة : مكتبة غريب .

الخنساء ، تماضر بنت عمرو ، (ت ٢٣هـ). **ديوانها** ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، (د.ت) .

الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد ، (ت ٥٠٢هـ) . **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** ، تحقيق : عمر الطباع ، دار الأرقم ، بيروت ، ١٩٩٩م .

الرافعي القزويني ، محمد بن محمد ، (ت ٦٣٤هـ) . **التدوين في اخبار قزوين** ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧م .

الربيعي، عيسى بن إبراهيم ، (ت ؟؟). **نظام الغريب**، تحقيق : بولس برونله ، مطبعة هندية ، القاهرة ، ١٩٠٠م .

الزبيدي ، أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني ، مرتضى محمد بن محمد الحسيني ، (ت ١٢٠٥هـ) . **تاج العروس من جواهر القاموس** ، تحقيق : عبد الستار فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٥م .

الزبيدي ، مصعب بن عبدالله ، (ت ٢٣٦هـ). **نسب قريش** ، تحقيق : بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣م .

الزجاجي ، عبد الحرم بن إسحق ، (ت ٣٣٧هـ) . **أخبار أبي القاسم الزجاجي** ، تحقيق عبدالحسين المبارك ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠م .

الزمخشري ، محمود بن عمر ، (ت ٥٣٨هـ) :

- **المستقصى في أمثال العرب** ، دار الكتب العلمية ، بيروت: ١٩٧٧م .

- أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- القسطاس في علم العروض، تحقيق فخرالدين قباوة ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٩ م .

الزوري، راكان غصاب ، (٢٠٠١). **يهود يثرب (المدينة)** . رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية ، عمان ، الأردن .

ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحين بن رشيق ، (ت ٤٦٣هـ) . **العمدة في محاسن الشعر وآدابه و نقده** ، تحقيق عفيف نايف حاطوم ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م.

ابن دريد ، محمد بن الحسن ، (ت ٣٢١هـ) :

- **الاشتقاق** ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بمصر والمكتب التجاري ببغداد ومكتبة المتنى ببغداد ، ١٩٥٨ م.
- **جمهرة اللغة** ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٥ م .

السامرائي ، إبراهيم ، (١٩٨٤). **من الضائع من معجم الشعراء للمرزباني** . ط ١. بيروت : مؤسسة الرسالة .

ابن السائب الكلبي ، هشام بن محمد ، (ت ٢٠٢هـ) :

- **الأصنام** ، تحقيق: أحمد زكي ، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٢٤ م.

- **نسب معد واليمن الكبير**، تحقيق ناجي حسن، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٣ م.

- **جمهرة النسب** ، تحقيق : ناجي حسن ، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٦ م.

ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ م .

ابن سعيد الأندلسي، **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**، تحقيق: د. نصرت عبدالرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢ م.

ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤ م.

سلمة الصُّحَّاري، **الأسباب**، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ١٩٩٠ م.

السمهودي، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، تحقيق: قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان، مكة المكرمة والمدينة المنورة، ط١، ٢٠٠١ م.

ابن سيده، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق: مصطفى السقا وحسين نصار، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٨ م.

الشريف المرتضى، **طيف الخيال**، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٢ م.

شليبي، عبد المنعم، (١٩٨٠). **ديوان عنتره**. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

الشوكانبي، **فتح القدير**، دار الفكر، القاهرة، (د.ت.).

ضيف، شوقي، (د.ت.). **العصر الجاهلي**. ط٧. دار القاهرة: المعارف.

الصائغ، عبد الله، (١٩٨٢). **الزمن عند الشعراء الجاهليين العرب قبل الإسلام**. بغداد: دار الرشيد.

الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠ م.

ابن طباطبغا، **عيار الشعر**، تحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢ م.



الطبراني :

- المعجم الأوسط ، تحقيق: محمود طحان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٩٨٠ م .
- المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ، ط ٢ ، ١٩٨٣ م .

الطبري :

- تاريخ الطبري ( تاريخ الأمم والملوك ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٧٢ م .

عاشور، محمد الطاهر ،(د.ت).ديوان بشار بن برد . القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر .

عباس ، إحسان ، (١٩٦٢) . ديوان لبـيد بن ربيعة العامري . الكويت : وزارة الإرشاد والأنباء

ابن عبد البر :

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، القاهرة .
- الإنباه على قبائل الرواة ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق : محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت ،(د.ت).

عبد الرحمن ، عفيف ، (١٩٩٨) .ديوان شعر أيام العرب .ط١.بيروت: دار صادر .

عبد الرحمن ، عفيف ، (١٩٨٤). الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي . ط١. بيروت : دار الأندلس .

عبد الرحمن ، عفيف ، (١٩٩٦) . معجم الشعراء (من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي) . ط١. بيروت : دار المناهل .

ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٠٠ م .

ابن أبي عون ، التشبيهات ، تحقيق : محمد عبد المعيد خان (د . ن) ، ١٩٥٠ م.

الفرهيدي ، الخليل بن أحمد ، (ت ١٧٠ هـ) . كتاب العين (مرتبا على حروف المعجم)، تحقيق: عبد الحميد هندawi، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠٠٣ م .

الفيروز آبادي :

- القاموس المحيط، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ط٢، ، القاهرة ، ١٩٥٢ م.

- المغانم المطابة في معالم طابة ، تحقيق : حمد لجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ط١ ، ١٩٦٩ م.

محمد بن أبي الإصبع ، تحرير التعبير في صناعة الشعر و النثر ، تحقيق : محمد حفني شرف ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

المغربي ، عبد القادر (١٩٢٢) . أحيحة بن الجلاح . مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق ، الجزء الأول ، عدد ٢ ، ١٩٢٢ م.

المنجد ، صلاح الدين، (١٩٧٠) . ديوان أبي محجن الثقفي . بيروت : دار الكتاب الجديد .

نصر بن مزاحم، (ت ؟؟) . **وقعة صفين** ، تحقيق عبدالسلام هارون ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٢م.

النص ، إحسان ، (١٩٧٣) . **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي** . دمشق : دار الفكر .

أبو نواس ، الحسن بن هانئ ، (ت ١٩٨هـ) . **ديوانه** ، تحقيق عمر فاروق الطباع ، شركة دار الارقم ، بيروت ، ١٩٩٨م.

النويري ، أحمد بن عبدالوهاب ، (ت ٧٣٣هـ) . **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، تحقيق : يوسف

الطويل ، وعلي محمد هاشم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م.

ابن هشام الحميري المعافري ، (ت ٢١٣هـ) . **السيرة النبوية** ، تحقيق : نخبة من العلماء ، دار الفكر ، القاهرة ، (د.ت).

ابن هشام الأنصاري :

- **أوضح المسالك على ألفية ابن مالك** ، دار الفكر ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٧٤م.
- **مغني اللبيب (وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير)** ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، (د.ت) .

أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله ، (ت ٣٨٢هـ) :

- **كتاب الصناعتين** ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، شركة عيسى البابي الحلبي القاهرة ، ١٩٧١ .
- **ديوان المعاني** ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠م.
- **جمهرة الأمثال** ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطايش ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٣م.

هيكل ، محمد حسين ، (د ، ت) . **حياة محمد** . القاهرة : أوراق عربية للنشر والتوزيع

الواقدي ، محمد بن واقد ، (ت ٢٠٧هـ) . المغازي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

الوزير المغربي، الحسين بن علي ، (ت ٤١٨هـ) . الإيناس في علم الأنساب ، تحقق :حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٨٠م .

الوشّاء ، محمد بن أحمد ، (ت ٣٢٥) .المُؤَشَّى(أو الظرف والظرفاء) ، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٥م .

ولفنسون ، إسرائيل ،(١٩٢٧) .تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام .القاهرة .

يحيى الجبوري ، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١م .

اليقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠م .

يوسف ، حسني عبد الجليل ،(١٩٩٨) .عالم المرأة في الشعر الجاهلي .ط ١ . القاهرة : الدار الثقافية للنشر .

**THE POETRY IN AL-AWS AND AL - KHAZRAJ TRIBES IN THE  
ISLAMIC AND PRE - ISLAMIC PERIOD  
(A STUDY OF THEMES AND TECHNIQUES)**

By

**Ghaleb Ibrahim Ali Shraim**

Supervisor

**Dr.Yaseen Yousuf Ayesh**

Co - Supervisor

**Dr. Hamdi Mahmoud Mansour**

**ABSTRACT**

This study utilized (The Poetry in Al-aws and Al - khazraj Tribes in the Islamic and Pre - Islamic Period : A Study of Themes and Techniques).

Al-aws and Al-khazraj Tribes back to Al-azd Arabian Tribe which lived in Yamen area for long time before some of their phratries left that area, therefore Al-aws and Al-khazraj Tribes stabled in Yathreb city .

Both tribes played a major role in the events and wars , specially in the wars between them in the Pre-Islamic Period , but in Islam the two tribes co-operated in housing the Moslems migrants from Mecca , and supported the prophet of Islam , and employ the poetry to standing up for Islam .

All that events created a distinguished poetry in form and theme that describes the evens in both, and created different poetry themes caused by that events ,and gave it a technical construction which considered an important description for the poetry of those tribes .

In the theme aspect this study focused on many subjects related to that tribes and their poetry like :affinity , territories , wars ,their role in Islam , the quantity, and the themes of poetry. But in the technical aspect we focused on the poem construction , and the main techniques with respect to the language wording, iamb, roy , and the forms of imitation and innovation in the meanings .

I divided this study into four chapters ; chapter one talks about the affinity of both tribes , and main phratries , summarizing that in three tables from their root Qahtan through Al-azd Tribe , finishing with the most important parts. This chapter attains also describing the main home of those tribes (Yathreb), and its other areas supported with five maps explaining the living places in Islam and pre- Islamic period, then I finished this chapter with the famous wars between them in pre Islamic period .

In the second chapter “ The poetry in Al-aws& Al-khazraj” I mentioned the poetry with respect to ; the sources , the quantity, and historical value of their poetry .

However , the third chapter specialized to talk about the themes of the pre-Islamic period like the tribal party spirit , the relation between the two tribes and Jews, their situation from other cases like wine , gambling , death and woman , in addition to the most important aspects of the Islam like Aljihad, The elegizing of the martyrs, and the situation of poets from Al-khelafeh ,killing Othman Ibin Affan and the wars between Ali and Muaweya .

The last chapter attained the technical study which explain the poem construction, iamb, roy , the language wording, and the forms of imitation and innovation in the meanings .we noticed that these four chapters sizes was not same , that because the nature of each one .

This study had tried to gather between more than method in taking the poetry of both tribes . Then some of the phenomena put the historical method in operation for following by the events which the historians proved to interpret and disclosure of the factors that led to it as parity when dealing with the killing of Othman and the war between Ali and Muaweya .

In the other side the study used the social method to know the reactions of the society in poetry and to explain the poets attitudes from the cases in Islam and pre-Islam , beside that this method used to clear some aspects of strife ,either between them or with other tribes, specially jewish tribes in Yathreb, in addition to their wars to support Islam in Islamic period .

In addition to that , the study used the statistics , analyzation , and description methods in explaining some phenomenases reaching to the reasons and factors which control them , and extract the results through gathering, organizing and analizing data ,as this study did in the technical aspect .